



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

مغرب البحر المتوسط في العصر الموحد

دراسة سياسية

٥١٥-٦٦٨ هـ / ١١٢١-١٢٦٩ م

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالب

بلال أحمد يوسف

إشراف

الأستاذ الدكتور عمار النهار

العام الدراسي: ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ^{لَقَدْ} ﴾

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك

ولا يطيب النهار إلا بطاعتك

ولا تطيب الجنة إلا برويتك

سبحانك لا حول ولا قوة إلا بك

إنك أنت الغفور الرحيم

إهداء

إلى من بَلَغَ الرسالة وأدى الأمانة نبى الرحمة سيدنا محمد ﷺ
إلى روح والدي العزيز طيّب الله ثراه وأسكنه فسيح جنانه.
إلى نبع الحنان وأعلى مخلوق على قلبي أُمي الحبيبة.
إلى من قاسمني طريقي في مسيرة حياتي زوجتي العزيزة.
إلى أفلاذ كبدي طفلاي الحبيبان أحمد ومازن.
إلى ملاكي الطاهر وعطر الياسمين الدمشقي طفلتي لين.
إلى من شاركني حزن أُمي واستمدت منهم قوتي وإصراري
رياحين الحياة إخوتي الأعزاء.
إلى النسائم العليّة، والأرواح الطاهرة، والقلوب النقية البيضاء
والأيدي الكريمة التي تعطي دونما مقابل أخواتي العزيزات
إلى جميع الأصدقاء والأحباب والأقارب.
إلى أرواح شهدائنا الأبرار الذين سقطوا فداءً لهذا الوطن المعطاء.

شكر وتقدير

في البداية أشكر الله العلي القدير الذي وفقني لإنجاز هذا العمل، كما و أتوجه بالشكر الجزيل والتقدير إلى أساتذتنا الكرام، الذين كانوا ومازالوا مشاعل نورٍ تضيء دروب معرفتنا، وأخصُّ بالشكر أساتذتي الأفاضل الذين أشرفوا على هذا البحث، و كان لهم فضلاً كبيراً في تقديم النصح والإرشاد والتوجيه، وفي طليعتهم الأستاذ الدكتور المرحوم سهيل زكار تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه، فقد كان أباً معلماً، معطاءً، مقدماً للنصائح والتوجيهات بلا مقابل، وجميع مايتطلبه هذا البحث من المصادر والمراجع في سبيل ارتقاءه والوصول فيه إلى أكمل صورته، وكذلك الأستاذ الدكتور عمار النهار الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث، وهو صاحب الأيدي البيضاء في تقديم النقد البناء، وإعطاء كافة الملاحظات من أجل أن يكون هذا العمل سليماً شكلاً ومضموناً، ومثل ذلك كل الشكر لأساتذتنا الكرام أعضاء اللجنة الذين لم يترددوا في تقديم النصح والعون والنقد الإيجابي لهذا البحث .

كما لا بد من تقديم الشكر الخالص للأساتذة المغاربة الذين بذلوا جهوداً قيمة وهادفة في أبحاثهم حول الحوض الغربي للبحر المتوسط.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدني وقدم لو نصيحة استفدت منها في هذا العمل أو غيره فجزاهم الله عني كل الخير.

ملخص

كان العصر الموحي من أبرز العصور الإسلامية التي شهدتها أرض بلاد الأندلس والمغرب العربي الإسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرون السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، حيث كان هذا العصر من أبرز العصور التي توحدت فيها بلاد المغرب والأندلس تحت راية الحكم العربي الإسلامي الموحي، وشهد الأسطول العربي الإسلامي نشاطاً واضحاً حيث كان امتداداً للتفوق الذي أحرزه العرب المسلمون في ميدان ركوب البحر، ابتداءً من العصر الأموي، وتجلّى ذلك بالازدهار الذي ترافق مع بدايات الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس منذ العصر الأموي بزيادة دور صناعات السفن وأنواعها، وأشكالها محققين بذلك مكاسب كبيرة، مثل فتح بعض الجزر في الحوض الشرقي والغربي للبحر المتوسط مثل قبرص، وكريت، ومالطا وصقلية وقرسقة، وسردينيا، وشبه الجزيرة الإيبيرية المعروفة ببلاد الأندلس وشكلت بلاد المغرب التي فتحت من قبل العرب المسلمين في الحقبة الإسلامية الباكرة إحدى أكثر المصاعب التي واجهت العرب المسلمين الفاتحين الجدد، إذ أنّها كانت أرض جديدة غير معروفة بالنسبة لهم، كما أنّ مساحاتها الشاسعة البعيدة تطلبت جهوداً كبيرة لإتمام فتحها والاستقرار على أراضيها، وتكلل نجاح العرب المسلمين في العصر الأموي بإتمام سيطرتهم وتثبيت أركان الحكم العربي الإسلامي في بلاد المغرب والأندلس، وكما هو معلوم لم تستمر القوة العربية الإسلامية على الوتيرة الثابتة من السيطرة والتحكم في موازين القوى آنذاك انطلاقاً من المشرق حتى بلاد الأندلس، بل كانت هناك مراحل متباينة من المد والجزر التي رافقت القوة العربية الإسلامية، حيث كان شأنها شأن أي دولة أو قوة تزدهر وتزدهر وتذبل وتكمش، ويلاحظ المرء بأن الجانب الغربي أو الحوض الغربي

للبحر المتوسط كان أكثر تفاعلاً سياسياً وعسكرياً بين مجتمعاته، لاسيما أنّ القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بديا حافلين بالتحديات والأحداث السياسية والمتغيرات التي بدأت تفرض ذاتها على بلدان المنطقة، كظهور النشاط البحري لمدن الجمهوريات الإيطالية مثل جنوة وبيزة والبندقية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، واتسع ليشمل الجانب الغربي فيه أيضاً بصورة ملموسة، كما كان تعاقب الدولتين المرابطية والموحدية بعد مرحلة من حكم ملوك الطوائف التي أعقبت تفكك حكم الخلافة الأموية في الأندلس من العوامل المهمة في وضع حدٍ للغارات الإسبانية المسيحية على بلاد الأندلس خاصة وأنّ البلاد عانت كثيراً من مظاهر التفرقة والانقسام في عصر ملوك الطوائف، والحق يقال بأن قيام هاتين الدولتين قد ساعد إلى حدٍ كبير في تدعيم الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، وحماية باقي الممتلكات الأندلسية من السقوط السريع بأيدي الممالك الإسبانية المسيحية التي زادت من شدة هجماتها على مدن الأندلس بحجة حروب الاسترداد مدفوعة بتأييد بابا روما لها، كما أنّ الحملات الصليبية مازالت أمواجاً متلاحقة على بلاد العروبة والإسلام دونما انقطاع مثل السواحل الشامية والمصرية التي نشأت فيها حركة الجهاد الإسلامي والوحدة ضد الوجود الصليبي، من خلال قيام القائد المجاهد عماد الدين زنكي في توحيد بلاد الشام والجزيرة ومصر في جبهة واحدة، ومتابعة مشروع الوحدة على يد ابنه نور الدين زنكي، ومن بعدهم صلاح الدين الأيوبي الذي تابع مسيرة الزنكيين، ونجح في إتمام مشروع الوحدة، وكانت أولى ثمرات هذه الوحدة انتصاره على الصليبيين في حطين كما هو معروف، غير أنّ ذلك لم يؤدِ إلى إيقاف المد الصليبي على سواحل بلاد الشام، واستمرت جهود الصليبيين في محاولة الحفاظ على الممتلكات التي اكتسبوها منذ الحملة الصليبية الأولى لهم على بلاد الشام، وكان ذلك من أولى اهتماماتهم، ولا يغيب عن الالذهان الدور الذي قامت فيه المدن الإيطالية الساحلية في الحروب الصليبية الأولى، من خلال تقديم المعدات

والأساطيل الخاصة بنقل الجنود بالإضافة إلى الأسلحة اللازمة للعمليات العسكرية، على الرغم من أن مدن الجمهوريات الإيطالية قد فضلت العمل في ميدان التجارة في أرجاء المتوسط، و ضربت عرض الحائط قرارات البابا التي تنص على منع الاتجار مع بلاد المسلمين، وفضلت البقاء في ميدان التجارة، ولكن لم يخلُ ذلك من الأعمال الصليبية التي وجدت في هذه المدن تحقيق مصالحها وغاياتها محاولةً في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين تكثيف نشاطها في الحوض الغربي للمتوسط أكثر كما كان في الحوض الشرقي، و قامت بعقد الاتفاقيات والمعاهدات مع بلاد المغرب الإسلامي، ومكنت صلاتها مع حكامه وسلاطينه، وكان العصر الموحي من العصور التاريخية التي شهدت نشاطاً صليبياً واضحاً فيما تعلق بنشاط الممالك الإسبانية مثل مملكة قشتالة وليون وأراغون وقطالونية التي تابعت نشاطها الصليبي في الإغارة على حواضر الإسلام لاسيما الأندلسية منها، مكّمت سلسلة حروب الاسترداد المعروفة من قبل الممالك والإمارات المسيحية، وكان نجاح الموحدين في توحيد بلاد المغرب والأندلس تحت جبهة واحدة قد ساعد إلى حد ما في تدعيم المقاومة العربية الإسلامية في جزيرة الأندلس، كما حمى مدنه من السقوط السريع بيد المسيحيين، واصطبغت الدولة الموحدية كونها من قبائل البربر المغربية بالصبغة البربرية الإسلامية، وكانت محاولة من القبائل البربرية من أجل زعامة بلاد المغرب العربي الإسلامي، وإذا نظر المرء إلى الظروف السياسية والاقتصادية في الفضاء المغربي لدول البحر المتوسط في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بما فيها دولة الخلافة الموحدية لوجد أنّ هناك سلسلة من التحديات السياسية والعسكرية والاقتصادية قد فرضت نفسها في الحوض الغربي للمتوسط، مثل القوة البحرية الكبيرة لمدن الجمهوريات الإيطالية مثل جنوة، وبيزة، والبندقية، التي بدأت تتبوء طليعة القوى البحرية في الحوض الغربي من البحر المتوسط منذ القرنين السادس الهجريين/ الثاني عشر

الميلاديين بعد أن كان الحوض الشرقي للبحر المتوسط مرتعاً خصباً لسياساتها التجارية خصوصاً مدن الساحل الشامي، بالإضافة إلى ممالك إسبانيا المسيحية مثل مملكة قشتالة وليون والبرتغال وقطالونية وبرشلونة، وأسطول مملكة صقلية النورماندية، ومملكة أراغون صاحبة القوة البحرية ذات العلاقات المتميزة مع جزر البليار، وملوك بني غانية وهم من آثار دولة المرابطين الذين بقوا على ولائهم لدولة المرابطين الملتزمين حتى بعد زوال دولتهم، لذلك كانت هناك استراتيجية من قبل الموحدين في استقطاب ملوك بني غانية في بداية حكمهم كونهم كانوا قوة بحرية لا يستهان فيها، وحاجزاً منيعاً عن بلاد المغرب في صد هجمات الأساطيل عن بلاد المغرب الإسلامي، ونجحت دولة الموحدين إلى حد كبير في فرض نفسها كقوة مؤثرة في الحوض الغربي للمتوسط من جهة البر والبحر، وتحقق لها ذلك فقط زمن الخلفاء الأقوياء مثل عبد المؤمن بن علي ٥٢٥-٥٥٨هـ/١١٢٩-١١٦٢م وصولاً إلى المنصور الموحدي ٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٨م، حيث بدأت. تدخل قوة الموحدين بعد معركة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م نفق التراجع والتدهور والانحدار وصولاً إلى الانهيار الكامل في جبهة الأندلس والمغرب، وهذا بالطبع كان له تأثيرات ومتحولات خطيرة على الجبهة الإسلامية خاصة في الأندلس، حيث سقطت أكبر القواعد العربية الإسلامية مثل قرطبة وإشبيلية بيد الإسبان، وتضعضع الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية وعادت. مرحلة جديدة من مراحل دول الطوائف بالظهور من جديد، وقد تمثل ذلك بدولة بني هود في سرقسطة وبني الأحمر في غرناطة، وانتهى الصراع لاحقاً لصالح بني الأحمر في غرناطة، واقتصر الوجود العربي الإسلامي في الأندلس على دولة بني الأحمر النصرية في غرناطة وحولها، بينما تلاشت دولة الموحدين في بلاد المغرب شيئاً فشيئاً لصالح بروز ثلاث أسر حاكمة كونت دويلات حاكمة في المغرب ككل، وهي الأسرة الحفصية في تونس، وملوك بني زيان في المغرب الأوسط، وأسرة بني عبد الحق من ملوك بني مرين في المغرب الأقصى، وستقوم

تلك الدويلات خاصة الحفصيين والمرينيين بأدوار بارزة على صعيد الحياة السياسية و الاقت.صادية فيما بينها من جهة، وبين الممالك المسيحية من جهة أخرى.

ABSTRACT

The Almohad era was one of the most prominent Islamic eras that the land of Andalusia and the Islamic Arab Maghreb witnessed in the western basin of the Mediterranean during the sixth and seventh century AH / twelfth and thirteenth century AD. The Islamic monotheist, and the Arab Islamic fleet witnessed a clear activity as it was an extension of the supremacy that the Muslim Arabs had achieved in the field of sea rides, starting from the Umayyad era, and this was evidenced by the prosperity that accompanied the beginnings of the Arab Islamic conquest of the countries of the Maghreb and Andalusia since the Umayyad era by increasing the role of ship industries , their types, and their shaps, thus achieving great gains, such as opening some islands in the eastern and western basin of the Mediterranean, such as Cyprus, Crete, Malta, Sicily, Cyrus, and Sardinia And the Iberian Peninsula, known as Andalusia, and the Maghreb, which was conquered by the Muslim Arabs in the early Islamic period, constituted one of the most difficult difficulties that faced the new Muslim Arabs, as it was a new land unknown to them, and its vast distant lands required great efforts to complete its conquest and stability on its lands, and the success of the Arab Muslims in the Umayyad era was crowned by completing their control and establishing the pillars of Arab-Islamic rule in the countries of the Maghreb and Andalusia. There are different stages of the ebb and flow that accompanied the Islamic Arab power, as it was like any state or power that boasts, flourishes, withers and shrinks, and one notices that the western side or the western basin of the Mediterranean was the most politically and militarily interactive among its societies, Especially that the fifth and sixth centuries AH / twelfth and thirteenth century AD seemed full of challenges, political events and changes that began to impose themselves on the countries of the region, such as the emergence of maritime activity in the cities of the Italian republics such as Genoa, Pisa and Venice in the eastern and western

basins of the Mediterranean, and expanded to include its western side also in a significant way, and the succession of the Almoravid and Almohad states after a period of rule by the kings of the sects that followed the dissolution of the Umayyad Caliphate rule in Andalusia was one of the important factors in putting an end to the Christian Spanish raids on Andalusia, especially since the country suffered a lot from the manifestations of division and fragmentation in the era of the kings of the sects, In fact, it is said that the establishment of these two states helped greatly in consolidating the Arab and Islamic presence in Andalusia, and protecting the rest of Andalusian possessions from the rapid fall in the hands of the Christian Spanish kingdoms, which increased the intensity of their attacks on the cities of Andalusia under the pretext of the restoration wars driven by the support of the Pope of Rome, and the Crusades Campaigns were still successive waves on the countries of Arabism and Islam without interruption, such as the Levantine and Egyptian coasts in which the Islamic Jihad and Unity Movement arose against the Crusader presence, through the Mujahid leader Imad Al-Din Zangi in uniting the Levant, the Jazira and Egypt under one front, and following up the project of unity at the hands of his son Nour Al-Din Zangi, and after them Salah al-Din al-Ayyubi, who followed the path of the Zankites, and succeeded in completing the project of unity. The first fruit of this unity was his victory over the Crusaders in Hattin, as it is well known, but this did not stop the Crusader tide on the coasts of the Levant, and the Crusaders' efforts continued to try to preserve the gains they had acquired since their first Crusade campaign against the Levant, and that was their first concern, and the role which the Italian coastal cities played in the first Crusades, is not forgotten, By providing equipment and fleets for the transportation of soldiers in addition to the weapons necessary for military operations, although the cities of the Italian republics preferred to work in the field of trade throughout the Mediterranean, and the Pope's decisions that stipulated preventing trade with Muslim countries were banned, and they preferred to remain in The field of trade, but this was not without the Crusader actions that were found in these cities to achieve their interests and goals in an attempt in the sixth and seventh centuries AH / twelfth and thirteenth century AD to intensify their activity in the western basin of the Mediterranean more

as it was in the eastern basin, and it concluded agreements and treaties with countries of The Islamic Maghreb, and enabled its links with its rulers and sultans.

The Almohad era was one of the historical eras that witnessed clear crusading activity in relation to the activity of the Spanish kingdoms, such as the Kingdom of Castile, Lyon, Aragon and Catalonia, which continued their Crusader activity in raiding the metropolis of Islam, especially Andalusia, complementing the series of restoration wars known by the Christian kingdoms and principalities, and the success of the Unitarian in the unification of the countries of the Maghreb and Andalusia under one front helped to some extent in strengthening the Arab-Islamic resistance on the island of Andalusia, and also protected its cities from the rapid fall in the hands of the Christians, and the monotheistic state, being one of the Moroccan Berber tribes, was stained with an Islamic barbarian tinge, and it was an attempt by the barbarian tribes for leadership The countries of the Islamic Maghreb, and if one looks at the political and economic conditions in the Moroccan space of the Mediterranean countries in the sixth and seventh centuries AH / twelfth and thirteenth century AD, including the Almohad caliphate state, one would find that there are a series of political, military and economic challenges in the western Mediterranean basin that have imposed themselves , Such as the great naval power of the cities of Italian republics such as Genoa, Pisa, and Venice, Which began to take the vanguard of the naval powers in the western basin of the Mediterranean since the sixth century AH / twelfth century AD after the eastern basin of the Mediterranean was a fertile ground for their trade policies, especially the cities of the Levantine coast, in addition to the Christian kingdoms of Spain such as the Kingdom of Castile, Lyon, Portugal, Catalonia, Barcelona, and the fleet of The Norman Kingdom of Sicily and the Kingdom of Aragon, which has a maritime power with distinguished relations with the Balearic Islands, and the kings of Banu Ghaniya, who are among the effects of the Almoravid state who remained loyal to the masked Almoravids even after the demise of their state, therefor, there was a strategy by the Almohads in attracting the kings of Banu Ghana at the beginning of their rule since they were a sea power that cannot be underestimated, and an impenetrable barrier to the countries of the

Almohads in repelling the attacks of the fleets from the countries of the Islamic Maghreb, and the Almohad state succeeded to a large extent in imposing itself as an influential power in the western basin of the Mediterranean from the side of land and sea, and this was only achieved by the time of the powerful Caliphs Like Abd al-Mumin ibn Ali down to al-Mansur al-Mowahid, Where the force of the Almohads began to enter after the Battle of Punishment the tunnel of retreat, deterioration and decline, leading to the complete collapse of the front of Andalusia and Morocco, and this of course had dangerous effects and transformations on the Islamic front, especially in Andalusia, where the largest Arab and Islamic bases such as Cordoba and Seville fell to the hands of the Spaniards, and the Islamic Arab presence weakened in the Iberian Peninsula and a new phase of the states of the sects reappeared again, and this was represented by the state of Bani Hud in Zaragoza and Bani al-Ahmar in Granada, and the conflict ended later in favor of Bani al-Ahmar in Granada, and the Arab-Islamic presence in Andalusia was limited to the state of Bani al-Ahmar, who was Nasrid in Granada and around it, while the state of the Almohads in the Maghreb gradually disappeared in favor of the emergence of three ruling families that formed the ruling states in Morocco as a whole, which were the Hafsid dynasty in Tunisia, the kings of Beni Zian in the central Maghreb, and the family of Beni Abd al-Haq from the kings of Beni Marin in the Far Maghreb. These states, especially the Hafsids and the Marinids will play prominent roles in political or economic life between them on the one hand, and between the Christian kingdoms on the other hand.

أولاً: المقدمة

الحمد لله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، ولا تزول ولا تفنى، إليه يرجع الفضل كله، سبحانه وتعالى لا إله إلا هو العلي العظيم، خلق الإنسان، وعلمه من علمه الوافر، وبحره الزاخر، مالم يكن يعلم، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد بن عبد الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

منذ انتشار الإسلام في بلاد المغرب، ونجاح العرب المسلمين في تثبيت أقدامهم في تلك البلاد، أخذت تتحول تلك الأخيرة تدريجياً إلى مراكز إشعاع حضاري وإسلامي انتقل تأثيره إلى القارة الأوروبية، خاصة في الضفة الشمالية من الحوض الغربي للبحر المتوسط، وكانت بلاد الأندلس مع أقطار المغرب العربي الإسلامي من أكبر القواعد المطلة على البحر المتوسط، ومن المعروف عن ذلك البحر أنه قد شكل منذ قديم زمانه وحتى حاضر هذه الأيام أحد أبرز المعالم الرئيسية للحضارة الإنسانية على مر التاريخ، ويكفي أن يذكر المرء أنه توسّط قارات العالم القديم آسية، وإفريقية، وأوروبة، حيث قامت على سواحل حضارات عديدة منذ أقدم الدهور وحتى هذه الأيام، وحملت أمواجه الزرقاء أساطيل المحاربين والفاحين، والغزاة، والتجار، والرحالة، وكل مظهر من مظاهر الحركة والأنشطة الإنسانية من المغرب إلى المشرق، ومن المشرق إلى المغرب، لذلك كان من الطبيعي أن يكون مجالاً حيويّاً فريداً للتزاحم والتنافس بين القوى والإمبراطوريات الناشئة على أطرافه الشرقية أو الغربية، وبين ضفتيه الشمالية والجنوبية، فقد كان هذا البحر دائماً في صالح من يستطيع إظهار القوة والغلبة على شواطئه، وخلقانه، وأمواجه المتلاطمة منذ فجر التاريخ.

ولا يتسع المقام أن يذكر المرء الحضارات والمجتمعات التي نشأت على سواحل البحر المتوسط، ولكن يكتفي بأن ينوه إلى الإمبراطوريات القديمة التي نشأت حوله كالإمبراطورية الرومانية التي أطلقت اسمها عليه، وعرف ببحر الروم لمدة ليست قصيرة من الزمن، حيث استطاعت هذه الإمبراطورية أن تفرض نفسها كقوة فاعلة

من بين امبراطوريات العالم القديم مثل الإمبراطورية الفارسية التي تراجعت معها في فرض القوة والسيطرة، ومناطق النفوذ، ونجح الرومان أن يشكلوا قوةً مهيمنة على معظم شواطئ المتوسط إلى حد ما، والامبراطورية الفارسية توازيها في الطرف الشرقي الآخر من حيث القوة والامتداد، وظل هذا الأمر قائماً بين الامبراطوريتين حتى قدوم العرب المسلمين الفاتحين من شبه الجزيرة العربية الذين غيروا من موازين القوى السياسية، من خلال نجاحهم في تقويض أركان الإمبراطورية الفارسية، وتقليص ممتلكات الإمبراطورية الرومانية خاصة في بلاد الشام، ومصر، ثم بلاد المغرب، والأندلس، لاسيما أن مجال البحار وارتياحها قد لقي اهتماماً كبيراً من جانب العرب المسلمين، خاصة في العصر الأموي والعصور اللاحقة، حيث أظهر العرب المسلمون تفوقاً واضحاً في ميدان ركوب البحر، وصناعة السفن بمختلف أشكالها وأنواعها، محققين بذلك مكاسب كبيرة، مثل فتح بعض الجزر في الحوض الشرقي والغربي للبحر المتوسط، مثل قبرص، وكريت، ومالطا، وصقلية وقرسقة، وسردينيا، وشبه الجزيرة الإيبيرية المعروفة ببلاد الأندلس، وشكلت بلاد المغرب التي فتحت من قبل العرب المسلمين في الحقبة الإسلامية الباكزة إحدى أكثر المصاعب التي واجهت العرب المسلمين الفاتحين الجدد، إذ أنها كانت أرض جديدة غير معروفة بالنسبة لهم، كما أن مساحاتها الشاسعة البعيدة تطلبت جهوداً كبيرة لإتمام فتحها والاستقرار على أراضيها، وتكامل نجاح العرب المسلمين في العصر الأموي بإتمام سيطرتهم وتثبيت أركان الحكم العربي الإسلامي في بلاد المغرب والأندلس، وكما هو معلوم لم تستمر القوة العربية الإسلامية على الوتيرة الثابتة من السيطرة والتحكم في موازين القوى آنذاك، انطلاقاً من المشرق حتى بلاد الأندلس، بل كانت هناك مراحل متباينة من المد والجزر التي رافقت القوة العربية الإسلامية، حيث كان شأنها شأن أي دولة أو قوة تزدهر، وتزدهر، وتندبل وتتكمش، ويلاحظ المرء بأن الجانب الغربي أو الحوض الغربي للبحر المتوسط كان أكثر تفاعلاً سياسياً وعسكرياً بين مجتمعاته، لاسيما أن القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين قد شهدا مرحلة جديدة حافلة بالتحديات، والأحداث السياسية والمتغيرات التي بدأت تفرض ذاتها على بلدان المنطقة، كظهور النشاط البحري لمدن الجمهوريات الإيطالية مثل جنوة، وبيزة، والبندقية في الحوض الشرقي والغربي للبحر المتوسط، واتساعه ليشمل الجانب الغربي له أيضاً بصورة ملموسة، كما كان تعاقب الدولتين

المرابطية والموحدية بعد مرحلة من حكم ملوك الطوائف التي أعقبت تفكك حكم الخلافة الأموية في الأندلس من العوامل المهمة في وضع حدٍ للغارات الإسبانية المسيحية على بلاد الأندلس، خاصة وأنّ البلاد عانت كثيراً من مظاهر التفرقة والانقسام في عصر ملوك الطوائف، والحق يقال بأن قيام هاتين الدولتين قد ساعد إلى حدٍ كبير في تدعيم الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، وحماية باقي الممتلكات الأندلسية من السقوط السريع بأيدي الممالك الإسبانية المسيحية التي زادت من شدة هجماتها على مدن الأندلس، بحجة حروب الاسترداد مدفوعة بتأييد بابا روما لها، كما أنّ الحملات الصليبية مازالت أمواجاً متلاحقة على بلاد العروبة والإسلام دونما انقطاع مثل السواحل الشامية والمصرية التي نشأت فيها حركة الجهاد الإسلامي والوحدة ضد الوجود الصليبي، من خلال قيام القائد المجاهد عماد الدين زنكي هـ/م في توحيد بلاد الشام والجزيرة، ومصر في جبهة واحدة، ومتابعة مشروع الوحدة على يد ابنه نور الدين زنكي، ومن بعدهم صلاح الدين الأيوبي الذي تابع مسيرة الزنكيين، ونجح في إتمام مشروع الوحدة، وكانت أولى ثمرات هذه الوحدة انتصاره على الصليبيين في حطين كما هو معروف، غير أنّ ذلك لم يؤدّ إلى إيقاف المد الصليبي على سواحل بلاد الشام، واستمرت جهود الصليبيين في محاولة الحفاظ على الممتلكات التي اكتسبوها منذ الحملة الصليبية الأولى هـ/م لهم على بلاد الشام، وكان ذلك من أولى اهتماماتهم، ولا يغيب عن الالذهان الدور الذي قامت فيه المدن الإيطالية الساحلية في الحروب الصليبية الأولى، من خلال تقديم المعدات والأساطيل الخاصة بنقل الجنود بالإضافة إلى الأسلحة اللازمة للعمليات العسكرية، على الرغم من أن مدن الجمهوريات الإيطالية قد فضلت العمل في ميدان التجارة على أرجاء المتوسط، وقد ضربت بعرض الحائط قرارات البابا التي تنص على منع الاتجار مع بلاد المسلمين، وفضلت البقاء في ميدان التجارة، ولكن لم يخلُ ذلك من الأعمال الصليبية التي وجدت في هذه المدن تحقيق مصالحها وغاياتها محاولةً في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين تكثيف نشاطها في الحوض الغربي للمتوسط أكثر كما كان في الحوض الشرقي، و قامت بعقد الاتفاقيات والمعاهدات مع بلاد المغرب الإسلامي، ومكنت صلاتها مع حكامه وسلاطينه، وكان العصر الموحي من العصور التاريخية التي شهدت نشاطاً صليبيّاً واضحاً فيما تعلق بنشاط الممالك الإسبانية مثل مملكة قشتالة (Castie) ، وليون (Legionense)،

وآراغون (Aragonum)، وقطلونية التي تابعت نشاطها الصليبي في الإغارة على حواضر الإسلام لاسيما الأندلسية منها، مكملة سلسلة حروب الاسترداد المعروفة من قبل الممالك والإمارات المسيحية، وكان نجاح الموحدين في توحيد بلاد المغرب والأندلس في جبهة واحدة، قد ساعد إلى حد ما في تدعيم المقاومة الإسلامية في جزيرة الأندلس، كما حمى مدنه من السقوط السريع بيد الممالك الإسبانية، واصطبغت الدولة الموحدية كونها من قبائل البربر المغربية بالصبغة البربرية الإسلامية، وكانت محاولة من القبائل البربرية من أجل زعامة بلاد المغرب العربي الإسلامي، وإذا نظر المرء إلى الظروف السياسية والاقتصادية في الفضاء المغربي لدول البحر المتوسط في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، بما فيها دولة الخلافة الموحدية، لوجد أن هناك سلسلة من التحديات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية في الحوض الغربي للمتوسط قد فرضت نفسها، مثل القوة البحرية الكبيرة لمدن الجمهوريات الإيطالية مثل جنوة، وبيزة، والبندقية، التي بدأت تتبوء طليعة القوى البحرية في الحوض الغربي من البحر المتوسط منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بعد أن كان الحوض الشرقي للبحر المتوسط مرتعاً خصباً لسياساتها التجارية خصوصاً مدن الساحل الشامي، بالإضافة إلى ممالك إسبانيا المسيحية مثل مملكة قشتالة، وليون، والبرتغال، وقطلونية، وبرشلونة، وأسطول مملكة صقلية النورماندية، ومملكة أراغون صاحبة القوة البحرية ذات العلاقات المتميزة مع جزر البليار، وملوك بني غانية وهم من آثار دولة المرابطين الذين بقوا على ولائهم لدولة المرابطين الملتزمين حتى بعد زوال دولتهم، لذلك كانت هناك استراتيجية من قبل الموحدين في استقطاب ملوك بني غانية في بداية حكمهم كونهم كانوا قوة بحرية لا يستهان فيها، وحاجزاً منيعاً عن بلاد الموحدين في صد هجمات الأساطيل الأوروبية عن بلاد المغرب الإسلامي، ومن هنا كان لا بد من تقديم الشروحات والأفكار التي توضح مدى تلك العلاقات والتأثيرات السياسية، والاقتصادية، والعسكرية بين مجتمعات الحوض الغربي للمتوسط في فضاء العصر الموحد، ذلك العصر الذي لا يزال _ برأي المرء _ بحاجة كبيرة ومُلحّة إلى مزيد من الأعمال، والأبحاث الهادفة إلى إغنائه، وإعطائه الصورة الحقيقية، كما كانت في ماضيه الأصيل بأبهى حُلّه، وهذا ما سيسعى البحث في القيام به إن شاء الله، وبالطبع لا يخلُ أيُّ عملٍ من الأخطاء.

كما كان من أنسب المناهج التي تخدم موضوع البحث هو اتباع المنهج الاستقرائي الاستنتاجي لما دعت به ضرورة العمل، وذلك بسبب تنوع المصادر والمراجع خاصة في الفصل الرابع، فكان الطالب يطرح الأسئلة الخاصة بالأفكار والعناوين التي تألف منها البحث، ثم يقوم بالإجابة عليها ويحللها وفق رؤية المصادر التاريخية المعتمدة، ثم يقوم بوضع الاستنتاجات التي وصل إليها في نهاية كل فصل أو عنوان، وهكذا كان هذا المنهج متبعاً حتى نهاية العمل.

ولا بدّ للإشارة بمكان إلى جملة الصعوبات والعقبات والعراقيل التي صادفت العمل في هذا البحث، وهي إمّا أن تنثني صاحبها عن القيام بعمله، وإمّا أن تكون محفزة له تزيد من إصراره وتصميمه على متابعة عمله، ومن المعلوم أنّ البحث التاريخي في مجال المغرب الإسلامي يتطلب جهوداً لا يستهان فيها، لاسيما الموضوعات المرتبطة بالعلاقات الإسلامية المسيحية والنشاط السياسي العسكري والتجاري، وفي الحقيقة كانت هناك صعوبات بالغة قد واجهت المرء خلال إنجاز هذا العمل، ولعلّ أكثرها هي قلة المصادر بل ندرتها خاصة المصادر الإسلامية التي تحدثت عن العلاقات الموحدية مع مدن الجمهوريات الإيطالية والممالك والإمارات المسيحية، واقتصر معظم المصادر على الوقائع التاريخية، ويمكن أن يقول المرء بأنه كان هناك صمت حاد في المصادر العربية الإسلامية ومنها المغربية حول العلاقات المغربية الإيطالية والمسيحية بشكل عام، مما دفعت الحاجة في بعض الأحيان أن يلجئ المرء إلى المراجع المَعْرِبة التي هي آخذة أصلاً عن مصادر أجنبية تمت ترجمتها، وهذا يتطلب جهداً إضافياً كان لا بدّ أن يقوم فيه المرء بالترجمة عن بعض المصادر الأجنبية التي توفرت فيها مادة البحث، وبمختصر القول كانت المصادر العربية الإسلامية قليلة وغير كافية كما أن التنقل إلى بلدان مثل إيطاليا وفرنسا وإسبانيا من أجل الحصول على المادة العلمية المطلوبة وإن كان ممكناً فإنّه يشكل صعوبات ماديّة تلزم المرء المراجع والمصادر المتوفرة بين يديه، كما إنّ دراسة العصر الموحدي في علاقاته المتشعبة مع دول وممالك الحوض الغربي للمتوسط استلزمت الرجوع إلى تلك الدول والتعريف بها وأماكن تواجدها لا سيما الدول التي أقامت معها الدولة الموحدية علاقات سياسية استراتيجية مثل مدن الجمهوريات الإيطالية وجزر البليار وجنوب فرنسا وممالك إسبانيا المسيحية وهذا طبعاً قد استغرق وقتاً وجهداً إضافياً،

إلا أنه وعلى الرغم من الصعوبات التي ذكر المرء جزءاً منها، فقد كان هذا العمل شيقاً جديداً بكليته على الرغم من وجود بعض الأبحاث المذكورة سابقاً، والجانب المشرق الذي وجدته المرء في الحوض الغربي للمتوسط قد أعطاه أفكاراً نيرة جديدة حول مدن الجمهوريات الإيطالية وجنوب فرنسا وإسبانيا وجزر البليار ودول المغرب الإسلامي في الشمال الإفريقي سواءً أكان ذلك على الصعيد السياسي أو التجاري أو الحضاري بشكل عام، وهذا أيضاً يشكل حافزاً كبيراً للمرء أن يبذل مزيداً من الجهود والأبحاث حول الحوض الغربي للبحر المتوسط في الأعمال المستقبلية إن شاء الله.

وكانت إشكالية البحث تتعلق في الحوض الغربي للبحر المتوسط باعتباره أحد أهم المناطق الحيوية التي دارت في أفلاكها العديد من الأحداث والتأثيرات السياسية والاقتصادية والثقافية بين مجتمعاته من أقدم العصور، كما كان للفتح العربي الإسلامي أثراً واضحاً في انتقال التأثيرات الحضارية إلى أعماق القارة الأوروبية، من خلال الفتوحات والمبادلات التجارية وغيرها من الوسائل آنذاك، وكانت الدول الإسلامية التي قامت على أرض المغرب والأندلس منذ بدايات الفتح العربي الإسلامي القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي لتلك البلاد قد أقامت العلاقات مع الدول الأخرى من مجتمعات البحر المتوسط، مثل دولة المرابطين وبنو حماد، ودولة الأدارسة، ودولة الموحدين وغيرها من الدول التي قامت على أرض المنطقة، ومن هنا ينطلق المرء في إشكالية البحث الجوهرية وهي كيف كان مغرب البحر المتوسط أو الحوض الغربي للبحر المتوسط زمن الدولة الموحدية؟ وهذا بدوره يقود إلى عدة تساؤلات لا بد من الإجابة عليها، وهي: كيف أسهمت دولة الموحدين في الحد من النشاط الصليبي في الحوض الغربي للمتوسط، وتبيان الاستراتيجية التي رسمها الموحدون من أجل ذلك، مع إيضاح دور البحرية الإيطالية لمدن الجمهوريات الساحلية في الحوض الغربي للمتوسط، وإظهار سمات علاقتها السياسية والتجارية مع دولة الموحدين، وتتبع أثر النزاع الإسلامي الإسلامي بين الموحدين والقوى السياسية الإسلامية الأخرى مثل بني غانية ملوك جزر البليار، والمرابطين، سلباً أم إيجاباً على الوجود الإسلامي في الأندلس، وإثبات ما حققت دولة الموحدين من نجاحات سياسية وثقلاً استراتيجياً

كونها القوة الإسلامية المتميزة في مغرب البحر المتوسط آنذاك بين الممالك
الإسبانية والإمارات المسيحية في الغرب المتوسطي؟

ومن خلال هذه التساؤلات والإجابة عنها يمكن الوصول إلى فهم واضح لهذه
الإشكالية وإغناء موضوع البحث التاريخي بالرجوع إلى المصادر والتاريخية
المناسبة.

فكلُّ الشكر لمن أرشدَ، ونصحَ، وقَوِّمَ عثرات هذا العمل من أجل الارتقاء فيه،
والنهوض في تاريخ الأمة العربية الإسلامية الأصيلة التي هي بدورها جزء لا
يتجزأ من التاريخ العالمي للإنسانية على مر العصور، والله من وراء القصد وإليه
تصير الأمور.

١. التعريف بأهم مصادر ومراجع البحث

اعتمد البحث حسب طبيعته على مصادر ومراجع متنوعة منها العربية والمترجمة، والأجنبية، ومنها الوثائق، والدراسات الأجنبية، وكانت هذه المصادر مختلفة في اختصاصاتها مثل التاريخي، والجغرافي، وكتب التراجم، والرسائل إلى غير ذلك من الموارد المتعددة التي خدمت موضوع البحث - مع الإشارة إلى قلة المصادر بعد استقصاء المرء جميع المصادر المتوفرة التي تخدم موضوع هذا البحث - ومنها ما كان أساسياً في صلب العمل، والبعض لمس جانباً معيناً من جوانبه، وكان المنهج الذي اعتمد في تصنيف المصادر والمراجع فرزها حسب نوعها مثل الوثائق، والرسائل، والمصادر، والمراجع، وثم اعتماد الترتيب المعجمي بين كل نوع من هذه الأنواع حسب اسم المؤلف، وهذه أبرز المصادر والمراجع التي اعتمد موضوع البحث:

أ- الوثائق:

كان الاعتماد على الوثائق أساسياً في أجزاء معينة من هذا البحث، ومن أشهر هذه الوثائق:

١ - الوثائق التي جمعها الباحث الفرنسي _لويس دي ماس لاتري - M.L.DE MAS LATRIE، وهي مجموعة كبيرة من الوثائق الإيطالية اللاتينية، وهذه الوثائق تحتوي مادة غنية فيما يخص العلاقات السياسية والتجارية بين المجتمع المسيحي خاصة الإيطالي مع المغاربة في العصور الوسطى، وكانت هذه الوثائق بعنوان: "

"Traités De Paix ET De Commerces Concernant Les Relations Des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale Au Moyen âge"

"العلاقات السياسية والتجارية بين المسيحيين عامة والإيطاليين خاصة مع العرب الأفارقة المغاربة في العصور الوسطى" ، وقام _ دي ماس لاتري بجمع هذه الوثائق في كتاب مؤلف من جزئين، اختص في الجزء الأول بالمقدمة التاريخية الكبيرة التي تحتوي مادة إخبارية مفيدة في البحث، والجزء الثاني وهو الأكثر أهمية

إذ أنه تحدث عن المعاهدات التي تم توقيعها بين الإيطاليين والمغاربة، وقد تضمن الجمهوريات الإيطالية الثلاثة جنوة وبيزة والبندقية وكانت معاهدات كل واحدة من هذه الجمهوريات على حدة مع المغرب التي تضمنت الجوانب الرئيسية السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

٢- الوثائق باللغة العربية التي قام بنشرها الباحثون الأجانب، والمقصود هنا الوثائق العربية التي نشرها المستشرق الإيطالي ميشيل أماري، وهي جزء آخر يختلف عن وثائق المكتبة العربية الصقلية التي جمعها أيضاً ميشيل أماري التي جمع فيها مصادر تاريخية وجغرافية وغيرها من الأنواع الأخرى، وكانت هذه المصادر أصيلة في معظمها، وليس المرء بصدد الحديث عنها الآن، بل جرى الكلام عن مجموعة أخرى من الوثائق العربية التي صنفها أماري في مجلد آخر، وكانت هذه الوثائق بعنوان : "Michele Amari: I Diplomi Arabi Deal R. archivio Fiorentino , Testo Originale Con La Traduzione Letterale E Illustrazioni"

وتضمنت هذه الوثائق العديد من العقود والمعاهدات التي وقّعت بين مدن الجمهوريات الإيطالية مثل جنوة وبيزة والبندقية مع دول البحر المتوسط مثل دولة المماليك في مصر والشام، ودولة الموحدين في بلاد المغرب، وكانت على هيئة مراسلات بين الأطراف المتعاهدة، وتتضمن أيضاً عقوداً تجارية ورسائل دبلوماسية، وطلبات وشكاوي أيضاً، وقام ميشيل أماري بنقلها من أرشيفات بيضة بالنص اللاتيني والعربي، ولذلك كان الاعتماد على هذه الوثائق كونها أعطت مادة، علمية غنية أفادت كثيراً في رسم العلاقات الخارجية للدولة الموحدية مع مدن الجمهوريات الإيطالية خاصة بيضة، وجنوة، بالإضافة إلى معرفة نشاط هذه الجمهوريات في الحوض الغربي للمتوسط خلال العصر الموحيدي، إضافة إلى جوانب أخرى تتعلق بالنشاط التجاري، والاعتداءات التي يقوم فيها القراصنة على السفن الحربية والتجارية من كلا الطرفين، والردود التي كانت تصدر من جميع الأطراف حول وضع الحدود، والإجراءات الصارمة للحد من مسألة القرصنة، ومسائل أخرى مثل افتداء الأسرى، وتمثيل الرعايا وتبادل السفارات وبناء الفنادق... إلخ، ولكن ميشيل أماري لم يكن له أي تعليق على أي من وثائق المادة التي جمعها، واكتفى فقط بترقيمها دون أي نقد أو تعليق عليها، لذلك كانت الوثائق المجموعة خالية من أي تعليق من قبل أماري، إلا أنها كانت قيمة للغاية، لاسيما

الجانب الذي تناول العلاقات الموحدية الإيطالية خاصة مع بيزة وجنوة، ومن هنا تتبع أهمية وثائق أرشيفات بيزة التي كانت ركيزة كبيرة من زكائن العمل.

٣- وثائق الجنيزا:

تعد وثائق الجنيزا من أهم الوثائق التاريخية التي تحدثت عن الجماعات اليهودية التي انتشرت حول مناطق واسعة من حوض البحر المتوسط في العصور الوسطى، وهذه الوثائق كانت على شكل رسائل متبادلة بين اليهود في مناطق بعيدة مثل اليمن والمغرب والأندلس والإسكندرية وغيرها إلى أقربائهم أو أصدقائهم من اليهود، وكانت هذه الرسائل متنوعة المواضيع منها تحدثت عن البضائع التجارية التي كانت تنقل من الإسكندرية إلى المغرب أو على العكس بغرض التجارة، ومنها الذي تحدثت عن الأنشطة الأخرى، والشيء المميز في وثائق الجنيزا أنها كتبت من غير تكلف، وجرى الكلام عنها بالتفصيل في الفصل الخامس كأحد المصادر التي تحدثت عن الجماعات اليهودية.

ب- الرسائل

إذا كانت المصادر والمراجع هي المادة الأساسية التي يستقي منها المرء مادته في تتبع الأحداث السياسية والاقتصادية وغيرها للدول والإمبراطوريات، فإن الرسائل العائدة للعصر الموحي هي أبرز السمات التي ميزت هذا العصر، فقد شكلت الرسائل الصادرة عن الديوان الموحي كونها دولة ديوانية اعتمدت بشكل كبير على الرسائل مادة غنية جداً بالأحداث والخطابات، والعهود والبيعات للخلفاء الموحدين، إذ أن دولة الموحدين من أشهر الدول الإسلامية التي عُيّنت بالكتابة الديوانية، وكان كُتّاب الخلفاء الموحدين هم الذين يتولون كتابة الرسائل الديوانية، ولذلك كان الخلفاء الموحدين ينتقونهم بعناية من بين الكُتّاب، أمّا بالنسبة لهذه الرسائل فقد انقسمت إلى قسمين: القسم الأول الذي جمعه واعتنى به الأستاذ ليفي بروفنسال وطبعه ونشره عام ١٩٤١م والكتاب بعنوان " مجموعة رسائل موحدية " وعدد الرسائل المتضمنة في هذا الكتاب سبعة وثلاثين رسالة رسمية في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي وأبنائه وجلّ هذه الرسائل يعرض أهم الحوادث السياسية والتدابير والإجراءات التي اتخذها الخلفاء الموحدون، وأخبار الغزوات

والانتصارات الحربية التي أنجزها خلفاء الموحدون خاصة الأوائل منهم، ولذلك كان لهذه الرسائل الأهمية الكبيرة في الاطلاع على الجانب السياسي والاجتماعي للدولة الموحدية، بالإضافة إلى هذه المجموعة هناك مجموعة أخرى من الرسائل الديوانية الموحدية، وهي أغزر مادة وأكثر عدداً من سابقتها، وقد عُثِرَت هذه الرسائل بـ "رسائل موحدية جديدة" قام بجمعها الدكتور أحمد عزاوي وصنفها ودرسها وحللها تحليلًا تاريخيًا، وأعدَّ لها فهرساً لسهولة معرفة تفاصيلها، وتعد هذه الرسائل مادة تاريخية أصيلة غنية بالمعلومات الخاصة بدولة الموحدين لاسيما الجانب السياسي والاجتماعي، وقد زاد عدد هذه الرسائل على المئة، وهذا يدلُّ على الأهمية العظيمة للكتابة الموحدية الديوانية التي بلغت في عهدها مبلغاً كبيراً، لا سيما إن المادة العلمية التي تحملها هذه الرسائل تسلط الأضواء على جوانب من النشاط السياسي الموحد في المغرب وبلاد الأندلس، والمشاكل التي تعرض لها الموحدون في المراحل الباكرة من تأسيس دولتهم في المغرب الأوسط والأقصى، بالإضافة إلى أزمنة التراجع والانحسار والانقسات في نهاية دولة الموحدين، ولذلك كانت الرسائل الموحدية ترقى إلى درجة الوثيقة التاريخية التي تعد أساساً لأي باحث تاريخي أو دراسات تاريخية المتعلقة بالحقبة الموحدية.

ج- المصادر التاريخية

١ كُتب التاريخ العام:

١- كتاب " تاريخ ميورقة" للفقير العالم أبي المطرّف أحمد بن عميرة المخزومي الأندلسي المتوفى عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وفيه معلومات قيمة جداً عن جزر البليار الشرقية حتى إن لم يبالغ المرء بقوله إنَّ جميع الكتابات التي اختصت جزر البليار قد نقلت عن أبي المطرف لاسيما المراجع الأجنبية التي تحدثت عن جزر البليار وفيما تعلّق بنشاط مملكة آراغون والغزوات الإسلامية إلى منطقة الثغور للملكة آراغون وقطلونية، ومصير جزر البليار الإسلامية.

٢- كتاب " الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" لابن أبي الزرع أبا الحسن علي بن عبد الله الفاسي المتوفى عام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، ويعد بمثابة تاريخ شامل للمغرب الأقصى عموماً ومدينة فاس على وجه الخصوص، حيث غطى ابن أبي زرع في كتابه هذا حقبة زمنية امتدت منذ بداية دولة الأدارسة وحتى زمن الدولة المرينية، وتحديداً إلى عام ٧٢٦هـ/

١٣٢٦م، وهو عهد السلطان المريني عثمان بن يعقوب بن عبد الحق الذي اشتهر بأبي سعيد، تحدث ابن أبي زرع في الأنيس المطرب عن الدول التي قامت في المغرب الأقصى، وصولاً إلى دولة الموحدين، ودولة بني مرين في المغرب الأقصى، وكان يصف كل دولة على حدى منذ قيامها حتى سقوطها، ويذكر سلاطين وخلفاء هذه الدولة واحداً تلو الآخر، وأشهر أعمالهم، وأبرز الأحداث التي مرت بتلك الدول: كالمجاعات والأوبئة والظواهر الطبيعية... إلخ، وقد ذكر المحقق بأن ابن أبي زرع لم يستند في تاريخه على الطريقة الحولية التي اعتمدها معظم المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى، بل اعتمد على التأريخ لكل دولة، إلا أن هناك وجهة نظر أخرى للباحث يرى فيها إن ابن أبي زرع قد استند بشكل لافت للنظر على الطريقة الحولية في بعض الدول التي ذكرها كالدولة الموحدية والدولة المرينية على سبيل المثال، حيث كثيراً ما كان يقول وفي سنة كذا وكذا، ثم دخلت سنة كذا، وفي شهر كذا...، ولكنه قام بإدراج التاريخ الحولي ضمن التاريخ الخاص بالدولة نفسها، والذي يهملنا من كتاب الأنيس المطرب هو الجانب الذي تناول النشاط السياسي والعسكري للخلفاء الموحدين بالإضافة إلى الجانب الحضاري العمراني، والاقتصادي، والتجاري، والاجتماعي، وهو لا يقل أهمية عن سابقه، ويؤخذ على ابن أبي زرع مبالغته بأعداد الخسائر البشرية مثلاً التي كانت تقع في صفوف الجيوش المتحاربة كالجيش الإسباني والجيوش الإسلامية، ولكنه يبقى من المصادر المهمة عن دولتي المرابطين والموحدين.

٣- كتاب " أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين " لمؤلفه أبي بكر بن علي الصنهاجي الذي يكنى بالبيدق، وهو من المصادر المهمة التي اختصت في بداية دعوة ابن تومرت، ونسبه، وأصحابه، وخليفته عبد المؤمن بن علي، والبيدق ذكر في كتابه تفاصيل دقيقة عن جوانب تتعلق بشخصية ابن تومرت لملازمته له ولأنصاره ودعوته، لا سيما مرحلة الصراع العنيف لابن تومرت مع ولاية البلاد التي زارها في طريقه إلى بلاد المغرب وصولاً إلى القتال مع دولة المرابطين، وهذه تغطية لا يستهان فيها لمرحلة البدايات من تأسيس دولة الموحدين، إذا أخذ المرء بالحسبان بأن البيدق واحد من الأصحاب المقربين لابن تومرت، وشهد الوقائع التي خاضها ابن تومرت بكونه أحد تلاميذه وصديق خليفته من بعده عبد المؤمن بن علي، وأحد الرجال الذين قامت على سواعدهم الدعوة الموحدية، لذلك

كانت كتابته من وحي الوقائع والأحداث التي عاصرها وعاش فيها، وهذا الكتاب قيم جداً من الناحية التاريخية في مرحلة تأسيس الدولة الموحدية.

٤- كتاب " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لمؤلفه المعروف بابن بسام الشنتريني المتوفى عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م وهو من مدينة شنترين (١) التي دارت فيها معارك زمن الحكم الموحي، وهو من الكتب الموسوعية التاريخية الأدبية التي ألفت بظلالها على الكثير من أخبار الحروب التي خاضها المرابطون والموحدون مع الجيوش المسيحية، وجاءت مادتها الإخبارية على شكل أبيات شعرية تحتوي على الكثير من الملامح السياسية والعسكرية التي تميزت فيها دولتي المرابطين والموحدين.

٥- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" للعلامة ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي المتوفى عام ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، وهذه نبذة بسيطة للتعريف بابن خلدون، ينحدر من أصل أندلسي إشبيلي، من مواليد تونس، تلقى علومه على أيدي العلماء والمشايخ الأندلسيين الذين هاجروا إلى تونس، عاش ابن خلدون زمن الدولة المرينية هـ/م وخاض في معترك الحياة السياسية، ثم انتقل إلى بلاط الحفصيين هـ/م بتونس، وكانت له علاقة مميزة مع الوزير والمؤلف الشهير لسان الدين بن الخطيب، وبعد وفاة صديقه ترك السياسة وارتحل إلى مصر وعمل قاضياً للمالكية فيها، ثم ارتحل إلى الشام وكانت وفاته في مصر عام ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، ولابن خلدون مؤلفات كثيرة وكتاب العبر هو الكتاب الذي كان الاعتماد عليه في هذا العمل، ومن المعروف أن كتاب العبر قد قسمه ابن خلدون إلى ثمانية أجزاء كان الجزء الأخير للفهارس، أما الجزء الذي كان الاعتماد عليه فهو الجزء السادس حيث تحدث فيه ابن خلدون عن أعداد كثيرة من الأسر والقبائل التي سكنت المغرب أو هاجرت إليه، وكونت سلطة حاكمة فيه مثل الزييريين وبنو حمّاد والهلاليين، ودولة المرابطين وصراعها مع دولة الموحدين، وكانت المادة التي تحدث فيها ابن خلدون عن دولة الموحدين غنية بالتفاصيل والأحداث الدقيقة خاصة فيما تعلق بصراع الموحدين مع بني غانية، والأحداث السياسية التي رافقت

(١): كورة من أعمال باجة، مدينة عظيمة على جبل عال، ولها حافة عظيمة من جهة القبلة، وليس عليها سور يحميها لعلوها، وفيها عيون كثيرة وبساتينها جنات من الفواكه، وبينها وبين بطليوس أربعة مراحل؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣٦٨.

دولتهم من الصعود والقوة إلى الانحدار والانقسام الذي رافق سقوطها إلى ثلاث دول الحفصية في تونس والزيانية في المغرب الأوسط، وبنو مرين في المغرب الأقصى.

٦- كتاب " المن بالإمامة على المستعصفين بأن جعلهم الله أئمةً وجعلهم الوارثين" لعبد الملك بن صاحب الصلاة أبو مروان المتوفى عام ٥٩٤هـ/١١٩٨م وهو ابن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي وأصل أسرته من باجة، ولم يصل من الأسفار الثلاثة التي تألف منها كتاب المن بالإمامة إلا السفر الثاني بينما يعدُّ السفر الأول والثالث بحكم المفقودين، والسفر الثاني المتبقي من هذا الكتاب مهم جداً من الناحية التاريخية لأن المؤلف كان أحد الشخصيات التي تعصبت للمذهب الموحي ودافعت عنه، لاسيما اتجاه مذهب المرابطين الذي عدهم أعدائه ويجب التصدي لهم بكل الوسائل كان عبد الملك يشكل النخبة الموحدية التي أرخت بتفاصيل دقيقة عن الأحداث التي عاشتها الدولة خاصة الحقبة التي كان عبد الملك حياً في العصر الذهبي للدولة الموحدية، لاسيما عندما رافق الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بن علي في الجواز إلى الأندلس في حملة كبيرة لمواجهة الزحف الإسباني على حواضر الأندلس، وقد ذكر ابن صاحب الصلاة الإنجازات الحضارية المعمارية والعسكرية والاقتصادية مثل الجوامع والأسواق والفنادق والترتيبات الإدارية التي اتخذها خلفاء الموحدين في سياسة الدولة، إلا أنه لا بد للمرء أن يتحفظ في النقل عن ابن صاحب الصلاة في الكتابات التي خصَّ فيها المرابطين لتعصبه في انتمائه لمذهب التوحيد ومخالفة كل من وقف ضد تعاليمه، ولذلك لم يذكر ابن صاحب الصلاة على سبيل المثال المواجهات التي خسر فيها الموحدون ضد خصومهم في شرق الأندلس وبنو غانية أيضاً.

٧- كتاب " المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لمؤلفه محي الدين أبو محمد عبد الواحد التميمي المراكشي المتوفى في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ألفه صاحبه وهو في بلاد المشرق الإسلامي بعيداً عن بلاده وأهله، على الرغم من الصلة الوثيقة التي ربطت عبد الواحد المراكشي وبلاط الموحدين، إلا أنَّ عبد الواحد لظروف غامضة_ ربما تكون سياسية_ ترك بلاد المغرب والأندلس وتوجه إلى بلاد الشام ثم إلى بغداد،

وانقطعت أخباره عن بلاد المغرب وطنه ووطن أجداده ولم يرجع إليها البتة، أما كتاب " المعجب " فهو من الكتب الفريدة التي اختصت بتاريخ الموحدين، وتحدثت بإيجاز عن المرحلة التي سبقت مجيء الموحدين إلى عرش السلطة، والشيء الذي ميز كتاب عبد الواحد هو شهرته بالأسلوب الفني الأدبي الأصيل إذا كان المؤلف يعمل كاتباً في بلاط الدولة الموحدية قبل رحيله عن بلاد المغرب، وهذا أضاف معرفة إضافية لعبد الواحد مكنته من الاطلاع على تفاصيل دقيقة في شؤون الدولة الموحدية، كما أنَّ وجود عبد الواحد في حاضرة العباسيين قد مكّنه من الكتابة بدون أي ضغط خارجي من ضغوط السياسة على كتاباته، فكان كتاب عبد الواحد بالمجمل كتاب سياسة وأدب عبر عن الذوق الرفيع الذي تمتع فيه صاحبه مع المعرفة بالحياة السياسية من خلال احتكاك صاحبها ببلاط الخلفاء الموحدين، لا سيما عصر الخليفة المنصور والناصر الموحدي، لذلك كانت شهرة كتاب " المعجب " تتجلى في الأحداث السياسية التي عاشتها الدولة الموحدية مع الأوصاف التي ذكرها المؤلف لمعظم الخلفاء الموحدين، كما انفرد عبد الواحد بأخبار لا يوجد مثيلاً لها في المصادر العربية الإسلامية الأخرى مثل كلامه عن أهل الذمة من اليهود في ظل الحكم الموحدي، حيث أخذ الكثير من المؤرخين عنه لا سيما صفات الخلفاء الموحدين حتى آخرهم وانقراض دولتهم، إلا أن كتابات عبد الواحد في المعجب كانت مختصرة وأحياناً تكون غير واضحة لكثرة الاختصار، بسبب اتساع المدة الزمنية التي تناولها عبد الواحد في كتابه " المعجب " منذ وجود بني أمية في الأندلس إلى أواخر الحكم الموحدي، ولكن يبقى كتاب المعجب من أشهر المصادر التاريخية التي اختصت بالتاريخ السياسي لدولة الموحدين.

٨- كتاب " البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب " لمؤلفه المعروف ابن عذاري المراكشي المتوفى أواخر القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجري/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، من أكمل المصادر التاريخية وأشهرها عن المغرب الإسلامي، فهو يؤرخ لبدايات الفتوحات الإسلامية وحتى عصر المؤلف أي بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي يتألف من عدة أجزاء قد خص كل من تاريخ المرابطين والموحدين في قسم خاص، يعد ابن عذاري المراكشي من المؤرخين الذين كتبوا عن النشاط السياسي والعسكري للدولة الموحدية مع مراعاة

الترتيب الزمني للحوادث التاريخية، وقد كانت كتابته غزيرة دقيقة استند إليه المؤرخين في الجوانب السياسية والنشاط العسكري عند الخلفاء الموحدين مع الإشارة إلى الإصلاحات التي قام بها الخلفاء الموحدون، لاسيما النشاط الزراعي والتجاري، كما ذكر ابن عذاري المصادر الأصلية التي نقل عنها بصراحة مثل البيدق وابن صاحب الصلاة وابن حزم وابن بسام الشنتريني وغيرهم من المصادر التاريخية الأصلية الكثيرة مما أعطى كتابه قيمة عظيمة من الوجهة التاريخية خاصة المرابطين والموحدين وبداية العصر المريني.

٩- كتاب " الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" لمؤلفه أبو القاسم محمد بن أبي العلاء محمد بن سماك العاملي الغرناطي المتوفى في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي ^(١) الذي كان فيما مضى غير معروف، وكان ينسب إلى مؤلف مجهول، ويعد كتاب الحل الموشية من المصادر المهمة للبحث في تاريخ المرابطين والموحدين، ومرحلة البدايات من دولة بني مرين، لا سيما حول الظروف السياسية التي رافقت قيام أسرة بني عبد الحق من ملوك بني مرين، حيث يسرد فيه المؤلف أسماء سلاطين بني مرين حتى حدود عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م، وعلى الرغم من ارتباط كتاب الحل بمدينة مراكش إلا أنه لا يقدم مادة مختصة بمراكش بالذات العاصمة المركزية ذات الأبنية الفريدة الضخمة لكل من دولتي المرابطين والموحدين، وكانت الغاية من تلك التسمية التركيز على الأحداث الكبيرة التي تجري في بلاد المغرب الأقصى خاصة فيما تعلق بالصراع الإسلامي الأوروبي والصراع المرابطي الموحيدي،

(١) كان لزمان قريب مؤلف الحل مجهول الهوية والنسب، ولا يعرف عنه إلا أنه عاش في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ولاحقاً عرفت هويته وهو ابن سماك العاملي الغرناطي، وقد وجد المرء أنه من دواعي التعريف أن يذكر الجهود التي بذلها الدكتور علي مكي في تقديم الإيضاحات حول أسرة أبي القاسم العاملي الغرناطي، وأنه نفس الشخص = الذي قام بتأليف كتاب " الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المؤثرة" الذي ألفه أبي القاسم العاملي لتمجيد الدولة المرينية في ظل السلطان محمد الغني بالله، ومن خلال المقدمة يشير الدكتور علي مكي إلى أبي العلاء محمد بن السماك الغرناطي هو نفسه الذي ألف أيضاً كتاب الحل الموشية؛ مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧٩-١٩٨٠م، ص ٤٠-٤٤.

ويقدم كتاب الحلل نصوص ووثائق غاية في الأهمية فيما يتعلق بمرحلة الحكم الموحيدي الخاصة بهذا البحث مثل الحقائق والخطط العسكرية وفنون القتال، والأسلحة وأنواعها، والنشاط البحري والأساطيل الحربية البحرية الموحدية التي فرضت نفسها كقوة لا يستهان فيها في مغرب البحر المتوسط.

١٠- كتاب " أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام " لمؤلفه محمد بن عبد الله بن سعيد السليمانى الغرناطى والمشهور بلقب لسان الدين بن الخطيب المتوفى عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م، حيث ألف لسان الدين هذا الكتاب بمناسبة البيعة لسلطان مريني لم يبلغ الحلم بعد، ولكن لسان الدين تجاوز في كتابه سلطان المرينيين مؤرخاً لبعض الدول الإسلامية في المشرق والمغرب، والذي يهتم موضوع البحث هو القسم الثالث الذي تناول فيه تاريخ بلاد المغرب في القسم المغربي أي المغرب الأدنى والأوسط والأقصى حتى قدوم الموحدين في بداية حكمهم، لاسيما المعلومات القيمة حول المادة الإخبارية عن النشاط السياسي للموحدين في الجانب الشمالي من البحر المتوسط، كما أن هناك مصادر أخرى وهي لا تقل أهمية عن المصادر التي تم ذكرها وسيتم الإشارة إليها في البحث.

٢ المصادر الجغرافية وكتب الرحالة:

إنَّ المصادر الجغرافية الإسلامية من أفضل المواد التي استند إليها البحث خاصة في الفصل الأول، وكانت هذه المصادر متفاوتة من حيث غزارتها ومادتها العلمية، أو من حيث كونها مصادر مغربية أو مشرقية أو أندلسية، وكان قسماً كبيراً من هذه المصادر يذكر الأنشطة السياسية والاقتصادية والمسالك التجارية، ولذلك يمكن الرجوع إليها لأكثر من غرض، ومن أشهر تلك المصادر:

١- كتاب " الجغرافية أو بسط الأرض في الطول والعرض " لمؤلفه أبي الحسن علي بن موسى الغرناطى المتوفى عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، والذي يعرف ابن سعيد المغربي، من أسرة اشتهرت بعلمها وآدابها من الأندلس، عاصر ابن سعيد ووالده الدولة الموحدية، وكان ابن سعيد بالإضافة إلى كونه جغرافياً صاحب أدب وبلاغة، حيث أسهم مع والده في إتمام تأليف كتاب " المغرب في حلى المغرب "

الذي كان الابتداء في تأليفه منذ زمان جده عبد الملك، وكان هذا الكتاب من الكتب التاريخية الأدبية الفريدة التي تحدثت عن مناطق ومدن في غرب الأندلس والمغرب بطريقة أدبية ووصفها بدقة، وكانت الأهمية الواضحة لكتاب "الجغرافيا" لابن سعيد المغربي في الدقة المميزة في تحديد مواقع المدن، والبلاد خاصة المغرب والأندلس باستخدام خطوط الطول والعرض، بالإضافة إلى الدلالة على الطرق والمسالك التجارية، وأنواع بعض السلع والمنتجات التجارية والصناعات والزراعات وغيرها.

٢- "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني بالمشهور بالإدريسي من علماء القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وكتاب الإدريسي من أغزر الكتب العلمية التي اعتمدت عليها المصادر اللاحقة خاصة في المدن ودراساتها، ووصف السكان، والموقع والمسافات والأقاليم، لاسيما إن كتاب الإدريسي قريب في تأليفه من المرحلة الزمنية التي قدم فيها الموحدون إلى بلاد المغرب، وقد التزم المؤلف في وصف المناطق الدقة، والتفصيل للمناطق والمدن والأقاليم مع السكان المحليين، وملهم وعقائدهم، بالإضافة أن الإدريسي كان قد يصف كل المشاهدات التي لاحظها الإدريسي في تنقلاته كالتضاريس الطبيعية مثل الجبال، والسهول، والأنهار، والبحار، ومن هنا كانت الأهمية الكبيرة لكتاب الإدريسي الذي قدمه كتحفة فريدة للملك روجر الثاني ١٠٩٥-١١٥٤م ملك صقلية، وكل من جاء بعد الإدريسي من الجغرافيين أو حتى من المؤرخين عول كثيراً على وصف الإدريسي، خاصة فيما تعلق ببلاد المغرب ومدن الجمهوريات الإيطالية وبلاد كلابريا وصقلية.

٣- كتاب "الاستبصار في عجائب الأمصار" : ومؤلفه مغربي مجهول لا يعرف عنه إلا أنه من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وصف صاحبه من خلاله الأماكن المقدسة، ومصر، ومن بعدها بلاد المغرب وصولاً إلى بلاد السودان وفق تسلسل يتناسب مع الموقع والامتداد الجغرافي، والشيء الذي يجعل كتاب الاستبصار متميزاً عن غيره من الكتب أن هذا المؤلف قد كان معاصراً للخلافة الموحدية، وكان كتابه أيضاً بمثابة تقرير في تفاصيل دقيقة ذكرها صاحبه بتكليف من الخليفة يعقوب المنصور الموحدي، وبالتالي لمس الكتاب

جانباً دقيقاً من المعلومات الجغرافية، والحضارية، والاقتصادية المتعلقة بالدولة الموحدية، خاصة في التزام المؤلف منهجاً ثابتاً التزم فيه حتى نهاية كتابه.

٤- كتاب " الروض المعطار في خبر الأقطار " لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد المنعم الحميري الصنهاجي السبتي المتوفى عام ٩٠٠هـ/١٤٩٥م، وهو من الكتب الجغرافية والتاريخية المرتبة على حروف الهجاء، قام المؤلف بترتيبه على هيئة المعجم الجغرافي، والشيء المتميز لكتاب الحميري هو أنه يربط المدن والمواقع الجغرافية مع الأحداث التاريخية الخاصة بكل منطقة بشكل مختصر، إلا أنه لم يذكر المسافات التي تفصل البلاد عن غيرها مثل الإدريسي وابن سعيد المغربي، ولكن كتابه امتاز بالمعلومات الدقيقة والغنية التي أفادت البحث خاصة فيما تعلق بالحواضر الأندلسية والمغربية.

٥- كما أفادت بعض المصادر الجغرافية الباكورة التي تحدثت عن بلاد المغرب والأندلس في الحقبات التي سبقت القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، مثل المصادر المشرقية التي كتب أصحابها عن بلاد المغرب والأندلس، مثل كتاب " مسالك الممالك " لمؤلفه أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي المتوفى عام ٣٤٥هـ/٩٥٧م ، وهو من كتب الجغرافية العامة التي تحدثت عن الأقاليم الجغرافية السبعة المعروفة في العصور الوسطى ومن بينها بلاد المغرب، والأندلس، وصقلية، وإيطاليا، مع ذكر الإصطخري للميزات الخاصة بكل بلد تقريباً، والكتاب الآخر هو " صورة الأرض " الذي ألفه أبو القاسم محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي المتوفى عام ٣٧٧هـ/٩٨٨م والمعروف بابن حوقل كان أحد الرحالة المثقفين الذين امتهنوا التجارة وسافروا في الأمصار البعيدة وعرفوا خواص الأقاليم، وطبائع الشعوب وعادات الناس، وكان ابن حوقل قد اطلع على كتاب المسالك لأبي إسحق الإصطخري، وقد اعتمد ياقوت الحموي على كتاب ابن حوقل في كتابه " معجم البلدان"، حيث كتب ابن حوقل أيضاً عن بلاد المغرب وصقلية، ولذلك يمكن عد كتاب الإصطخري وابن حوقل من كتب الجغرافية العامة التي استفاد منها البحث حول الطبيعة الجغرافية لبلاد المغرب والأندلس، بالإضافة إلى الأجناس البشرية المقيمة فيهما.

٦- كتاب " رحلة بنيامين التطيلي " لمؤلفه بنيامين بن نونة التطيلي المتوفى عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م، فقد كانت الرحلة التي قام فيها بنيامين من أطول الرحلات التي قام فيها الرحالة الأندلسيين، وهو من يهود الأندلس الذين سكنوا سرقسطة ومكثوا فيها بعد سقوطها بيد المسيحيين عام ٥١٢هـ/١١١٨م، وكان اتجاه رحلته من إيبيريا إلى إيطاليا وصولاً إلى الدولة البيزنطية، ثم هبوطه جنوباً إلى بلدان العالم الإسلامي، ثم يتجه بعد ذلك شرقاً إلى الصين، ويعود أدراجه إلى شواطئ الهند، ثم سواحل شبه الجزيرة العربية، وبعد ذلك يعبر البحر الأحمر ليصل إلى أسوان، والقاهرة، وصعيد مصر، والإسكندرية ثم إلى صقلية، وكانت كتابات بنيامين التطيلي غاية في الأهمية بكونها عاصرت دولة الموحدين، والشيء الآخر الذي تميزت فيه كتابات بنيامين التطيلي هي انفراده في الحديث عن السكان اليهود في البلاد التي زارها، والأعمال التجارية التي كانوا يقومون فيها، لذلك كان مصدراً غنياً حول المادة التي ذكرت أهل الذمة من اليهود، لاسيما الحقبة الزمنية التي عاشت فيها الجماعات اليهودية في ظل الحكم الإسلامي الموحيدي.

٧- كتاب " رحلة التيجاني " لصاحبه أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني المتوفى عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، ينتمي التيجاني إلى أسرة تونسية أصولها من المغرب الأقصى، قدمت إلى تونس مع الجيش الموحيدي الفاتح لإفريقية بقيادة الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بن علي، واستقرت هذه الأسرة في تونس، تتقل التيجاني في رحلته بين القطرين المغربيين طرابلس وتونس برفقة أحد ملوك بني حفص في أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وقد امتازت كتابات التيجاني بالمعلومات الزاخرة ذات الدلالات الأدبية والجغرافية والتاريخية والاجتماعية التي أفادت في تقصي ومعرفة أخبار بعض المدن والبلاد من المغرب الأدنى خاصة فيما تعلق بأخبار بني غانية الميورقيين، والمعارك التي دارت رحاها بينهم وبين الموحدين، ومساعي بني غانية للسيطرة على تونس والمناطق المحيطة فيها.

٨- كتاب " رحلة ابن جبير " لمؤلفه أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنايني الشاطبي الأندلسي المتوفى عام ٦١٤هـ/١٢١٧م، ويطلق على كتابه أيضاً " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، وهو من أشهر كتب الرحلات وأكثرها تفصيلاً،

من حيث النواحي التي تحدث ابن جبير عنها في رحلته كالنواحي السياسية والاجتماعية، والأخلاقية، وعجائب المدن والبلاد التي زارها ابن جبير، بالإضافة إلى المساجد، والمستشفيات، والبيمارستانات، وكذلك الكنائس والقلاع والعواصف البحرية التي تعرّض لها مع أصحاب المركب الذين كان برفقتهم، بالإضافة إلى ميزات السفر البحري وأخطاره، والعلاقات بين المسلمين والمسيحية، والحروب المشرقية بين صلاح الدين والصليبيين، ويمكن أن يقول المرء إنّ ابن جبير لم يترك أيّ شيء صادفه، أو صغيراً أو كبيراً إلاّ دونه في كتابه مما يدل على دقة ملاحظته وسعة علمه، وليس للمرء أن يتطرق إلى الحديث عن تفاصيل رحلته ولكن يكفي هنا بذكر هذه الرحلة التي زار فيها ابن جبير بلاداً كثيرة من انطلاقه من بلاد الأندلس إلى المغرب، ثم مصر، والإسكندرية، والحجاز، من أغزر كتب الرحلات مادة وحجماً، وهي مرجع أصيل للمؤرخين قبل الجغرافيين ممن أراد الاطلاع على تلك الحقبة، والشيء الذي ميز ابن جبير عن غيره هو اقتران رحلته بالعصر الموحي وكان شاهد عيان على ذلك العصر، حيث قدم ابن جبير تفاصيل لا يستهان فيها عن البحرية التجارية الإيطالية، والعلاقات المتبادلة مع بلاد المغرب الخاضعة لسلطان الموحدين وكذلك مع بلاد الشرق الإسلامي، وذكر أشهر المسالك البحرية ما بين الأندلس والمغرب والشرق الإسلامي.

٣ كُتب التراجم والسير:

كانت كتب التراجم والسير ضرورية من أجل الرجوع إلى التراجم والسير الشخصية حول الشخصيات والأعلام التي وردت في موضوع البحث مثل الخلفاء الموحدين، وبعض القادة، وملوك بعض الدول الإسلامية التي تزامنت مع دولة الموحدين، كدولة المرابطين، وبنو غانية، وملوك الدول المسيحية الإسبانية وغيرها، ومن أشهر تلك المؤلفات كتابي "الحلة السيرة" و"التكملة لكتاب الصلة" لابن الأبار الأندلسي المتوفى عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، الذي كان مصدراً أصيلاً للعديد من الشخصيات المغربية والأندلسية، وكذلك كتب التراجم الأخرى مثل وفيات الأعيان لابن خُلّكان المتوفى عام ٦٨١هـ/١٢٦٠م، ومع أنه مشرقى إلا أنه ذكر تراجم لبعض المغاربة والأندلسيين، ولسان الدين بن الخطيب في كتبه التي تحدثت عن تراجم لشخصيات أندلسية ومغربية كثيرة مثل كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" وكتابه السابق المذكور سابقاً، كما كانت هناك فائدة أخرى

لبعض كتب التراجم أيضاً في إلقاء الضوء على بعض المعلومات التجارية والسياسية أيضاً حول الوضع العام في بلاد المغرب والأندلس.

د- المراجع

تتوعدت المراجع التي اعتمد عليها البحث، ومنها كان بحق متضمناً للمادة العلمية التي أغنت و خدمت موضوع البحث، وتعددت هذه المراجع فكان منها المغربي، والأندلسي، والمشرقي الإسلامي واللاتيني، ومن أشهر هذه المراجع كتاب " بجاية ميناء مغربي " وهو كتاب مترجم عن الفرنسية من تأليف الفرنسي دومينيك فاليريان، وترجمه إلى العربية علاوة عمارة، وطبعه ونشره عام ٢٠١٤م، وجاء الكتاب في جزأين تحدث فيه المؤلف عن أهمية مدينة بجاية، وأهميتها الجغرافية والتاريخية، وأعظم مراكز المغرب الأوسط في العصور الوسطى، وقد ذكر فيه المؤلف لمحة عن الدول التي قامت في المغرب الأوسط مثل الزيبيين، والحماديين، والموحدين، والحفصيين، والمعاهدات مع البلدان المسيحية، وكان كتاباً ضخماً غزيراً بالمادة العلمية حول المغرب وخاصة مدينة بجاية، وكان أيضاً كتاب " أطلس تاريخ الإسلام " لحسين مؤنس من الكتب بالغة الأهمية التي اعتمد عليها البحث خاصة الخرائط التاريخية للبقاع الجغرافية المذكورة في الحوض الغربي للمتوسط، وكان بالإضافة إلى الخرائط والرسوم الجغرافية شروح تاريخية سهّلت عملية البحث التاريخي خاصة في المصورات المتعلقة في جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية وبلاد قلورية وجنوب فرنسا، ومثله ، كما كان كتاب " التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية " للمؤلف س. د. جويتين من المراجع المهمة في التعريف بمجتمعات البحر المتوسط والعلاقات الناشئة فيما بينها، وكما هو معروف عن س. د. جويتين اهتمامه الواضح بالتاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، وكان قد استند في كتابه إلى وثائق جنيزة القاهرة التي أعانته في بحثه إلى حد كبير، أما النشاط التجاري والسياسي الصليبي لمدن الجمهوريات الإيطالية فقد كان كتاب الدكتور المرحوم عادل زيتون وهو " العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى " من المراجع الرئيسية التي استند عليها البحث، خاصة وإنّ مدن الجمهوريات الإيطالية مثل جنوة وبيزة والبندقية قد قامت بدور مماثل لها في الحوض الغربي كما هو في الحوض الشرقي للمتوسط سواء أكان

ذلك على الصعيد السياسي أو الاستراتيجي التجاري، ومن المراجع المغربية التي اهتمت بالنشاط السياسي والتجاري، وهو كتاب " سبتة الإسلامية " في عصر المرينيين والموحدين للأستاذ محمد الشريف وهذا الكتاب تحدث عن مكانة سبتة الإسلامية، وعلاقتها مع الممالك المسيحية مثل مرسيليا، ومملكة أراغون، ومدن الجمهوريات الإيطالية مثل جنوة، بالإضافة إلى العناصر التي تكونت منها سبتة كاليهود والمسلمين، كما كانت كتابات الدكتور أحمد توفيق المدني من المراجع التي عوّل عليها البحث فيما تعلق بشؤون صقلية وجنوب إيطاليا وهو بعنوان " السلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا" وقد ذكر فيه المدني معلومات قيمة عن صقلية، ومدنها وبلاد قلورية، وكيفية الفتح الإسلامي ووصول المسلمين حتى مشارف رومة، والكتاب الآخر " دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس" للدكتور أمين توفيق الطيبي وفيه أبحاث موفقة عن تاريخ المغرب والأندلس وجزيرة صقلية والسودانيين الأوسط والغربي، وكان كتاب اليهودي حاييم الزعفراني واسمه " يهود الأندلس والمغرب" من المراجع المهمة الخاصة باليهود، إذ تناول حاييم الزعفراني في كتابه يهود المغرب والأندلس في جميع أحوالهم وأنشطتهم الزراعية والصناعية والتجارية وتوزع الجماعات اليهودية في المغرب والأندلس، كما ذكر حاييم أشهر المهن التي اقتصت الجماعات اليهودية فيها مثل الصرافة والتجارة والطب والمهن اليدوية، وهناك الكثير من المراجع التي لا تقل أهمية عن سابقتها وسترد في فصول هذا البحث إن شاء الله.

كما لابد من الكلام عن الدراسات السابقة التي ألزمها واقع البحث وضرورته أحد الجوانب التي لا بد أن يذكرها المرء، ويذكر فضل أصحابها ومدى الاستفادة منها، ومع ذلك فقد كانت الدراسات التي تختص الحوض الغربي للبحر المتوسط دراسات قليلة نوعاً ما تكاد تكون نادرة، إذ أنّ الفضاء السياسي للبحر المتوسط كان دائماً متعلقاً بالصعود السياسي للدول التي انتشرت حول ضفتي المتوسط الغربي الشمالية والجنوبية مثل دولة المرابطين والموحدين والممالك الإسبانية ولكن الأبحاث ذات الصلة بالعلاقات السياسية والتجارية خاصة بين مدن ودول الجمهوريات الإيطالية مع الدول الإسلامية على المتوسط قليلة وقليلة جداً إن صح التعبير، وتعد على الأصابع ومن هذه الدراسات:

١- دراسة أطروحة دكتوراه للسيد رشيد باقة معنونة بـ " نشاط جنوة الصليبي والتجاري في سواحل بلاد المغرب من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي" وقد نوقشت بقسم التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأمير عبد القادر الجزائري للعلوم الإسلامية في قسنطينة عام ٢٠٠٧-٢٠٠٨م، وكان الجانب المهم فيها المادة الخاصة بالجانب السياسي والعسكري والتجاري وكذلك الحملات التي قام بها الجنويون على سواحل بلاد المغرب، والمبادلات التجارية بين جنوة والمغرب الإسلامي.

٢- دراسة أخرى للدكتور مصطفى نشاط وهي بعنوان: " جنوة وبلاد المغرب من سنة ١٢١٢هـ/١٢١٢م إلى عام ١٣٥٨هـ/١٣٥٨م إسهاماً في دراسة العلاقات الإيطالية المغربية في أواخر العصر الوسيط"، وهذه الدراسة مثل سابقتها تركزت على نشاط جنوة الإيطالية مع بلدان المغرب الإسلامي، وكان سياق الموضوع قد تحدث أيضاً عن نشاط المدن الإيطالية الأخرى السياسي والتجاري مثل بيزة.

٣- دراسة الفرنسي دومينيك فاليريان "Dominique Valerien" وهي عبارة عن أطروحة دكتوراه مقدمة في جامعة السوربون الفرنسية بعنوان " بجاية ميناء مغربي ١٠٦٧ - ١٥١٠ م"، وكانت هذه الدراسة من الأعمال المهمة التي تحدثت عن مركز مدينة بجاية ودورها الشهير في العصور الوسطى كأحد أهم مراكز المغرب الأوسط خاصة فيما تعلق بالعلاقات الإيطالية مع دول المغرب، بالإضافة إلى الدول التي قامت على أرضها مثل دولة الزيربين وبني حمّاد والموحدين والحفصيين، والعلاقات السياسية لمدينة بجاية مع مدن الجمهوريات الإيطالية.

٤- الدراسات التي قام فيها الباحث الألماني س. د. جويتين " S.Helomo Dove Goitein " وهذه الدراسات تمركزت حول وثائق الجنيزا، حيث كانت هذه الوثائق من أشهر المصادر التي تحدثت عن اليهود، ومن هذه الدراسات التي نشرها جويتين " S.D.GOITEIN: A Mediterranean society, The Jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo Geniza, " وعنوان هذه الدراسة بالعربية " مجتمعات البحر المتوسط، المجتمعات اليهودية في العالم العربي كما تصورها وثائق الجنيزا" وهذه الدراسة يتحدث فيها جويتين عن المراسلات بين اليهود والأماكن التي سكنتها المجتمعات اليهودية في العصور الوسطى، بالإضافة إلى الأنشطة والأعمال التي قام فيها

اليهود خاصة التجارة، لذلك كانت هذه الدراسة من الدراسات المفيدة فيما اختص المجتمعات اليهودية.

هـ- خطة البحث

استدعت ضرورة العمل في هذا البحث المعنون بـ "مغرب البحر المتوسط في العصر الموحيدي" إلى تقسيمه إلى خمسة فصول بالإضافة إلى الفصل التمهيدي، وكان الاعتماد على الاختصار، وعدم الإطالة، والإيجاز مع المحافظة على جوهر العمل وخدمة الغرض العلمي الذي قام البحث على أساسه وتضمن الفصل الأول من البحث الكلام عن مغرب البحر المتوسط أو الحوض الغربي للبحر المتوسط مع الحدود الجغرافية لأشهر البلاد التي تطل عليها، مع ذكر القوى السياسية والدول التي تقاسمت السيادة على الحوض الغربي للبحر المتوسط بما في ذلك الشمال الإفريقي وبلاد الأندلس والجنوب الإيطالي خلال القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي.

أما الفصل الثاني فقد تم من خلاله إبراز نشأة دولة الموحدين، وبداية الدعوة لها بزعامة محمد بن تومرت ومن بعده خليفته عبد المؤمن بن علي، وأهم الجهود التي بذلها عبد المؤمن بن علي في توطيد أركان الدولة الموحدية والعقبات التي واجهته في ذلك، والمعارك التي خاضها عبد المؤمن بن علي ضد المناوئين لدولته.

وجاء الفصل الثالث مكتملاً لما جاء في الفصل الثاني حول دولة الموحدين الناشئة وخلفاء عبد المؤمن بن علي ابتداءً من الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ابن علي حتى عهد الخليفة محمد الناصر الموحيدي، وكانت هذه الحقبة التاريخية من العهود الذهبية للدولة الموحدية حيث استطاع الخلفاء الموحدون تثبيت أركان دولتهم، وبسط السيطرة على بلاد المغرب والأندلس، كما تضمن أيضاً علاقات الموحدين مع القوى السياسية الخارجية مثل بني غانية حكام جزر البليار (ميورقة منورقة اليابسة) والممالك المسيحية الإسبانية، والمعارك التي خاضها الموحدون مع بني غانية وممالك إسبانيا المسيحية بما في ذلك الانتصارات التي حققها

الموحدون ضد بني غانية والجيش المسيحية، وصولاً إلى نهاية عصر القوة للموحدين المتمثل بمعركة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م التي أنهت عصر القوة والازدهار الموحي إلى مرحلة التراجع والتدهور والسقوط، ولا بد من إشارة إلى أنه قد توقف هذا الفصل عند عهد الخليفة الناصر الموحي ولم يتابع خط السير حتى السقوط الأخير لدولة الموحيين عام ٦٦٨هـ/١٢٧٠م، نظراً للضعف الذي اعتري أركان الدولة الموحية، حيث لم تقم بأي دور سياسي فاعل ومؤثر في المنطقة .

أما الفصل الرابع فتضمن استعراض شامل لنشاط البحرية الإيطالية خاصة مدن الجمهوريات الإيطالية الساحلية مثل البندقية وجنوة وبيزة في الحوض الغربي للمتوسط، وخصوصاً العلاقات مع دول المغرب في العصر الموحي، وأبرز المعاهدات التي وقعها الخلفاء الموحدون مع تلك الجمهوريات خاصة بيزة وجنوة ذات النشاط السياسي والتجاري الصليبي في مشرق هذا البحر ومغربه، كما أوضح البحث أهمية جزر البليار كقاعدة كبيرة للعمل السياسي والتجاري مع بلدان المغرب العربي الإسلامي والممالك المسيحية الأخرى واستقلال ملوك بني غانية في حكمها ثم سيطرة الموحيين عليها وانحسار نفوذهم عنها لصالح سيطرة مملكة أراغون عليها بشكل نهائي

وكان الفصل الأخير وهو الفصل الخامس من هذا البحث قد سلط الأضواء على أهل الذمة من الجماعات اليهودية التي عاشت في ظل الحكم الموحي، بالإضافة إلى الدور الذي قامت فيه المجتمعات اليهودية في بلاد المغرب والأندلس والأنشطة والمهن التي اشتهر فيها اليهود تحت الحكم الإسلامي الموحي.

وانتهى هذا العمل بالخاتمة التي ذكرت فيها معظم النتائج والتوصيات التي آل إليها هذا البحث.

ثانياً-الفصل الأول:

أشهر دول الحوض الغربي للبحر المتوسط

عشية قيام دولة الموحدين القرن السادس الهجري/ الثاني عشر

الميلادي

- ١- تعريف مغرب البحر المتوسط مع الامتداد الجغرافي.
- ٢- توزع القوى السياسية في الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي في نهاية عصر المرابطين وعشية قيام دولة الموحدين:
- أ-المغرب العربي الإسلامي.
- ب- بلاد الأندلس (شبه الجزيرة الإيبيرية).
- ج- دولة المرابطين.
- د- مدن الجمهوريات الإيطالية البحرية (جنوة وبيزة والبندقية).
- هـ- النشاط السياسي والتجاري
- و- النورمانديون في جنوب إيطاليا وصقلية.
- ز- بنو غانية حلفاء المرابطين وحكام الجزائر الشرقية وجزر البليار ٥٢٠-٥٩٩هـ/١١٢٦-١٢٠٣م.
- ح- بنو حماد حكام المغرب الأوسط وملوك القلعة وبجاية ٣٩٨-٥٤٧هـ/١٠٠٧-١١٥٢م.
- ط- الممالك المسيحية في شمال الأندلس.

١. تعريف مغرب البحر المتوسط مع الامتداد الجغرافي.

يقصد بمغرب البحر المتوسط: الجزء الغربي أو الحوض الغربي من البحر المتوسط الذي يمتد على أجزاء واسعة من قارتي إفريقيا وأوروبا، حيث تُطلُّ عليه بلداناً كثيرة ابتداءً من بلاد الشمال الإفريقي، وهي بلدان المغرب العربي الإسلامي بأجزائه الثلاثة: المغرب الأدنى، والأوسط، والمغرب الأقصى، وكذلك بلاد الأندلس (إسبانيا اليوم)، وجزر البليار (ميورقة ومنورقة واليابسة) ^(١)، وشبه الجزيرة الإيطالية بما في ذلك بلاد قلورية، وجزرها الكبرى المتمثلة بصقلية، وسردينيا وكورسيكا، بالإضافة إلى جنوب فرنسا.

يمتد البحر المتوسط على رقعة كبيرة من البلاد من المحيط الأطلسي غرباً حتى آسيا شرقاً، ويفصل قارة أوروبا عن إفريقيا متوسطاً بذلك قارات العالم القديم، وكان هذا البحر منذ قديم الزمان مهداً لحضارات إنسانية عديدة: كالفينيقية والرومانية والحضارة العربية الإسلامية، حيث شهد البحر المتوسط تنافسات سياسية وتجارية كبرى بين دول وامبراطوريات العالم، قديمه وحديثه عبر تاريخه الطويل، وكان هذا البحر ومايزال من أكثر المراكز الحيوية والاستراتيجية بين قارات العالم آسيا وإفريقية وأوروبا، لذلك كان من الطبيعي أن يكون إحدى محطات الصراع بين القوى المتنازعة من أجل فرض سيادتها وهيمنتها من بين تلك الأطراف، وقد تمكن بعضها أن يسيطر عليه سيطرة شبه تامة من كافة جوانبه - إن صح القول - كالإمبراطورية البيزنطية صاحبة الهيمنة العظمى في البر والبحر، والقوة العربية الإسلامية الناشئة التي جاءت بعدها في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، ونجحت في تفتيت وحدة القوة البيزنطية إلى حدٍ ما مضعة بذلك قبضتها على مياه المتوسط ما بين مشرق البحر ومغربه.

(١) وهي مجموعة جزر (أرخبيل) في غرب المتوسط، بالقرب من الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الإيبيرية، وجزيرة ميورقة من أكبر هذه الجزر، وسيرد التعريف فيها بشكل مفصل في الفصل الرابع.

٢. توزع القوى السياسية في الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي في نهاية عصر المرابطين وعشية قيام دولة الموحدين:

لقد بدا النشاط العربي الإسلامي واضحاً في الحوض الغربي للمتوسط منذ القرن الأول/السابع الميلادي، وذلك من خلال الفتح المنظم الذي قام فيه العرب المسلمون في الأجزاء الغربية للبحر المتوسط في القسم الأوروبي و الشمال الإفريقي، مثل المغرب الكبير (شمال إفريقية) بجميع أقطاره المعروفة الآن: ليبيا وتونس، والجزائر، والمغرب، وموريتانية، وبلاد الأندلس (إسبانيا اليوم) وجنوب فرنسا، وإيطاليا، والجزر الكبيرة التابعة لها وأشهرها صقلية، وكورسيكا وسردينيا، وجزر البليار، وقد دانت معظم تلك البلاد للسيطرة العربية الإسلامية بدءاً من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي وأصبح البحر المتوسط بشقيه الشرقي والغربي تحت السيطرة العربية الإسلامية إلى حد كبير، وهذا ما دفع المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون أن يصف تلك القوة العظيمة للبحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط بالقوة الضاربة التي أفلقت حركة البحرية المسيحية في حوض المتوسط، بقوله: " " وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدّة وعدداً، واختلّفت في طرقه سلماً وحرباً، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح " (١).

وهنا لابد من التعرف على أبرز القوى السياسية التي نشأت في مغرب البحر المتوسط، مع التنويه على اقتصار مجال العمل هنا على القرن السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، وتحديدًا في مرحلة صعود نجم دولة الموحدين، ونجاحها في توحيد بلاد المغرب والأندلس تحت راية واحدة، بعد أن تمكنوا من القضاء على دولة المرابطين وحلفائهم لاحقاً في المغرب والأندلس، والقوى الأخرى المتمثلة بالممالك المسيحية الإسبانية في شمال ووسط الأندلس، وجنوب إيطاليا (بلادقلوريا) وجنوب فرنسا.

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م، ج١، ص ٤٥١.

أ- المغرب العربي الإسلامي:

١ موقع بلاد المغرب وأهميتها الحضارية:

شكل المغرب العربي الإسلامي مسرحاً كبيراً للصراعات التي أخذت أشكالاً متعددة إما سياسية، أو اقتصادية، أو دينية حسب غاياتها وأهدافها المطلوبة وكان هذا الصراع إما داخلياً من جهة أو خارجياً سعى إلى فرض هيمنته ونفوذه عليه من جهة أخرى، وأمام هذا البلد الكبير ذو المناطق الشاسعة يصعب على المرء بمكان معرفة معظم بلدانه، وأحداثها المتعلقة بها من دون ذكر التقسيمات لاسيما تلك التي كانت قائمة في العصور الوسطى، وتم الرجوع في التقسيم المذكور إلى كتاب " تقويم البلدان " وهو من تأليف أبو الفداء ^(١) الملك المؤيد صاحب حماة المتوفى عام ٧٣٢هـ / ١٣٣١م، الذي قسم أقطار المغرب الكبير إلى ثلاثة أقسام هي: المغرب الأدنى والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وقد بدء تقسيمه بالمغرب الأقصى ذو الامتداد من البحر المحيط غرباً إلى تلمسان شرقاً، ومن سبتة إلى مراكش ثم سجلماسة ^(٢) وما يجاورها شمالاً وجنوباً، ثم يليه المغرب الأوسط الذي يمتد من شرقي وهران على مسيرة يوم من تلمسان إلى حدود مملكة بجاية من جهة الشرق، ومن ثم تأتي حدود المغرب الأدنى الذي يستمر

(١) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب المعروف أبي الفداء صاحب حماة، ومع أنه كان من أصحاب السلطة والنفوذ إلا أنه لم يكن بمعزل عن العلوم والقراءة والتأليف، الصفدي، خليل بن أبيبك: الوافي بالوفيات، اعتناء يوسف فان إس، دار فرانز شتايز، ط٣، بيروت، ١٩٩١م، ج٩، ص ١٧٣-١٧٥.

(٢) مدينة في جنوبي بلاد المغرب من طرف بلاد السودان، والمسافة بينها وبين مدينة فاس عشرة أيام، في منقطع جبل درن وسط رمال الصحراء، يمر فيها نهر كبير، تشتهر بنخيلها وكثرة أنواعه؛ الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٣، ص ١٩٢.

في امتداده إلى إفريقية^(١) ثم إلى برقة إلى حدود الديار المصرية، كما أن البر الذي يتم العبور بواسطته من إفريقية إلى الأندلس يدعى بر العدو^(٢).

٢ أشهر الدول الإسلامية في المغرب حتى قبيل قيام دولة الموحدين:

دانت بلدان المغرب للفتح العربي الإسلامي منذ القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وامتد الفتح العربي الإسلامي حقبة زمنية لا يستهان بها تقارب السبعين عاماً، نظراً للمقاومة العنيفة التي لقيها العرب المسلمون من الشعوب المغربية التي كانت مزيجاً من الروم البيزنطيين وقبائل البربر، فضلاً على المساحات الشاسعة لبلاد المغرب، وصعوبة طبيعتها الجغرافية التي لم يتمكن العرب المسلمون من تثبيت أقدامهم فيها بشكلٍ منظم حتى عام ٨٦هـ/ ٧٠٥م^(٣)، وأصبح المغرب بعد استقرار العرب المسلمين فيه قاعدة الانطلاق الرئيسية إلى مناطق الشمال من القارة الأوروبية، وسيجري الكلام عن ذلك لاحقاً.

كما كانت بلدان المغرب العربي الإسلامي مسرحاً لعددٍ لا يستهان فيه من الدول والامبراطوريات الإسلامية التي كان لكلٍ منها طابعها الخاص، ومذهبها الفكري والعقائدي المختلف عن الآخر، ومن أشهرها: دولة الأدارسة الزيدية ١٧٢-٣٦٤هـ/ ٧٨٩-٩٧٥م، وقد أسسها إدريس بن عبد الله^(٤) الذي يعود بنسبه

(١) وهي التسمية القديمة التي كان يطلقها الجغرافيون العرب المسلمون على تونس والمناطق المحيطة فيها.

(٢) أبو الفداء، إسماعيل: تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، ص ١٤٤.

(٣) مؤنس، حسين: الفتح الإسلامي للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ص ٥٧.

(٤) إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب، مولده سنة ١٢٧هـ والمعروف بإدريس الأول، استطاع أن ينجو من المعركة التي وقعت مع العباسيين وهي معركة فخ عام ١٦٩هـ/ ٧٨٦م، وتوجه إلى المغرب وأنشئ الدولة التي عرفت بالمغرب بالدولة الإدريسية؛ الرازي، ابن سهل، أحمد: أخبار فخ، تح: عبد المطهر حجر، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، ط ١، صعدة، ٢٠٠٠م، ص ٥٦ ومايليها؛ ابن فندق، علي: لباب الأنساب والألقاب والأعقاب، تح: مهدي الرجائي وآخرون، الخزنة العامة للمخطوطات الإسلامية، ط ٢، د.م، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٤١٢.

إلى الإمام علي بن أبي طالب، وكان مركز دولته في فاس، والدولة الرستمية الإباضية الخارجية في المغرب الأوسط التي اتخذت من تاهرت عاصمة لها ١٦٠-٢٩٦هـ/٧٧٧-٩٠٨م^(١)، ودولة الأغالبة السنية في إفريقية (تونس) ١٨٤-٢٩٦هـ/٨٠٠-٩٠٩م الذين نجحوا في إقامة الدعوة للعباسيين في المغرب الأدنى، وكان لها دوراً كبيراً في تحقيق الاستقرار والأمن في إفريقية، لاسيما الفتوحات والجهود المثمرة التي قام بها الأغالبة من خلال فتح صقلية وجنوب إيطاليا وجنوب فرنسا^(٢)، والدولة الفاطمية في المغرب ٢٩٧-٣٤١هـ/٩١٠-٩٥٣م التي استطاعت أن تفرض سلطانها من المغرب الأقصى غرباً وحتى إفريقية شرقاً^(٣)، ونوابهم من بني زيري الذين اتخذوا مدينة المهدية عاصمة لحكمهم، ولم يلبث الزيريون بقيادة ملكهم بلكين بن زيري الصنهاجي^(٤) أن عهدوا إلى أخيه حماد بن بلكين بولاية الجزائر، وكوّن بنو حمّاد ٣٩٨-٥٤٧هـ/١٠٠٨-١١٥٢م سلالة حاكمة مستقلة بالمغرب الأوسط حتى قضى عليها الموحدون عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م^(٥)، ودولة المرابطين التي لا بد من الوقوف عندها قليلاً لعلاقتها مع الموحدين وتداخلها معها في النفوذ والامتداد.

ب- بلاد الأندلس (شبه الجزيرة الإيبيرية):

منذ أن استقر الوجود العربي الإسلامي في بلاد الأندلس بعد الفتوحات الإسلامية الناجحة لها، تأسست في تلك البلاد نواة الدولة الإسلامية التي كانت

(٢) شبانة، محمد كمال: الدويلات الإسلامية في المغرب، دار العالم العربي، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٩-٢٠.

(٣) شبانة: الدويلات الإسلامية، ص ١٥٦-١٥٧.

(٤) شبانة: الدويلات الإسلامية، ص ٣٠.

(٥) بلكين بن محمد بن حمّاد بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي ت ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، رابع ملوك بني حماد، كان شجاعاً جباراً جريئاً على العظام مقداماً سفاكاً للدماء، قتل الكثيرين ممن حامت حولهم شكوكه لا سيما زوجته ابنة عمه أخت الناصر بن علناس، وكانت نهايته على يد الناصر بن علناس؛ نويهض، عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط ١، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٤٤.

(١) شبانة: الدويلات الإسلامية، ص ١١٤-١١٥.

إحدى القواعد والمراكز الإسلامية الكبرى، حيث انتقل تأثيرها الفكري والحضاري إلى جميع بلدان أوروبا في العصور الوسطى.

كانت بلاد الأندلس أرضاً طيبة من أجود البلاد في الخير والعطاء، ومدنها من أجمل حواضر الأمم فخامة وأناقة، لاسيما العاصمة قرطبة التي كانت تضاهي أكبر الحواضر الإسلامية آنذاك مثل بغداد والقاهرة علماً وبناءاً، وقد أفاضت المصادر الإسلامية وغير الإسلامية في الحديث عن طبيعة بلاد الأندلس وجمالها، والوصف الأدبي البليغ الذي يستحق أن يسوقه المرء في هذا المجال هو وصف أبي عبيد البكري ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ^(١) في كتابه المعروف بـ " المسالك والممالك" بقوله عن بلاد الأندلس: " الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستواءها هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظيم جبايتها، صينية في معادنها وجوهرها فيها آثار عظيمة من الأوائل أهل الحكمة والفلسفة " ^(٢).

لقد مرت القوة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس بخمسة أزمنة أو عصور تراوحت فيها قوة العرب المسلمين بالقوة والسيطرة، والضعف والانكماش، فكان العصر الذي بدأ المسلمين مد سيادتهم فيه على بلاد الأندلس يدعى عصر الولاة ٩١-١٣٨هـ/ ٧١١-٧٥٦م، وكانت الأندلس فيه ولاية شامية تابعة للخلافة الأموية بدمشق، ومن ثم عصر الدولة الأموية ١٣٨-٣١٦هـ/ ٧٥٦-٩٢٩م، وهو أزهى العصور الأندلسية، والذي يقسم إلى قسمين : عصر الإمارة وكانت الأندلس مستقلة فيه عن الخلافة العباسية ببغداد، وعصر الخلافة عندما أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة ولقب بالناصر لدين الله، والعصر الثالث :عصر ملوك الطوائف ١٠٣١-١٠٨٦م حيث انتهى عصر الخلافة وتحولت الدولة الأموية إلى دويلات

(١) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري ، يرجع نسبه العربي إلى قبيلة بكر بن وائل من أكبر قبائل ربيعة في جزيرة العرب، وهو جغرافي وموسوعي من أكبر الجغرافيين الذين عرفتهم الأندلس، وحياته العلمية غزيرة من أهل الآداب واللغة الواسعة؛ ابن بشكوال، أبي القاسم ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم وأدبائهم، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلاميين ط ١، تونس، ٢٠١٠م، ص ٣٧٦؛ ابن خاقان، الفتح بن محمد ت ٥٢٩هـ: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط ١، الأردن، ١٩٨٩م، ق ١، ص ١٨٩.

(٢) البكري: المسالك والممالك، ج ٢، ص ٨٩٤.

متنازعة فيما بينها، وازداد فيه التدخل الإسباني في شؤون الحكام المسلمين وشهدت البلاد مرحلة من التقهقر والانكماش في القوى الإسلامية في الأندلس لصالح تمدد الممالك المسيحية التي قامت بحروب الاسترداد لاستكمال السيطرة على كامل بلاد الأندلس، والعصر الرابع هو عصر السيطرة المغربية أو الحكم المغربي لبلاد الأندلس ٤٧٩-٦١٢هـ / ١٠٨٦-١٢١٤م، وفي هذا العصر شهدت بلاد الأندلس مرحلة جديدة من إعادة موازين القوى إلى حد ما أمام الزحف المسيحي على المدن الإسلامية بالأندلس، وتمثل ذلك بصعود قوة المرابطين ومن ثم الموحدين المغاربة الذين تمكنوا من توحيد الصف الإسلامي تحت سيادتهم، وتوجيه ضربة عسكرية للزحف الإسباني المتكالب على ديار الإسلام في معركتي الزلاقة ٤٧٨هـ / ١٠٨٦م والأرك، وقد انتهى هذا العصر بهزيمة الموحدين في معركة العقاب عام ٦٠٩هـ / ١٢١٤م أمام الممالك الإسبانية المتحالفة، وقد أعقب تلك المدة مرحلة أخرى من ملوك الطوائف وانتهت ببقاء مملكة وحيدة هي مملكة غرناطة، والعصر الأخير هو عصر وجود ملوك بني الأحمر في غرناطة أو الدولة النصرية وهو آخر العصور الإسلامية في الأندلس وبدأ منذ عام ٦٢٧هـ / ١٢٣١م وانتهى عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م أي في عام سقوط غرناطة بيد الملك فرناندو الثاني والملكة إيزابيلا، وكان ذلك هو العام نفسه الذي اكتشف فيه كريستوف كولومبوس أمريكا (١).

وطالما العصر المنشود في هذا العمل هو عصر الموحدين المغاربة الذي يستحق أن يأخذ جانباً كبيراً من العناية والاهتمام، نظراً للأهمية الكبيرة لهذا العصر من حيث المتغيرات المحلية والدولية في القوى الإسلامية والمسيحية في ذاك العصر، فلا بد من عرض موجز عن أحوال دولة المرابطين لمعرفة الأوضاع السياسية العامة عن بلاد المغرب والأندلس عشية قيام دولة الموحدين الذين استطاعوا تقويض أركان دولة المرابطين عام ٥٤١هـ / ١١٤٧م، وتمكنوا لاحقاً من تأسيس إمبراطورية قوية على غرار المرابطين في بلاد المغرب والأندلس.

(١) العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص ٢٨٥-٢٨٧.

ج- دولة المرابطين ٤٤٧-٥٤١هـ / ١٠٥٦-١١٤٧م

كانت دولة المرابطين إحدى الدول الإسلامية التي عاشت في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، تلك الدولة التي تركت بصمة واضحة في ثنايا العصور الوسطى، وتجلت الأهمية السياسية والدينية لدولة المرابطين من خلال الخدمة الجليلة التي قدمها المرابطون في المغرب والأندلس من خلال الدفاع عن بلاد الإسلام، وحماية الممتلكات الإسلامية من تهديد الأخطار الخارجية التي كانت تُحدّق بديار العرب والإسلام، وعلى رأسها التهديدات المسيحية المتمثلة بحروب الاسترداد، والهجمات المتكررة الشرسة على حواضر الإسلام في بلاد الأندلس والمغرب والبحر المتوسط، في الزمن الذي كانت التفرقة والاختلاف بين ملوك الطوائف هي أهم ما تميز به ذلك العصر، ورمزاً من رموزه، وبالطبع كان الطرف الآخر الذي تمثل في قشتالة المسيحية المركز المسيحي المتقدم في حروبه ضد الإسلام والمسلمين، حيث قام ملكها ألفونسو السادس^(١) ٤٣١-٥٠٢هـ/ ١٠٤٠-١١٠٩م بتوحيد ممالك أوروبا المسيحية، واتفقوا على سحق القوى الإسلامية في بلاد الأندلس، الواحدة تلو الأخرى، وقد وجد ملوك الطوائف أنه لا بد من التوجه لطلب العون من خارج بلاد الأندلس، نظراً لانعدام الثقة ببعضهم وسعي كل واحد منهم للتكيل بالآخر، وتمثل ذلك العون في شخص زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين من أجل الحفاظ على عروشهم بالدرجة الأولى وحماية بلاد المسلمين من غارات الإسبان المتكررة على مدن الإسلام وحواضره بالأندلس، بعد العجز الواضح الذي أثبتته هؤلاء، لاسيما بعد سقوط طليطلة بيد ألفونسو السادس عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، وكان

(١) هو الابن الثاني للملك فرناندو الأول ملك قشتالة وليون (Alfonso VI)، تقاسم هو وأخوته مملكة أبيهم، وكان أخيه سانشو Sansho ملكاً على قشتالة، وغرسيا ملكاً على جليقية، هزم ألفونسو السادس أمام المرابطين هزيمتين ساحقتين هما معركة الزلاقة ومعركة إقليش التي قتل فيها ولده سانشو وتوفي ألفونسو حزناً على فراق ابنه وولي عهده بفترة قصيرة؛

المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية هو الشخصية الأرقى^(١)، والأكثر قوة وشهرة من بين ملوك الطوائف، وقد لقي طلبه أذناً صاغية من قبل زعيم المرابطين، الذي قام بالعبور بجيشٍ من المغاربة إلى الأندلس عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م، واشتبك مع جيوش إسبانيا بقيادة ملك قشتالة ألفونسو السادس في موقعة الزلاقة في العام نفسه، وقد أبلى فيها المسلمون المرابطون مع الأندلسيين بلاءاً حسناً، ضربوا خلالها أروع أمثلة الشجاعة والثبات أمام عدوٍ غاشم متعطرس، وأصبحت معركة الزلاقة من المعارك الفاصلة في التاريخ شأنها شأن القادسية واليرموك، وغيرها من أمهات المعارك الكبرى في الإسلام التي كان أهم نتائجها: كسر شوكة الصليبيين وإبعاد خطرهم المتكالب على بلاد الإسلام في الأندلس، ورفع الروح المعنوية عند الأندلسيين والإطاحة بعروش ملوك الطوائف، حيث عادت بلاد الأندلس موحدة مع أجزاء المغرب الخاضعة لسلطان المرابطين^(٢) لتشكل سداً منيعاً، وقوة عظمى تمتد على بلاد واسعة من بجاية في الجزائر شرقاً حتى بلاد السوس الأقصى غرباً، ومن تافيلالت إلى السودان جنوباً، وبلاد الأندلس برمتها^(٣).

ولكن كما هو معروف - وهي حالة أي دولة أو قوة من القوى - لم تبقَ أحوال البلاد على حالها واستقرارها بعد وفاة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين حيث بدأت متغيرات جديدة تظهر على قوة الدولة المرابطية في عهد خليفته علي ابن يوسف^(٤) ٤٧٦-٥٣٧هـ / ١٠٨٣-١١٤٠م، تمثلت بدايتها في سقوط بعض

S.P.Scott: History Of The Moorish Empire in Europe, ^(١) PHILADELPHIA and LONDON, published marsh, 1904AH, vol2, p.176-177.

(١) الصُّلابي، محمد علي: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، دار المعرفة، ط٣، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) شبانة، محمد كمال: الدويلات الإسلامية، ص ٣٨.

(٤) أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني الصنهاجي خامس حكام دولة المرابطين في المغرب والأندلس، بلغت فيه الدولة المرابطية في بداية عهده أوج قوتها، ولكن احتدام الصراع في عهده مع دولة الموحدين أضعف دولته وجعل البلاد في حالة من الاضطراب والفوضى؛ الذهبي، محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ: الإعلام بوفيات الأعلام، تح: مصطفى بن علي وآخرون، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٣٥٨؛ الحنبلي، عبد الحي

المدن الأندلسية بأيدي الإسبان الذين استمروا في حروب الاسترداد ولم يركنوا إلى المسالمة، وكان عجز المرابطين واضحاً عن استعادة ما فقد من أيديهم لصالح استفحال قوة ممالك إسبانيا المسيحية التي توحدت الآن، ونبذت كل ما بينها من تفرقة وانقسام، بالإضافة إلى استبداد كبار رجالات المرابطين في شؤون البلاد، واستحواذ النساء على تصريف شؤون كثيرة في الدولة، ولا بد في هذا المقام إلا أن يسوق المرء وصف المؤرخ عبد الواحد المراكشي المتوفى عام ٦٤٧هـ/١٢٥٠م صاحب كتاب " المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، عندما تحدث عن الحالة التي وصلت فيها قوة المرابطين وقوة سلطانهم بقوله: "اختلفت حال أمير المسلمين - رحمه الله - بعد الخمسمائة اختلافاً شديداً، فظهرت في بلاده منابر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين، وأحق بالأمر منه، واستولت النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله ويقوى ضعفه وقنع باسم إمرة المسلمين، وعكف على العبادة والتبتل، فكان يقوم الليل ويصوم النهار، مشتهراً عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال، فاختل عليه لذلك كثير من بلاد الأندلس، كادت تعود إلى حاله الأول" (١).

بالإضافة إلى وجود عوامل أخرى أسهمت في إضعاف دولة المرابطين، مثل الموقف السلبي للفقهاء الذين أصبحوا أصحاب الكلمة الأولى الحل والربط بأيديهم، وتعاضمت شوكتهم حتى على أرباب السلطة في قراراتهم، لاسيما في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، عندما اتخذوا قراراً بحرق كتب الإمام الغزالي، وأخذوا موافقة السلطان علي بن يوسف في ذلك عام ٥٠٥هـ/١١٠٩م، وتم إحراقها أمام جمع كبير من الفقهاء، ذلك مما أثار موجة كبيرة من السخط على تصرفات هؤلاء الفقهاء وسط الأندلسيين، والأهم من هذا وذاك هو صعود نجم محمد بن تومرت

بن أحمد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط وآخرون، ط١، بيروت، ١٩٨٦م، ج٦، ص ١٨٩.

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تص: محمد سعيد العريان وآخرون، مطبعة الاستقامة، ط١، القاهرة، ١٩٤٩م، ص ١٧٧.

صاحب الدعوة الموحدية، الذي أعلن حرباً شعواء ضد المرابطين والفقهاء، متهماً إياهم بالبعد والانحراف على أحكام الشريعة الإسلامية، وقد استطاع ابن تومرت أن يوسع قاعدة دعوته، ويتخذ من التوحيد مذهباً له، وتمكن هو وخليفته عبد المؤمن بن علي من بعده تأسيس دولة الموحدين التي أنهت حكم المرابطين بعد سقوط عاصمة ملكهم مراكش بيد عبد المؤمن بن علي عام ٥٤١هـ/١١٤٧م^(١)، وهذا ما سيتم تفصيله في الفصل المقبل إن شاء الله.

د- مدن الجمهوريات الإيطالية

شهد القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي تبديلاً واضحاً في العلاقات التجارية والسياسية في الغرب الأوروبي ككل وفي المدن الإيطالية على وجه الخصوص، فقد نشأت قوة جديدة نافست السيادة الإقطاعية، واقتسمت معها المصالح والنفوذ، وكانت مدن الجمهوريات الإيطالية السباقة ممثلة في جنوة وبيزة، والبندقية التي ازدهرت فيها حركة النشاط التجاري، وظهرت فيها أوجه النشاط الاقتصادي ومؤسساته، ولذلك لا بد من تقديم لمحة سريعة عن الموقع الجغرافي قبل الحديث في النشاط التجاري والسياسي لتلك الجمهوريات من خلال الرجوع إلى المصادر العربية الإسلامية الأصلية التي ذكرت تلك البقاع، والجزر الكبيرة في الحوض الغربي للمتوسط وذكرها بمسمياتها:

هـ- لمحة جغرافية عن مدن الجمهوريات الإيطالية والجزر الكبيرة في الحوض الغربي:

ذكر الرحالة والجغرافيون المسلمون بلاد إيطاليا، وقد صنفوا موقعها الجغرافي في أجزاء الإقليم الخامس عامة، بما في ذلك المدن الساحلية والداخلية وأشهر هذه الدول:

(٢) شبانة: الدويلات الإسلامية، ص ٤٦.

١ جمهورية بيزة:

وهي معروفة عند بعض العرب المسلمين ببش أو ببشة، فيذكرها الحميري صاحب كتاب "الروض المعطار" نقلاً عن الإدريسي بقوله: "ببش: من قواعد بلاد الروم، مشهورة الذكر، كثيرة القطر، عامرة الأسواق والديار، كثيرة البساتين والجنات، متصلة الزراعات معاقلها كثيرة، وأرضها خصبة ومياها مغدودة وآثارها عجيبة، ولأهلها مراكب واستعداد لركوب البحر وقصد البلاد، وهي على نهر يأتي إليها من جبل بناحية انكبردة، وهو نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين" (١).

وقد ذكر القلقشندي (٢) ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م في كتابه الشهير "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" بأن البيازنة من الفرنج، وعاصمة ملكهم مدينة بيزة التي تقع على الركن الشمالي من بلاد الأندلس، مقابل جزيرة سردانية، غرب بلاد الروم، وليس لهؤلاء البيازنة ملك يعودون إليه، بل يتبعون لبابا رومة خليفة المسيحيين، وإليها ينتسب البيازنة وكذلك الحديد المعروف بالحديد البيزي (٣).

٢ جمهورية جنوة:

من أعرق المدن الإيطالية وأقدمها بناءً وعمارة، وخير وصف للمدينة قول الإدريسي فيها: "جنوة مدينة قديمة أزلية البناء، حسنة الجهات والأفناء، بنيانها شاهق السمو، وهي وافرة الثمر، كثيرة المزارع والقرى والعمارات، وعلى مقربة منها

(١) الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط ٢، بيروت، ١٩٨٤ م، ص ١٤٢، وكما ذكر بالأعلى بأن صاحب الروض قد نقل حرفياً عن الإدريسي الذي ذكرها في الجزء الثاني من الإقليم الخامس، الإدريسي، محمد بن محمد: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢ م، ص ٧٥٠.

(٢) شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي ثم الفزاري نسبة إلى قبيلة فزارة الغطفانية العربية، مؤرخ وأديب بارع، له مؤلفات ومصنفات عديدة؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تح: محمد أمين وآخرون، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤ م، ج ١، ص ٢٥١.

(٣) القلقشندي، أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٥ م، ج ٥ ص ٤١١.

نهر صغير، وأهلها تجار مياسير، يسافرون براً وبحراً، ويقتحمون سهلاً ووعراً، ولهم أسطول مخيف، ولهم معرفة بالحيل الحربية والآلات السلطانية، ولهم بين الروم عزة أنفس" (١).

وموقع المدينة كما ذكر القلقشندي: "وهي على غربي جون عظيم من البحر الرومي، والبحر فيما بينها وبين الأندلس يدخل في الشمال، وهي غربي بلاد البيازنة، وهي مدينة كبيرة للغاية في ذيل جبل عظيم، وميناءها عليه سور، وفيها من أصناف الفواكه، ودور أهلها عظيمة، وهذه الدور هي أشبه بالقلاع، لذلك ليس هناك حاجة لإقامة سور خارجي للمدينة، وفيها عيون ماء كثيرة تكفي السكان وبساتينهم" (٢).

٣ جمهورية البندقية:

تقع جمهورية البندقية - المسماة فينيسيا - شمال شرق إيطاليا، وتطل على الخليج المسمى باسمها، وهذا الخليج بدوره مطّل على البحر الأدرياتيكي (٣)، والبندقية عبارة عن عدة جزر صغيرة يتم التنقل بينها بالزوارق، وكانت البندقية سبّاقة في ميدان الأعمال التجارية والملاحة البحرية، والسيطرة العسكرية التي حولتها فيما بعد إلى امبراطورية، وجلّ مباني البندقية من الخشب، ولكل مبنى زورقه الخاص به، ولا يمتلك أصحاب المدينة شوارع يمشون عليها ذهاباً وإياباً مثل باقي المدن، باستثناء البساط الذي أقاموه من أجل راحتهم إذا أرادوا المشي والملك الذي يتولى شؤونهم من بين أنفسهم ويطلق عليه "الدُج" أو "الدوك" وهو موسر الحال يمتلك أخشاباً عظيمة كثيرة، وعلى شاطئ بحر البندقية يقوم هنالك جبلٌ يطلق عليه جبل أشكفونية، غني بالأخشاب والسناقر، وهو مكان للرجال

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق ، ص ٧٤٩-٧٥٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٠٥-٤٠٦.

(٣): البحر الأدرياتيكي أو بحر البنادقيين أو بحر البنادقة، أحد فروع البحر المتوسط يفصل شبه الجزيرة الإيطالية عن شبه جزيرة البلقان، يحده من الغرب والشمال إيطاليا ومن الجهة الشرقية صربيا وسلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك وألبانيا، طول البحر الأدرياتيكي في أقصاه ٧٧٠ كم وعرضه ١٦٠ كم؛ البحر الأدرياتيكي/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

الشجعان أصحاب الخبرة في النزاع والتنافس البحري مع الجنوبيين، وإلى الجنوب من بحر البندقية توجد عاصمة البلاد روما مقر القاعدة البابوية (١).

وقد تكلم القلقشندي عن مملكة البنادقة عندما ذكر بلاد الروم بأنهم من الفرنج وبلادهم إلى الشرق من بلاد الأنبرديين (٢)، وقاعدة ملكهم البندقية، وهي قريبة من جنوة من جهة البر حيث المسافة بينهما ثمانية أيام،، أما من جهة البحر فالمسافة بينهما بعيدة نحو مسيرة الشهرين (٣).

٤ جزيرة سرّدانية أو سرّدينية:

وهي ثاني أكبر الجزر في البحر المتوسط من حيث المساحة، وتأتي بعد جزيرة صقلية مباشرة، وفي هذه الأيام إحدى الأقاليم التي تتمتع بالحكم الذاتي وموقعها متوسط بين إيطاليا وإسبانيا وتونس وجنوب جزيرة كورسيكا، وقد ذكرها ياقوت في "معجم البلدان": "جزيرة في بحر المغرب ليس هناك بعد الأندلس وصقلية وإقريطش أكبر منها، وقد غزاها المسلمون وملكوها في سنة ٩٢هـ/٧١١م في عسكر موسى بن نصير" (٤)، وقد ذكر أرشيبالد لويس (٥) Archibald

(١) ابن سعيد المغربي، علي: كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٧٠م، ص ١٨٢.

(٢) وهي التسمية ذاتها التي تطلق على بلاد الأنكردة أي البلاد التي خضعت لسيطرة اللومبارديين، وسيرد الحديث عنها ص ٥٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٠٤-٤٠٥.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، مج ٣ ص ٢٠٩.

(٥) مؤرخ أمريكي من مواليد نيويورك عام ١٩١٤م، درس في جامعات هارفارد وبرينستون وحصل على الليسنس والماجستير والدكتوراه من جامعة برينستون الأمريكية، وعمل مدرّساً للتاريخ، كما كانت لديه اهتمامات كثيرة بالتاريخ الإسلامي وترجم كتباً كثيرة مثل "الفنون الإسلامية" و"رصيد البنك الكبير"؛ لويس، أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، تر: محمد أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص ١٠؛ [أرشيبالد](#)

لويس / <https://ar.wikipedia.org/wiki/لويس>

Ross Lewis بأن جزيرة سردانية لم تحتلها قوات إسلامية بالمعنى الصحيح وإنما كانت تسعى للسيطرة على مياه المتوسط آنذاك (١).

٥ جزيرة كورسيكا:

وجاء اسمها عند المؤرخين والجغرافيين العرب المسلمين جزيرة قرسقة وهي إحدى جزر الأوروبيين تقابل مدينة روما، وبالقرب من جزيرة سردانية، وبينها وبين ساحل تونس أربعة أيام، كانت تتبع للروم، وقد خربها المسلمون قديماً وأرضها خصبة عامرة، كثيرة الخير والنعم، مشهورة بمراسيها الشتوية الكثيرة ومن هذه المراسي مرسى البوالص، ومرسى الزيتونة، وطولها مئة وستون ميلاً وفي القبلة منها جزيرة سردانية بينهما عشرون ميلاً (٢).

وذكر حسين مؤنس في كتابه "أطلس تاريخ الإسلام" بأنه كان جزءاً كبيراً من السواحل الجنوبية والغربية لجزيرة كورسيكا تحت السيطرة الإسلامية وكان الفاطميون قد اتخذوا لهم قواعد فيها ضمن خططهم التي كانت تهدف إلى السيطرة على مياه المتوسط، والتحكم في الحركة الملاحية فيه (٣).

٦-بلاد الأنكبردة:

عرّف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون البلاد التي خضعت لسيطرة اللومبارديين ببلاد أنكبردة، أو بلاد النويرد أو الأنكبردية، واللومبارديين أو النورمانديون وهم قومٌ من الجرمان، استوطنوا في شمال إيطاليا منذ النصف الثاني للقرن السادس الميلادي، وأخذوا يتوسعون على حساب الشعوب الأخرى، وحتى هذه الأيام يوجد أحد الأقاليم الإيطالية يدعى إقليم لومبارديا شمالي البلاد على الحدود مع سويسرا، ويقول الجغرافي ابن سعيد المغربي (٤) ت ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م

(١) لويس، أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية، ص ٢٣٧.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٤٧٧.

(٣) مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٢٩٠.

(٤) نور الدين أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي المغربي (Ibn Said al-Maghribi) مؤرخ وشاعر وعالم بالأدب وجغرافي بارع، قام برحلة طويلة زار فيها مصر والعراق والشام، وله مؤلفات كثيرة

عند حديثه عن مرسيليا إن بلاد الانكبردة تقع إلى الشرق من مرسيليا، وقاعدة بلاد الأنكبرديين ملان أي ميلانو، ويضيف القلقشندي بأن بلاد الأنكبردة ناحية من الأرض الكبيرة، وتحيط فيها الجبال إلى حدود جنوة، وملكهم هو صاحب القسطنطينية ^(١)، وبلاد الأنكبردة بلاد واسعة من بلاد الإفرنج بين القسطنطينية والأندلس، تأخذ على طرف بحر الخليج بمحاذاة جبل القلال والمعروفة اليوم بسلسلة جبال الألب، وتمر بمحاذاة ساحل المغرب إلى أن تتصل بقلورية ^(٢).

والأندلس، تأخذ على طرف بحر الخليج بمحاذاة جبل القلال - وهي سلسلة جبال الألب - وتمر بمحاذاة ساحل المغرب إلى أن تتصل ببلاد قلورية جنوب إيطاليا ^(٣).

و- النشاط السياسي والتجاري:

كما تمت الإشارة مسبقاً، فإن المدن الإيطالية لاسيما جنوة وبيزة والبندقية نشأت فيها حركة الازدهار والانتعاش التجاري، وتحول ذلك الازدهار إلى قوة حقيقية نافست السيادة الإقطاعية الزراعية، ونظر النبلاء إلى التجار على أنهم أعداء النظام الإقطاعي، ولكن الحركة التجارية فرضت نفسها، وكونت حركة تدعى بالحركة القومونية ^(٤) في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ضد القوة الإقطاعية ومن خلفها طبقة النبلاء والأساقفة والبابوية بشكل عام، بحيث

وغزيرة منها بالأدب والتاريخ والشعر والجغرافية؛ ابن سعيد المغربي، علي: المرقصات والمطربات؛ <https://ar.wikipedia.org/wiki/>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ، ج ٥، ص ٤١٥.

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧٣.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧٣.

(٤) اصطلاح قومون يعني تعريفاً: هي المدينة التي تتمتع بالاستقلال السياسي والحكم الذاتي، من أجل تحقيق أغراض تخدم المصالح التجارية، ويتم اختيار الحاكم عن طريق سكان البلد نفسه عن طريق اختياره بأنفسهم دون أن يكون هناك سيد أو حاكم خارجي؛ زيتون، عادل: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، دار دمشق للطباعة والنشر، ط ١، دمشق، ١٩٨٠م. ص ٣٠.

أنه تشكل في كل بلد من هذه البلاد قوموناً خاصاً بها بما يخدم متطلباتها المادية (١).

لقد كانت طبقة التجار تشكل القوة المحركة لعجلة التطور السريع الذي شهدته مدن الجمهوريات السالفة الذكر، وكان الموقع الجغرافي الذي تمتعت به تلك المراكز من أكثر العوامل تشجيعاً على الازدهار التجاري في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين^(٢)، هذا الازدهار الذي مكن إيطاليا أن تشغل دوراً كبيراً في تاريخ العصور الوسطى، وتتميز فيه عن غيرها من بلدان غرب أوروبا مثل إسبانيا وغاليا [فرنسا]، حيث بقيت الصناعة والتجارة سارية المفعول في المدن الإيطالية تجري فيها روح القوانين الرومانية، بينما انعدمت مثل هذه الطبقات في الغرب الأوروبي عموماً^(٣).

إن الجانب المهم الذي لا بد من طرح مسائله في هذا المقام هو النشاط السياسي والتجاري للمدن الإيطالية بيزة وجنوة والبندقية في منطقة البحر المتوسط، لاسيما دور إيطاليا في الحروب الصليبية، ونشاطها العسكري التجاري في البلاد العربية الإسلامية، حيث كان النشاط التجاري والسياسي الذي أبدته المدن الإيطالية مستمراً طيلة مدة العصور الوسطى دون انقطاع يذكر، مع وجود التنافس الكبير في فرض مناطق السيطرة والنفوذ بين الجمهوريات الإيطالية مثل التنافس الجنوبي البندقي، والتنافس الجنوبي البيزي، وكانت مدن الدولة البيزنطية وشواطئ البحر الأسود مرتعاً خصباً لتجارة التجار الإيطاليين باعتبار أن قسماً لا يستهان فيه من هذه البلدان كانت تخضع لتاج بيزنطة في القسطنطينية، بالإضافة إلى وجود العلاقات التجارية بين مدن إيطاليا البندقية وجنوة وبيزة مع سواحل بلاد الشام ومصر، مثل المعاهدات التجارية التي وقعتها جنوة وبيزة والبندقية مع الدولة الفاطمية، والسلطين الأيوبيين، ومن بعدهم المماليك في مصر وبلاد الشام، والسؤال الذي يفرض نفسه هنا، هل كان النشاط السياسي والمعني به العسكري

(١) زيتون: العلاقات الاقتصادية ، ص ٢٩.

(٢) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ٢٨.

(٣) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ٢٨.

هنا مترافقاً بالنشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية الثلاثة؟ وما هو الدور الذي أدته مدنيات إيطاليا في الحوض الشرقي والغربي للمتوسط عموماً؟

قبل الحديث عن قدوم القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وتبيان نشاط المدن الإيطالية في البحر المتوسط، فلا بد من الإشارة إلى أن البندقية كانت صاحبة الصدارة بين مدن الجمهوريات الإيطالية التي استطاعت أن تقوم بعلاقات تجارية وسياسية قبل ذلك بكثير، لاسيما في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ونجاحها في إنشاء قواعد تجارية لها في الإسكندرية، وأنطاكية وطرابلس الشام، وقد كان ذلك النشاط نتيجة لسياسة التسامح التي انتهجها الخلفاء الفاطميون بعد زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي ٣٨٥-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢١م^(١)، حيث كان دور البنادقة واضحاً بين القسطنطينية والإسكندرية وعكا وصور، وسفن البندقية تنقل بضائع الشرق إلى الغرب الأوروبي وتجلب بضاعة الغرب إلى أسواق الشرق والقسطنطينية^(٢).

ولم تكن جمهورية بيزة على الحياد، فقد كانت السلطة في بيزة حريصة على تقوية علاقتها التجارية مع الدولة الفاطمية، وقامت بيزة بإرسال سفراء لها إلى الخلافة الفاطمية في مصر، لتسوية علاقاتها معها لاسيما بعد مرحلة من العلاقات المتردية، حيث تمكن السفير البيزي رينبيه من عقد اتفاقية تعهدت فيها بيزة بالآل تساعد الصليبيين في الشام أو في أي مكان آخر، وتعهدت الخلافة الفاطمية في مصر بالسماح للتجار البيزيين بممارسة نشاطهم التجاري في مصر ومنحهم فنادق في الإسكندرية والقاهرة، وتوطدت علاقة بيزة مع بلاط القاهرة في عصر الدولة الفاطمية، وحصلت على المزيد من الامتيازات مثل تخفيض الضرائب وحماية التجار البيازنة وأموالهم وممتلكاتهم في أراضي الدولة الفاطمية

(١) واسمه المنصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن عبيد الله المهدي ويكنى أبو علي، الخليفة الفاطمي السادس ٣٧٤-٤١١هـ/٩٨٥-١٠٢١م، جرى في عهده العديد من الحوادث والحركات الدينية، وكان هناك جدل كثير حول وفاته، ولكن الرواية الأكثر شهرة أنه قتل بتدبير من أخته ست الملوك، له ترجمة وافية عند المقرئزي: اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٩٩٦م، ج، ص ٣-١٢٣.

(٢) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ١٩٠.

شريطة أن لا يتعاون البيزيون مع أية حملة صليبية ضد مصر، ولكن السياسة المزدوجة لجمهورية بيزة قد تكرر أيضاً مع جمهورية بيزة مثل البندقية، حيث وقّع البيزيون أيضاً اتفاقاً مع الصليبيين في بيت المقدس تعهدوا فيه بأن لا ينقلوا إلى مصر الحديد، والقار، والخشب، وأن يدعموا الصليبيين، ويشاركوا في الحملات الصليبية على مصر، لقاء الحصول على بعض الامتيازات في المدن الصليبية في الشام، وهذه السياسة المزدوجة كانت تجلب الأضرار للمصالح البيزية في أراضي الدولة الفاطمية، ولذلك كانت جمهورية بيزة دائمة السعي بعد كل تعكر في العلاقات إلى إعادة كسب ود حكومة القاهرة الفاطمية، والحصول على الامتيازات الاقتصادية^(١).

وكانت جنوة مثلها مثل سابقتها من المدن الإيطالية، تحرص على إقامة العلاقات الطيبة مع الدولة الفاطمية، وتسير قوافلها التجارية إلى مدن الدولة الفاطمية في الشام ومصر، وقد وقعت جنوة مع حكومة القاهرة معاهدة تجارية على غرار المعاهدات السابقة التي وقعتها المدن السالفة الذكر، تضمنت السماح للتجار الجنوبيين بالقدوم إلى الإسكندرية، وهذا بدوره أدى إلى ازدهار التجارة الجنوبية، لا سيما تجارة النطرون والشب التي احتكرتها الدولة الفاطمية في تجارتها مع بلاد الروم، وكان التجار الجنوبيون بالوقت الذي يمارسون فيه تجارتهم في الشام، ومصر، كان من أبناء جلدتهم ممن يشتركون في الحملات الصليبية على الساحل الشامي ضد العرب المسلمين الذي يتاجرون معهم، وعلى الرغم من ذلك كانت التجارة رائجة، وكانت مدينة الإسكندرية من أشهر المراكز التي تركزت فيها نشاط التجارة البندقية ومينائها من أكبر الموانئ في الحوض الشرقي للمتوسط^(٢).

وفي منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي حدثت تبدلات حقيقية في تقاسم أدوار القوة في مشرق البحر المتوسط ومغربه، ففي السواحل الشامية كانت الإمارات الصليبية مازال قائمة على امتداد الساحل السوري والدولة الأيوبية قد نهضت على انقاض الدولة الأتابكية الزنكية، واستطاع صلاح الدين الأيوبي توحيد بلاد الشام ومصر في جبهة واحدة، وإكمال مشروع الوحدة الذي

(١) زيتون: العلاقات الاقتصادية بين والغرب، ص ٢٠٩-٢١١.

(٢) زيتون: العلاقات الاقتصادية بين والغرب، ص ٢١٥.

قام به نور الدين زنكي، بعد القضاء على الدولة الفاطمية عسكرياً عام ٥٦٧هـ/١١٧١م وإعادة مصر إلى الدولة العباسية، وعلى الجانب الصليبي لم تتوقف المساعدات التي كانت تتلقاها الإمارات الصليبية في المشرق عن طريق الغرب الأوروبي، ومن هنا كان دور مدن إيطاليا في تقديم المساعدة للجيش الصليبية الغازية إلى بلاد الشام ومصر، مقابل الامتيازات والحصص التي تتلقاها من الأمراء العسكريين الصليبيين، ولذلك كان التجار البنادقة والبيازنة والجنوية يتدفقون إلى أسواق الشام ومصر بشكل مستمر، وكانت تخصص لهم أحياء في المدن الشامية والمصرية الساحلية مثل عكا والإسكندرية وبيت المقدس... إلخ، وأحياناً كانت تقوم تلك الدويلات الإيطالية بموقف مزدوج مع الصليبيين والمسلمين، وخير دليل على ذلك هو الدور الذي شغلته البندقية في علاقتها مع العرب المسلمين والصليبيين، عندما قامت بدعم الصليبيين في مواجهة السلطان صلاح الدين من أجل الحفاظ على امتيازاتها التجارية في المدن الصليبية، وعلى الجانب الآخر كانت تقوم بنقل السلع خاصة الأسلحة وعتاد القتال إلى المسلمين في بلاد الشام ومصر، وقد ورد ذلك في نص للرسالة التي بعث بها القاضي الفاضل من السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد والمؤرخة عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، وهي التي نقلها القلقشندي عنده في كتابه "صبح الأعشى"، وهنا سيتم الاكتفاء فقط بذكر ما يخص نشاط التجار الإيطاليين من نص الرسالة الأصلي إذ يقول: "... ومن هؤلاء: البنادقة والبياشنة والجنوية، كل هؤلاء تارة لاتطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، ونقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده، وكلهم قد قرّرت معه المواصفة، وانتظمت معه المسالمة، على مانريد ويكرهون، ونؤثر ولا يؤثرون" (١).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣ ص ٨١-٩٠.

ز- القوة المسيحية النورماندية في إيطاليا وصقلية

قبل الحديث عن قدوم النورمانديين إلى إيطاليا، وسيطرتهم على جنوب إيطاليا وصقلية، فإنه لابد من تقديم لمحة جغرافية عن موقع صقلية وبلاد قلورية الجغرافي من أجل التعريف بتلك البلاد، وقد تم ذلك من خلال الرجوع إلى المصادر العربية الإسلامية للجغرافيين العرب المسلمين، وكذلك مدونات الرحالة والمؤرخين العرب المسلمين أيضاً، بالإضافة إلى وجود المصادر الأخرى الغير عربية مثل كتابات المستشرقين الأوروبيين كما هو الحال كتاب المستشرق الإيطالي ميشيل أماري (Michele Amari) ^(١) "المكتبة العربية الصقلية" حيث جمع مادة لا يستهان فيها عن جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، لاسيما كتابات الجغرافيين عن موقع بلاد صقلية وطبيعتها الجغرافية، والفتح العربي الإسلامي للجزيرة وبلاد قلورية جنوب إيطاليا، بالإضافة إلى المصادر التي تحدثت عن القارة الأوروبية بشكل عام،

(١) ويدعى ميشيل أيضاً ميكيليكي أماري ١٨٠٦ - ١٨٨٩ م سياسي ومؤرخ ومستشرق ووطني إيطالي من مواليد باليرمو، كرّس جزءاً كبيراً من حياته من أجل صقلية وأسهم في تحريرها، وأصبح أماري شخصية بارزة أثناء الوحدة الإيطالية، وكان واسطة بين أعيان صقلية ورئيس وزراء إيطاليا وأقنع الصقليين بمساندة الحكومة من أجل الوحدة، وكانت مساعيهِ موفقة بنجاح كبير، ولكنه عام ١٨٢٠م شارك في حركة التمرد الانفصالية التي نشأت في صقلية، مما أغضب حكومة نابولي منه، فاضطر للجوء إلى فرنسا، وتعلم أماري العربية بإشراف المستعرب جوزيف توسان رينو 1867-1795م، واستكمل دراسة تاريخ صقلية رتب المخطوطات العربية الإسلامية في المكتبة الوطنية في باريس، وبعد نجاح ثورة الاستقلال في صقلية عام ١٨٤٩م عاد إلى جزيرة صقلية وأصبح نائباً في البرلمان ووزيراً للمالية ، ولكنه عاد من جديد إلى فرنسا بسبب إخفاق تجربة الاستقلال، وعاد من جديد وتبنى مشروع الوحدة الإيطالية، وعيّنته حكومة توسكاني أستاذاً لتاريخ العرب في جامعة بيزة وفي ميدان العمل التاريخي فقد تركزت أعمال أماري على جزيرة صقلية وعلاقاتها مع المناطق المجاورة لاسيما بلدان المغرب الإسلامي، والحقبة التي خضعت فيها صقلية للحكم العربي الإسلامي، وقام بتدريس اللغة العربية في جامعة فلورنسا ، وقام بين عامي ١٨٥٤م و١٨٧٢م بنشر الكتاب تاريخ العرب المسلمين في صقلية، جاء في ثلاثة أجزاء، وأصبح هذا الكتاب مرجعاً أساسياً في التاريخ العربي الإسلامي، وترجم هذا الكتاب إلى لغات متعددة، ميشيل أماري <https://ar.wikipedia.org/wiki/> ؛ الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين،

ط٧، بيروت، ١٩٨٦م، ج٧، ص٣٤٠.

وأعطت فكرة عامة عن أوروبا في العصر الوسيط، والتطور السياسي والتجاري الذي ظهر في جميع أنحاء خاصة في إيطاليا، ذات الصلة بالكرة التي سبقت إليها غيرها من دول أوروبا الغربية مثل ألمانيا وفرنسا مثل كتاب " تاريخ أوروبا في العصور الوسطى" وهو من تأليف موريس بيشتمت ترجمته إلى العربية " THE Middle Ages by Morris Bishop" ^(١) وكذلك أيضاً كتاب هنري بيرين ^(٢) " تاريخ أوروبا في العصور الوسطى" من المراجع التي أعطت فكرة عامة حول تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العصور الوسطى منذ نهاية عهد الإمبراطورية الرومانية وحتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وخاصة فيما يتعلق بإيطاليا، وتطور تجارتها، وتأثيرها على بقية دول أوروبا الغربية ^(٣).

ح- لمحة جغرافية عن صقلية وبلاد قلورية وجنوب فرنسا:

١- صقلية عروس البحر وإحدى فرائد الزمان، تتربع في منتصف البحر، وهي بوابة الغرب والشرق للبحر المتوسط معاً، فكل مركب أراد الإبحار غرباً لا بد له أن يستشعر بجمالها، وتحاكي نظراته قصة الحضارة على أرضها، ولمن أراد أن يتجه شرقاً لا بد أن يحمل من عطر ثراها قصة العروبة والإسلام التي سطعت يوماً في سماءها، وهي كما ذكرها الإدريسي ^(٤) بقوله: " صقلية فريدة الزمان فضلاً

^(١) وقد تمت طباعته ونشره، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٥م.

^(٢) Henri Pirenne (١٨٦٢-١٩٣٥م) مؤرخ بلجيكي أحد علماء العصور الوسطى، كتب تاريخاً متعدد اللغات بالفرنسية، كما استطاع أن يقدم بيرين مساعدة كبيرة في دراسة المدن التي كانت مثاراً للجدل في نهاية الحضارة الرومانية وانبعثت الثقافة الحضرية في العصور الوسطى، وبرز بيرين في المقاومة الغير عنيفة للألمان الذين احتلوا بلجيكا في الحرب العالمية الأولى؛ https://en.wikipedia.org/wiki/Henri_Pirenne

^(٣) بيرين، هنري: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.

^(٤) محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى بن علي بن حمود الحسني من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب المتوفى عام ٥٥٩هـ/١١٥٩م، وهو صاحب الكتاب الشهير " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي ألفه لملك صقلية روجر الثاني ١٠٩٥-١١٥٤م، وهو من مواليد سبتة عام ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م اختار الإدريسي الانتقال إلى صقلية بعد سقوط الدولة

ومحاسناً، ووحيدة البلاد طيباً ومساكناً، وقديماً دخلها المتجولون وأعجبوا بها، وأجمعوا على تفضيلها وعلو مقدارها ونطقوا بفضائلها، وفيها تجامع الحسن والخيرات، وملوكها من أجل الملوك وأعظمهم شأنها وأرفعهم همّة، وأشمخهم قدراً ومرتبة (١).

والجزيرة عبارة عن مثلث متساوي الساقين، زاويته الحادة من غربي الجزيرة، وطولها سبعة أيام في عرض أربعة أيام، وتقع إلى شرق الأندلس في لجّ البحر، ويحاذيها من بلاد المغرب بلاد إفريقية ومدينة باجة وطبرقة ومرسى الخزر (٢)، وإلى الغرب منها جزيرة قرشقة، وإلى الجنوب منها جزيرة قوصرة (بنطارية)، وعلى ساحلها البري الشرقي تقوم مدينة ريو ونواحي قلّورية (٣).

وذكر الجغرافي ابن سعيد المغربي موقع جزيرة صقلية في الجزء الثاني من الإقليم الخامس (٤) ووصف سكانها بقوله: "بياض أهلها ممتزج بالحمرة، وفيهم شقرة وزرقة في غالب الحال، ولا سيما في الإقليم السادس، والعرض عند آخره من خط الإستواء إحدى وأربعون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، ووسعه خمس درجات" (٥).

الإسلامية فيها، وهو الذي صنع لروجر كرة من الفضة تمثل له تخيله لخريطة الأرض، وقد وضع عليها مواقع كما هي على أرض الواقع، الصفيدي، خليل بن أبيك: الوافي بالوفيات، اعتناء: هلموت رينتر، فرانز شتاينر بفيسبادن، ط ١٢، د.ت، ١٩٦٢م، ج ١، ص ١٦٣-١٦٤. (١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٥٨٨-٥٨٦.

(٢) مدينة تقع إلى الشرق من مدينة بونة، وبينها وبين باجة مرحلة، وفيها المرجان الذي يعد من أفضل الأنواع ويلتف في البحر كالنفاق الشجر، وهذه المدينة محاطة بالبحر من جميع الجهات باستثناء جهة يسيرة تصلها بالبر، الحميري: الروض المعطار، ص ٥٦٠.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١١٣.

(٤) يتبع ابن سعيد في تقسيمه ما كان متبعاً في تقسيم العلماء والجغرافيين للأرض إلى سبعة أقاليم، وكل إقليم بدوره ينقسم إلى أجزاء، مثله مثل الإدريسي والبكري وغيرهم من من الجغرافيين.

(٥) ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافية، تح: إسماعيل العربي، ص ١٦٦.

وأكثر ما يميز صقلية عن غيرها جبلها الشهير المطل على البحر الذي يدعى بجبل النار، وهو جبل شاهق عظيم، يخرج منه دخان كثيف، وقد ذكر عبد الرحيم الغرناطي في كتابه "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" وصف النار التي تخرج من ذلك الجبل بقوله: "إِنَّ تِلْكَ النَّارَ تَضِيءُ عَلَى عَشْرَةِ فَرَاسَخٍ (1)، ولا يحتاج أحدٌ معه في تلك المواضع إلى ضوء ولا سراج في طريق، ولا في قرية كثرة ذلك الضوء ويخرج من تلك النار جمرًا كبار كأعدال القطن، يتقطع فيقع بعضها في البر فيصير حجرًا أبيض خفيفًا يطفو على الماء لخفته، والذي يقع في البحر يصير حجرًا أسود مثقبًا يحك به الأرجل في الحمام، يطفو على الماء أيضًا، وإن وقع جمرٌ من تلك النار على حجر أو رمل احترق الحجر واشتعل كما يشتعل القطن حتى يقع ذلك الحجر ويصير غبارًا كالكل، ولا يحرق الحشيش ولا الثياب إلا الحجارة والحيوان وهذه النار تشبه نار جهنم التي جاء ذكرها في القرآن الكريم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (2)، وتشتهر تلك الحجارة باسم الأظمة، وهي المعروفة بأظمة صقلية، وهي بيضاء خفيفة على شكل الشهد وأكوار الزنابير الصغيرة، وكانت تستخدم للكتابة عن طريق حكها في الدفاتر، وهذه الأظمة هي من عيون النار التي تتبع من الأرض (3).

وازدهرت مدن الجزيرة خاصة خلال الفتح الإسلامي لها، من خلال استحداث مدن جديدة وإدخال مزارع جديدة على أراضيها، وأشهر تلك المدن

(١) الفرسخ: وهي ثلاثة أميال هاشمية أو اثنا عشر ألف ذراع، أو عشرة آلاف؛ الفيروز أبادي: قاموس المحيط، ص ١٢٣٤.

(٢) سورة التحريم: الآية ٦؛ الغرناطي، أبي حامد عبد الرحيم: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: إسماعيل العربي، دار الآفاق الجديدة، ط ١، المغرب، ١٩٩٣م، ص ١٢٨.

(٣) المسعودي، أبي الحسن: مروج الذهب، اعتناء حسن مرعي، المكتبة العصرية، ط ١، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٢٨.

المعروفة منها بلرم التي كانت عاصمة الملك الإسلامي فيها ^(١)، ويعرفونها بالمدينة والفرنج يطلقون عليها بلارمة، وفيها يقيم الحضر من المسلمين، ولهم فيها مساجدهم وأسواقهم والأرباض الكثيرة ^(٢)، ومدينة بلرم مدينة مستطيلة لها سوقٌ يمتد من شرقها إلى غربها يعرف بالسماط، مفروش بالحجارة، ويشتهر بحركته التجارية المميزة، وللمدينة أبواب كثيرة من أشهرها باب البحر نظراً لقربه منه ^(٣).

ومن مدن صقلية المشهورة مدينة مسينا وهي مدينة صقلية التجارية كما يسميها ابن جبير، وفيها مواسم للتجارة، والجواري فيها من جميع البلاد، ذات أرزاق وعيش رغيد، وآمنة بالليل والنهار، وإلى الورا من هذه المدينة الجبال التي تطل عليها، ويعترضها البحر من جهتها الجنوبية، ومرساها من أعجب مراسي البلاد، لأن المراكب تقترب من المرسى حتى تكاد أن تتصل بالبر ومراكب المرسى كثيرة مصطفة إلى جانب بعضها، لكون البحر في ميناءها عميقاً ^(٤).

وهناك مدن كثيرة لا تقل أهمية عن سابقتها من المدن مثل مدينة شفلودي الخصبة، وقطانية على بعد ستة أميال من مسينا، وثرمة وقصريانة الحصينة وسرقوسة على شاطئ البحر ذات نشاط تجاري كبير، وكركنت الحصينة التي تشتهر بمرساها الكبير للسفن، ومدينة مازر المدينة الحصينة ذات الأسوار الشاهقة، وخيراتها الكثيرة، وفيها مرسى للمراكب، وإلى القرب منها مدينة أطرابنش المحاطة بالمياه من جميع جهاتها، ويعبر إليها عن طريق قنطرة بجانبها الشرقي ومرساها الضخم تلجأ إليه السفن الكبيرة في الشتاء ^(٥).

٢ - بلاد قَلُورِيَّة (كالابريا - Calabria):

تقع بلاد قَلُورِيَّة على الطرف المقابل لجزيرة صقلية وتبعد عن مسينا سبعة أميال، وتشكل الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الإيطالية، وهي في الجزء الثالث

(١) S.P.SCOTT : History Of The Moorish Empire in Europe ,vol2,p.11.

(٢) ابن جبير، محمد: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٢٩٦.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١١٦-١١٧.

(٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٩٦.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٦٠٠-٦٠١.

من الإقليم الرابع، وأشهر مدنها ريو (Riggio) المدينة العامرة بالأسواق والحمامات والخيرات الكثيرة كالفواكه، والبقول، وعليها سور حجري^(١)، ويصف ابن حوقل بلاد قلورية ويذكر أشهر مدنها بقوله: "قطعة من البر مدورة الشكل البر من أسفلها والبحر في أعلاها، وعلى ساحلها أشهر المدن من اليمين قسانة (Qussana)، ورسيانة (Rasiana)، قطرونية (Qatroniyah)، سبرينة (Saprina)، استلوا (Asti)، جراجية (Garage)، قسطقوقة (Custerquqa)، بوة (Bava)، ابن ذقتل (Ibn Thoktal)، كسشة (Cosenza)، مسنيان (Mesinian)، وأعلى هذه المدن في الجبل تقع شلورى (Chlora)، ثم على يسار الجبل وعلى الساحل تقع مدن ملف (AMALFI)، نابل (Napoli)، غيطة (Ghita)، بيش (piza)، وعلى يمين أرض قلورية يوجد خليج مثلث الشكل يدخل في البر، ويوجد على طرفيه مدينتي أذرننت (Arent) وبذرننت (Bazernet)، ويدعى ساحل هذا الخليج "جون البنادقيين"، وفيه جزر كثيرة متناثرة يسكن فيها سكان من أمم مختلفة كالإفرنجيين والصقالبة والبرجانيين وغيرهم"^(٢)، ويضيف الإدريسي إلى وصف ابن حوقل مدناً أخرى ويعطي عنها تفصيلاً أوفى من ذكرها فقط، مثل طارنت (Taranto) تلك المدينة القديمة ذات الخيرات والمباني الفاخرة، والأسواق المكتظة والأموال الكثيرة، بالإضافة إلى مرسى للسفن الكبيرة في ناحيتها الغربية، ويحيط البحر من جهاتها عدا الشمالية منها، ومدينة قليلي (Gallipoli) المدينة العامرة في منطقة متوسطة من السهل والبحر، وإلى القرب منها مرسى أنبانة الذي يضم عين ماء عذبة، ومدينة أذرانتو تقع على الرأس الذي يفصل بين بحر الشام وبحر البنادقة من جهة الغرب، وأسواق المدينة ومتاجرها كبيرة، ويحيط بها سور من ثلاث جهات ويحيط البحر بهذه الجهات أيضاً، وكانت تتبع لصاحب القسطنطينية^(٣).

وقد جاء ذكر صقلية وبلاد قلورية عند ياقوت الحموي، الذي ذكر أشهر مدنها، ولم تكن بالتفاصيل الدقيقة التي ذكرها الإدريسي، إلا أن وصفه واضحاً مختصراً، ذكر فيه أن صقلية إحدى جزر بحر المغرب، مثلثة الشكل بين كل

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٦٢٧.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٦٨.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٦٢٨-٦٣١.

زاوية والأخرى، ومسيرة الجزيرة كاملة خمسة عشر يوماً، وتقع إفريقية من جهة القبلية والغرب، وبينها وبين مدينة ريو على جهة الشمال الشرقي الذي توجد فيه مدينة القسطنطينية مجازاً يدعى الفار^(١).

وقلورية هي جزيرة إلى الشرق من صقلية، وسكانها من الإفرنج، ومدنها وبلادها واسعة، وينسب إليها أبو العباس القلوري^(٢).

٣- جنوب فرنسا وأشهر مدنه:

وهي الجزء السفلي من الأرض الكبيرة (مملكة الفرنج) كما كان يطلق عليها من قبل، والجزء الجنوبي من هذه البلاد هي المنطقة الممتدة من بلاد الأنكبردة وحتى بلاد الأندلس، ومن أشهر مدن ذلك الإقليم، برشلونة: وهي مدينة للروم تبعد عن مدينة طركونة^(٣) خمسين ميلاً، وبرشلونة من أشهر المدن الساحلية على البحر، لها مرسى مميز، لا يستطيع أي مركب الدخول إليه إلا من خلال معرفة مسبقة، ولها روض واسع وسورها منيع، ويتم الدخول إلى بلاد الأندلس عن طريق باب يدعى باب الجبل، وبرشلونة هي مقر ملك الفرنجة، وبرشلونة كثيرة الحبوب والحنطة والعسل، واليهود فيها يعدلون النصارى^(٤).

مدينة مرسيليا: تقع مرسيليا على الساحل الجنوبي الفرنسي والساحل الشمالي للبحر المتوسط، وهي في هذه الأيام ثاني أكبر المدن الفرنسية بعد العاصمة باريس، والمنفذ التجاري المهم فيها، مدينة ليون: ذكرها صاحب الروض المعطار في كتابه بكلمات مختصرة بقوله: "قاعدة من قواعد قشتالة عامرة، بها معاملات وتجارات، ومكاسب لأهلها وهمة ونفاسة"^(٥).

(١) الحموي: معجم البلدان، من خلال المكتبة العربية الصقلية، تح: ميخائيل أماري، مكتبة المثنى، بغداد، ص ١١٤.

(٢) الحموي: معجم البلدان، من خلال المكتبة العربية الصقلية، ص ١٣٣.

(٣) وتدعى طركونة اليهود مدينة على نحر البحر، لها سور من رخام أسود وأبيض، وكانت قديماً تشكل حداً فاصلاً بين بلاد المسلمين والفرنجة، وهي مدينة حسنة لها ميناء واسع، الإدريسي: نزهة المشتاق، مج ٢، ص ٧٣٤.

(٤) الحميري: الروض المعطار، ص ٨٦-٨٧.

(٥) الحميري: الروض المعطار، ص ٥٣٦، الشكل (٢) ص ٢٧.

٤- الفتح الإسلامي في جنوب فرنسا وتأسيس إمارة إسلامية:

عند تمكن العرب المسلمون من فتح بلاد الأندلس، تابعوا طريقهم في فتح المزيد من البلاد متجهين نحو مدن جنوب فرنسا (الأرض الكبيرة)^(١)، واستطاعوا السيطرة على مدن كثيرة من الساحل الجنوبي مثل برشلونة ومرسيليا وأربونة، واتجهوا شمالاً ووصلوا إلى مصب نهر الرون^(٢) وهاجموا مدينة آرلس عدة مرات^(٣)، إلا أن أعداد العرب المسلمين لم تكن كافية للسيطرة على هذه المساحات الشاسعة من تلك البلاد، واستطاع الفرنجة إعادة السيطرة التي تلك المدن، خاصةً بعد معركة بواتييه ١١٤هـ/٧٣٢م، وانتهت المحاولة الأولى لسيطرة المسلمين على الأرض الكبيرة التي امتدت من عام ٧٣٢-٧٥٩م، وكانت المحاولة الثانية عام ٨٩١-٨٩٤م عندما نجح بحارة أندلسيون ومغاربة في الاستيلاء على أرض حول جبل فرانكسنتوم بالقرب من سان تروبيرز على الساحل الفرنسي بين نيس وتولون، وكانوا يقومون بمهاجمة المنطقة الممتدة من مدينة مرسيلية إلى جبال الألب، وأصبح لهم مركزاً قوياً وعاصمة لإمارة إسلامية بحرية في الجنوب الفرنسي، وكتب لهذه الدولة أن تصمد مدة من الزمن، وتقوم بمهاجمة المراكز الإيطالية وسويسرا وشرق فرنسا، وذلك بحدود عام ٩٣٣م، واستعصت هذه الدولة على المسيحيين، مما دفع القوات الإيطالية والبيزنطية إلى مهاجمتها مابين عام

(١) وهي التسمية التي كان يطلقها العرب على فرنسا، وهي المنطقة الممتدة من جبال البيرينيه وجبال الألب ومملكة الروم، أرسلان، شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣٤-٣٥.

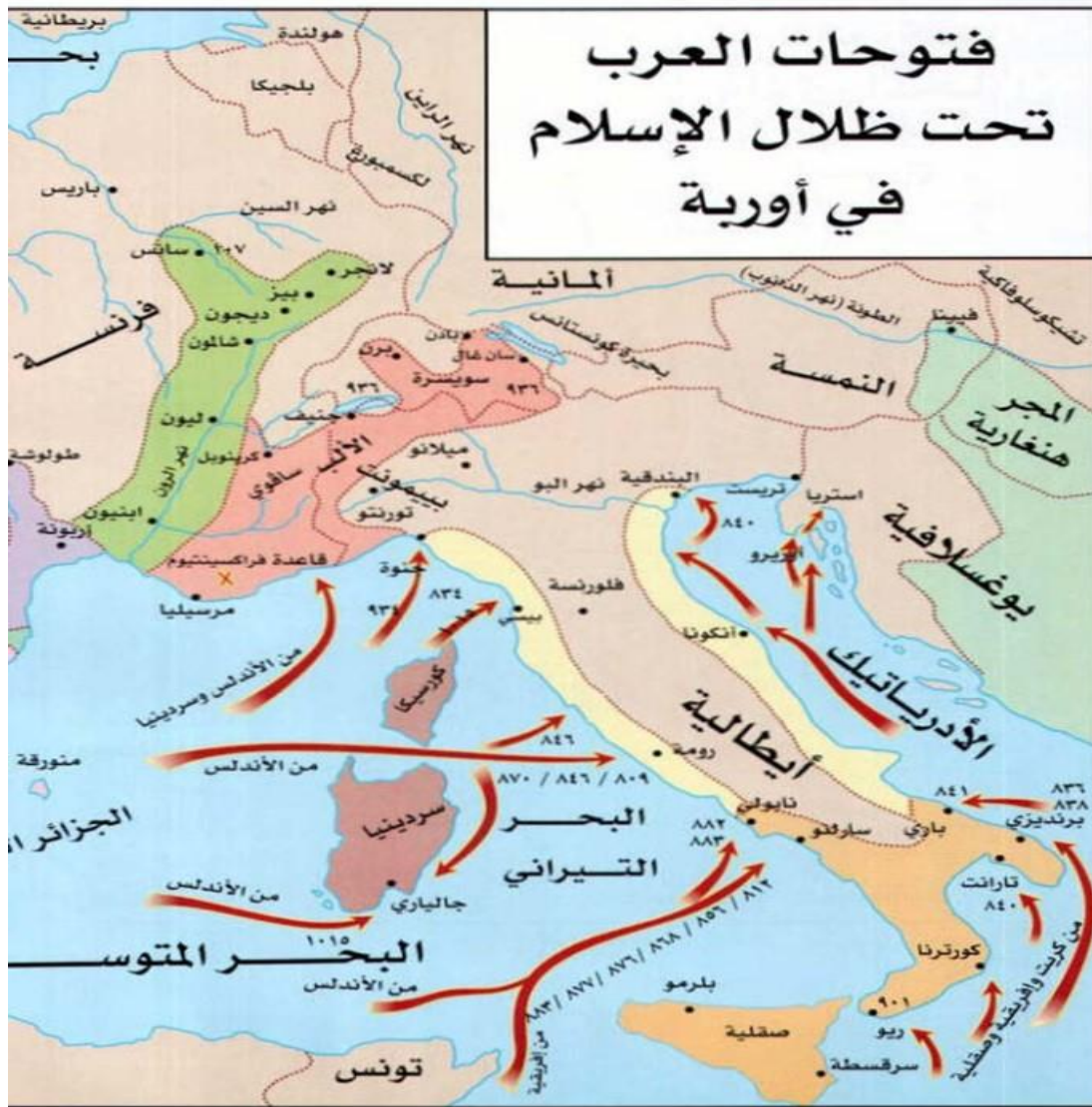
(٢) نهر الرون (Rhodanus) هو واحد من الأنهار الرئيسية في أوروبا، وينبع من سويسرا ويصب في جنوب شرق فرنسا بطول إجمالي ٨١٢ كم، وقرب مصبه في البحر المتوسط يتفرع إلى فرعين: الفرع الأول ويعرف بالرون العظيم، والفرع الثاني يعرف بالرون الصغير، فهو بذلك يكون دلتا نتيجة تفرع النهر في منطقة كامارغ نهر الرون

؛ <https://ar.wikipedia.org/wiki>

(٣) بيرين، هنري: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٣-١٤.

٩٣٩-٩٤٢م ولكن بدون جدوى، ولم يتمكنوا منها حتى عام ٩٧٣م، أي بعد ٨٢ عاماً من تأسيسها (١).

(١) الكتاني، علي بن المنتصر: المسلمون في أوروبا وأمريكية، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ١٩٩.



الشكل (١) الفتوحات الإسلامية في أوروبا خلال القرون الثلاثة الأولى الهجرية

مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٠٨.

ط- النورمانديين في إيطاليا:

عاشت صقلية وأجزاء من جنوب إيطاليا (بلاد قلورية) مرحلة لا يستهان فيها تحت الحكم العربي الإسلامي، وبقي تأثيرها الحضاري أكثر من ذلك بكثير واستطاع النورمانديون الذين انساحوا في أراضي أوروبا أن يكتسحوا أجزاءً كبيرة منها، ونجحوا في بسط سيطرتهم على صقلية وجنوب إيطاليا، وفرضوا حالة من عدم الاستقرار في حوض البحر المتوسط الغربي تحديداً، وهذا يعني أنهم استطاعوا إنهاء السيطرة الإسلامية على تلك البلاد، حتى أن النورمانديون قاموا بشن الهجمات المتكررة على مدن الساحل الإفريقي الشمالي مثل طرابلس الغرب عام ٥٤٠هـ / ١١٤٦م، ومدينة صفاقص على الساحل التونسي عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، والمهدية التي استطاعوا السيطرة عليها عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م حيث تقوم المهدية على الساحل الإفريقي^(١)، وكانت هناك قوة أخرى لا تقل ضراوة وشراسة عن سابقتها وهي قوة مدن الجمهوريات الإيطالية البحرية المسيحية ذات النفوذ التجاري والعسكري الضخم في الحوض الشرقي والغربي للمتوسط، واشتهرت من هذه المدن جمهورية البندقية وبيزة وجنوة وألفي، واشتركت معظم هذه القوى في الحروب والهجمات المتكررة على ديار الإسلام وسكانه، سواءاً أكان ذلك في بلاد الأندلس أو في المناطق الأخرى من بلاد العالم العربي الإسلامي، وهذا ماسيتم دراسته أثناء البحث في نشاط مدن الجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي والغربي من البحر المتوسط إن شاء الله.

ويبقى التساؤل الذي لا بد من الإجابة عنه، هل انقطعت العلاقات التجارية والسياسية والمؤثرات العربية الإسلامية عن أرض صقلية أو بلاد قلورية بمجرد انتهاء السيطرة العربية الإسلامية عن تلك البلاد؟ أم بقي هناك تأثيراً متبادلاً بين القوة المسيحية بشكل عام في صقلية وإيطاليا ومدن الجمهوريات الإيطالية مع بلاد المسلمين في الشمال الإفريقي؟

(١) المدني، أحمد توفيق: المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، نشر مكتبة الاستقامة، تونس،

إنه لابد وقبل كل شيء من تحديد الإطار الزمني الذي اقترن بامتداد تلك القوى وسيطرتها على المناطق الحيوية من الحوض الغربي للمتوسط، والإطار الزمني المعنى هنا هو نهاية القرن الخامس و القرن السادس الهجريين/ القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، حيث كانت أقاليم المغرب العربي الإسلامي مع بلاد الأندلس تحت سلطان المرابطين الذي أخذ نفوذهم بالانكماش، ومعهم حلفاءهم من بني غانية وبعض الحكام الأندلسيين، وكانت الهجمات المسيحية على ديار الإسلام تزداد حدة وعمقاً، لصالح تفكك القوة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس، هذه البلاد التي شهدت صراعاً مريراً بين المرابطين والقوة الناشئة الجديدة والمقصود فيها هنا دولة الموحدين على يد مؤسسها المهدي محمد بن تومرت، هذا الصراع الذي مزق القوة العربية الإسلامية شر ممزق في مشارق البلاد الإسلامية ومغاربها، ولم تستطع أي من القوى السياسية الإسلامية أن تستفيد من أخطاء المتقدمين في لم الشمل، وتجنب المنطقة دمار الحروب، وإراقة الدماء بدلاً من توحيد الصفوف ونبذ التفرقة في زمن أحوج ما تكون إليه لصد الخطر الصليبي المحدث ببلاد الإسلام وشعوبها.

في واقع الأمر كانت المصادر العربية الإسلامية التي وجدت فيها مواداً تخص صقلية والوجود العربي الإسلامي في إيطاليا بشكل عام تحتوي مادة متواضعة جاءت على شكل قطع متناثرة في تلك المصادر، مثل ابن الأثير وابن خلدون، ولسان الدين الخطيب وغيرهم، وكان الاعتماد على عدد من المؤلفين الذين جمعوا تلك المواد الخاصة بصقلية وبلاد قلورية وأخرجوها في كتاب واحد ومن هؤلاء المستشرق الإيطالي ميشيل أماري صاحب كتاب " المكتبة العربية الصقلية" الذي قام بتجميع معظم كتابات الجغرافيين أمثال المسعودي^(١)

(١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ٢٨٣-٣٤٦هـ/ ٨٩٦-٩٥٧م مؤرخ وجغرافي بارع وهو المعروف بهيرودوتس العرب ولقبه قطب الدين، وهو من ذرية الصحابي الجليل عبد الله ابن مسعود، وهو من أشهر الرحالة المسلمين، وله مؤلفات كثيرة من أبرزها " مروج الذهب و معادن الجواهر في تحف الأشراف" وغيرها من المؤلفات الشهيرة؛ ابن النديم ت ٣٨٠هـ: الفهرست، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص ٢١٩-٢٢٠.

والاصطخري^(١) وابن حوقل^(٢)، وكتب الرحالة أمثال ابن جبير، وكثير من المؤرخين، وقد بلغت المصادر التي جمعها المؤلف في هذا الكتاب حوالي خمسة وثمانين مصدراً غطى من خلاله معلومات وفيرة عن صقلية، ومدنها، وموقعها الجغرافي، وكذلك بلاد قلورية، بما في ذلك الفتح الإسلامي للجزيرة، واسترجاع صقلية من قبل النورمنديين، وفقدان العرب المسلمين وجودهم السياسي كقوة عسكرية منها في صقلية وجنوب إيطاليا، والمصدر الآخر الذي كان معتمداً هو كتاب أحمد توفيق المدني: "المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا"، وكان المدني قد اعتمد في بعض أجزاء كتابه على كتاب المستشرق الإيطالي ميشيل إماري السابق، وقد جاءت كتابات المدني في هذا الكتاب شافية مكتملة الصورة، إذ لم يتوفر من الكتاب ممن تحدث عن الفتح الإسلامي المنظم لصقلية وأجزاء كبيرة من جنوب إيطاليا بالقدر الكافي الذي يُمكن القارئ من الفهم العميق خاصة فيما تعلق بالنشاط العسكري الإسلامي في بلاد قلورية، والحكم الإسلامي الذي تراوح بين سلطان الأغالبة ثم الحكم الفاطمي للجزيرة، وبعدها الاستقلال الداخلي للجزيرة على يد الأسرة الحسينية، وثم خسارة العرب المسلمين لجميع مدن الجزيرة وبلاد قلورية أمام الزحف النورماندي الشرس، وهم الذين الذين تمكنوا في نهاية المطاف من إقصاء العرب المسلمين عن تلك البقاع، واستمرت المقاومة العربية الإسلامية عن آخرها حتى سقطت قصريانة وجرجنتي آخر المعاقل الإسلامية

(١) أبي إسحق إبراهيم محمد الكرخي، عالم عربي مسلم من أشهر الجغرافيين وعلماء البلدان من علماء القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، من اصطرخ أحد بلدان فارس، يعد من الرحالة العرب المسلمين، الذين زاروا بلاد العرب ثم والهند، من أشهر مؤلفاته كتاب "الممالك والممالك" واعتمد في كتاباته على المشاهدات للبلاد والأقاليم التي زارها، كما اعتمد أيضاً على كتاب "صور الأقاليم" لأبي زيد البلخي؛ الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٦٠.

(٢) أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل الموصلي النصيبي من علماء القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ت بعد ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، كان ابن حوقل تاجراً وجغرافياً ورحالة يهوى الأسفار والترحال، انطلق برحلته الشهيرة من بغداد إلى بلاد المغرب وصقلية وبلاد الأندلس، ثم عاد وزار مصر وبلاد الشام وبلاد فارس والإحساء وغيرها من البلاد، وكان لكتابته "صورة الأرض" أهمية كبيرة في علم الجغرافيا؛ <https://ar.wikipedia.org/wiki>

بأيدي النورمانديين عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م، طاوية بذلك أروع صفحة مشرقة من صفحات التاريخ العربي الإسلامي في تلك البلاد^(١).

وكانت كتابات الرحالة العربي المسلم ابن جبير الأندلسي تمثل صورة حقيقية لواقع الإنسان المسلم في ظل السيطرة النورماندية على الجزيرة، وهو الذي زار جزيرة صقلية عام ٥٦٠هـ / ١١٦٥م، وكتب ما شاهد في كتابه " رحلة ابن جبير " مضيفاً بذلك مادة جديدة متميزة من حيث الغزارة والدقة عن أحوال الجزيرة وسكانها تحت الحكم النورماندي بعد سقوطها بحوالي قرن من الزمان بأيدي النورمانديين، وبعد زوال عصر المرابطين المغاربة وقيام دولة الموحدين التي عاصرت مرحلة الحكم النورماندي لجزيرة صقلية قبل مجيء الألمان إليها، الذين استطاعوا تقويض ملك النورمانديين، وكان ذلك على يد الامبراطور الألماني هنري الرابع Henry IV عام ٥٩٠هـ / ١١٩٤م^(٢).

ويكون الحكم النورماندي قد عاصر دولة المرابطين التي قامت في بلاد المغرب والأندلس، وشهد سقوطها ومن ثم قيام دولة الموحدين، ولذلك لا بد من الشرح ولو في سطور عن مرحلة الحكم النورماندي للجزيرة وأبرز جوانبه وآثاره.

عندما دخل النورمانديون أرض صقلية وجدوها بلداً في غاية التمدن والرقى الحضاري والفكري، تضاهى حواضر العالم المعاصرة لهاجمالاً ورفعة وبهاء، وبدلاً

(١) المدني: المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، ص ١٨٨.

(٢) Henry IV هنري الرابع الملك الألماني أو ملك الرومان (١٠٥٠-١١٠٦م) وهو الابن الرابع للإمبراطور هنري الثالث، شهد عصره نزاعاً طويلاً مع البابا غريغوري السابع Gregory VII، وانتهى النزاع لصالح الإمبراطور هنري الرابع، واستطاع أن يدخل العاصمة روما، وبقي هنري الرابع في روما وعقد مجلساً في برسانون في إيطاليا، وأخرج البابا غريغوري السابع منها إلى سالرنو بقي فيها حتى وفاته، وانتخب رئيس أساقفة مدينة رافنا Ravenna بمركز البابا الجديد تحت اسم كليمنت الثالث Clement III، ولكن خلفاء غريغوري السابع أثاروا اضطراباً وأرغموا الإمبراطور هنري الرابع على التنازل على العرش لابنه هنري الخامس، وفرضت على الأب الإقامة الجبرية في مدينة لياج إلى أن لقي حتفه؛ سيمالي، بيريل: المؤرخون في العصور الوسطى، تر: قاسم عبده، ط٢، دار المعارف، د.ت، د.م، ص ٧٧-٧٩؛ المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، ص ١٩٣.

أن يؤثر هؤلاء الغزاة الذين اتسمت طبائعهم بالوحشية والقساوة في تلك البلاد، كان تأثرهم كبيراً بالحضارة العربية الإسلامية في صقلية، وأدرك الملوك النورمانديين بأن طريق التسامح هو الطريق الوحيد الذي يُمكن سلطانهم في البلاد، ويستفيدوا من الوجود الإسلامي في الجزيرة منذ عهد الملك رجار الأول-Roger I^(١) ١٠٣١-١١٠١م الذي حاول في بداية حكمه استخدام العنف واضطهاد العرب المسلمين في الجزيرة، ولكنه وجد من المسلمين قوة يمكن الاستفادة منها في جميع ميادين الحياة في صقلية، كيف لا وهم الذين جعلوا منها جناناً وربوعاً زاهرة؟ وقد أثمرت سياسة التسامح الديني التي انتهجها الملك رجار الأول وخلفائه من بعده حتى انتهاء الحكم النورماندي للجزيرة على يد الامبراطور الألماني هنري الرابع كما تمت الإشارة إلى ذلك مسبقاً، وقد ساق المؤرخون والرحالة جوانب من الحياة المشرقة للوجود العربي الإسلامي، ودور المدنية العربية الإسلامية في ظل الحكم النورماندي للجزيرة، فيقول المدني في كتابه السالف "المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا" عن تلك المَدَنِيَّة العظيمة: "لقد ازدهر التفوق الإسلامي في صقلية ازدهاراً لامعاً من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر، حتى يكاد يخيّل لك أن صقلية قد أصبحت جزيرة عربية بحتة، وكنت تنتظر بعد ذلك أن ترى فوق أديم صقلية معالم وآثار تباهي بجمالها وجلالها معالم آثار إسبانيا والمغرب وتونس" (٢)

وعن تأثر ملوك النورمانديين بالعادات العربية الإسلامية الأصيلة، صاحبة الشأن الرفيع والذوق البديع، يسوق المؤرخ العربي الإسلامي ابن الأثير وصفاً بليغاً حول إعجاب الملك النورماندي رجار الثاني بالتقاليد العربية الإسلامية،

(١) ويعرف بالكونت روجر الكبير، وهو أول الحكام النورمانديين في صقلية، وآخر زعماء الغزو النورماندي لجنوب إيطاليا، ينحدر من سلالة النبلاء النورمانديين، واستمرت سلالته تحكم في صقلية حتى عام ١٠٨٩هـ/١١٩٤م، وشارك في الحملات الصليبية ضد صقلية الإسلامية، وقد كلف في إدارة جزء من صقلية ولقب بالكونت من قبل شقيقه روبرت جويسكارد دوق أبوليا، وتمكن في نهاية الأمر أن يسيطر على كامل صقلية ومالطا أيضاً، ودمجت دولته مع دوقية أبوليا وأصبحت مملكة صقلية عام ١١٣٠م،

https://en.wikipedia.org/wiki/Roger_I_of_Sicily

(٢) المدني: المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، ص ١٩٥.

لاسيما تلك المتبعة في رسوم الحكم وأدواته بقوله: "فسلك طريق ملوك العرب المسلمين من الحنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية (١) وغير ذلك، وخالف عادة الفرنج فإنهم لا يعرفون شيئاً منه، وجعل له ديوان المظالم ترفع إليه شكاوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده، وأكرم المسلمين وقربهم، ومنع عنهم الفرنج فأحبوه، وعمر أسطولاً كبيراً، وملك الجزائر التي بين المهدية وصقلية مثل مالطة وقوصرة، وجربة، وقرقنة، وتناول إلى سواحل إفريقية" (٢).

وكان من أشهر الشخصيات الإسلامية التي عاشت مدة في صقلية أثناء الحكم النورماندي للجزيرة كبير الجغرافيين العرب المسلمين الشريف الإدريسي الحمودي المتوفى عام ٥٥٩هـ/١١٦٦م، الذي نزل ضيفاً على ملكها النورماندي روجر الثاني ١٠٩٥-١١٥٤م (٣)، وهو أول من مثل خارطة للأرض على شكل كرة من الفضة بأمر من روجر نفسه، وألف له الكتاب الشهير "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" كان من أغزر الكتب علماً، ومادة، ونفعاً في مواقع البلاد، والأنهار، والبحار، والمدن والأقاليم، وكان روجر ينظر بعين التقدير للإدريسي وعلمه، وكان الإدريسي يشكر في روجر حبه للعلم وتقريب العلماء، ولهذا كان يطريه بعبارات المدح والتعظيم في مقدمة كتابه "نزهة المشتاق" بقوله: "فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اسعت أعمال مملكته وتزايدت

(١) لفض فارسي الأصل شاع في العصر المملوكي، وتعني فئة من المماليك الذين يتبعون السلطان؛ دهمان، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، ط ١، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٥٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تصحيح: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٨٧م، ج ٨، ص ٤٧٤.

(٣) ملك صقلية وابن الملك روجر الأول، ووالد وليام الأول (غليام الأول) ملك صقلية، بدأ في حكمه كونتاً لصقلية ثم تولى دوقية أبوليا وكالابريا، وأصبح بعد أبيه ملكاً لصقلية منذ عام ١١٣٠م، وبقي حتى وفاته عام ١١٥٤م، استطاع روجر الثاني أن يحقق نجاحاً كبيراً في توحيد النورمان المتواجدين في إيطاليا في مملكة واحدة وفرض فيها إدارة مركزية قوية، ومن المعروف عن روجر الثاني حبه للعلم وتقريب العلماء خاصة العرب المسلمين وعلى رأسهم الشريف الإدريسي الحمودي الذي ألف له كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"؛

همم أهل دولته وطاعته وأطاعته البلاد الرومية، ودخل أهلها تحت سلطانه، أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقيناً وخبرة، ويعلم حدودها ومساكنها براً وبحراً^(١).

وقد ذكر صاحب كتاب " الوافي بالوفيات " أثناء ترجمته للملك روجر الثاني بأنه هو الذي استقدم الشريف الإدريسي إليه في قوله: " وهو الذي استقدم الشريف الإدريسي صاحب كتاب " نزهة المشتاق " من العدو إليه ليضع له في شكل صورة العالم، فلما وصل إليه أكرم نزله وبالع في تعظيمه^(٢).

وعلى الرغم من التسامح الديني الذي انتهجه الملوك النورمانديون في صقلية خصوصاً تجاه العناصر العربية الإسلامية، لاسيما بأن كان الاعتماد الكبير عليهم في معظم جوانب الحياة العامة في صقلية، فإن حال العرب المسلمين لم يكن دائماً في أحسن أحواله، وقد أورد الرحالة ابن جبير أثناء زيارته صقلية وأقامته فيها طيلة فصل الشتاء أمثلة متباينة تصور حال العرب المسلمين في صقلية، فقد وصف ابن جبير أن جوارى الملك النورماندي غليوم الحسن بأنهم من المسلمات، وعيون مملكته منهم كذلك عندما قال: " وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن، ومن أعجب ماحدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن المسيحية من الفرنجيات تقع في قصره فتعود مسلمة، يعيدها الجوارى المذكورات مسلمة، وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة^(٣).

وفي نص آخر: " وأما فتيانه الذين هم عيون مملكته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون، ما منهم إلا يصوم شهراً تطوعاً وتأجراً، ويتصدق تقرباً إلى الله ترفلاً ويفتك الأسارى ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم^(٤) ".

ومن هذه الأمثلة دليل قاطع على المكانة والحظوة التي نالها العرب المسلمون في ظل حكم الملوك النورمانديين لبلاد صقلية وجنوب إيطاليا، وعلى

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٥.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١٤، ص ١٠٦.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٩٩.

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٩٩.

جانب آخر فقد وصف ابن جبير حالة العرب المسلمين البائسة في مدينة أطرابنش أثناء إقامته شتاءً فيها في قوله: "تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها _ دمرهم الله _ وما هم عليه من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة، وغلظة الملك إلى طوارئ دواعي الفتنة في الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبناءهم ونساءهم" (١).

وفي مقام آخر يذكر ابن جبير أحوال الأسر المسلمة في صقلية، والحال التي وصلت له من العذاب والهوان: "ومن أعظم ما مني به أهل الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته، أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه إلى التطارح في الكنيسة، فيتنصر ويتعمد فلا يجد الأب للابن ولا الأم للبنت سبيلاً، فتخيل حال من مني بهذا في أهله وولده، ويقطع عمره متوقعاً لوقوع هذه الفتنة فيهم، فهم الدهر كله في مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال" (٢).

وهناك مثال آخر يذكر فيه ابن جبير وصول زعيم العرب المسلمين ابن حمود إلى جزيرة صقلية وكان رجلاً ذا صلات وصدقات، وسيادة، وكلمة مسموعة في الجزيرة، ولكنه حسبما أورد ابن جبير فقد وجهت له تهمة كثيرة حول مراسلة الموحدين، ومحاولة استقدامهم إلى الجزيرة وافتدى نفسه بأموال كثيرة، وقد ذكر ابن جبير مما سمعه عن الرجل: "كنتُ أودُّ لو أبايع أنا وأهل بيتي فلعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه، ويؤدي بنا إلى الحصول في بلاد المسلمين" (٣).

هذه هي الأحوال التي آل إليها المسلمون في الجزيرة، وكان القادم أسوأ عليهم من سابقه، والمعني هنا الألمان الذين قدموا الجزيرة وأنهوا الحكم النورماندي وألغوا أيضاً كل مظاهر التسامح الديني والعناية التي لقيها المسلمون _ وإن لم تكن على القدر الكافي من قبل الملوك النورمانديين _ ليدخلوا في معاناة شديدة

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٣١٣-٣١٤.

(٢) المدني: المسلمون في صقلية، ص ٢٠١.

(٣) المدني: المسلمون في صقلية، ص ٢٠٢-٢٠٣.

تحت تأثير سيطرة الكنيسة وإرهاصات الحروب الصليبية وتمثل ذلك في تنصير العرب المسلمين وتهجيرهم القسري من الجزيرة إلى أماكن أخرى في إيطاليا^(١).

ولذلك فإن أبرز معالم الحياة السياسية التي سادت في صقلية وجنوب إيطاليا في نهاية القرن الخامس وطيلة السادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين تتلخص بمايلي:

١- تراجع القوة العربية الإسلامية في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي عن جنوب إيطاليا وصقلية حتى شواطئ إفريقية الشمالية لصالح تقدم القوة المسيحية الممثلة بالغزاة النورمانديين ومدن الجمهوريات الإيطالية التجارية.

٢- ازدياد الضغط الصليبي على ديار الإسلام بعد تراجع قوة المرابطين في المغرب العربي الإسلامي، وضعف القوة البحرية العربية الإسلامية في الحوض الغربي من المتوسط الأمر الذي شجع النورماندين على مهاجمة المدن الإسلامية المغربية مثل المهدية وصفاقس وطرابلس الغرب وغير ذلك من مدن.

٣- الحفاظ على معالم الحياة العربية الإسلامية في صقلية تحت الحكم النورماندي الذي استمر لقرن من الزمن، شغل العرب فيه دوراً بارزاً لا يستهان فيه من خلال الأعمال الجليلة التي قاموا فيها تحت الحكم النورماندي المسيحي للجزيرة، حيث بقيت معالم الحضارة العربية الإسلامية في تلك البلاد إلى زمن أبعد من ذلك بكثير، ومازال منها قائماً حتى هذه الأيام.

٤- بروز قوة إسلامية جديدة على أنقاض دولة المرابطين في المغرب العربي الإسلامي، وهذه القوة سيكون لها دوراً فاعلاً في مسرح الحياة السياسية العسكرية في المنطقة ككل، وهي دولة الموحدين المغاربة.

٥- ازدياد الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون في صقلية لاسيما بعد زوال الحكم النورماندي للجزيرة، وتولي الألمان الزعامة السياسية مكانهم، حيث مارسوا اتجاه العرب المسلمين التهجير القسري والتنصير القسري أو الطرد من البلاد.

(١) المدني: المسلمون في صقلية، ص ٢٠٢- ٢٠٣.

ي- بنو غانية حلفاء المرابطين وحكام الجزائر الشرقية وجزر البليار ٥٢٠-٥٩٩هـ/١١٢٦-١٢٠٣م:

ينتمي بنو غانية إلى قبيلة مسوفة البربرية إحدى فروع قبيلة صنهاجة كبرى قبائل المغرب الرئيسية، وهم ينتسبون من حيث الأم إلى قبيلة المرابطين، وكانت عادة نسب الرجل إلى أمه معروفة عند المرابطين، إذ كانوا ينسبون بعض الأبناء إلى أمهاتهم إذا تزوج الرجل منهم بأكثر من امرأة تمييزاً لهم عن بعضهم البعض، وكان هناك تسميات كثيرة في المجتمع المرابطي ممن تكنى بأمه مثل : ابن الصحراوية وابن عائشة... إلخ، وغانية هي إحدى الأميرات المرابطيات التي تزوجها علي بن يوسف المسوفي أحد أجداد بني غانية، وكان قد دخل في طاعة المرابطين، وقد أنجبت غانية ولدين هما يحيى ومحمد اللذان عاشا في كنف الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين ٤٠٠-٥٠٠هـ/١٠٠٩-١١٠٦م^(١)، وهما أشهر قائدين من قواد بني غانية الذين استخدمهم المرابطين في جبهات الأندلس، وقد ذكر ابن خلدون في كتابه " العبر " تولية علي بن يوسف بن تاشفين كلا القائدين على الأندلس والجزائر بقوله: " ورعى لهما علي بن يوسف ذمام هذه الأمور، وعقد ليحيى على غرب الأندلس وأنزله قرطبة، وعقد لمحمد على الجزائر الشرقية وميورقة ومنورقة وبابسة سنة عشرين وخمسائة " (٢).

(١) سلطان المغرب وزعيم المرابطين السلطان أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني البربري، باني مراكش وصانع أمجاد دولة المرابطين، وكان ابتداء ظهوره مع أبي بكر عمر اللمتوني الذي استطاع السيطرة على بلاد المغرب من تلمسان وحتى المغرب الأقصى، واستتاب يوسف ابن تاشفين عنه في بلاد المغرب، وأثبت يوسف مقدرة وشجاعة نادرة، وكثر أتباعه وخافه أعداؤه، وتنازل له ابن عمه أبا بكر اللمتوني عن الملك، وبايعه أصحابه على قيادة المرابطين، واستطاع يوسف بن تاشفين مد سلطانه على بلاد المغرب والأندلس، وكان متحلياً بكل قيم الشجاعة والنخوة والمروءة؛ الذهبي، محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط^(١)، بيروت، ١٩٩٦م، ج ١٩، ص ٢٥٢؛ المكناسي، أحمد بن القاضي ت ١٠٢٥هـ/١٦١٥م: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، فاس، ١٩٧٣م، ص ٥٤٥-٥٤٦.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٢٥٣.

وتوفرت عند المؤرخ عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " مؤرخ الموحدين مادة لا يستهان فيها تتضمن شروحات وافية عن دولة بني غانية، وفق تفاصيل دقيقة لم ترد عند ابن خلدون، لاسيما وجود أمراء بني غانية في الأندلس، وجزر البليار، والجزائر الشرقية لاحقاً، بينما كان اقتصار ابن خلدون على الأحداث السياسية لدولة بني غانية منذ قيامها حتى سقوطها على يد الموحدين كما سيتبين لاحقاً.

كان بنو غانية يمثلون المركز المرابطي المتقدم في شرقي الجزائر وجزر البليار، لاسيما عندما استطاعوا أن يؤسسوا هناك سلالة حاكمة لمدة ثمانين عاماً، وقد أصبحوا بعد سقوط دولة المرابطين أصحاب السلطة الفعلية في مناطق وجودهم، ولذلك كان من الطبيعي أن يصطدموا مع جيش الموحدين في جزر البليار أولاً ثم شرق المغرب ثانياً، ويسهموا بشكل كبير في صد الموحدين عن مناطق الجزائر، وانحسار نفوذ الموحدين في شرق المغرب ^(١)، وهذا ما سوف يتم البحث فيه لاحقاً إن شاء الله.

ك- بنو حمّاد حكام المغرب الأوسط ٣٩٨ - ٥٤٧هـ / ١٠٠٧ - ١١٥٢م

ينتمي بنو حمّاد إلى قبيلة صنهاجة المغربية من أكبر أمم البربر وأكثرهم خلقاً في المغرب، وهم فرع من فروعها، تقاسموا حكم بلاد المغرب الأوسط بما في ذلك إفريقية مع أبناء عمومتهم بني زيري حكام شمال إفريقية وتونس، الذين اتخذوا من المهدية عاصمة لملكهم، ومالبثوا أن تحاربوا معهم ودخلوا في صراعات كثيرة، وحمّاد هو أحد أبناء بلكين بن زيري بن مناد من القبيلة الأم صنهاجة، استطاع بنو حمّاد تأسيس دولة قوية تراوحت في أطوار قوّتها بين الاتساع والعظمة، والانكماش ثم الانحدار والسقوط، وكانت دولة بني حماد أول دولة بربرية إسلامية مستقلة تحكم المغرب الأوسط، وكان الحماديون وأبناء عمومتهم الزييريون من أتباع الدولة الفاطمية، يحكمون باسمها مع احتفاظهم في استقلال داخلي معها، وكان الخلفاء الفاطميون يزيّدون من الإقطاعات لملوك بني حماد لاسيما عندما كانوا يقفون ضد خصومهم من القبائل التي قد خلعت طاعة الفاطميين،

(١) بوزورث، كليفورد إدمونت: السلالات الإسلامية الحاكمة، تر: عمرو الملاح، دار الكتب الوطنية، ط ١، الإمارات المتحدة، ٢٠١٣م، ص ٤٩-٥٠.

وقد كان ذلك في عهد الملوك الأوائل من بني حماد مثل زيري وبلكين بن زيري، وقد بدأ تاريخهم السياسي الحقيقي عندما اختط حماد بناء القلعة ^(١).

لقد كانت أكبر مراكز بني حماد في المغرب الأوسط القلعة التي اختطها حماد بن بلكين وعرفت فيما بعد بـ "قلعة بني حمّاد"، ومدينة بجاية القاعدة المركزية لبني حماد التي أسسها الناصر بن علناس الحمادي ^(٢) عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م على السفح الشرقي للجبل الذي يشرف على البحر، وأصبحت بجاية من أعظم المراكز العربية الإسلامية، وفيها من القصور والمباني الفخمة ما يعجب عين الناظر، حتى إن المؤرخ ابن خلدون قد استعظم أحد القصور التي بناها الناصر الحمادي بقوله: "وبنى ببجاية قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل الناس إليها" ^(٣)، ثم يتابع ابن خلدون حديثه عن ابنه المنصور بن الناصر ٤٨١-٤٩١هـ / ١٠٨٨-١١٠٤م ^(٤)، الذي أسهم بكل طاقاته في وضع الأسس الحضارية

(١) بروبية، رشيد: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، ١٩٧٧م، ص ١١-١٢، وكذلك تحدث ابن خلدون عن دولة بني حماد باعتبارهم شعبة من بني زيري حكام إفريقية والمغرب الأوسط، ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٢٢٧ وما بعد.

(٢) الناصر بن علناس بن بلكين بن زيري الصنهاجي خامس ملوك الدولة الحمادية بالمغرب الأوسط، وأشهرهم وأعظمهم شأنًا وأعلاهم في الملك، تولى الحكم سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٢م، استطاع التغلب على فتنة الهلاليين بالقوة واتسع نفوذ الدولة الحمادية في زمنه حتى بلغ القيروان، وهو الذي بنى مدينة بجاية عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م، وسماها على اسمه قديماً الناصرية، وبنى فيها دوراً لصناعة السفن، توفي عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٨م، ومدة ملكه ٢٧ سنة؛ زامباور: معجم الأنساب، إخراج: زكي محمد حسن بك وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١١٠؛ نويهض، عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣٢٨.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٢٣٢.

(٤) المنصور بن الناصر الحمادي سادس ملوك الأسرة الحمادية بالقلعة وبجاية في المغرب الأوسط، انتقل إلى مدينة بجاية وجعلها عاصمة ملكه عام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م، استطاع المنصور صد اعتداء المرابطين على المغرب الأوسط وأخرجهم من تلمسان عام =

لدولة بني حماد من خلال إقامة المباني والقصور وقنوات المياه، فيذكر المؤرخ ابن خلدون ذلك بقوله: "وهو الذي حضر ملك بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني وتشبيد المصانع، واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام، وفي بجاية قصر اللؤلؤ وقصر أميمون (١)".

إن التساؤل الأكثر أهمية هنا الذي لا بد من الإجابة عنه: كيف كانت علاقة بني حماد بالدولة المرابطية في أواخر أيامها وبداية قدوم الموحدين أولاً؟ وهل كان للحماديين علاقات أخرى بالمسيحيين النورمانديين ثانياً؟

من خلال العودة إلى تاريخ الدولة المرابطية التي قامت في المغرب الأقصى واتجهت بأنظارها نحو المغرب الأوسط، حيث كان شأنها شأن أي دولة تريد أن توسع ممتلكاتها، وتؤمن حدودها من الأخطار الخارجية، والصراعات التي لم تنطفئ نارها بين دول المغرب، ومن هذا المنطلق نظر المرابطون إلى المغرب الأوسط على أنه مفتاح الأمان بالنسبة للمغرب الأقصى، ولا يتحقق ذلك الأمان والاستقرار إلا من خلال تأمين تلك البلاد، ولذلك توجهت اهتماماتهم نحو المغرب الأوسط، وكان بنو حماد من أبرز القوى التي تصدرت المغرب الأوسط آنذاك، ولذلك كان من الطبيعي أن يحدث صدام بين القوتين، ويدافع الحماديون عن ممتلكاتهم في المغرب الأوسط، إذ كانت دولة المرابطين ما تزال قوية لا سيما في عهد قائدها المحنك الشجاع والطموح يوسف بن تاشفين الذي استطاع إخضاع المغرب الأقصى لسلطانه، ولكن بني حماد لم يكونوا في ذاك الضعف الذي لم يمكنهم من الدفاع عن ديارهم وممتلكاتهم، والذي حدث هو أن اجتمعت قوة يوسف ابن تاشفين ومقدرة بني حماد في التصدي لبعضهم، إذ استطاع الملك الحمادي المنصور بن بلكين أن يتصدى لزحف المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين في أكثر من مرة لدرجة حملت يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين على مسالمة بني حماد، وهذا ماحدث فعلاً، فقد سالم يوسف بن تاشفين بني حماد، وإن كان ذلك

= ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م، وعقد صلحاً معهم؛ نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص ٣٢٢؛ ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ٢، ص ٩٠.

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٢٣٢.

في مرحلة متأخرة من حياته، وكان السلم هو السمة البارزة التي خيمت على العلاقات المرابطية الحمادية في عهد خلفاء يوسف بن تاشفين حتى انقراض الدولتين على يد دولة الموحدين البربر (١).

وأما عن علاقة الحماديين بالنورمانديين حكام صقلية وجنوب إيطاليا، فقد شكل الحماديون كما هو معروف حاجزاً طبيعياً مابين النورمانديين والمرابطين المغاربة، وكانت العلاقات الحمادية النورماندية تتسم بالسلم والاستقرار النسبي في معظم أحوالها، لأن بني حماد لم يرغبوا أن يفتحوا على أنفسهم باباً جديداً من أبواب الصراع الذي كانت تعج فيه بلاد المغرب العربي الإسلامي، لاسيما مع تحركات النورمانديين الشرسة التي قامت بطرد العرب المسلمين من صقلية وجنوب إيطاليا، ولاحقاً مهاجمة موانئ المغرب العربي نفسه، ووقع عاتق الدفاع عن المغرب العربي الإسلامي على الملوك الزيريين أصحاب المهديّة والمرابطين في الجانب الآخر، بينما فضل بنو حماد مسالمة المسيحيين الذين هم بدورهم أيضاً لجؤوا إلى مسالمة بني حماد، وإقامة علاقات طيبة معهم خاصة زمن الناصر بن علناس الذي سمح لهم بحرية اختيار أسقفهم الذي يدعى "سرفاند" وقد صادق الناصر على تعيينه (٢).

إلا أنّ حال هذه العلاقات لم تستمر على السلام الهادئ طوال عهد الدولة الحمادية، فعندما هاجم بنو حماد المهديّة وتونس، كان تحرك النورمانديين سريعاً عام ٥٣٧هـ/١١٤٢م في غزو مدينة جيجل (٣) الحمادية ونهبها وإحراقها، وعاود النورمانديون الكرة مرة أخرى في غزو الساحل الجزائري عام ٥٣٨هـ/١١٤٣م

(١) عويس، عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٨١-١٨٢؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٢) عويس: دولة بني حماد، ص ١٨٩.

(٣) وهي اسم الولاية الذي يضم اسم المدينة، واصل هذه التسمية فينيقية تعود إلى كلمة إجيلجلي وتعني دوامة الشاطئ وبالأمازيغية تعني من ربوة إلى ربوة، واشتهرت المدينة على مر التاريخ وأصبحت من أشهر وأهم الموانئ زمن الحماديين؛

جيجل <https://en.wikipedia.org/wiki/جيجل>

واحتلوا مدناً ساحلية مثل شرشال وتنس وجيجل ^(١) ولذلك سيطغى الخطر النورماندي على المدن الأخرى مثل المهديّة وصفاقس وغيرها، ولن تتم استعادتها إلا عن طريق الموحدين كما سيذكر في الفصول اللاحقة إن شاء الله.

ل- الممالك المسيحية في شمال الأندلس في نهاية عصر المرابطين وقيام دولة الموحدين:

كانت الممالك الإسبانية عشيّة قدوم المرابطين إلى الأندلس ذات نفوذ قوي وبارز خلال عهد ملوك الطوائف، وقد ارتبط هؤلاء بملوك قشتالة وغيرها من الممالك المسيحية بمعاهدات التبعية، ودفع ملوك الطوائف ما يترتب من الجزية لصالح ملوك المسيحيين، حيث كانت أشهر الممالك المسيحية وأكثرها نفوذاً وقوة هي مملكة قشتالة، ذات المساحة الكبيرة والموارد المتنوعة، ومن بعدها مملكة أراجون، وإمارة برشلونة أو قطلونية، وأما مملكة نافارا القديمة (نبرة) ^(٢) فقد زالت بسبب اقتسامها بين مملكتي قشتالة وأراغون.

في الحقيقة كان كتاب المؤرخ محمد عبد الله عنان " دولة الإسلام في الأندلس " من أفضل المراجع التي تم الاعتماد عليها أثناء الحديث عن الممالك المسيحية بالرغم من وجود المصادر الأصلية التي تحدثت عن تلك الممالك المسيحية، أمثال ابن الأثير والمصادر المغربية الأخرى مثل ابن خلدون وغيره، ولكن عنان استند إلى مصادر ومراجع أوروبية وغير أوروبية، مكنته من الاطلاع على تفاصيل أوفى وأشمل، خصوصاً فيما يتعلق بالعلاقات ما بين الممالك

(١) الجيالي، عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، ط٢، بيروت، ١٩٦٥م، ج١، ص ٣٨١-٣٨٢.

(٢) نبذة إحدى الممالك المسيحية وعاصمتها الشهيرة بنبيلونة الواقعة على جانبي جبال البرانس إلى المحيط الأطلسي، وأصبحت أحد المراكز التي تتبع ماردة زمن الحكم الإسلامي لها، ثم عادت تتبع مملكة أراغون ولكنها ما لبثت أن انفصلت عنها عام ١٠٣٥م؛ نبذة <https://en.wikipedia.org/wiki> ؛ بني ياسين، يوسف: بلدان الأندلس في أعمال ياقوت الحموي الجغرافية، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠م، ص ٥٠٧.

المسيحية فيما بينها من جهة، وعلاقتها مع العرب المسلمين في بلاد الأندلس من جهة أخرى، ويبقى ذلك رأيي من قبل الباحث وملاحظاته على ذلك.

لقد تضمن الحديث عن الممالك المسيحية ونشاطها السياسي مرحلتين: الأولى نشاط الممالك الإسبانية السياسي الذي تمثل بمملكة قشتالة، وأراجون، وليون، ونافارا، وبداية تأسيس مملكة البرتغال في أواخر عصر المرابطين وبداية عصر الموحدين، والثانية نشاطها السياسي أثناء قيام دولة الموحدين وحتى زوال ملكهم في الأندلس، وهذه المرحلة سيجري الحديث عنها في الفصل الثاني من فصول البحث.

المرحلة الأولى: تميزت بنشاط مملكة قشتالة المتمثل بزعيمها ألفونسو السادس الذي كان متقدماً الزعامة على جميع الممالك المسيحية الأخرى، ولم تكن خسارته في معركة الزلاقة ١٠٨٦هـ/١٠٧٩م لتنتهي عزمته عن محاربة المسلمين، بل عاود الكرة مرة أخرى وأرسل قوات ضخمة بقيادة ابنه ووريث عرشه سانشو نظراً لكبر سنه وضعفه لمقاتلة المسلمين، ولكن هذا الجيش مني بهزيمة ساحقة في موقعة أقليمش ١١٠٨هـ/١١٠٨م^(١)، وتوفي فيها ابنه ووريثه الوحيد على عرش قشتالة سانشو والعديد من أكابر قشتالة، لذلك كانت هذه الهزيمة ضربة قاصمة لألفونسو العجوز الذي لم يعيش بعدها طويلاً، وأوصى بالعرش من بعده لابنته أوراكا، وزوجها من ملك أراجون ونافار ألفونسو المعروف بألفونسو المحارب المعروف ببطشه، وشجاعته، وبأسه الشديد، وهذا الوصف يسوقه لنا ابن الأثير في حديثه عن ألفونسو ملك أراجون بقوله: "وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين، وأعظمهم صبراً، وكان ينام على طارقه بغير

(١) من المعارك الكبيرة والشهيرة في الإسلام ولا تقل أهمية وشهرة عن الزلاقة أو الأرك، وتدعى أيضاً هذه المعركة معركة الكونتات السبعة لاشتراك سبعة كونتات من المسيحيين فيها وكان في هذه المعركة سانشو بن ألفونسو السادس ملك قشتالة، وكان النصر فيها حليف المسلمين وقتل فيها ابن ألفونسو الوحيد سانشو، فكان ضربة قاصمة لوالده ومات في حزنه وألمه على ابنه الوحيد ووريث عرشه أيضاً؛ المراكشي، ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٤، ص ٤٩.

وطاء" (١)، وأوصى لابنها من زوجها الأول الكونت ريمون الطفل ألفونسو ريمونديس بمملكة جليقية، وأن يبقى تابعاً لعرش والدته في قشتالة (٢). وكانت الغاية من ذلك هي سعي ألفونسو السادس إلى توحيد ممالك إسبانيا المسيحية، تحت سيادة موحدة، وقام بعمل مماثل بأن زوج ابن عمه الكونت هنري من ابنته الأخرى تريسا، والكونت هنري هو والد هنريكيث أمير البرتغال الذي تسميه المصادر الإسلامية بابن الرنك (٣)، وقد منحهم ألفونسو السادس الأراضي التي استطاع انتزاعها من العرب المسلمين بشرط التبعية لعرش قشتالة، وهي ستغدو نواة مملكة البرتغال التي ستكون في نزاع شبه دائم مع الموحيدين (٤).

إلا أن ذلك الزواج الذي قصد من خلاله ألفونسو السادس أن يوحد مملكتي أراجون مع قشتالة كان سبباً في حرب أهلية استمرت لسنوات عديدة، وكانت نتيجة هذه الحرب أن عاد الانقسام مجدداً والنزاع ما بين قشتالة وتمثلها الملكة أوركا ومعها رجال الدين في قشتالة وليون وجليقية، وأراجون ويمثلها زوجها الملك ألفونسو المحارب، وحزب الأشراف الذي يعارض الملكة وزوجها ويعقد آماله على الطفل ريمونديس ملك جليقية، وكان رجال الدين بما فيهم البابا يتدخلون دائماً لحل هذه القلاقل والفتن الناشئة، ولم تنته تلك الحروب إلا بوفاة أوركا ملكة قشتالة التي استمر حكمها عشرين عاماً، كانت مليئة بالفتن، والثورات، وسيل الدماء، وبوفاة أوركا عُيّن ابنها ألفونسو ريمونديس باسم ألفونسو السابع (٥) ملكاً على

(١) الطارقة: السرير الصغير، الوطاء: خلاف الغطاء أي مايفترشه؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٢٨٧.

(٢) عنان: دول الإسلام في الاندلس، ص ٤٧٨-٤٧٩.

(٣) وسيقوم ابن الرنك بغزوات شبه دائمة على أراضي المسلمين في عصر الموحيدين، المراكشي: ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحيدين، تح: إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٠٥.

(٤) عنان: دول الإسلام في الاندلس، ص ٤٧٨.

(٥) ألفونسو السابع ALvonso IV ملك قشتالة الملقب بالإمبراطور، وهو ابن الملكة أوركا بنت ألفونسو السادس، واستخدم ألفونسو السابع لقب إمبراطور كل إسبانيا لتوليته الحكم على جليقية وليون وقشتالة وتفوقه على مملكة أراغون بسبب وفاة منافسه القوي على عرش أراجون ألفونسو المحارب، وقد حصلت البرتغال في عهده على الاستقلال التام عن الممالك

قشتالة وليون، وسائر البلاد التي حكمها جده ألفونسو السادس، وقد وجد الشعب القشتالي في الملك الجديد شخصاً يستطيع أن يضع حداً للفتن والاضطرابات التي عاشتها البلاد في عهد والدته الملكة، وأن تسود السكينة والهدوء والاستقرار، وكان ألفونسو السابع ميالاً إلى تحقيق تلك الأمان التي نظر إليها الناس، ولذلك لابد من حل النزاع مع ملك آراجون ألفونسو المحارب الذي كان قد ضمّ مناطق من مملكة قشتالة فيما مضى، ولم يلبث أن تطور ذلك النزاع، والتحم الملكان في حربٍ أكثر من مرة، وكان رجال الدين يتدخلون من أجل حل النزاع كلما تجدد بينها، وكانوا يوجهون هذا الصراع إلى القتال ضد المسلمين، وتوصلوا إلى اتفاق وهدنة بين الطرفين، انشغل بعدها ألفونسو المحارب ملك آراجون بحروبه ضد العرب المسلمين في الأندلس وقد هُزم هزيمة نكراء في معركة إفراغة^(١) على يد العرب الأندلسيين، وكانت نهايته ومصرعه تحت أسوار إفراغة عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م.

وكان ألفونسو المحارب من أقوى ملوك إسبانيا، وبموته فقدت مملكة آراجون مركزاً منافساً بين الممالك الأخرى، لاسيما أنه كان قد انتزع قواعد سرقسطة من ملوكها بني هود، ثم انتزع سرقسطة لاحقاً نفسها من أيدي المرابطين، مثل انتزع ألفونسو السادس طليطلة من المسلمين، كما استطاع ألفونسو المحارب بعزيمته في محاربة العرب المسلمين بالوصول إلى شاطئ الأندلس الجنوبي عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٧م، وهذا شجع بدوره الإسبان على مواصلة حرب الاسترداد في بلاد الأندلس، وجعل الباب مفتوحاً على مصراعيه أمامهم^(٢).

ولابد من الإشارة هنا إلى الدور المهم الذي قامت فيه مملكة قطلونية المحاذية لمملكة قشتالة، ذات الموقع الاستراتيجي المتميز على البحر المتوسط، إذ كان لها دوراً كبيراً في القضاء على مملكة سرقسطة بالتحالف مع الممالك

الأخرى بشكل رسمي عام ١١٤٣م؛ ألفونسو السابع ملك قشتالة/

<https://en.wikipedia.org/wiki>

(١) إفراغة : مدينة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر الزيتون حسنة البناء، لها حصن منيع لا يرام، وبساتينها كثيرة لا نظير لها؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٧٠.

(٢) عنان: تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٤٩٣.

الأخرى قشتالة وأراجون، وكذلك وقوف ملكها رامون برنجير الثالث ^(١) والمعروف بالمصادر " الكبير " مع كونتات البلدان المجاورة مثل كونت أربونة وأرقله وإقليم البروفانس الفرنسي ^(٢)، وكان رامون برنجير قد قام بنشاط عسكري كبير في الجزائر الشرقية عام ٥٠٧هـ / ١١٤م بالتعاون مع بيزة وجنوة، واستولوا على جزيرة ميورقة التي كانت تتبع سلطان المرابطين الذين استطاعوا فيما بعد إعادة سيادتهم عليها وطردها الفرنجة منها، كما تابع رامون صلاته بملك أراجون ألفونسو المحارب الذي وجد فيه حليفاً قوياً، مهيئاً، شجاعاً، وكان كل منهما يكمل الآخر، فقد كانت مملكة أراجون تعتمد في قواها على الجيوش البرية لاسيما في عدائها مع مملكة قشتالة، وكانت مملكة قطلونيا دولة بحرية تعتمد قوة أسطولها في تسليحها العسكري، وتمتلك أسطولاً لا يستهان بقوته بين القوى البحرية الأخرى مثل جنوة وبيزة وغيرها، ولذلك شكل هذا التحالف قوةً كبيرة بين ممالك إسبانيا المسيحية المتحالفة حيناً والمتناحرة في معظم الأوقات، وعلى جانب آخر حسنت قطلونيا علاقاتها مع قشتالة وتطور هذا التعاون بزواج ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس من الأميرة برنجيلا بنت الكونت رامون برنجير عام ٥٢٢هـ / ١٢٢٨م الذي كان قد كبر وشاخ ولجأ إلى حياة الزهد والورع، وتوفي رامون بعدها بمدة قصيرة عام ٥٢٥هـ / ١١٣١م بعد أن حكم قطلونيا مدة تزيد عن الأربعين عاماً، قاد المملكة خلالها إلى القوة، والانتساع، والرخاء، وخلف ابنه على عرش قطلونية باسم رامون برنجير الرابع ^(٣).

وبالعودة إلى مملكة قشتالة التي نهضت مرةً أخرى بعد مرحلة من الفتن والقلقل خلال حقبة حكم الملكة أوركا أم الملك ألفونسو ريمونديس الذي سعى جاهداً إلى إعادة مجد جده ألفونسو السادس كحاكم مهيب في إسبانيا، وزعيم

(١) رامون برنجير أو ريموند برنجيه وهو لقب كان يطلق على عدد من كونتات برشلونة الذين حكموا قطلونية أو كتلونية ما بين القرنين التاسع والثاني الميلاديين؛
رامون الثالث / <https://en.wikipedia.org/wiki>.

(٢) والمعروفة ألب البروفانس العليا (Alpes –de- Haute -provinces) وهو إقليم يقع في منطقة بروفانس ألب كوت دازور في فرنسا، ومركزه مدينة دييني ليه بان؛
البروفانس / <https://en.wikipedia.org/wiki>

(٣) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص ٥٠٢-٥٠٣.

الممالك المسيحية الإسبانية آنذاك، لذلك كان أمامه جملة من التحديات منها إخماد الحركات المناوئة له في الممالك الأخرى مثل البرتغال، ونافار، التي سعت كل واحدة منها للاستقلال بشؤونها الداخلية، وعلى الأخص البرتغال ذات النشاط الواضح في أراضي جليقية التي هي من أملاك قشتالة يمثلها الملك ألفونسو هنريكي، وهو ابن خالة الملك ألفونسو السابع، واستطاع ألفونسو هنريكي السيطرة على أراضي جليقية الجنوبية، مما أثار حفيظة ألفونسو السابع، وجمع جيشه لغزو البرتغال، ووضع حداً لتمرّد ألفونسو هنريكي، ولم يسفر اللقاء عن صدام عسكري بل جرى تفاهم واتفاق بين الملكين، وتعهد ألفونسو هنريكي من خلاله أن يكون صديقاً مخلصاً للملك ألفونسو السابع، وأن يكون عوناً له في حربه ضد المسلمين، ولم يتوانى ألفونسو السابع باندفاعه وحماسه في حربه ضد المسلمين، حيث تابع طريق جده في حروبه في الأندلس، واستطاع أن يحتل حصناً منيعاً للمسلمين بالقرب من طليطلة، هو حصن أورلياً ويطلق عليه في المصادر العربية الإسلامية حصن الأرنبة عام ٥٢٥هـ / ١١٣٠م، ثم قام ألفونسو السابع بخطوة أخرى وهي التفاهم مع صهره رامون برنجير الرابع ملك قطلونية وأرجون، على اقتسام مملكة نافارا، ومحاربة ملكها غرسية راميريس الذي استطاع بحنكته وقوته أن يتصدى لذلك الهجوم المزدوج، ويخرج منتصراً بالاستعانة برجال الدين الذين تم عن طريقهم عقد صلح بين نافارا وقشتالة، اعترف غرسية بموجبه بسيادة الامبراطور القشتالي ألفونسو السابع، وزواج ابنة غرسية من ابن الامبراطور القشتالي سانشو، ولكن ذلك أدى إلى استنكار رامون برنجير الرابع ملك أرجون هذا الاتفاق المنفصل عنه، حيث قام بجمع حشوده متوجهاً إلى نافارا، ولكن غرسية ملك نافارا استطاع أن يهزم الأراجونيين، وهذا ما دفع ألفونسو ريمونديس إلى عقد صلح بين الأطراف المتنازعة ووضع حدٍ لها، متابعاً بذلك نشاطه ضد العرب المسلمين، وهذه المرة كان نشاطه من أخطر الغزوات على بلاد الأندلس والعرب المسلمين، حيث استطاع السيطرة على قلعة قورية الحصينة جنوب طليطلة وكانت الضربة الأكبر التي اشترك فيها ألفونسو السابع ضد العرب المسلمين هي السيطرة على ثغر ألمرية العظيم عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، في حملة صليبية كبيرة اشتركت فيها قوات ضخمة برية وبحرية، اشتركت فيها ممالك إسبانيا قشتالة، ونافار، وأرجون، بالإضافة إلى قوات من جنوة وبيزة، وقد بقي ثغر ألمرية عشر سنوات بأيديهم حتى استرجعه الموحدون عام ٥٥١هـ / ١١٥٧م، وكان عجز المرابطين على القيام

بإعادة القواعد الأندلسية التي بدأت بالسقوط في أيدي الإسبان من أسباب سخط أهل الأندلس الذين ثاروا على المرابطين، محاولين بذلك التخلص من سيطرتهم، وهذا سهل مهمة دخول الموحيدين إلى قواعد بلاد الأندلس، وإنهاء الحكم المغربي المرابطي لبلاد الأندلس، ليحل مكانه حكم مغربي آخر يتسلم إدارة البلاد والدفاع عنها وهم الموحدون^(١).

مما تقدم يمكن أن يصل المرء إلى استقراء عام حول الأوضاع في ممالك إسبانيا المسيحية حتى نهاية المرحلة الأولى أي حتى سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحيدين، وهي كما يلي:

١- تصدرت قشتالة دور الزعامة من بين ممالك إسبانيا المسيحية خلال تلك المرحلة.

٢- نشوء مملكة البرتغال في ظل دولة قشتالة وتحت رعايتها مع وجود اتفاق بين المملكتين حول أراضي جليقية في شمال البرتغال.

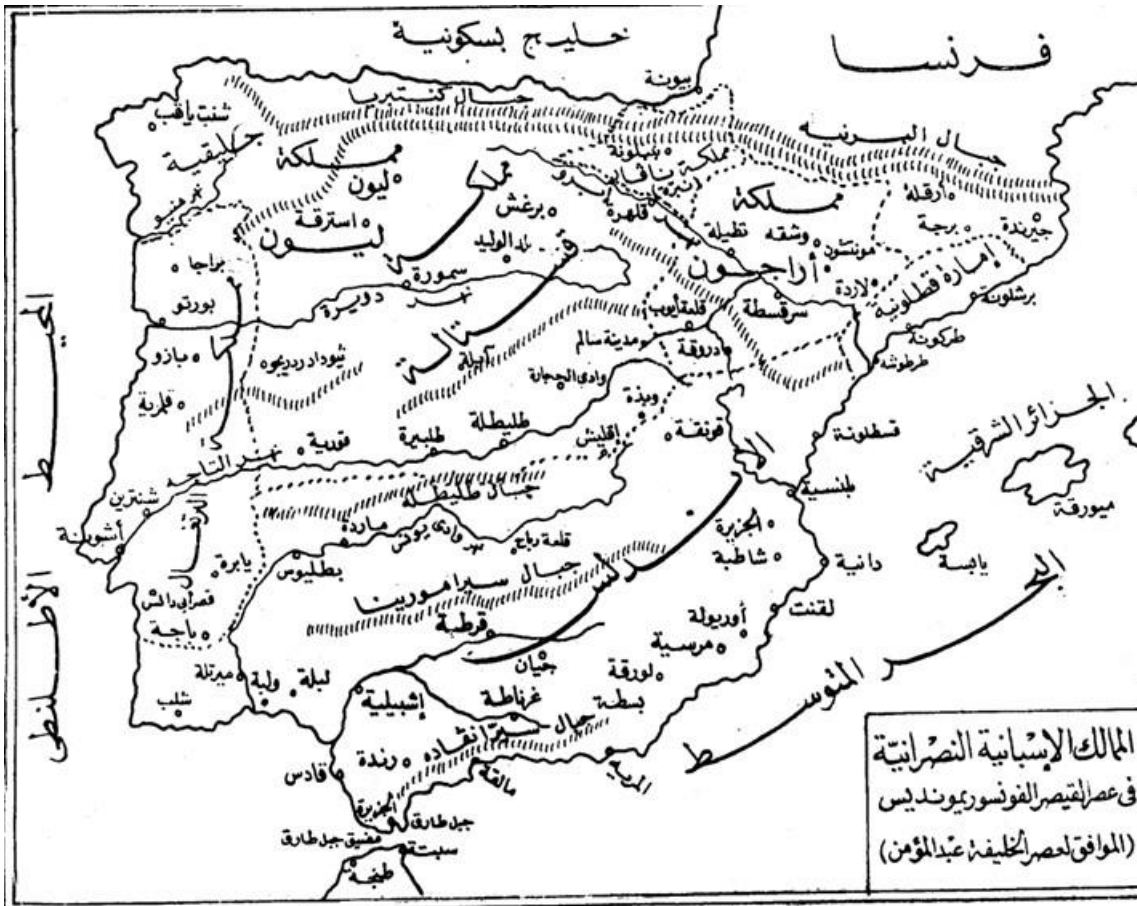
٣- كانت ممالك إسبانيا في حالة غير مستقرة من السلم والحروب، فكلما شعرت مملكة من هذه الممالك بقوتها واشتداد عودها، قامت بالاعتداء على جاراتها، وهذا كان أمراً شائعاً بين ممالك إسبانيا مثل قشتالة وآراجون ونافارا وقطلونية وغيرها.

٤- أما الشيء الذي كان يجمع تلك الممالك ويوحد كلمتها، هو أمر واحد وهو القضاء على وجود العرب المسلمين في بلاد الأندلس، فعندما تدور رحى الحروب ضد العرب المسلمين، كانت تتوحد الكلمات وتتكاثر ضد العدو المشترك، وبعد انقضاء ذلك تعود من جديد كما كانت سابقاً، كما اشتركت ممالك أخرى في تلك الحروب هي جنوة وبيزة وبرشلونة.

٥- كان الانحدار السريع في قوة المرابطين يترافق مع فوضى عارمة في بلاد الأندلس، وضعف واضح للقوة العربية الإسلامية في الأندلس، لصالح تعاضد القوة المسيحية الأوروبية وازدياد ضغطها على قواعد بلاد الإسلام في الأندلس.

(١) عنان: تاريخ الإسلام، ص ٥٠٦-٥٠٧.

٦- وهذا بدوره يقود إلى استنتاج آخر في غاية الأهمية وهو عدم بروز أي قوة إسلامية لاحقاً وضعت ضمن برنامجها العسكري السياسي إعادة القواعد الإسلامية القديمة المسلوبة إلى حاضرة الإسلام، وكان أفضل ما حققته تلك القوى هو الحفاظ على ما بقي من الممتلكات في أحسن أحوالها.

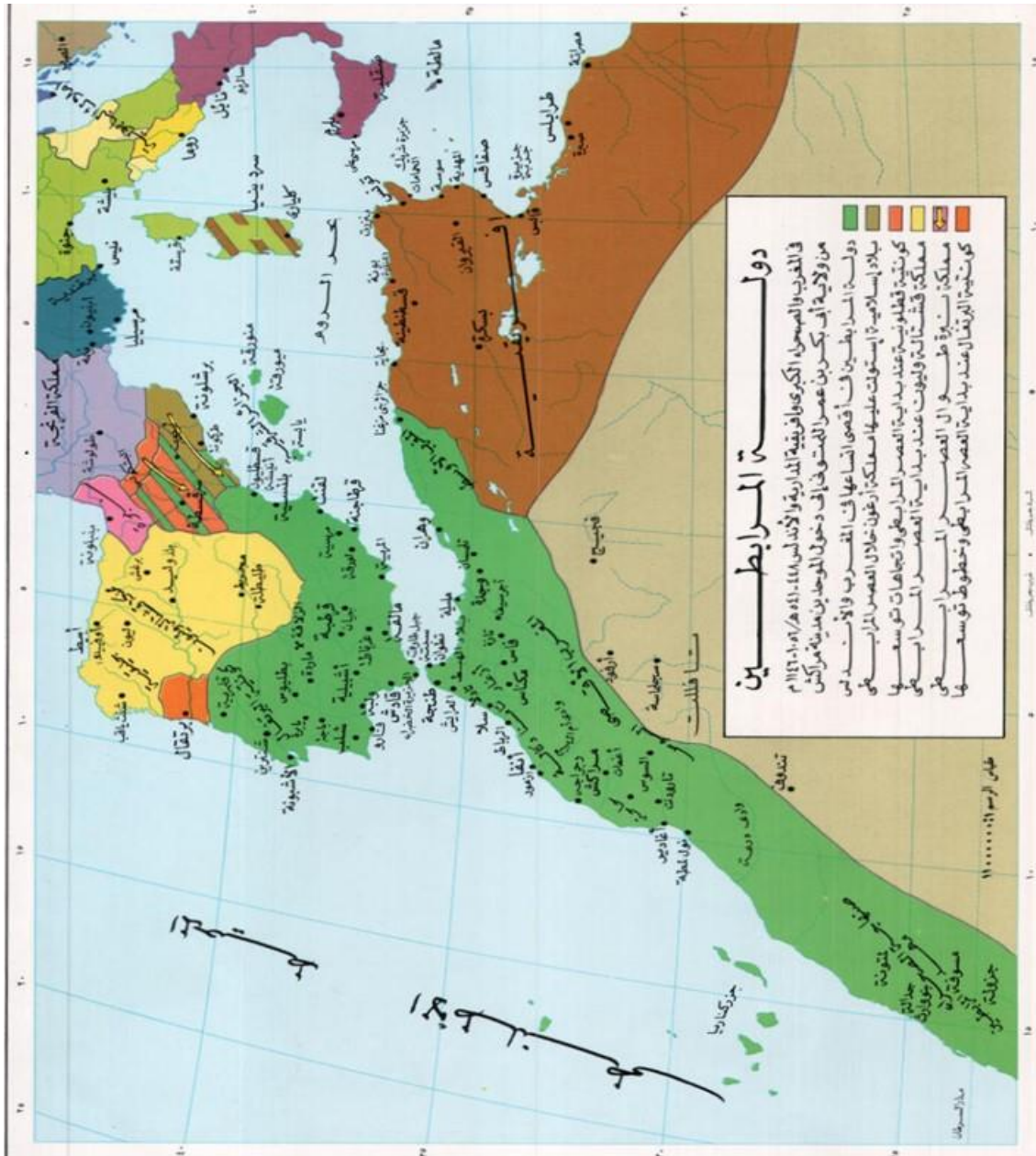


الشكل (٢) الممالك المسيحية في العصر الذهبي للدولة الموحدية.

عنان: دول الإسلام في الأندلس، ج ٣، ص ٥٠٣



الشكل (٣) جزيرة صقلية وبلاد قلورية والجزر الغربية لحوض المتوسط
 مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط ١، القاهرة،
 ١٩٨٧م، ص ١٦٤



الشكل (٦): بلاد الأندلس والمغرب في العصر المرابطي

مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٦٥.

ثالثاً-الفصل الثاني:

مرحلة تأسيس دولة الموحدين وجهود الخلفاء
الأوائل في تثبيت أركان الدولة

محمد بن تومرت ٥١٥-٥٢٤هـ/١١٢١-١١٢٩م

عبد المؤمن بن علي ٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٢٩-١١٦٢م

- ١- المهدي محمد بن تومرت وجهوده في تأسيس دولة الموحدين ٥١٥-٥٢٤هـ/١١٢١-١١٢٩م:
 - أ- لمحة عن حياته وشخصيته.
 - ب- جهود وأعمال بن تومرت في تأسيس دولة الموحدين.
 - ٢- عبد المؤمن بن علي المؤسس الفعلي لدولة الموحدين ٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٢٩-١١٦٢م:
 - أ- اسمه ونسبه وتكوين شخصيته الثقافي.
 - ب- أعمال الخليفة عبد المؤمن بن علي:
 - ج- أحوال البلاد السائدة عشية وصول عبد المؤمن بن علي إلى السلطة.
 - د- ضم بلاد المغرب الأقصى والريف الأطلسي.
 - هـ- القضاء على دولة المرابطين ودخول عاصمة ملكهم مراكش.
 - و- حملات عبد المؤمن بن علي إلى الشمال الإفريقي إلى المغرب الأدنى والأوسط.
 - ز- ضم بلاد الأندلس.
 - ح- جواز عبد المؤمن إلى الأندلس.
 - ط- القضاء على التمردات والحركات الثورية المناوئة للموحدين:
 - ١ في بلاد المغرب والشمال الإفريقي.
 - ٢ في بلاد الأندلس.
 - ك- وفاة عبد المؤمن بن علي.
- النتائج

١. المهدي محمد بن تومرت وجهوده في تأسيس دولة الموحدين.

أ- لمحة عن حياته وشخصيته ٥١٥-٥٢٤هـ/١١٢١-١١٢٩م:

يعد محمد بن تومرت ^(١) الزعيم الديني والسياسي لدولة الموحدين وباني اللبنة الأولى في صرحها، وواضع الأساس الفكري والعقائدي لها، وهو من حيث الانتماء من قبائل البربر من قبيلة هرغة البربرية أحد أشهر بطون القبيلة الأم مصمودة، ومن أسرة كانت شغوفة بالعلم والرباط، وقد ذكر المؤرخ ابن خلدون اهتمام ابن تومرت بالعلم والسعي لطلبه وتحصيله، وسفره على رأس المئة الخامسة الهجرية / القرن الحادي عشر الميلادي إلى بلاد الأندلس إلى قرطبة ثم توجه منها إلى بلاد المشرق الإسلامي كالإسكندرية ثم العراق، حيث لقي جملة من العلماء في العراق منهم الإمام أبي حامد الغزالي إلا أن ابن خلدون لم يؤكد على لقاء ابن تومرت مع الإمام الغزالي، وقد نقل عن غيره بقوله: "ولقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي، وفاوضه بذات صدره بذلك، فأراد عليه لما كان فيه الإسلام يومئذ بأقطار المغرب من اختلال الدولة، وتقويض أركان السلطان الجامع للأمة" ^(٢)، وعلى كل حال فإن ابن تومرت قد قام برحلته المشرقية في طلب العلم ثم عاد أدراجه إلى بلاده ولم يكن رجوعه دفعة واحدة، بل كان ذلك على مراحل، فكان في كل مكان ينزل به يقوم بالوعظ والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكثيراً ما كان يتعرض للطرد من قبل الولاة والحكام للبلاد التي ينزل ضيفاً عليها مثل طرابلس الغرب وبجاية التي كانت تتبع سلطان بني حماد، وتلمسان ومراكش عاصمة المرابطين التي ناظر فيها فقهاء المرابطين المالكية وهو على مذهب الأشاعرة كما هو معروف، وظهر عليهم وفي مقدمتهم مالك بن وهيب

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت الهرغي، ولد بهرغة سنة ٤٧١هـ/١٠٧٩م، وقرأ بقرطبة على القاضي ابن حمدين ثم ارتحل إلى المهديّة، وأخذ عن الإمام أبي عبد الله المازري ثم انتقل إلى الإسكندرية وأخذ عن الإمام أبي بكر الطرطوشي، ثم انتقل إلى بغداد وأخذ عن أبي حامد الغزالي ... إلخ؛ ابن القنفذ، أحمد ت ٨١٠هـ/٤٠٧م: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: عبد المجيد التركي وآخرون، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨م، د. ت، ص ٩٩-١٠٤.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٠١-٣٠٢؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج ٧، ص ١٥٠-١٥٤.

الذي حاول تحذير علي بن يوسف بن تاشفين من خطره على دولتهم، ووجوب التخلص منه، وهو صاحب العبارة الشهيرة التي ذكرها ابن خلدون: "اجعل علي رجله كبلًا، لئلا يسمعك طبلًا"^(١)، ولكن ابن تاشفين لم يكثرث لأمره لحد كبير، ويعد تركه لابن تومرت خطأ سياسياً كبيراً، لأنه لم ير فيه إلا رجل علم ونصح ليس إلا، ولم يكن يدري بأن هذا الرجل الذي تساهل معه هو الشخص الذي سيسبب له المتاعب الكثيرة، وسيقوم هو وأتباعه بإسقاط دولته لاحقاً.

ب- جهود ابن تومرت وأعماله في تأسيس دولة الموحدين:

بدأ ابن تومرت مرحلة جديدة من مراحل نشاطه الديني والسياسي في آن واحد، بعد أن اجتمع مع خليفته وتلميذه عبد المؤمن بن علي الذي كان ينوي السفر إلى المشرق لتحصيل العلم، ولكن ابن تومرت أقنعه بتغيير وجهة سيره معه، والعودة إلى بلاد المغرب لكي يكمل دعوته الجديدة التي أخذ ينشرها بين الناس وعلى مذهب التوحيد الذي أطلقه ابن تومرت على دعوته، وأطلق على أتباعه الذين مشوا في ركبه اسم الموحدين، ومن هنا نشأت النواة الأولى لدولة الموحدين، وكانوا عشرة رجال في البداية، وتسموا أصحاب عشرة، وهم أول الرجال الذين اتبعوا دعوة محمد بن تومرت وبايعوه، وذكرهم ابن خلدون بأسمائهم وأسماء قبائلهم^(٢)، وكانت هذه القبائل لها المكانة الخاصة عند الخلفاء الموحدين أولها قبيلة ابن تومرت هرغة، وكيدومية وهنتاتة وتينملل وكنفيسة^(٣)... إلخ، وكانت الطبقة

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٠٤، ابن السماك: الحلل الموشية، ص ١٠٣-١٠٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٠٤.

(٣) ورد اختلاف في لفظ أسماء بعض هذه القبائل عند ابن خلدون والمصادر التاريخية الأخرى مثل ابن عذاري المراكشي وابن صاحب الصلاة، على سبيل المثال قبيلة كيدومية عند ابن خلدون ذكرت كيدومية عند المصادر الأخرى وكنفيسة جاء لفظها جنفيسة، ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٠٤، يذكرهم ابن خلدون عنده في العبر باسم "ايت خمسين"، العبر، ص ٣٠٤، ذكر الدكتور عبد الوهاب منصور في كتابه "قبائل المغرب" أن قبيلة نفيسة أو كنفيسة وموطنها الأصلي شمال وادي السوس ولها اثنان وعشرون بطناً، وكديموة=

الأخرى التي جاءت بعد هؤلاء العشرة تتألف من خمسين رجلاً وهم الذين أطلق عليهم أصحاب الخمسين، ومن بعدهم أصحاب السبعين، وسيكون أصحاب العشرة وأصحاب الخمسين وأصحاب السبعين من النسيج الرئيسي الذي تتكون منه دولة الموحدين لاحقاً.

وقام ابن تومرت باتخاذ خطوة أخرى في سبيل إضفاء شرعية لنفسه بين الناس، ومحاولة منه كسب تأييدهم له بين الخاصة والعامة، فقد كان لقبه إلى حين بالإمام، وأصبح يمهد لنفسه أمام أصحابه عن فكرة المهودية والعصمة، وعن ظهور المهدي بين الناس لكي يحق الحق، ويبطل الباطل، وعندما وثق أمره بين أصحابه، أخبرهم بأنه هو المهدي المنتظر، ولم يتوانى عن إلحاق نفسه في نسب يربطه ببيت النبوة، لكي يضيف ذلك عليه قداسة وهيبة بين الناس، وهنا تكمن عدة تساؤلات لا بد من طرحها والإجابة عنها: هل لاقى المهدي أدناً صاغية بين الناس كي ينشر فيها أفكاره من غير وجود معارض له؟

وهل نسبه إلى البيت النبوي الشريف صحيحاً لا شك فيه؟ وكيف استطاع نشر أفكاره بين أوساط الشعب، وأمامه دولة المرابطين التي كانت ماتزال تحتفظ بسلطانها العسكري والسياسي على بلاد المغرب والأندلس؟ وهل تمكن من تقويض أركان هذه الدولة، ونجح في تأسيس دولة يتزعمها سياسياً ودينياً؟

في الحقيقة لقد كان هناك تباين في كتابات المؤرخين حول شخصية ابن تومرت ومهدويته، وانتسابه إلى البيت النبوي الشريف، وحتى عن أصله بأنه عربي، فابن خلدون يؤكد على حقيقة انتسابه إلى البيت النبوي عندما قال: "وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت"، وأن نسبه يصل إلى الحسن بن علي

= ست وأربعون بطناً وتقسم إلى كدميوة الجبل وكدميوة الفحص وهي مستقرة إلى الجنوب من مراكش، وتتمثل تعادل قبيلة هرغة وتتألف من أحد عشر بطناً، وتقع إلى الجنوب الغربي من مراكش، وهرغة وهي قبيلة المهدي واسمها البربري أرغن لم يبق من بطونهم الكثير، متواجدون بالقرب من مدينة تارودانت قرب وادي السوس، أما قبيلة هنتاتة فاسم جدهم هنتات بلسان المصامدة وهم تسعة بطون، موطنهم إلى الجنوب من مراكش، وشيخهم عمر بن يحيى الهنتاتي هو جد الأسرة الحفصية لاحقاً في تونس؛ بن منصور، عبد الوهاب: قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨م، ص ٣٣٥-٣٣٩.

ابن أبي طالب، وهذا أيضاً ما أكدّه لسان الدين بن الخطيب في كتابه " أعمال الأعلام" عندما ذكر انتساب ابن تومرت إلى آل البيت الشريف (١)، بينما وجد عدد من المؤرخين لا سيما المعاصرين منهم أمثال المؤرخ محمد عبد الله عنان بأن هذا الادّعاء ماهو إلا نحلة باطلة، وثوباً مستعاراً قصد من خلاله ابن تومرت أن يدعم من ورائها مهديته وإمامته (٢).

وبالرجوع إلى شخصية ابن تومرت يجد المرء أن رحلاته في أسفاره الكثيرة التي قضاها يجوب حواضر العالم العربي الإسلامي بمشرقه ومغربه، قد مكنته من الاطلاع والوقوف على دول العالم الإسلامي، حيث عرف أسباب تدهور الإمارات الإسلامية بما في ذلك بلاد المغرب، وقد زاد السفر والترحال في البلاد وطلب العلم في شخصيته حنكة ومعرفة، لذلك رسم ابن تومرت أهدافه بدقة وحذر شديدين، من أجل إقامة دولة قوية تستوعب بلاد المغرب برمته كافة، واستطاع استغلال الظروف التي تمر فيها بلاد المغرب ووظيفها لخدمته، لذلك وكما ذكر المؤرخون أمثال ابن الأثير بأن بعض أعماله قد تميزت بالحيلة والمكر في بعض المواقف التي تعرض لها في بداية تأسيس دولته، مثل طلبه للبشير عبد الله الونشريسي (٣) بأن يتظاهر بالرجل الجاهل الذي لايعلم شيئاً، وأن يجعل لعبه يسيل من فمه على صدره، ويكون رثّ الثياب، وقام الونشريسي بدوره على أكمل وجه، وتظاهر كما أمره ابن تومرت، بينما كان يتعلم بالسر حفظ القرآن الكريم، والفقه، والعلوم الأخرى، حتى إذا تحول هذا الرجل فجأة مما ألفه الناس عنه من الجهل، ورداءة المنظر، ورث الثياب، إلى رجلٍ جميل المنظر، حافظ للقرآن الكريم عالماً بفقه الشريعة، بدا وكأنه معجزة بين الناس، يشهد لابن تومرت بالمهدوية،

(١) ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ت، ج ٢، ص ٣٩٨.

(٢) عنان، محمد بن عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٠م، ق ٢، ص ٥٥٧.

(٣) أبو محمد عبد الله بن محسن بن يكنيمان بن الحسن بن الحسين بن عبد الملك بن كباب ابن ريس من جماعة أهل العشرة، من خلاصة المهدي المقربين، وهو من أهل العشرة الذين بايعوا المهدي في أول دعوته، توفي في معركة البحيرة عام ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م؛ البيهقي: المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، ص ٢٣-٢٤.

ويقوم بالتنبؤ في مصير الناس أكانوا من أهل الجنة، أم من أهل النار، ويرى المرء أن ذلك تصرف على غاية كبيرة من الذكاء والدهاء الذي تميز به ابن تومرت، فعملية التمييز التي لجأ لها ابن تومرت عن طريق الونشريسي خلصته من كل الأتباع الذين يشك ابن تومرت بولائهم له من الموحدين، والأعظم من هذا أن جعل أبناء قبيلتهم يقوموا بقتلهم، ووعدهم بأن مراكش ستكون ملكهم تعويضاً لهم عن قتل ذويهم، وكثيرة هي الأمثلة التي ذكرها المؤرخون المسلمون حول حيل ابن تومرت في كسب مؤيديه إلى صفه، ومد نفوذه بعيداً إلى باقي البلاد، وقد حقق ابن تومرت نجاحاً يعد فريداً من نوعه في وضع أسس قوية لدولته وأتباعه الموحدين من بعده، وسحق كل من يعترض طريقه وبطرق قاسية في معظم الأحيان، وسيكمل خليفته عبد المؤمن بعده بقيادة الموحدين وتأسيس دولتهم المستقبلية لاحقاً^(١).

بعد أن أصبح ابن تومرت قوة فعلية مع أتباعه الموحدين بدأ بتنفيذ سياسته الرامية إلى مد نفوذ الموحدين، وتوسيع ملكه وقاعدته في تينملل^(٢) ذات الموقع الحصين، وكانت البداية في القيام بالغزو والإغارة على أراضي الدولة المرابطية، وقد ذكر البيدق في كتابه " أخبار المهدي بن تومرت " الغزوات التي قام بها ابن تومرت، ولم يأت على ذكرها مؤرخو الدولة الموحدية أمثال ابن عذاري المراكشي، وابن القطان، وابن صاحب الصلاة بمثل ما ذكره البيدق، لأن البيدق كان أحد المقاتلين المشاركين مع المهدي في حروبه وتقلاته، وتتلّمذه على يديه، فيذكر البيدق مجمل غزوات ابن تومرت، وكانت هذه الغزوات ضد أتباع المرابطين الذين كان ينعتهم الموحدون بالمجسمين^(٣)، وهو اللقب الذي أطلقه إمامهم ابن تومرت

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تصحيح: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، ط ٤، بيروت، ٢٠٠٣م، ج ٩، ص ١٩٧-٢٠٠.

(٢) موضع في بلاد المغرب في منطقة الجبال، فيها قرى ومزارع يسكنها البربر، بين أولها وبين مراكش ملك بني عبد المؤمن، اتخذها المهدي بن تومرت لتكون مركزاً لدعوته الجديدة، ثم أصبحت لبني عبد المؤمن بن علي وذريتهم من الموحدين؛ ياقوت: معجم البلدان، مج ٢، ص ٦٩.

(٣) أطلق ابن تومرت ألقاباً كثيرة على المرابطين وذلك لأن المرابطين أطلقوا على الموحدين لقب الخوارج، فذكرهم أعلاه بالمجسمين كما أطلق عليهم الزراجنة وهو أسم لطائر أسود =

على المرابطين منذ أن قام بمعاداتهم واتهامه إياهم بالتكفير والضلالة وعلى كل من عاداهم، فذكر البيدق تسع غزوات لابن تومرت، كان نصيب ابن تومرت فيها الانتصار والغنائم الأمر الذي كان يزيد الموحدين قوةً، وعدداً، وذكر البيدق في الغزوة التاسعة للمهدي أن البشير وهو المعروف بالونشريسي قد قام بأمر من ابن تومرت بالتميز كما تم ذكر ذلك سابقاً، وهي ظاهرة خطيرة كانت خاصة بالموحدين دونما غيرهم من أجل معرفة الأتباع المخلصين من المزيفين والمنافقين، ولتمييز الخبيث من الطيب على حد زعمهم، ممن هم في صفوف الموحدين، حيث كان الونشريسي قد إبنى خمس قبائل كانت تخضع لسلطان الموحدين (١).

وأما الغزوة الأخيرة في حياة ابن تومرت وقد جهزها بنفسه، وكلف الونشريسي وعبد المؤمن بقيادتها، فقد كانت مخيبة لآماله، إذ حققت لمتونة ويمثلها المرابطون نصراً كبيراً على الموحدين المصامدة وكانت تسمى معركة البحيرة عام ٥٢٤هـ/١١٣٠م، وهو العام الذي توفي فيه ابن تومرت، وكانت هذه المعركة ضربة كبيرة في جبهة الدولة الموحدية الناشئة، حيث قتل فيها مقدم الموحدين البشير الونشريسي الذي عينه المهدي في قيادة الجيش، ولكن خليفة ابن تومرت عبد المؤمن بن علي خرج سالماً فاطمئن ابن تومرت إلى ذلك، وهذا الحديث قد ساقه البيدق وهو المصدر التاريخي الأصيل الذي نقلت عنه معظم المصادر التاريخية أثناء الكلام عن المهدي ابن تومرت، وغزواته حتى وفاته بعد معركة البحيرة بمدة وجيزة، فيقول البيدق: " فأقبل عليّ الخليفة الرضي عبد المؤمن بن علي وقال لي يا أبا بكر أسرع بنا نحو المعصوم فأسرعت حتى وصلت المعصوم فأعلمته، فقال لي: عبد المؤمن في الحياة؟ قلت نعم، قال: الحمد لله رب العالمين قد بقي أمركم، هل جرح؟ قلت شجّ في خده الأيمن، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله

= البطن أبيض الريش يقال له الزرجان، أي أنهم بيض الملابس سود القلوب، ابن القطان، حسن بن عبد الملك: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٥م، تطوان، ص ١٣١.

(١) البيدق، أبي بكر الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧١م، ص ٣٤-٣٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣٩٨.

العلي العظيم، الأمرُ باقي ثم قال ارجع إليه الأمر باقي ولا تجزعوا، فرجعت حتى لقيته فأعلمته" (١).

ويخلص المرء بأن النواة الأولى لدولة الموحدين التي أسسها ابن تومرت قد حققت نجاحاً كبيراً لا يستهان فيه، وفتحت الطريق أمام خليفته عبد المؤمن بن علي في متابعة مولاة في زعامة الموحدين، وتحولت من طور التأسيس إلى طور الدولة، ذات الأجهزة الإدارية المؤسساتية بعد تصفية لمتونة ممثلة بالمرابطين.

ولابد من ذكر الجهود التي قام بها ابن تومرت في إيصال أفكاره إلى الناس عامة وإلى أتباعه بكل الوسائل التي يتطلبها ذلك، بالحيلة والخديعة تارة والحجة والإقناع تارة أخرى، ولا يغفل المرء عن شخصية ابن تومرت العبقريّة التي حنكتها الأسفار والعلوم في تحديد مرادها بدقة، إذ إن ابن تومرت تتلمذ على أشهر الشيوخ علماً ومعرفة في الفقه والأصول، وكان كتابه " أعز ما يطلب " (٢) خير دليل على خصب معرفة الرجل، وفصاحته في اللغة العربية مع أنه بربري الموطن والنشأة، إضافة إلى تمكنه من أقرانه في المغرب، وقد بدا ذلك واضحاً عندما ناقش علماء المالكية بحضرة سلطان المرابطين في مراكش، بالإضافة إلى وجود عامل كبير مكن ابن تومرت من تحقيق نجاحه هذا وهو سذاجة العامة، وميلهم إلى التصديق دون التقصي، ومعرفة حقيقة الأمور بدلاً من الاكتفاء بظاهرها، وكان مساندة قبيلة مصمودة لابن تومرت في وجه لمتونة، واختيار مركز دعوته في تينملل الحصينة من العوامل التي درئت خطر جيوش المرابطين في تتبع نشاط الموحدين وملاحقتهم خاصة بعد معركة البحيرة، وبوفاة المهدي بن تومرت يبدأ خليفته عبد المؤمن بمتابعة طريق شيخه في توطيد الدولة وبناء مؤسساتها، وإعطاءها طابعاً خاصاً بها، ويكون ابن تومرت بذلك قد كون ملامح بدائية إن صح التعبير لدولة الموحدين المستقبلية، ولم القدر لم يعطيه الفرصة ليرى سقوط

(١) الببديق: أخبار المهدي، ص ٤٠.

(٢) وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من التعليقات والمختصرات والموضوعات والرسائل التي كانت أساس دعوة المهدي، وهذه يتفرع عنها مواضيع مختلفة مثل الفقه والحديث والسياسة والجهاد والدعوة إلى الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ابن تومرت، محمد: أعز ما يطلب، تح: عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، د.ت.

دولة المرابطين على يديه، بل كان ذلك في عهد خليفته عبد المؤمن بن علي، وهذا ماسيتم ذكره في الفقرة التالية.

٢. عبد المؤمن بن علي وإقامة دولة الموحدين

إذا كان ابن تومرت المؤسس الديني والروحي لدولة الموحدين، فإنَّ خليفته عبد المؤمن بن علي هو المؤسس الفعلي والعسكري، وهو الشخص الذي حول الدولة الموحدية من مفهوم الدعوة الدينية والانتماء القبلي إلى الدولة المركزية العسكرية المؤسساتية، ذات الدواوين، والسجلات، والمراسم، والقوانين.

وقبل الحديث عن أعمال عبد المؤمن بن علي وجهوده في بناء دولة الموحدين، فلا بد من التعريف به، ونسبه، وقبيلته التي ينتمي إليها، وهل كان هناك اختلاف فيما ذكره المؤرخون حول نسب عبد المؤمن بن علي أكان بربرياً أم عربياً أصيلاً؟

أ- اسمه ونسبه:

هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلا بن مروان بن نصر بن عامر.... بن بر بن قيس بن عيلان بن نزار بن معد بن عدنان، وقد ذكر ابن أبي زرع في كتابه " الأنيس المطرب" بأنه زناتي الأصل من كومية هنين من موضع يعرف بتاجرا^(١)، ولكنه لم يجزم في ذلك، بل إن ابن أبي زرع وصل نسبه إلى مضر ونزار القبائل العربية الأصيلة، وفي ذلك تأكيد لهوية عبد المؤمن بن علي بعروبيته، وهذا ما أكده أيضاً ابن خلكان أيضاً في انتسابه إلى قيس بن عيلان وبالتالي عربيته الصريحة^(٢)، ولكن المؤرخ الموحدي عبد الواحد المراكشي قد ذكر تفصيل أوفى وأدق، وأكثر وضوحاً، عندما تناول الحديث عن حياة الخليفة عبد المؤمن بن علي في انتماءه إلى قبيلته كومية وانتسابه لها بقوله: " وقيل: إنه كان يقول إذا ذكر كومية : لست منهم، وإنما نحن لقيس بن عيلان بن مضر بن

(١) وهي قرية على ساحل البحر تقع على بعد ثلاثة أميال من مرسى هنين، وهي مازالت تعرف بهذا الاسم، الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص ١٨٣.

(٢) ابن خلكان، أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، مج ٣ ص ٢٣٧-٢٣٨.

نزار بن معد بن عدنان، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم، وهم الأخوال" (١) .

أما الرواية التي جاء فيها البيدق بخصوص انتساب عبد المؤمن بن علي إلى مضر بن نزار، فتفيد في ربط نسب عبد المؤمن إلى مضر، كما أشار المؤرخين أعلاه، وأنه عاش بين قبائل المغرب الأوسط، وكان لعيشه هذا تأثير على حياته وذريته من بعده عندما قال: "والخليفة رضي الله عنه من ولد سليم بن منصور بن قيس بن عيلان بن مضر جد النبي عليه الصلاة والسلام، لا شك في ذلك، نزل أجداده بساحل تلمسان، فراراً من بعض الفتن بالأندلس، وجاور بعض مطماطة أخوة زناتة، فنسب ولده إليهم بالجوار والحلف، هذا مما لا شك فيه عند أهل العناية بهذا الشأن" (٢) .

وهذا تأكيد آخر على صحة نسب عبد المؤمن بن علي إلى مضر العربية وهذا النسب كان له دوراً واضحاً في التفاف القبائل العربية حوله لاسيما الجهاد في الأندلس إلى جانب الموحدين، وكان عبد المؤمن يطلق عليهم أبناء العمومة، واعتماده اللغة العربية كلغة الرسمية للدولة الموحدية، وذكر عبد الواحد المراكشي في " المعجب " الرسالة التي وجهها الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى القبائل العربية يستحثهم فيها على الجهاد عندما أراد غزو الأندلس، وهذه بعض الأبيات التي أوردها صاحب المعجب كلام عبد المؤمن في رسالته هذه:

أقيموا إلى العلياء هوجَ الرواحلِ	وقودوا إلى الهيجاء جُردَ الصواهلِ
وقوموا إلى الدين قومة تائرٍ	وشدّوا على الأعداءِ شدة صائلٍ
بني العمّ من عليا هلال بن عامرٍ	وما جمعت من باسلٍ وابن باسلٍ
تعالوا فقد شدّت إلى الغزو نيةً	عواقبها منصوره بالأوائِلِ

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تعليق وتصحيح: محمد سعيد العريان وآخرون، مطبعة الاستقامة، ط١، القاهرة، ١٩٤٩م، ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) البيدق: المقتبس من كتاب الأنساب، ص ١٤-١٥.

وقد استجاب له جمع كبير من قبائل العرب ساندوه في غزوه لبلاد الأندلس
كما سيمر لاحقاً^(١).

ب- شخصية عبد المؤمن بن علي وتكوينه الثقافي:

نشأ عبد المؤمن بن علي في أسرة محبة للعلم، وكان من بداية حياته
عاكفاً على دروس العلم وحضور مجالسه عند الشيوخ، وكان قد تعلم القراءة
والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، وعنده إلمام بالسيرة النبوية الشريفة، وبدأت عليه
علامات الفطنة والنجابة منذ نعومة أظفاره، كان متفوقاً على أقرانه، وقد انتقل من
بلده تاجرا إلى تلمسان^(٢) عام ٥٠٩هـ / ١١١٥م، واتصل بالفقيه ابن صاحب
الصلاة عبد السلام التونسي، وكان عبد المؤمن ذا مقدرة مميزة على الحفظ والقراءة
والكتابة منذ أن كان في بلده تاجرا^(٣).

وذكر ابن أبي زرع في كتابه " الأنيس المطرب " يصف الخليفة عبد المؤمن
ابن علي قائلاً: " كان أبيض اللون مشرباً بحمرة، أكحل العينين، أجعد، تام القد،
له وفرة تبلغ شحمة أذنه، أزج الحاجبين، ملائم الأنف، عريضه، مستدير اللحية"
(٤).

ووصفه أيضاً عبد الواحد المراكشي بصورة أخرى في قوله: " وكان أبيض
ذا جسمٍ عَمٍ تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر، معتدل القامة وضئى الوجه، جهوري
الصوت، فصيح الألفاظ جزل المنطق، وكان محبباً إلى النفوس، لا يراه أحدٌ إلا

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) تلمسان عبارة عن مدينتين متجاورتين مسورتان بينهما رمية حجر، إحداها قديمة والأخرى
حديثة، والحديثة خططها الملتزمون واسمها تافرزت، فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان،
ويزعم أنه بتلمسان البلد التي قام فيها الخضر عليه السلام؛ ياقوت: معجم البلدان، مج ٢،
ص ٤٤.

(٣) وتكتب أيضاً تاجرة بفتح الجيم والراء، بلدة صغيرة من نواحي هنين بساحل تلمسان، كان
فيها مولد عبد المؤمن بن علي صاحب المغرب؛ ياقوت: معجم البلدان، مج ٢، ص ٥.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٣٣.

أحبه" ^(١)، كان في نفسه سري الهمة، نزيه النفس، شديد الملوكية، لا يرضى إلا بمعالي الأمور ^(٢)، وبلغني أن ابن تومرت كان ينشد كلما رآه:

تكاملت فيك أخلاقٌ خُصِّصَتْ بها فكلنا بك مسرورٌ ومغتبطٌ
فالسُّنُّ ضاحكةٌ والكفُّ مانحةٌ والصدر منشرجٌ والوجه منبسط ^(٣)

في الحقيقة كانت النقطة الأكثر تأثيراً على شخص عبد المؤمن هي لقاءه مع الشيخ محمد بن تومرت الفقيه السوسي في تغيير نظرة عبد المؤمن بن علي للوجهة التي كان يقصدها، وهي طلب العلم، وزيادة المعرفة، والارتحال من بلد لآخر، وحضور مجالس العلم على أيدي الشيوخ، وقد نجح ابن تومرت في تغيير خط سير عبد المؤمن بن علي في رحلته إلى المشرق، ومرافقته في العودة إلى بلاد المغرب، وكانت أولى الخطوات التي اتخذها عبد المؤمن هي البيعة لابن تومرت، والانفصال عن سلطان المرابطين، وتشكيل كيان سياسي مستقل ومعادي لهم مستقبلاً، حيث شارك عبد المؤمن ابن تومرت في غزواته التسعة التي قام فيها ضد المرابطين، وجعل من تينملل القاعدة الرئيسية للموحدين، وكان ذلك بتوجيه من شيخه ابن تومرت، وقد أظهر عبد المؤمن قدرة عسكرية ماهرة، وجَلَدًا في غزواته ضد المرابطين مُضْعَفًا بذلك عزائمهم، وهذا بدوره دفع سلطان المرابطين علي بن يوسف إلى إقامة الحصون والقلاع في المناطق الجبلية، لمنع إغارة الموحدين على المناطق السهلية، وتحول موقفهم من الدفاع إلى الهجوم ^(٤).

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ١٩٧.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ١٩٧.

(٣) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ١٩٦-١٩٧.

(٤) البيدق: أخبار المهدي، ص ٩٢-٩٣.

١. ١. أعمال الخليفة عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين:

أ- أحوال البلاد السائدة عشية وصول عبد المؤمن ابن علي إلى السلطة.

استطاع عبد المؤمن بن علي الحصول على مبايعة الموحدين له بالخلافة على الرغم من أنه لم يكن من أبناء جلدة المصامدة، وكان ذلك بفضل الوصاية التي أقرها ابن تومرت لعبد المؤمن قبل وفاته عندما وقف في الناس خطيباً بقوله: "... وقد أخذنا رجلاً منكم، أميراً عليكم، واختبرنا سريرته، وعلايته، والمشار إليه عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا" (١)، وقد جاءت الروايات بين المصادر التاريخية متعددة حولبيعة عبد المؤمن بن علي وكيفيتها، وما يهم هنا أن عبد المؤمن قد بوع لخلافة الموحدين ببيعتين الأولى خاصة من قبل أصحاب المهدي العشرة، وكانت في الرابع عشر من رمضان من عام ٥٢٤هـ/١١٣٠م، والبيعة العامة بعد ذلك بسنتين من وفاة المهدي بن تومرت عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م بجامع تينملل.

عندما تسلم عبد المؤمن بن علي زعامة الموحدين، كانت الدولة الموحدية الناشئة تحتاج إلى تدابير حازمة، وقائد محنك ينهض بأعبائها، لا سيما إن الجيش الموحي قد مني بهزيمة ساحقة من قبل الجيش المرابطي في معركة البحيرة، وهنا لابد من التساؤل التالي: هل كان عبد المؤمن ذلك الرجل الناجح الذي استطاع تحقيق آمال شيخه ابن تومرت وأتباعه الموحدين في تشكيل دولة قوية مرهوبة الجانب يهابها القاصي والداني؟ وهل كان الزعيم الموحي الجديد على القدر الكافي من المسؤولية؟ وكيف استطاع تحقيق ذلك؟

عند العودة إلى المصادر التاريخية الإسلامية لاسيما كتابات مؤرخي الدولة الموحدية وغيرها من المؤرخين المشاركة أو المغاربة (٢) كابن صاحب

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٢٨٩.

(٢) هناك الكثير من المؤرخين المسلمين الذين كتبوا عن الموحدين لا سيما عن خليفته عبد المؤمن بن علي، مثل ابن الأثير، وابن أبي زرع والناصري والمقري التلمساني، والمؤلف لابن السماك: صاحب الحل وغيرهم أيضاً، فقد كان الاستناد في العمل إلى جميع =

الصلاة، وعبد الواحد المراكشي، وابن القطان، وغيرهم ممن تحدث عن الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بن علي، فإنها كلها تجمع على الأعمال الجلييلة، والجهود العظيمة التي بذلها عبد المؤمن، وذلك من خلال وضع الأسس القوية لدعائم دولة الموحدين، وتوحيد المغرب الإسلامي مع بلاد الأندلس في جبهة واحدة، بعد تصفية كل ما يعيق مشروعه الإمبراطوري الجديد، سواءً أكان ذلك على الصعيد الداخلي أو الخارجي، حيث استطاع عبد المؤمن وقبل كل شيء أن يحصر بيت الزعامة في أهله، ويكون أبنائه وأحفاده من بعده هم خلفاء الدولة دونما سواهم، وهذه أولى الخطوات التي تعكس فطنة عبد المؤمن، وبعد نظره لبناء دولة متماسكة بعيدة عن النزاع لأجل السلطة، وإن كان هذا لا يرضي المصامدة الذين قبلوا بتولي عبد المؤمن زعامة الموحدين كونه ليس من جلدتهم، وكان ذلك بتوصية من ابن تومرت، وتقديمه إياه على سائر الموحدين كما مر سابقاً، لذلك جعل أبنائه يشاركوه إدارة البلاد، ولكي يضمن التبعية له ولأسرته من بعده في سائر الدولة، كان يرسل مع أبنائه شيوخ الموحدين وبرفقة كلٍّ منهم أشهر الكتّاب، فعين ابنه أبا حفص مثلاً على تلمسان، وأرسل معه الشيخ أبا محمد بن وانودين، والكاتب أبا الأصبغ بن عياش مؤدباً ومعلماً، ومثل ذلك مع ابنه أبا سعيد عثمان على غرناطة، وأبا الحسن علي على فاس، وابن عبد الله على بجاية...^(١)، وهذا لا يصدر إلا عن رجلٍ خاض تجارب الحياة، وعرف أقدار الناس، وأدرك أنه بالعلم والسلطان معاً يمكن أن يبني دولة قوية حضارية ذات أساس متين.

وبالعودة إلى الأوضاع العامة التي كانت تحيط بالدولة الموحدية الناشئة عشية استلام عبد المؤمن بن علي زمام أمور الموحدين، والبداية كانت تتمثل في وجود دولة المرابطين العدو الأساسي الذي قامت ضده دولة الموحدين، وكان التحدي الآخر أمام عبد المؤمن هو الزحف الإسباني المتكالب على المدن الأندلسية الذي أخذ يزداد حدةً وضراوةً، بالتزامن مع الضعف المرابطي الذي أصبح عاجزاً عن استرجاع تلك المدن، مما سبب تدمير ونقمة أهل الأندلس على المرابطين والدخول في طاعة الموحدين لاحقاً، وكذلك كانت أهم مدن ثغور الشمال

= هذه المصادر، ولكن عند وجود اختلاف ما بين تلك المصادر ستنم الإشارة إلى ذلك الاختلاف أو وجهات النظر.

(١) ابن السماك: الحل الموشية، ص ١٥١.

الإفريقي مثل المهدية، وبجاية، وطرابلس الغرب، وقابس^(١)، وجزيرة جربة في قبضة النورمانديين ملوك صقلية، ممن اتخذوا من تلك الثغور قاعدة انطلاق لهم في البحر المتوسط خاصة الأساطيل الصليبية الألمانية والفرنسية والإيطالية المتوجهة إلى بلاد الشام، ومن أجل ضمان سلامة السفن التي تبحر بين صقلية وساحل الشمال الإفريقي، وكانت مدن الجمهوريات الإيطالية جنوة، وبيزة، والبندقية تمارس دوراً تجارياً بارزاً مع مدن الثغور هذه ومصر وبلاد الشام، إذ كان وجود التمرد الداخلي ضد الموحدين من قبائل العرب والبربر، وحركات المعارضة السياسية إن صح التعبير ضد حكم الموحدين يشكل أحد التحديات الإضافية أيضاً، لذلك قام عبد المؤمن بمواجهة تلك التحديات بكل حزم وشدة، وقام بتغيير أسلوبه العسكري في حربه مع المرابطين، فقد اتخذ عبد المؤمن مناطق الجبال الوعرة التي بدأ يغير من خلالها على المرابطين مستنزفاً بذلك قواهم، وكان المرابطين يتبعون أسلوب جر الخصم إلى المناطق السهلة المكشوفة، أما في تتبع العدو إلى المناطق الوعرة في الجبال مثلاً فلا يستطيعوا المواجهة، وتضعف قدرتهم القتالية، وقد أعطى أسلوب عبد المؤمن في الكر والفر، وسياسة الأنفاس الطويلة، واستنزاف قوى المرابطين نتائج كتب لها النجاح في معظم الحالات، وقد قد تم إيراد تعليق صاحب الحل على ذلك في قوله: ".... كثر الطائع لعبد المؤمن، فنزل من جبل تادلا وجبال غمارة، يقتل ويغنم، وسلك منه مستقبلاً الجبال ما بين فاس وتلمسان، تغير سراياه يمينة ويسرة، وتبعه الأمير تاشفين، فكان يسير الموحدون في الجبال المنيع، حيث الأرزاق الواسعة، وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره، فلا يجد من البربر من يواصله ولا من يستعين به ويدخله، وذلك بسبب الإدبار وانقطاع الدولة والأنصار"^(٢)

(١) مدينة بين طرابلس وسفاقس والمهدية ذات مياه جارية من أعمال إفريقية، فيها أرباض وجامع وحمامات، ومحاطة بخندق كبير تجر الماء إليه عند الحاجة إليه وهو منيع، وهي غنية بالأشجار المثمرة مثل الموز والتوت الذي يشتهر بإنتاجه الكثير للحريز الذي لا يشتهر فيه بلدٌ مثل قابس؛ ياقوت: معجم البلدان، مج ٤، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٢) ابن السماك: الحل الموشية، ص ١٣٠.

ومن هذا القول لصاحب الحل يستشف المرء مظاهر الضعف والفرقة والانقسام التي أصبحت واضحة المعالم في صفوف المرابطين لصالح القوة، ووحدة الصف، وكثرة الاتباع في صفوف الموحدين.

ب- ضم بلاد المغرب الأقصى ومدن الريف الأطلسي:

لقد كانت بلاد السوس هي بداية أهدافه لأنها هي الأقرب إلى قاعدته تينملل، وهي بمثابة الشريان الرئيسي الذي يغذي دولة المرابطين في السوس، حيث تمكن عبد المؤمن في عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م من السيطرة على طرق التجارة بين شمال المغرب وجنوبه، كما أخذ معظم الحصون التي قام المرابطون بإنشائها في تلك المنطقة مثل تاسغيموت^(١) الذي قتل الموحدين كل من كان فيه من المرابطين، وحصن تازاجورت الذي كان واليه يحيى بن مريم الزجراني الذي ضربت عنقه، وحصن هزرجة تاكرارت^(٢)، أمركو^(٣)، والمدينة التجارية ذات الموقع المتميز والمعروفة تارودانت، وقد دفع ذلك أهل السوس إلى تقديم الطاعة والولاء لعبد المؤمن بن علي، خاصة وإن أشهر القبائل التي انضمت إلى الجيش الموحي قبيلة هزرجة وهسكورة^(٤).

وكانت مدن الريف المغربي تلمسان، وسبتة، وطنجة، ووهران، وفاس ضمن برنامج عبد المومن وهدفه قبل عاصمة ملك المرابطين مراكش، فبدأ بالإعداد لحملة كبيرة إلى الشمال الإفريقي قصد منها السيطرة على تلك المدن

(١) دوار معروف إلى اليوم ببطن بني كوجال جنوبي مدينة مراكش، كان المرابطون قد بنوا فيه حصناً، البيدق: أخبار المهدي، ص ٤٥، وقد ذكرها ابن خلدون في العبر تاسعون، ابن خلدون، ج ٦ ص ٣٠٦.

(٢) وهو أحد المعسكرات المرابطية تقع على بعد ٢ كم من العدو اليسرى لنهر درنة، و ١٢ كم إلى الشمال من مدينة بني ملال، البيدق: أخبار المهدي، ص ٥٠.

(٣) وهو جبل ببطن الزاوية من قبيلة فشتالة بالقرب من فاس، بنى فوقه المرابطون حصناً منيعاً مازال أسواره قائمة إلى الآن، البيدق: أخبار المهدي، ص ٥٣.

(٤) ابن القطان: نظم الجمان، ص ٢٢١-٢٢٣.

الواحدة تلو الأخرى، وعدم إعطاء الفرصة للمرابطين في التقاط الأنفاس، فتحصّن بالجبال والشعاب، وحارب المرابطين بأسلوبه المعتاد في الكر والفر مما ألحق خسائر جسيمة في صفوف المرابطين، كونهم غير قادرين على القتال في الأماكن المرتفعة، كونهم اعتادوا القتال في الأماكن المكشوفة كما مر ذكر ذلك سابقاً، وقد ذكر ابن خلدون في العبر: "أجمع عبد المؤمن على غزو بلاد المغرب، فغزا غزواته الطويلة منذ سنة أربع وثلاثين وخمس مئة إلى سنة إحدى وأربعين وخمس مئة ولم يراجع فيها تينملل حتى إذا انقضت بالفتح والاستيلاء على المغربين خرج إليها من تينملل، وخرج تاشفين يحاذيه بعساكره يحاذيه في البسائط، والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن وهو ينتقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل، والحطب للدفء" (١).

وعلق ابن الأثير في الكامل على فائدة تحرك عبد المؤمن في الجبال والآثار السيئة التي حلت بالمرابطين لاقتصارهم على اتخاذهم الأماكن السهلية المكشوفة في تحركاتهم بقوله: "وفي سنة ثلاث وثلاثين توجه عبد المؤمن مع الجبل في الشعراء حتى انتهى إلى جبل كرناطة فنزل في أرض صلبة بين الشجر، ونزل تاشفين (٢) قبالة في الوطأة في أرض لانبات فيها، وكان الفصل شاتياً فتوالت الأمطار أياماً كثيرة لا يقلع، فصارت الأرض التي فيها تاشفين وأصحابه كثيرة الوحل، تسوخ فيها قوائم الخيل إلى صدورهم وقرابيس سروجهم وهلكوا برداً وجوعاً وسوء وتقطعت الطرق عنها، فأوقدوا رماحهم وقرابيس سروجهم وهلكوا برداً وجوعاً وسوء حال، وكان عبد المؤمن وأصحابه في أرض خشنة في الجبل لايبالون بشيء والميرة متصلة إليهم" (٣).

وهذا بالطبع كان له نتائج إيجابية على أرض الواقع لصالح الموحدين، حيث استطاع عبد المؤمن أن يضم وجرة من أعمال تلمسان، وكان علي بن يوسف بن تاشفين قد توفي عام ٥٣٥هـ / ١١٤١م، حيث تسلم ابنه تاشفين عند

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٣٠٦.

(٢) وهو ابن علي بن يوسف بن تاشفين، قدم من الأندلس بسبب وفاة والده علي، وتزعم المرابطين، وسيبقى على قتال مع الموحدين في حروب الكر والفر حتى تدركه المنية في وهران كما سيأتي، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٣، ص ٢٢٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩ ص ٢٠١.

قدومه من الأندلس كما ذكر سابقاً، وحاصر عبد المؤمن تلمسان عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م، ثم أرسل جيشاً بقيادة عمر بن يحيى الهنتاتي^(١) لفتح وهران^(٢)، وفعلاً هاجم الجيش الموحدى وهران، فتحرك تاشفين بمن معه إلى ظاهر وهران في ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م^(٣)، وكان يقصد ربوة تطل على البحر يجتمع فيها المتعبدون، ولكن ذلك التحرك بلغ عمر بن يحيى الهنتاتي فقصدوه بعساكرهم واستطاعوا امتلاك الربوة، وعزم تاشفين على قصد جهة من البحر فسقط به فرسه، ومات متأثراً بذلك، وبلغ ذلك عبد المؤمن فدخل وهران وقتل عدداً كبيراً من عساكر تاشفين التي تفرقت عنه وتحصنوا بوهران، ثم سار عبد المؤمن قاصداً تلمسان، ودخلها وفعل مثملاً فعل بوهران، بعد هروب متوليها المرابطى يحيى بن الصحرأوية^(٤) إلى فاس وتحصنه بداخلها مع عساكره، وبعد دخول عبد المؤمن تلمسان بدأ يجهز جيشه لدخول فاس ومحاصرتها عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٦م، واستمر حصاره لها تسعة أشهر، وتمكن دخولها بعد أن أغرق جزءاً من

(١) الشيخ أبو حفص يحيى بن عمر الهنتاتي من قبيلة هنتاتة، كان من أهل العشرة المقربين للمهدي بن تومرت، اختصه المهدي فيمن عنده ودعى له بالبركة، وكان اسمه الأصلي فصكة فسماه المهدي عمر، وهو شيخ قبيلة هنتاتة وجد ملوك بني حفص، كان من أبرز وألمع قواد الموحدين، فتح بلداناً كثيرة من الأندلس مثل الجزيرة الخضراء وورندة وإشبيلية وقرطبة، توفي بالطاعون الذي أصاب المغرب والأندلس عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م؛ البيهقي: المقتبس من كتاب الأنساب، ص ٣٢.

(٢) تبعد عن مدينة تلمسان ثلاثة مراحل، على مقربة من البحر، لها سور من تراب متقن الصنع، تقابل مدينة المرية من جهة بلاد الأندلس، وبينهما مسافة مجريان من البحر، وعلى بعد ميلين منها مرسى عظيم صالح لرسو السفن الكبيرة وتحتمي فيه السفن إذا عصفت الريح، وفيها بساتين كثيرة وخيراتها عظيمة وأهلها أصحاب عزة ونخوة؛ الإدريسي: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تح: محمد حاج صادق، ص ١٠٥-١٠٦.

(٣) ذكر صاحب الأنيس المطرب أن ذلك سنة أربعين وخمسمئة، وذكر في رواية قد نقلها عن غيره أن ذلك جرى سنة خمسمئة وتسع وثلاثون، ومعظم المصادر الأخرى اتفقت على سنة تسع وثلاثين وخمس مئة، الفاسي، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٨٨.

(٤) نسبة إلى والدته وهي حفيدة أمير المرابطيين علي بن يوسف بن تاشفين، وله أخت تزوجها كاتب الموحدين الوزير بن عطية، وكان هذا الزواج أحد أسباب نكبه؛ المراكشي: المعجب، ص ٩٩.

البلد بالمياه عن طريق إغلاق النهر الذي يدخل إليها، حتى صار سداً عظيماً تجري فيه المراكب، ثم قام بدفع السور بضربة واحدة، فأغرقت المياه جزءاً من المدينة، واضطر أحد ولاتها وهو عبد الله بن خيار الجياني إلى مراسلة عبد المؤمن وطلب الأمان لأهلها فأجابهم لذلك، ودخلها مع عسكره من أحد أبوابها، وخضعت المدينة للموحدين، واستطاع تحقيق فتحاً آخر لمدينة طنجة سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٦م، وبعد طنجة كانت مكناسة ^(١) التي استطاع عبد المؤمن ضمها إلى أملاك دولته الناشئة، ثم عاد عبد المؤمن بعد تحقيق هذه المكاسب والانتصارات إلى تلمسان التي استعصت لبعض الوقت، ولكن الحصار الذي فرضه عبد المؤمن على تلمسان دفع الأهالي إلى مراسلة عبد المؤمن ودخول عسكره إليها، وقتل عبد المؤمن منها مقتلة عظيمة بلغت حسب رواية ابن الأثير مئة ألف قتيل ^(٢)، ومن بعد تلمسان توجه عبد المؤمن إلى سلا ودانت له بالطاعة، وفي سلا حضر عنده وجوهاً من أعيان سبتة بذلوا له الأمان فأمنهم وكان ذلك سنة ٥٤١هـ / ١١٤٧م ^(٣).

ج- القضاء على دولة المرابطين بعد دخول مراكش والقضاء على آخر ملوك المرابطين:

بعد أن استطاع عبد المؤمن أن يضمن بسط سيطرته على معظم بلاد المغرب الأقصى، ولم يبقَ الآن أمامه سوى عاصمة ملك المرابطين مراكش، فقام بالإسراع في إلقاء الحصار على المدينة، وبنى على مكان مرتفع مدينة ليراقب تحركات المرابطين وخولهم وخروجهم من المدينة عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م، وكان يقاتلهم قتالاً شديداً ثم يعود إلى مدينته حتى اشتدت المصاعب على المرابطين وعلى سكان المدينة، ودبر عبد المؤمن حيلةً استطاع بها استدراج المقاتلين المرابطين خارج المدينة، وانقضوا عليهم فقتل منهم الخلق الكثير، ولما اشتد ذلك

(١) مكناسة الزيتون مدينة في المغرب الأقصى، من نظر إليها من جهة فاس عبارة عن أربعة مدن وقرى وحصون متصلة مع بعضها البعض، مليئة بالأشجار المثمرة خاصة شجر الزيتون وزيتها من أكثر زيوت المغرب؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٦٦.

(٢) انفرد ابن الأثير في ذكر هذا العدد، ولم يلاحظ ذلك الرقم في المصادر الأخرى، ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٢٠٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٢٠٠-٢٠٤.

على أهل مراكش أرسلوا في طلب الأمان من عبد المؤمن فأمنهم، ودخلت العساكر الموحدية، وقتلوا خلقاً كثيراً من المرابطين وأهل مراكش، وقبضوا على إسحاق بن تاشفين وكان صبيّاً قد تولى شؤون البلاد بعد وفاة أبيه تاشفين، ولكنه ضربت عنقه ولم يشفع له صغر سنه عند الموحدين، وكان ذلك عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، وكان آخر ملوك المرابطين وبوفاته ينتهي ملك المرابطين، وينقرض ملكهم على حد تعبير ابن الأثير، وبذلك تكون دولة المرابطين قد استمرت سبعين عاماً، وجعل عبد المؤمن عاصمة ملكه مدينة مراكش، وهدم أعداداً من المساجد لاسيما المسجد الذي بناه الأمير يوسف بن تاشفين، وقد ذكر ابن الأثير في ختام كلامه على يوسف بن تاشفين تعليقاً بقوله: "ولقد أساء يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عباد، وارتكب بسجنه على الحالة المذكورة أقبح مركب، فلا جرم سلط الله عليه في عقابه من أرى في الأخذ عليه وزاد"^(١)، وهذا هجومٌ من قبل المؤرخ ابن الأثير على يوسف بن تاشفين لا مبرر له، لأن أوضاع البلاد كانت تقتضي توحيد الصف وليس تفرقه، ولو كان هناك بغضٌ من قبل تاشفين لابن عباد لاستطاع قتله وهو قادر على ذلك، أو لم يلبي دعوته في استقدامه إلى أرض الأندلس التي كانت تعيش حالة من الفرقة والانقسام، واكتفى بإبعاد المعتمد عن دياره، وكان ذلك ضرورياً لمواجهة واقع الأندلس المتردي آنذاك.

وتابع عبد المؤمن بن علي نشاطه الحربي بعد الاستيلاء على مدينة المرابطين وعاصمة ملكهم مراكش في اقتحام دكالة، وذلك لأن المرابطين الذين تمكنوا من الفرار من مراكش اعتصموا في دكالة، وقد أعدوا كمائناً للموحدين من أجل الانقضاض عليهم عند دخولهم دكالة، ولكن عبد المؤمن دخل من جهة لم تكن بالحسبان فأخذهم بالسيف، وغرق منهم ماغرق في البحر وعاد عبد المؤمن إلى مراكش منتصراً^(٢).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٢٠٦.

وقال أيضاً صاحب الحل: " وفي أثناء ذلك قاتل عبد المؤمن قبيلة دكالة^(١)، فانحازت إلى الساحل في نحو عشرين ألف فارس ومائتي ألف فارس، وسار إليهم عبد المؤمن في أممٍ لاتحصى من الخيل والرجالة والرماة، وكان أهل دكالة لا رأي عندهم، ولما اصطفوا وتأهبوا للقتال جاءهم من ناحية أخرى غير الناحية التي اعتقدوها، فانحل نظامهم، وفلّ جمعهم، وخرجوا عن وعر الموضع الذي كانوا فيه، فألجأهم السيف إلى البحر، فقتل أكثرهم في الماء، وأخذت إبلهم وغنمهم، وأموالهم، وسبي أولادهم، وانتهى البيع فيهم إلى بيع المرأة فيهم بدرهم، والغلام بنصف درهم^(٢).

وبهذا يستكمل عبد المؤمن سيطرة الموحدين على أجزاء كبيرة من المغرب الأوسط والمغرب الأقصى بأكمله إلى حد ما، وسيطر عبد المؤمن على دكالة التي اعتصم فيها بقايا المرابطين، وتأتي المرحلة الأخرى من نشاط عبد المؤمن في ضم إفريقية التي كان حكامها ملوك بني حمّاد، وأبناء عمومتهم من بني زيري، بالإضافة إلى مدن الثغور الإسلامي التي سيطر عليها النورمانديين مثل المهديّة، وقابس، وغيرها، والتي جعلوا منها قواعد لهم في الحوض الغربي للمتوسط.

د- حملات عبد المؤمن إلى شمال إفريقية (المغرب الأدنى والأوسط):

كان الهدف من حملات عبد المؤمن إلى إفريقية ضم بلاد المغرب الأوسط بكامله إلى أملاك امبراطوريته الفتية الناشئة، وكذلك إقصاء سيطرة الإسبان على مدن الثغور الإسلامي التي اتخذها هؤلاء قواعد للوثوب إلى المدن الأخرى الساحلية، ومراكز تزويد لسفنهم وجنودهم عند ركوبهم البحر، لاسيما وإن سبل الحملات الصليبية على المشرق والمغرب الإسلامي مازال مستمراً وعلى أشده، وكان هذا لا يغيّب عن رجل علمٍ وحربٍ مثل عبد المؤمن الكومي، لذلك قام عبد المؤمن في أولى خطواته بإعداد حملةٍ برّيةٍ وبحريةٍ متسايرتان في عام

(١) دكالة عند بعض النسابين من قبيلة صنهاجة، تقع على سيف البحر بين وادي أم الربيع ووادي تنسيفت، وكانت دكالة قد استعربت لمداخلتها قبائل هلال وأحلافهم العرب، وانقسمت إلى قسمين دكالة الحمراء ودكالة البيضاء، ابن السماك: الحلل الموشية، ص ١٤٧.

(٢) ابن السماك: الحلل الموشية، ص ١٤٧.

٥٤٧هـ/١١٥٢م إلى الشمال الإفريقي للسيطرة على مملكة بني حماد وزيري الصنهاجيتين، حيث جاز إلى سبتة وأظهر أنه يريد الأندلس، وقد قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام^(١)، ثلثاً أرسله مع ابنه أبي حفص إلى الأندلس، وثلثين عاد بهم، واستعجل بالمسير طاوياً المسافات، وكانت الوجهة مملكة بجاية، وكان ملكها يحيى بن العزيز بني حماد الصنهاجي ٥١٥-٥٤٧هـ/١١٢١-١١٥٢م^(٢)، فحاصر عبد المؤمن بجاية حصاراً شديداً، ووجد يحيى بن العزيز أن لا طاقة له بالدفاع عن مملكته، وفر منها، وفر يحيى إلى بونة، ثم منها إلى قسنطينة في المغرب، وراسل عبد المؤمن في طلب الأمان فأمنه، وأكرمه، وأجزل في عطائه، وأقطعه أملاكاً في عاصمته مراكش، ودخل عبد المؤمن بجاية والقلعة التي هي أساس ملك بني حماد، ومقل صنهاجة الأعظم، وقد ذكر صاحب المعجب في ذلك قوله: "فلم يزل ملك بني حماد، هؤلاء مستمراً، ودولتهم قائمة، وأمرهم نافذاً، لا ينازعهم أحداً شيئاً مما في أيديهم، إلى أن أخرجهم من ذلك كله، وملكه بأسره، وضمه إلى مملكته: أبو محمد عبد المؤمن بن علي"^(٣).

أما الحملة الثانية التي قام فيها عبد المؤمن بن علي إلى بقية بلاد إفريقية فكانت تهدف إلى تخليص مدن الثغور الإفريقي من الحكم النورماندي الصقلي، وقد دفع عبد المؤمن إلى ذلك هو قدوم جماعة من عرب إفريقية ممن تعرضوا للسلب والقتل على يد الفرنج وقصدوه يستجيرون به، فأكرمهم، ووعدهم بالقدم

(١) لم يذكر ذلك التقسيم إلا صاحب الحل، ولم يجد المرء ذلك عند ابن الأثير أو عند صاحب المعجب وغيره ذكر ذلك التقسيم، ابن السماك: الحل الموشية، ص ١٤٨.

(٢) آخر ملوك بني حماد، كانت دولة المرابطين قد أصابها الضعف والانحدار في المغرب والأندلس، وبدأ الموحدون يدخلون بلاد المغرب الأوسط ويحققون انتصارات واضحة زمن عبد المؤمن بن علي، وكان هناك تباين في الحكم على شخص يحيى بن عبد العزيز الصنهاجي، فابن خلدون يصفه بالضعف وانقياده للنساء، مولعاً بالصيد، وذهب ملك بني حماد على يديه، وابن الخطيب في أعمال الإعلام يصفه بالفضل والحلم وفصاحة اللسان، مليح العبارة بديع الإشارة، مولعاً بالصيد، ولكن يتفق الإثنان على انشغاله بالصيد واللهو عن الحكم وشؤون الملك؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٦٢-٣٦٣؛ ابن الخطيب: أعمال الإعلام، ج ٣، ص ٩٩-١٠٠.

(٣) المراكشي: المعجب، ص ٢٠٧، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٣٧٢.

لنصرتهم، وفعلاً خرج عبد المؤمن بجيش كبير، وأسطولاً كبيراً فيه سبعين شينياً^(١)، وكانت تحت قيادة أبو عبد الله بن ميمون^(٢) قائد الأسطول المرابطي الذي دخل في طاعة الموحدين، وأصبح قائداً للأسطول الموحيدي، وأول ما وصل إليه عبد المؤمن مع عساكر الموحدين مدينة تونس، حيث دخلتها عساكر الموحدين من البر والبحر بعد اقتتال شديد على حد قول ابن الأثير، وطلب أهلها الأمان فأمنهم عبد المؤمن على ذلك، وبقي عبد المؤمن في تونس ثلاثة أيام، وانطلق منها إلى المهديّة في طريق البر، وكان الأسطول يمشي معه من ناحية البحر، ودخل عبد المؤمن إلى المهديّة من ناحية زويلة، التي كان أصحابها قد أدخلوها والتجّؤوا إلى المهديّة حيث كان فيها أولاد ملوك الفرنج وأبطال فرسانهم، وقد غصت زويلة بالعساكر الموحيديّة، فضلاً عن انضم إليهم من قبائل العرب، وحاولت العساكر أن تقوم بحركات قتالية في المدينة ولكن ذلك لم يجد نفعاً، نظراً لحصانة المدينة ومناعة أسوارها، وضيق الطريق الذي يصل المهديّة بالبر، حيث كانت المدينة محاطة بشكل كلي بالبحر باستثناء الذراع الذي يصلها مع البر، ولذلك قرر عبد المؤمن إلقاء الحصار عليها ومراقبتها من مكان مناسب، والأسطول الموحيدي يحاصرها من البحر، واستطاع عبد المؤمن خلال حقبة حصاره المهديّة أن يفتح مدينة قابس بالسيف، وطرابلس، وصفاقس، وجبال نفوسة، وأطاعه أهل قفصة وبالعودة إلى المدينة المحاصرة، فقد حاول صاحب صقلية كسر الحصار الموحيدي من جهة البحر، واستقدم مئة وخمسين من الشواني غير الطرائد، ولكنهم فوجئوا

(١) الشواني من القطع البحرية التي استخدمت في العصور الوسطى، وهي عبارة عن سفن حربية كبيرة تشن للهجوم؛ دهمان، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، ط ١، دمشق، ١٩٩٠م، ص ١٠٢.

(٢) كان أبو عبد الله محمد بن ميمون من القواد المخلصين للمرابطين، وشارك في الكثير من العمليات البحرية التي خاضها المرابطون ضد النورمانديين في صقلية، وأسهم بكل قوة في صد الهجوم النورماندي على شواطئ سبتة عام ٥٠٨هـ/١١١٤م وقام بأعمال جليلية كثيرة لا مجال لذكرها هنا، وهناك القائد المرابطي الآخر الذي دخل في طاعة الموحدين علي بن عيسى بن ميمون وكان مخلصاً للموحدين، وقد قتل وهو يحاول إخماد التمرد الذي نشأ ضد الموحدين في سبتة؛ المراكشي: البيان المغرب، ص ٢٧٩.

بالأعداد الكبيرة للأسطول الموحيدي، واقتتلوا معهم، ولاذ الفرنج بالفرار، وغنم المسلمون سبعة من شوانيهم، وهذا بعث بالأسى والخيبة على سكان المهدية المحاصرين، الذين أرسلوا إلى الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بعد أن صبروا على الحصار ستة أشهر فرساناً لكي يطلبوا الأمان على أنفسهم، وممتلكاتهم، فكان عبد المؤمن أن عرض عليهم الإسلام ولكنهم لم يقبلوا ذلك، ووافق عبد المؤمن على خروجهم مع أهاليهم على سفنٍ أعطاهم إياها عبد المؤمن، وخرجوا فعلاً على تلك المراكب شتاءً، وغرق أكثرهم ولم يصل إلى صقلية إلا نفرٌ يسير منهم، وقد ذكر ابن الأثير قول صاحب صقلية في هذا الشأن: "إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا العرب المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية، وأخذنا حرمهم، وأموالهم" فأهلك الله الفرنج غرقاً، وكانت مدة ملكهم اثنتي عشر سنة، وكان دخول عبد المؤمن لها في عاشوراء عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م^(١)، وبذلك يكون عبد المؤمن بن علي قد بسط سيطرته على بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وسيقوم بفتح بلاد الأندلس لاحقاً_ كما سيمر_ ليكونَ امبراطورية واسعة أكبر مما كان في أيدي المرابطين من البلاد تمتد من برقة من إفريقية وحتى بلاد لمطة في المغرب الأقصى على ساحل المحيط الأطلسي.

هـ- ضم بلاد الأندلس:

لقد عانت بلاد الأندلس مرحلة من الاضطراب والتفكك السياسي في أواخر أيام المرابطين، الذين وقفوا بكل ثبات وشجاعة أمام الزحف الإسباني المتكالب على المدن العربية الإسلامية في الأندلس، و قد سارع من حدة هذه الهجمات في تلك المرحلة اضطرار المرابطين إلى سحب أعداد كبيرة من العساكر ممن كانوا على خطوط التماس، والقتال مع الإسبان بسبب الحروب المستمرة مع الموحيدين، مما أغرى هؤلاء بالهجوم المتكرر على المدن الأندلسية الكبيرة مثل قرطبة، وإشبيلية، وغيرها، ولذلك انتشرت الفوضى، والفتن، وبوادر الانقسام قد أخذت تعود من جديد إلى بلاد الأندلس، وحاول الناس الاستعانة بالأطراف

(١) كان الاعتماد في هذه الفقرة على ابن الأثير نظراً لإعطائه التفاصيل الدقيقة التي لم ترد عند باقي المصادر الأخرى التي اكتفى بعضها بالإشارة فقط إلى عملية إتمام فتح إفريقية من قبل الموحيدين، ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٤٢٨-٤٣١، ابن السماك: الحلل الموشية، ص ١١٥٢-١٥٤.

الخارجية المتمثلة بالإسبان أحياناً للتغلب على الوضع المتدهور الجديد، وخير ما يسوقه الطالب في هذا الشأن هو وصف المؤرخ عبد الواحد المراكشي صاحب "المعجب" بقوله: "فأما أحوال جزيرة الأندلس، فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف، اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتخاذلهم، وميلهم إلى الدعة، وإيثارهم الراحة، وطاعتهم النساء، فهانوا على أهل الجزيرة وقلوا في أعينهم، واجترأ عليهم العدو، واستولى المسيحيون على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم، وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام ابن تومرت بالسوس، واشتغال علي بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة" (١) .

ومنذ أن كان عبد المؤمن يسعى لضم إفريقية ومراكش، جاءت وفود الأندلس يتوالون عليه طالبين منه القدوم إلى الأندلس، معلنين له الانضواء تحت سلطانه الجديد، مثل وفود قرطبة، وإشبيلية، وغرناطة وغيرها، فسير عبد المؤمن جيوشاً متتالية إلى الأندلس، استطاع من خلالها السيطرة على بعض المدن الأندلسية الرئيسية مثل إشبيلية، وقرطبة ولاحقاً غرناطة وغيرها، وهذا قبل أن يجوز إلى بلاد الأندلس بالعساكر الكثيفة، ويوطد حكم الموحدين على الأندلس، وكانت أولى المدن الأندلسية التي دخلت بدون قتال ضد الموحدين هي شريش (٢) التي دخل أهلها في طاعة الموحدين عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م، وأطلق عليهم الموحدون السابقين، وإشبيلية التي فتحت عام ٥٤٠هـ / ١١٤٦م، والمرية في نفس العام (٣) وفتحت قرطبة عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، حيث قام واليها يحيى بن علي بن

(١) المراكشي: المعجب، ص ٢٠٨.

(٢) وهي مدينة قديمة كانت تدعى عند القوط سرت CERET، وبالقرب منها وقعت المعركة بين طارق بن زياد وآخر ملوك القوط، وشغل دوراً مهماً أثناء السيادة العربية الإسلامية عليها، واسترجعها الإسبان نهائياً عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م، تقع إلى الجنوب من إشبيلية بمسافة ٩٧ كم، ابن خلدون: العبر، ج ٦ ص ٣١٣.

(٣) لقد جعل ابن خلدون فتح إشبيلية سنة إحدى وأربعين وخمسمئة، بينما يذكر ابن أبي زرع بأن فتحها قد أنجز عام ٥٤٠هـ؛ الأنيس المطرب، ص ١٨٨-١٨٩، ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣١٣.

غانية ^(١) بتسليم المدينة إلى الموحدين، وأن يخرج منها إلى غرناطة، وفي نفس العام فتح الموحدون مدينة جيان ^(٢)، وعندما غادر يحيى بن علي بن غانية إلى غرناطة أقنع واليها عمر بن بدر اللمتوني بالتفاهم مع الموحدين حول وضع المدينة، ولكن يحيى بن غانية عاجلته المنية فتوفي عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، فقام عمر اللمتوني بتسليم المدينة إلى عبد المؤمن مقابل الأمان فقبل عبد المؤمن بذلك عام ٥٥١هـ / ١١٥٦م وغادر عمر اللمتوني إلى مراكش ^(٣)، وكانت ألمرية من أشهر المدن الحصينة في الأندلس، وكانت القوات الصليبية قد قامت باحتلالها في أواخر عصر المرابطين عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، حيث كانت هذه القوى موزعة بين ممالك إسبانيا المسيحية مثل قشتالة وأرغون، وجليقية، ونبرة، وكانت هذه قوات برية، وقد شاركتها الممالك المسيحية الأخرى المتمثلة بمدن الجمهوريات الإيطالية جنوة، وبيزة، والبندقية، ومونبلييه، حيث قدمت هذه القوى الأساطيل البحرية المساندة للقوى البرية الإسبانية، وبعد أن تمكنت القوات الموحدية من التمرکز وسط الأندلس حاصرتها القوات البرية عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م بقيادة عثمان بن عبد المؤمن والقيادة البحرية تحت إمرة عبد الله بن سليمان الذي قاد الأسطول من سبتة، وقد فشلت القوات الصليبية التي أرسلها ألفونسو ملك طليطلة لإنقاذ المدينة من حصار المسلمين، والتخفيف من شدة الحصار على أهلها، وكان ذلك بالتعاون مع ابن مردنيش ^(٤) الذي تزعم حركة المقاومة ضد الموحدين

(١) الأمير أبو زكريا كان بطلاً شجاعاً مقداماً، ذو رباطة جأش في الحروب، تنقل في الدفاع عن مدن الأندلس التي ولّي عليها من قبل علي بن يوسف بن تاشفين مثل لبلة وقرطبة وإشبيلية، وأبلى بلاءاً حسناً في الدفاع عن قرطبة التي أوشكت على السقوط بأيدي ملك قشتالة وقد بقي فيها مصراً على الدفاع عنها، مما ألجئ ملك قشتالة أن يهادنه ويعقد شروط الصلح معه، لاسيما عندما سمع بقدوم الموحدين، توفي الأمير يحيى بن غانية عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م؛ ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، ص ٣٠١-٣٠٢.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٩١.

(٣) الناصري: الاستقصا في اخبار المغرب الأقصى، تحقيق: محمد الناصري وآخرون، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج ٢، ص ١١.

(٤) أبو عبد الله محمد بن سعيد بن مردنيش الجذامي من المولدين، كان والده عاملاً على إفراغة، وعمل لدى محمد بن عياض على بلنسية، ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام

بالتحالف مع المسيحيين، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل،، وعادت هذه القوات من حيث أنتت تجر أذيال الهزيمة، مما اضطر أهل المرية إلى تسليم المدينة ذات الموقع المتميز^(١) للموحدين عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، و تحررت مع مدينة ألمرية بياسة^(٢) وأبدت، وكان للوزير ابن عطية^(٣) وزير عبد المؤمن دوراً كبيراً في هذه المهمة^(٤).

وبهذا استطاع الموحدون وضع ثقلهم السياسي في الأندلس، ممهدين بذلك لجعل الأندلس قاعدة أخرى تضاف إلى المغرب برمته من قواعد سيطرتهم على الحوض الغربي الإسلامي للبحر المتوسط، ولكن يبقى التساؤل الذي يفرض نفسه هنا: هل استطاع الموحدون في وقت واحد تحقيق سيطرتهم الكلية على جميع

فيمن ببيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تح: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط٢، بيروت، ١٩٥٦م، ج١، ص٢٥٩-٢٦٠.

(١) حيث ذكر عبد المؤمن بن علي في إحدى رسائله إلى طلبة الموحدين في ذكر أهمية المرية بقوله: " رأينا أن أمر المرية -حرسها الله- من أهم الأمور، وأكدها في هذا الغرض المبرور، والأمل الميسور، لكونها نازمة بين الجهات الشرقية والغربية، ورابطة بين البلاد البرية والبحرية"، بروفنسال، ليفي: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، ١٩٤١م، ص ٨٤-٨٥.

(٢) مدينة كبيرة بالأندلس من كورة جيان، بينها وبين أبة فرسخان، مشهورة بزعرانها المتميز في بلاد المغرب، دخلها الروم عام ٥٤٢هـ وأخرجوا عنها ٥٥٢هـ؛ ياقوت: معجم البلدان، مج١، ص١٥.

(٣) كاتب الدولة الموحدية الذي كان سابقاً كاتب دولة المرابطين، أبو جعفر بن جعفر بن محمد بن عطية القضاعي المراكشي، أصلهم من قرية بناحية طرطوشة، ولد بمراكش عام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، واشتهر ابن عطية بالكتابة زمن علي بن يوسف بن تاشفين وابنه تاشفين، وكان عندهم من أكثر الكتاب حظوة ومكانة، وعندما انتهت دولة المرابطين وجاء الموحدون أخفى نفسه إلى أن ظهرت موهبته ومهارته في الكتابة عند الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي الذي جعله من كتابه المقربين واستوزه أيضاً، ولكنه انتكب هو وأخيه وقتلا عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م؛ بروفنسال، ليفي: رسائل موحدية، ص٨-٩.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٣١٤-٣١٥، الناصري: الاستقصا، ج٢، ص ١٢٢.

مناطق الأندلس؟ أم تطلّب ذلك وقتاً وجهداً كبيراً من أجل ذلك؟ وهل استطاع عبد المؤمن بن علي وأبنائه فيما بعد استعادة كافة بلاد الأندلس؟

من أجل الإجابة عن تلك التساؤلات فإنه يتوجب الرجوع إلى أحوال الأندلس كما مر ذلك سابقاً في الفصل الأول، حيث كانت هناك قوى سياسية مسيطرة في الأندلس، متأصلة من آثار المرابطين، تمثلت ببني غانية أصحاب النفوذ الواضح في الأندلس، وجزر الباليار، وابن مردنيش وصهره ابن هُمُشك حليف الإسبان في شرق الأندلس، بالإضافة إلى القوة المسيحية التي ازدادت شراسة وحدةً بالتزامن مع ضعف قبضة المرابطين على مدن الأندلس وبلاده، وسيتم الحديث عن هذه القوى وحركات التمرد التي نشأت هناك بالتفصيل، وكيف استطاع الموحدون القضاء عليها واحتواءها.

و- التمردات والثورات المناوئة للموحدين:

التمردات ضد الموحدين في إفريقية:

١ ثورة الداعي الماسي ببلاد السوس وتسميه بالهادي:

وهو محمد بن عبد الله بن هود، وقد انتفض في الشهر الذي فتحت فيه مراكش، وكان قصّاراً على ضفة بحر سلا، وأبوه يعمل دلالاً بالسوق، فادعى الهداية وسمى نفسه بالهادي، واستقر برباط ماسة^(١)، وقد اغتر الناس به واجتمعوا حوله من كل مكان، وكثر أتباعه، وانتشرت دعوته الكاذبة في جميع مناطق العدو باستثناء فاس ومراكش وارتدت البلاد كلها، فوجه إليه الخليفة عبد المؤمن عسكرياً بقيادة انجمار فهزمه الشقي الماسي فعاد إلى الخليفة خاسراً ثم عاد إلى الخليفة وبعث عمر بن يحيى الهنتاتي وأشياخ الموحدين وطائفة من الروم والأجناد، وقد

(١) وقد حاء ذكرها عند الحميري تحت اسم ماست: وهي رباط مقام على وادي ماست في بلاد السوس الأقصى يصب في البحر المحيط ويعاكس اتجاه الأنهار مثل نهر النيل يجري من القبة إلى الجوف، وعليه قرى كثيرة وعمارات متصلة وبساتين وجنات من الثمار والأعاب وقصب السكر، ولاتقام على هذا الوادي أرحاء لأن السكان يعتقدون البركة في مياهه، وعلى مصب هذا الوادي في البحر المحيط مقام رباط ماست وهو مأوى للصالحين، وبينه وبين نول لمطة ثلاثة مراحل؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٤٤.

خرج معهم الكاتب أبو جعفر بن عطية كاتب إسحاق بن علي بن يوسف، وسار الموحدون حتى وصلوا إلى رباط ماسة، وكانوا نحو ستة آلاف فارس ومن الرجالة مثل ذلك، وكانت جموع الشقي الماسي نحو سبع مئة من الخيالة ومن الرجالة نحو ستين ألفاً، فالتقى الجمعان يوم الخميس السادس عشر من الشهر المذكور، فانهزم الدعي الماسي وقتل في المعركة، وانتهت بذلك دعوته وحركته.

وطلب أبي حفص الهنتاتي من يكتب هذا النصر ويدونه، فكان ابن عطية من قام بكتابة هذا النصر، وأرسله للخليفة الموحي عبد المؤمن، أعجب بصياغته وسحر كلماته، وحسن الإبداع، والكلمات البليغة، فكان ذلك سبباً لتقريب ابن عطية من الخليفة والموحدين أيضاً، ورفع قدره ومكانته لدى الموحدين (١).

٢ قتال الموحدين للقبائل التي امتنعت مع الماسي واحتضنته:

بعد أن تخلص الموحدون من الماسي ودعوته، خرج أبو حفص من مراكش إلى قتال أهل نفيس وهيلانة (٢)، فقتل منهم خلقاً كثيراً حتى أذعنوا بالطاعة، فانصرف بعدها إلى مراكش، ثم توجه إلى هسكورة (٣) ففتحها، ومن بعدها إلى سجلماصة فدخلها وأمن أهلها، وعاد بعدها إلى مراكش، ثم عاد غازياً إلى برغواطة (٤) فقاتل أهلها إلا أنهم قاتلوه متمسكين بدعوة الماسي ابن هود، وجرت بينهم

(١) المراكشي: البيان المغرب، ص ٣٠-٣١.

(٢) وهو بنو أيلان بن مصمود، وهو عرب صريحين، وموطنهم الأساسي بحواز مراكش، وإليهم ينتسب أغمات أيلان؛ ابن منصور: قبائل المغرب، ص ٣٣٩.

(٣) وهم أخوة صنهاجة الأم، انقسموا إلى بطون عديدة، وموطنهم الرئيس بجبل درن، وفي كتب الأنساب انقسموا إلى قسمين هسكورة الظل وهسكورة القبلة، بن منصور: قبائل المغرب، ص ٣٣٥.

(٤) برغواطة اسم يدل على نحلة دينية ولا تطلق هذه التسمية على الجماعات أو قبائل وليست تسمية تخص مكاناً معيناً، والمنطقة التي كانت تقيم فيها برغواطة هو إقليم تامسنا بالمغرب الأقصى الممتد من نهر سلا إلى نهر أم الربيع، والمنطقة تقطنها حالياً قبائل الشاوية والزعرير، والبرغواطيين هم مصامدة انضوى تحت لوائهم أكثر من اثنتي عشر قبيلة، وكانت قد دانت بالإسلام، وظهر فيهم ميسرة المتغري أو المطغري والمعروف بالحقير وكان هؤلاء من زعماء الخوارج زمن الحكم الأموي، وظهر في البرغواطيين أيضاً صالح بن طريف الذي =

معارك ومدافعات، وانهزم هو ومن كان معه خائباً ودامت أحوال برغواطة على حالها، وكذلك قامت فتنة في سبتة فقاموا بمحاصرة من كان في قصبتها من البرج، وأحرقوا النار فيه، وقتلوا من كان فيه وصلبوه، وعبر البحر القاضي عياض (١) إلى يحيى بن غانية وهو موجود بالخضراء، وطلب القاضي واليا من ابن غانية فأرسل معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي، وأدخله عياض إلى سبتة، فاستولى عليها ورفع طاعة عبد المؤمن، وقام أهل المدينة على الموحدين وقتلوا الحافظ يوسف بن مخلوف، وكان هذا قد غزا مع القاضي عياض الروم في البحر وعندما فتح الموحدون فاس واستقروا بها فر يحيى الصحراوي واستقر بطنجة وجاز بعدها إلى الأندلس إلى قائد البحر علي بن عيسى (٢) وهو في جزيرة قادس فأجازه القائد

= أظهر نحلة جديدة اتبعه فيها معظم الأمازيغ في تامسنا، وزعم أنه النبي الذي ذكر في القرآن الكريم، وذكر البكري أخبار برغواطة مطولة وتعاليم ديانتهم شرحاً وتفصيلاً؛ البكري: المسالك والممالك، ج ٢، ص ٨١٩-٨٢٧.

(١) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي ٤٧٦-٥٤٤هـ / ١٠٨٣-١١٤٩م كان قاضي المالكية عالماً وفقهياً ومؤرخاً، له مؤلفات كثيرة ومشهورة في الفقه والتاريخ والحديث وغيرها، قتل القاضي عياض في مراكش عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م لأنه رفض الاعتراف بابن تومرت بأنه المهدي المنتظر؛ المالكي، ابن فرحون ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٧م: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمد، دار التراث للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ج ٢، ص ٤٦-٤٧؛ مخلوف، محمد بن محمد ت ١٣٦٠هـ / ١٩٤٠م: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٢٠٥؛ ابن قنفذ القسنطيني: كتاب الوفيات، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، ط ٤، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٢) علي بن عيسى بن ميمون وهو القائد الآخر من أسرة آل ميمون الذي خدموا في دولتي المرابطين والموحدين وأخلصوا في خدمتهم، وكان علي بن عيسى شجاعاً مقداماً، وكانت نهاية علي بن عيسى بالغدر من قبل القائد المرابطي الذي تحالف مع بني غانية ضد الموحدين وهو يحيى بن أبي بكر الصحراوي، وكان علي بن ميمون محاصراً سبتة لانتفاضها ضد الموحدين، ودعى إليها المتمرد من قبل بني غانية يحيى الصحراوي الانضمام إلى الموحدين، فجاء علي بن ميمون ليساعده في أمره عند خليفة الموحدين، ولكن ابن الصحراوي عاجله بضربة أسقطته ثم حمله وصلبه في سبتة، وبوفاة علي بن عيسى تنتقل قيادة =

علي ومن كان معه من اللمتونيين والروم الذين كانوا معه إلى الجزيرة، وكان من شرط القائد على يحيى أنه إذا وصل قرطبة إلى ابن غانية أن يشفع في عيسى والده، وأن يخرج من سجنه بقرمونة ويبعثه إليه، فضمن له الصحراوي ذلك، فعندما أجاز علي عزم على أن يأخذ علي خيلهم وما معهم من رجال، ففهم الصحراوي ذلك وذهب إلى قرطبة عند ابن غانية، واستقر عنده وأطلق والد عيسى المذكور ووفى له ذلك الشرط، وتحيل ابن الصحراوي على القائد علي بن عيسى وأجاز إلى سبتة واستدعاه إلى عنده وخدعه وقتله، وكثرت فتنة ابن الصحراوي بعدها (١).

٣ تمرد القبائل العربية في المغرب الأوسط:

عندما ضم عبد المؤمن بجاية من حدود المغرب الأوسط خافت القبائل العربية على مصالحها من توسعات عبد المؤمن بن علي مثل قبيلة بني هلال والإتبج وعدي ورياح وزعاب (٢) وغيرهم التي اجتمعت مصالحها في الوقوف ضد سياسة عبد المؤمن بن علي التوسعية في ضم كامل بلاد المغرب إلى دولة الموحدين، لذلك تجمعت هذه القوات، وتجهزت لقتال عبد المؤمن بن علي في سطيف (٣)، وكانت قد استطاعت أسر صهره عبد الله بن وانودين وقتلته عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م وكان ذلك إيذاناً للحرب والشرارة الأولى فيها (٤)، ولذلك جمع عبد المؤمن بن علي العساكر الكثيرة وقام على عادته الذي أخذها من شيخه المهدي بن تومرت بالتمييز وتطهير في كل من يُشك بولائه لعبد المؤمن، وقد أوضح عبد المؤمن للموحدين أن هذا التحالف القبلي له خطر كبير على الموحدين ودولته بما في ذلك الخطر من الناحية الاقتصادية، لا سيما وأن هذه

= الأسطول الموحي من أسرة بني ميمون إلى أسرة مردنيش حلفاء الموحدين الجدد؛ البيدق: أخبار المهدي، ص ٦٧.

(١) المراكشي: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٢-٣٣.

(٢) وجميع هذه البطون تنتمي إلى بني هلال العرب الوافدين إلى المغرب، وأصبح بني هلال شعباً لكثرتهم واستقروا في مناطق واسعة من المغرب الأدنى والأوسط والأقصى؛ بن منصور: قبائل المغرب، ص ٤٢٩.

(٣) مدينة في جبال كتامة بين تاهرت والقيروان من بلاد البرابرة، وهي بلد صغير إلا أنه ذو خيرات عظيمة وأعشاب وفيرة؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٢٠.

(٤) وقد ذكر البيدق التفاصيل الوافية في حادثة القتل، بروفنسال، ليفي: أخبار المهدي، ص ٥٩-٦٠.

القبائل منتشرة على مساحة كبيرة من المغرب، مما يشكل الخطر على وحدة المغرب تحت ظل الحكم الموحي وعندما علم ملك صقلية روجر الثاني بنية القبائل العربية وقتال الموحدين لهم عرض عليهم مدداً من خمسة آلاف من الفرنج يمكنهم من اكتساح عبد المؤمن بن علي، ولكن مقابل رهائن يبقونها روجر عنده، وبهذا يحقق المقولة: "يضرب عصفورين بحجر واحد"، ولكن ولحسن الحظ رفضت القبائل التحالف مع روجر الثاني، وفضلت القتال ضد عبد المؤمن لوحدها وهذا وعي عميق صادر عن العرب المسلمين، ولو لم يكن قتالاً لكان ذلك أفضل، أو على الأقل ضد عدو خارج بلاد المسلمين، لأنهم عرفوا غدر روجر النورماندي وأطماعه اللامتناهية في بلاد العرب المسلمين، وما سيجره على البلاد الإسلامية من تبعية وإراقة دماء، وكان لقاء عبد المؤمن بن علي مع هذه القبائل حيث تجمعت في سطيف عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م، حيث كان النصر حليف الخليفة الموحي عبد المؤمن بن علي وهزمت قبائل بني هلال، وعرب الإثنج، وعدي ورياح هزيمة منكرة، وقد سيق الأسرى ونسأؤهم وذخائرهم إلى مراكش، وتصرف هنا عبد المؤمن تصرفاً يعكس العبقريّة والسياسة المتزنة النادرة لرجل محنك مثل عبد المؤمن، حيث قام عبد المؤمن بمخاطبة زعماء هذه القبائل أن أهلهم بخير، وأنه يستقبلهم بوفادتهم إليه في مراكش، فجاؤوا إلى مراكش، وأقبلوا على عبد المؤمن فاستقبلهم استقبالاً يليق بهم وأكرمهم لمقامهم، وأعاد إليهم نسأؤهم وأبناءهم بالإضافة إلى الأموال الوفيرة التي أعطاهم إياها، فتحوّلت العداوة والشحناء إلى احترام كبير من هذه القبائل إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي، حيث أكد له الأمراء التزامه، ووقوفهم إلى جانبه وتقديم كل ما يستطيعوا بذله حينما يطلب إليهم ذلك، وهكذا تمكن عبد المؤمن بن علي من تحييد خطر هذه القبائل العربية جانباً وكسب تأييدهم لا سيما ولاية العهد من بعده لابنه محمد (١).

٤ الحركات والثورات المناوئة للموحدين في الأندلس:

كانت الأندلس مسرحاً كبيراً للمتغيرات التي عصفت بالبلاد في نهاية الوجود المرابطي بالأندلس وضعف قبضتهم على بلاد الأندلس لصالح الهيمنة الموحدية على مدن الأندلس ويسط السيطرة عليه ككل، ولكن ذلك لم يكن حتى يحدث سلباً ويجري دونما مقاومة في بعض الأحيان، ولذلك واجه الخليفة الموحي

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٩٠-٣٩١.

عبد المؤمن كثيراً من التحالفات والتمردات التي نشبت ضد الموحدين في الأندلس حتى إن عبد المؤمن جاءته المنية ولم يتمكن من وضع حد نهائي للحركات المعادية للموحدين في بقاع الأندلس، ولابد هنا من التنويه إلى أن مثل هذه الحركات قد قام بها القضاة، والفقهاء، والأدباء، وهذا دليل واضح على المكانة الكبيرة التي وصل لها هؤلاء أيام دولة المرابطين، وقد شكل هؤلاء الوفود الأندلسية التي أعلنت طاعتها للموحدين مقابل الخلاص من الأوضاع السياسية الصعبة التي مرت بالأندلس في تلك الحقبة، وبخاصة التدخل الإسباني الواضح في شؤون الأندلس، وتعاون بعض الولاة مع الإسبان ضد بعضهم بعضاً لتحقيق مطامح شخصية، ومن هذه التمردات ما جاء بسبب سوء إدارة الولاة الموحدين للمدن الأندلسية، وفي هذا الصدد يذكر المرء سوء معاملة أخو المهدي بن تومرت وصهرهما يصلاتن للعامة في إشبيلية، والثورات الأخرى التي تحالف قوادها مع الإسبان، كما هو حال عند ابن مردنيش وصهره ابن همشك الذين اعتدوا على البلاد التي دخلت في طاعة الموحدين، وسيتم ذكرها كمايلي:

١- تمرد أخو المهدي بن تومرت وصهرهما يصلاتن على عبد المؤمن:

كان النشاط السياسي لعبد المؤمن خلال توسيع قاعدة ملكه في بلاد المغرب والأندلس بارزاً على صعيد قائد عسكري محارب له طموح كبير في بناء امبراطورية كبيرة تحت ظل التوحيد، ولم يكن عبد المؤمن غافلاً عن وضع خليفة له من بعده يحافظ على مكتسباته السياسية والدينية إن صح التعبير، ولذلك توجه عبد المؤمن بن علي إلى حصر السلطة في أفراد بيته وتولية آبائه شؤون البلاد وتصريفها، وهذا لم يكن أن يحدث دونما مقاومة أو معارضة سياسية من قبل أنصاره الموحدين أنفسهم، ولا يجب أن ينسى المرء أن عبد المؤمن ليس من القبيلة التي احتضنت المهدي ودعوته، وقدمت له الحماية والرجال والمعني بها مصمودة، لذلك رأى أهلها أن هناك من هو أحق بالسلطة من دون أسرة عبد المؤمن، إذ أن نجاح عبد المؤمن في الوصول إلى السلطة كان بوصية من المهدي بن تومرت وأصحابه في تولية عبد المؤمن من بعده، وكان أيضاً شيوخ الموحدين وأبنائهم، لاسيما المقربين من عبد المؤمن بن علي وأصحاب المهدي بن تومرت الذي بايعوه في بداية دعوته قد وجدوا لهم أحقية في عرش الموحدين، وأشهر هذه الحركات هي تمرد أخو المهدي عيسى وعبد العزيز وتصرفهما باستقلالية عنه،

ولم يكن هؤلاء على القدر الرفيع من الحنكة، والسياسة العبقريّة التي تمتع فيها المهدي بن تومرت، و كان عبد المؤمن بن علي محسناً إليهما وإلى صهرهما يصلاتن غاية الكرم والإحسان، تقديراً منه لشيخه وسيدّه المهدي الذي اختصه بالخلافة دونما سواه، ولم يقدر أخوا المهدي ذلك الإحسان والاحترام الذي بذله عبد المؤمن اتجاههم، بل على العكس تماماً، فقد كان يصلاتن هذا كان كثيراً ما يدخل الحسد ونقض العهود على أخوا المهدي، ويوغر صدورهما على الإنتفاض على عبد المؤمن، وكلما دخل مجلساً يدخل قاطباً ويخرج معاتباً، وبانت عند عبد المؤمن إساءته وأذيته، فما كان نصيبه إلا حد السيف والقتل جزاءً على أفعاله وأما أخوا المهدي عبد العزيز وعيسى فقد ظهر منهم الخبث والمكر، خاصة عندما علموا بتولية عبد المؤمن بن علي لابنه محمد بولاية العهد من بعده، وساءت لذلك تصرفاتهم في الرعية، وسفكوا الدماء عندما تسلما شؤون إشبيلية، وفر من أذاهم يوسف البطروجي صاحب لبلة الذي حاول ثنيهم عن أعمالهم السيئة، وقد وصل أمرهم إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي فاعتقلهم، ثم سرحهم وأطلقهم، وأكرمهم، ولكنهم لم يقابلوا المعروف بالمعروف، ولم يقنعوا بما بين أيديهم، بل قابلوا ذلك بالإساءة، وخرجوا من فاس إلى مراكش وقتلوا إليها ابن تفرجين، فأرسل الخليفة عبد المؤمن الوزير بن عطية فقضى على تمردهم فقتل عيسى قرب باب الدباغين، وقتل عبد العزيز بباب أغمات، وقتل الخليفة عبد المؤمن كل من ساعدهم وساندتهم من الموحدين باستثناء ممن عفى عنهم من الموحدين الذين طلبوا الأمان والعفو والاستعطاف، وكان ذلك سنة ثمان وأربعين وخمس مئة (١).

٢- تمرد أصحاب البلاد التي أعلنت طاعتها للموحدين ثم انقلبت عليهم:

(١) لم يذكر ابن صاحب الصلاة تعليقاً على تمرد أخوة المهدي على عبد المؤمن، وكان من المفروض أن يأتي ابن صاحب الصلاة على ذكر هذه المسألة طالما أنه كان مشاركاً عبد المؤمن في تحركاته وجوازه إلى الأندلس وكان قريباً جداً من هذه الأحداث، ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٥٠-٥١، وقد ذكر البيدق في كتابه " أخبار المهدي بن تومرت" أسماء المتمردين ضد عبد المؤمن بأسمائهم وأحياناً أسماء قبائلهم في المغرب والأندلس وذكر أيضاً أسماء الذين قاموا بقتلهم من عساكر الموحدين، بروفسال: أخبار المهدي، ص ٥٩-٦٣.

وقام التمرد الآخر الذي ظهر ضد الموحدين في الأندلس قيام يوسف البطروجي صاحب لبلة الذي كان قد أعلن الطاعة للموحدين، والذي أدت السياسة الرعناء لأخوا المهدي إلى قيام هذا الأخير بالتمرد وخلع طاعة الموحدين، حيث تحالف البطروجي مع ابن قسي^(١) صاحب شلب الذي أعلن تمرده ضد الموحدين، وكان ابن قسي قبل ذلك من أتباع الموحدين، وانضم لهم أيضاً علي بن عيسى بن ميمون في جزيرة قادس^(٢)، وكذلك محمد بن الحجام صاحب بطليوس، واستطاع علي بن يحيى بن غانية التغلب على الجزيرة الخضراء، وأما أبو الغمر بن عزرون صاحب شريش ورندة وتلك النواحي فقد ثبت على طاعته للموحدين، ولم ينضم إلى ذلك التحالف، وكان رأيه مصيباً في ذلك، فلم يقف عبد المؤمن بن علي مكتوف اليدين على خلع طاعة الموحدين، وتمرد أصحاب المدن الأندلسية، فأرسل جيشاً جعل على رأسه يوسف بن سليمان استطاع القضاء على تمردهم، وإعلان طاعتهم والبيعة له من جديد، وأراد ابن غانية أن يحافظ على مكانة متميزة له تحفظ له مكانة عند الموحدين وتمكنه من مد نفوذه مستقبلاً في الأندلس، ورأى أن الاتصال بالموحدين سراً وتسليمهم قرطبة وقرمونة، مقابل إطلاق يده في جيان، فوصله الخطاب من عبد المؤمن بالقبول في ذلك، وهذا يشير إلى البراعة، والحنكة السياسية عند ابن غانية لأن ذلك سيحرره من وعوده لصاحب قشتالة ألفونسو السابع، ويضع الموحدين في خط المواجهة بدلاً عنه، بالإضافة إلى أن ألفونسو السابع قد غادر جيان وتوجه إلى قرطبة، ودخل ابن غانية جيان، وبعدها اتجه إلى غرناطة في محاولة منه إقناع متولي غرناطة الانضمام إلى الموحدين، ولكن وافته المنية وهو في غرناطة ولم يتمكن من إتمام مخططه، وستشكل أسرة بني غانية مصدر إزعاج للموحدين في المستقبل في عهد خلفاء عبد المؤمن، وأما

(١) أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي الصوفي من مدينة شلب، ثار في نهاية عصر المرابطين، ثم أعلن الطاعة للموحدين وثار عليهم لاحقاً، وتحالف بعدها مع ابن الرنك (الريق - ألفونسو هنري كيز) صاحب قلمرية، ولكن أهل شلب قتلوه ونصبوا مكانه ابن المنذر الأعمى تعبيراً منهم عن طاعتهم للموحدين، ابن الأبار: الحلة السيرة، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٥م، ج ٢ ص ١٩٧-٢٠٠.

(٢) جزيرة من أعمال إشبيلية، طولها اثنتا عشر ميلاً وعرضها ميل واحد، كثيرة الشجر، وأكثر ماتشتهر فيه الصنوبر، وصنم قادس الكبير؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٧٠.

أصحاب التمرد السابق فقد توجهوا إلى مراكش بناءً على دعوة موجهة من عبد المؤمن إليهم ومكثوا في مراكش وكان ذلك تدبير ذكي من عبد المؤمن بن علي في إبعادهم عن مناطق نفوذهم واتقاء خطرهم، ولم يتخلف عن وفود الأندلس سوى ابن قسي^(١) صاحب شلب، الذي فضل مداخلته ملك البرتغال ومد يد العون له، وهو ألفونسو هنريكيث ابن الرنك الذي تذكره المصادر الإسلامية^(٢)، ولكن ذلك لم ينجه من القتل، إذ ذكر ابن خلدون ذلك بقوله: "... وتخلف ابن قسي وأهل شلب عن هذا الجمع، فكان سبباً لقتله من بعد، ورجع عبد المؤمن إلى مراكش، وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم، واستصحب الثوار، فلم يزلوا بحضرته والله تعالى أعلم"^(٣).

٣- مجابهة ابن مردنيش وصهره ابن همشك بشرقي الأندلس:

كانت إمارات شرق الأندلس تخضع لسلطان أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي^(٤)، وعلى وجه التحديد المنطقة الممتدة من بلنسية إلى مرسية

(١) أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي ت ٥٤٦هـ / ١١٥١م، من المتصوفة الأندلسيين، قاد ثورة المريدين في غربي الأندلس قاعدتها ميرتلة زمن ضعف الحكم المرابطي في الأندلس، وانقلب عليه بعض أتباعه واتهموه بالاتصال بألفونسو هنريكيث ملك البرتغال، اتصل بالموحدين ثم انقلب عليهم وعندما قبض عليه الموحدون وأسلموه إلى الخليفة الموحي عبد المؤمن، استطاع بذكائه أن يكسب ودَّ عبد المؤمن فأطلقه وعفى عنه، ولم يزل بحظوة عبد المؤمن حتى قتله صديق له عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م، وابن قسي صاحب كتاب " خلع النعلين " شرحه ابن عربي على طريقته؛ العسقلاني، ابن حجر ، أحمد ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م: لسان الميزان، اعتناء: سلمان عبد الفتاح وآخرون، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر، ط ١، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٥٧٧-٥٧٨؛ الذهبي، محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ / ١٣٧٤م: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م، مج ١٢، ص ١٨٨.

(٢) ويذكر أحياناً ابن الريق، المراكشي: المعجب، ص ٣٢٠.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ٣ ص ٣١٣-٣١٥.

(٤) ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام، ص ١٣٧؛ الصفدي، خليل بن أبيك: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٨٩.

إلى المرية من عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م، وكان ابن مردنيش عاملاً لابن عياض^(١) الشخصية الأندلسية الفذة التي قاومت الإسبان في مناطق شرقي الأندلس طيلة حقبة حياته، وخلال تزعم ابن مردنيش لشرقي الأندلس أثبت جسارة وقدرة على الرياسة، وقد وصفه لسان الدين ابن الخطيب في كتابه "أعمال الأعلام" بالقوة والشجاعة، والإقدام على نقيض مانعته به مؤرخو الدولة الموحدية بقوله: "كان محمد بن سعد غريب السيرة في الثوار، وكان عظيم القوة في نفسه، شديد الأسر في تركيب بنيته، أصيل الشهامة والفروسية، ينادم كبار الأبطال ومشاهير الفرسان ومساعير الحروب"^(٢)، وكان أبو الحسن بن هُمُشْك صهراً لابن مردنيش لانتقصه القوة والشجاعة والإقدام، وقد جاء في كتاب "الإحاطة" بأن ابن هُمُشْك كان أحد أجداده نصرانياً وأسلم على أيدي ملك من ملوك بني هود بسرقسطة، وأنه كان مقطوع إحدى الأذنين، ولذلك كان المسيحيون يطلقون عليه نفس اللقب، واتصل ابن هُمُشْك بابن عياض، ويحيى بن غانية، وأخيراً بابن مردنيش وصاهره على ابنته، ولذلك كان حليفاً وذراعاً أيمناً لابن مردنيش يعتمد عليه في أعماله وحروبه، وقد جاء في ترجمته عند لسان الدين بن الخطيب بقوله: "في وقت واحد بقوله: "كان رئيساً شجاعاً مقداماً شديد الحزم، شديد الرأي، حمي الأنف عظيم السطوة، مشهور الإقدام"، وعن سيرته ذكر لسان الدين في الإحاطة: "كان جباراً قاسياً، فظاً غليظاً شديد النكال، عظيم الجرأة والعبث في الخلق، بلغ من عيئه فيهم إحراقهم بالنار، وقذفهم من الشواهد والأبراج"^(٣).

وبالعودة إلى ابن مردنيش فإنه وجد نفسه أمام قوة مغربية جديدة تتزعمها مسمودة ويمثلها الموحدون الذين أخذوا في مد سلطانهم على معظم الأندلس

(١) وهو عبد الله بن عياض صاحب بلنسية، الذي قام بتوحيد بلنسية ومرسية وأريولة، كان من أبطال المسلمين، واستشهد بسهم جاءه من مقاتل مسيحي عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م، وهذا الأمير المجاهد هو الذي عين ابن مردنيش في قواته وقد صاهره ابن مردنيش؛ المغربي، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ج٢، ص٢٥٠.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٣٨.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م، مج١، ص ١٥٢-١٥٣.

الإسلامي^(١)، والقوة المسيحية المجاورة لممتلكاته في شرق الأندلس حيث مملكة أرغون وقشتالة في الشمال والغرب، ومن أجل ذلك قام ابن مردنيش برسم سياسة تقوم على مهادنة طرف وقتال الآخر، وكانت وللأسف المهادنة مع المسيحيين والقتال مع العرب المسلمين أصحاب مذهب التوحيد هي شعار ابن مردنيش، فقام أولاً بمهادنة القوات المسيحية بالاتفاق مع أمير برشلونة الكونت رامون برنجير الرابع بالصلح لمدة أربع سنوات، وصلاحاً آخر مع ملك قشتالة ألفونسو السابع (ريمونديس) يدفع في كلا الصلحين مقدار خمسين ألف مثقال من الذهب، وكان ابن مردنيش قد صانع المسيحيين خارج جزيرة الأندلس والمعني فيها هنا مدن الجمهوريات الإيطالية المتمثلة بجمهورية بيزة التي عقد معها الصلح عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٩م لمدة عشر سنين، والصلح الآخر مع جنوة تعهد في الاتفاقين دفع عشرة آلاف دينار مرابطية خلال عامين، وبناء فندقاً للمقيمين الجنوبيين في بلنسية ودانية^(٢) من أجل التجارة وأعمالها، وأرسل أيضاً بهدية قيمة من الذهب والحرير إلى هنري الثاني ملك إنجلترا (١١٣٣-١١٨٩م)^(٣).

ويكون ابن مردنيش بهذا قد استطاع تحييد جبهة الإسبان جانباً، وتحويلهم إلى حلفاء متعاونين معه في حربه ضد الموحدين، وبعدها قام ابن مردنيش بشن الهجمات على البلاد الأندلسية القريبة منه لاسيما الخاضعة لسلطان الموحدين،

(١) والمقصود في هذا التعبير بلاد الأندلس التي بقيت بأيدي المسلمين بعد أن قام الإسبان ببحروب الاسترداد التي قامت بالسيطرة على مناطق واسعة من بلاد الإسلام في وسط وشمال الأندلس.

(٢) مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية، على ضفة البحر الشرقية، مشهورة بمرساها العجيب ويسمى السُّمان، ورسايتها مشهورة بالتين والعنب واللوز، وأهلها أكثر أهل الأندلس قرّاءاً، ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٣٤.

(٣) هنري الثاني ملك إنجلترا، ويعرف بهنري ذو العباءة القصيرة، كان ملكاً لانجلترا وسيد إيرلندا، وكونت نورماندي وأقطنانية، وحكم سكوتلندا وويلز وبريتاني، وكان في حال حرب باردة مع لويس السابع ملك فرنسا، وكانت معظم نتائجها

لصالحه؛ https://en.wikipedia.org/wiki/Henry_curtmantle

عنان، محمد بن عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس - عصر المرابطين والموحدين، ق ١، ص ٣٦٧.

مثل جيان التي تمكن ابن مردنيش من دخولها، وعزم على حصار قرطبة وخرب أرياضها، لكن واليها الموحيدي عبد الرحمن بن تيجيت تمكن من صدده عنها، وبعث الموحدون برسالة زائفة لابن مردنيش يخبرونه فيها بتسليمه إشبيلية وانطوت الحيلة على ابن مردنيش وترك حصار قرطبة متوجهاً إلى إشبيلية وبالفعل حاصر ابن مردنيش إشبيلية ولكنه علم لاحقاً أن الأمر خدعة والرسالة زائفة، فأقلع عائداً خائباً على حد قول ابن صاحب الصلاة^(١).

وكان ابن مردنيش قد استطاع إخماد تمرد قام به أهل بلنسية ولورقة^(٢) لصالح الموحيدين عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م، وبعث له الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بن علي برسالة كان مضمونها الدعوة إلى التوحيد، وتنبيه محمد بن عبد الله بن سعد بن مردنيش إلى أفعاله ضد أتباع الموحيدين من أهلها الذين أعلنوا التوحيد والولاء لعبد المؤمن بن علي، ومما جاء فيها: "... فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا الأمر السعيد، ما كان، ثم كان منكم ما اعتمدتموه في أمر أهل لورقة - وفقهم الله - حين ظهر اختصاصهم، وبان إخلاصهم، وليس لذاك وأمثاله عاقبة تحمد، فالخير خير ما يقصد، والنجاة فيما يُنزع عن الشر ويبعد"^(٣)، ولم يعط ابن مردنيش لهذه الرسالة بالاً، وكما تمت الإشارة إليه فقد شكل تحالف ابن همشك مع ابن مردنيش قوة نافست الموحيدين وأوقفت تقدمهم السريع للفتح في بلاد الأندلس، حيث عاود صهر ابن مردنيش الإغارة على قرطبة، مستغلاً احتفال الموحيدين بتخليص المهديّة من

عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م، واستطاع هذا الأخير تدمير أرياضها وزروعها وحاصرها، وقتل واليها الموحيدي عبد الله بن تيجيت^(٤)، وتوجه قاصداً إشبيلية

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، ط٣، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٦٨-٦٩.

(٢) لورقة: وهي مدينة بالأندلس من أعمال تدمير وفيها حصن محكم، وأرضها كالجزر لا يرويه إلا ما ركذ عليها من الماء مثل أرض مصر، وفيها من الأعناب الشيء العجيب، ويصل عنقود العنب فيها إلى الخمسين رطلاً عدا الفواكه الأخرى؛ ياقوت: معجم البلدان، مج٥، ص ٢٦.

(٣) بروفنسال: مجموعة رسائل موحدية، ص ٤٩.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٧٥.

بمساعدة من القوات المسيحية وفرض عليها حصاراً، فبعث أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن والي إشبيلية برسالة إلى أبيه يستجده ويستعجله في طلب العون منه، فجاءه كتاب الخليفة عبد المؤمن برّد على صيغة الشعر ووعدّه بالنصر والمساندة، منها:

ستعلمُ أرض الروم أيُّ فوارسٍ على ظهرها إذا وفد منهم إذا وفد الوفد
وأيُّ رجالٍ للحرب إذا بدت أسودَّ شرى يخشى ترايبها الأسد (١)

٤- جواز عبد المؤمن إلى الأندلس (٢):

استعد عبد المؤمن للجواز إلى الأندلس وكانت هي المرة الأولى التي ينتقل فيها خليفة الموحدين إلى الجزيرة عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م، وقد تحركت معه جموع الموحدين والعساكر، ونزل الخليفة مع العساكر الموحدية بجبل طارق، وأطلق عليه عبد المؤمن جبل الفتح، وعلى سفح هذا الجبل قرر عبد المؤمن بن علي بناء مدينة ليكون مقراً للعساكر الموحدية عند جوازها من المغرب إلى الأندلس، بالإضافة إلى الموقع الاستراتيجي المهم الذي يجعل من هذه المدينة غاية في الحصانة، وكان ذلك تيمناً من عبد المؤمن في هذا الجبل الذي انطلق منه طارق بن زياد واستطاع فتح الأندلس كاملة، وطلب عبد المؤمن من ابنه أبي سعيد عثمان والي غرناطة القدوم إليه، وكذلك إلى ابنه أبي يعقوب يوسف صاحب إشبيلية، وكان مكان الالتقاء إلى الجبل وبحضور الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي ت ٦١٧هـ / ١٢٢١م (٣) وهو جد الحفصيين ملوك الدولة الحفصية في

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٨١.

(٢) لقد كان الاعتماد هنا على كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة، بسبب التفاصيل الدقيقة التي ذكرها ابن صاحب الصلاة لاسيما كونه كان مشاركاً الخليفة عبد المؤمن في تنقلاته.

(٣) وهو جد الملوك الحفصيين الذي حكموا تونس، وهو من طبقة أصحاب العشرة الذين بايعوا المهدي بن تومرت في بداية دعوته، واسمه عمر بن يحيى بن محمد بن والد بن بن علي بن أحمد بن ولال بن إدريس.... بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وتنسب قبيلة هنتاتة إلى أصول يمنية، وهم من قبيلة المصامدة من جبل درن، كان الشيخ أبو عمر

تونس، والحاج يعيش المالقي كبير المهندسين المعماريين عند الموحدين، وتم التخطيط لبناء هذه المدينة وتم إحضار واستتفار البنائين والنجارين من بلاد الأندلس، ومن إشبيلية أحمد بن باسة من كبار مخططي الدولة الموحدية، وقد تم الاتفاق أن تبنى المدينة على سيف البحر، وأنشأ البناؤون فيها القصور والدور، وكان مما تميزت هذه المدينة هو بناء الطاقات والحنايا من أجل استواء الأرض، وزودت المدينة بالمياه عن طريق حفر في سفح الجبل، وقد صنع الحاج يعيش المالقي قد صنع رحي في أعلى الجبل تدور بالرياح لطحن الحبوب وجعل للمدينة باباً واحداً لا يمكن الدخول إلا من خلاله إليها^(١).

وبالعودة إلى ابن همشك فإنه بعد أن هاجم قرطبة تابع طريقه في حصار مدينة قرمونة بمن معه من المسيحيين، وحاصر المدينة وضيق عليها، قام أبو يعقوب ببعث العساكر الموحدية من أجل حرب ابن همشك مع المسيحيين الذين انضموا تحت لوائه في مدينة قرمونة، ووصل إلى هناك جيش موحدى ضخم أرسله الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى وصل إلى إشبيلية بقيادة أبي يعقوب يوسف بن سليمان، وزوده بآلات الحرب ومعداتها، وولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الشيخ عبد الله بن أبي حفص لمنازلة قرمونة بينما توجه إلى أبيه إلى مراكش لملاقاته، وجهاز الشيخ عبد الله قواته جيداً لحرب ابن همشك في قرمونة، وسار إلى قلعة جابر وهي قلعة حصينة بجانب قرمونة، وكان موقع هذه القلعة بمثابة المفتاح للمدينة، حيث فرض عبد الله حصاراً شديداً على المدينة، مما اضطر سكان المدينة إلى تسليم المدينة للموحدين الذين دخلوا إلى المدينة وسيطروا عليها سيطرة كاملة سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م، وصلب قائد حاميتها أسفل قصر بن

الهناتاتي من القادة الموحدين العظام الذين أسهموا في تثبيت دعائم الحكم الموحدى خاصة في المرحلة الأولى، وكان من الممهدين لقيام دولة بني عبد المؤمن بن علي؛ ابن الشماع، محمد: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: محمد بن الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، د.م، ١٩٨٤م، ص ٤٨-٤٩.

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٨٨-٨٩، ابن السماك: الحلل الموشية، ص ١٥٥-١٥٧.

عُباد، وأعلم الشيخ عبد الله القاد الموحدي عبد المؤمن بن علي بفتح المدينة (١)

٥ - دخول ابن همشك غرناطة ومعركة الرقاد:

عندما علم ابن همشك بما حل بقرمونة جمع جموعه وتوجه إلى غرناطة، وقد كانت غرناطة قد أعلنت الطاعة للموحدين، وكان واليها عثمان بن عبد المؤمن، واستغل ابن همشك غياب واليها عنها، وهاجم المدينة، واستطاع دخولها على الرغم من وجود الآلات والرجال، واعتصمت العساكر الموحدية بقصبة المدينة، بينما قتل ابن همشك قسماً منهم، وعذب آخرون بقذائف بالمنجنقات عندما دخل المدينة، وأرسل إلى سيده ابن مردنيش يطلب منه القدوم، وأنه بإمكانه القدوم وأخذ المدينة بأكملها، وفعلاً أرسل ابن مردنيش العساكر إلى ابن صهره ابن همشك بتعداد ألفين من عساكر قشتالة، وعلى الجانب الآخر فقد تحرك عثمان بن عبد المؤمن على رأس قوة من عساكر الموحدين مع الشيخ عبد الله بن أبي حفص وتوجهوا إلى غرناطة، وكانت عساكر عثمان أبي سعيد قد وصلت إلى منطقة تكثر فيها السواقي تدعى مرج الرقاد على بعد أربعة أميال من غرناطة، والتقت مع عساكر ابن همشك وأحلافه القشتاليين عند ذلك الموضع، ودارت الحرب هذه المرة على الموحدين الذين لاذوا بالفرار واعترضهم السواقي حيث سقطت معظم خيول الموحدين فيها، وكان من جملة الذين استشهدوا في هذه المعركة الشيخ عبد الله بن أبي حفص مع أعداد كثيرة من الموحدين من العناصر الأندلسية والمغربية، واقتاد ابن همشك كثيراً من أسرى الموحدين إلى القسبة الحمراء بغرناطة، وكانت هذه المعركة على مرأى من أفراد الحامية الموحدية الذين اعتصموا بقسبة غرناطة (٢).

وقد وصلت أنباء هذه المعركة إلى الخليفة الموحدي عبد المؤمن وهو في مدينة سلا، فقام بإرسال جيش من العرب والبربر زهاء العشرين ألفاً وعلى رأسهم ابنه أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ومعه القائد العسكري الموحدي يوسف بن سليمان، حيث انطلقا بالعساكر إلى مالقة ومنها إلى غرناطة، وأما ابن همشك

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٢٠-١٢٢.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٢٤-١٢٩.

وابن مردنيش فقد نزل كل واحد منهم على جهة من الجبال المتصلة بغرناطة وبينهما وادي حَدَّارة^(١)، ومعهم جموع المسيحيين وعلى رأسهم القمط الأقرع أو الأصلع حسبما تسميه المصادر العربية حفيد البرهانس، وابن القمط أرجال الإسباني^(٢) ومعهم أخوه في أكثر من ثمانية آلاف مقاتل، وتقدم الموحدون بالقرب من وادي دالر ثم انصرفوا إلى وادي شنيل على مقربة من غرناطة، وجمع القائد الموحي أبو يعقوب يوسف بن سليمان أشياخ الموحدين وزعماء الجنود من قبائل لمتونة ومسوفة وشيوخ العرب ووعظهم، وقامت جنود المصامدة بتسليق الجبل المطل على قسبة غرناطة وجبل السبيكة حيث عساكر ابن همشك والمسيحيون متواجدة على مقربة منهم، وجازت العساكر الأمكنة الوعرة من الجبل طوال الليل وقاموا في صبيحة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب عام ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م بهجوم مباغت على عساكر ابن همشك ومن كان معه من المسيحيين، وقد أئخنوا فيهم بالسيوف والرماح، ولأذ ابن همشك وعساكره بالفرار وقد ظنت عساكرهم بأن الأرض متصلة بالجبل وتراجع أكثرهم من تلك الجهة ولم يكن بالحسبان مثلما ظنوا، إذ أن الجبل ينتهي بحافة حادة تهاوت فيها خيل العساكر وفرسانهم في حافة الوادي، وتقطعت أوصالهم، وكان من جملة القتلى الأقرع حفيد البرهانس حيث قطع رأسه وعلق على باب القنطرة في مدينة قرطبة ومثله أيضاً ابن عبيد صهر ابن مردنيش وأكبر قواده ممن تردوا في هذا الوادي وقد كان كل ذلك على مرأى ابن مردنيش وهو يرى كيف تقتل عساكره، وأنصاره وأقاربه، ودخل

(١) وهو فرع من نهر شنيل يخترق مدينة غرناطة، وكان يطلق عليه أيضاً نهر الثلج، وبدايته من جبل شلير، والثلج عليه في الشتاء والصيف، أرسلان، شكيب: الحل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ١، ص ١٢٩.

(٢) لم ترد تفاصيل أسماء القواد الإسبان بهذا التفصيل إلا عند ابن صاحب الصلاة، بينما تحدث ابن عذاري المراكشي مؤرخ الدولة الموحدية الآخر عن المعركة ولم يذكر اسم القادة الإسبان الذين رافقوا ابن مردنيش وصهره بن همشك، ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٧٦-٧٧، ولقد ذكر المحقق في حاشية تحقيق كتاب المن بالإمامة بأن الشخصية المذكورة أعلاه هو إيرمانكو السابع وهو الذي كان قمطاً (كونتاً) عام ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م، وخلف أباه إيرمانكو السادس، والشخص الآخر حفيد البرهانس هو ألفار رودكيز، وهما شخصيتان معروفتان بكل وضوح عند المسلمين، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٣١-١٣٢.

الموحدون غرناطة، وخرجت الحامية الموحدية المحاصرة بالقصبة، وفرّ ابن مردنيش مرتدّاً خائباً ومن تبقى من حلفائه معه، وسار ابن همشك إلى جيان فنتبعه الموحدون حتى صاروا على مقربة من أسوار المدينة وفرضوا عليها حصاراً، ولكن الخليفة عبد المؤمن أعطى أوامره بترك جيان والعودة إلى قرطبة، وكان هذا نصراً جديداً حققه الموحدون في شرقي الأندلس وتبين لعبد المؤمن أهمية غرناطة وموقعها الاستراتيجي، لذلك شحنها بالحبوب والآلات، ومعدات القتال كالسيوف والرماح والجنود، وكانت هذه بداية النهاية لابن مردنيش وصهره ابن همشك في شرقي الأندلس كما سيمر بعد قليل^(١).

وكان الاهتمام الآخر لعبد المؤمن بن علي بعد قتال ابن مردنيش وأتباعه في غرناطة هو دعم قرطبة خاصة بعد الضرر الذي عانتها قرطبة من اعتداء ابن همشك على أراضيها وسكانها، حيث نقل عبد المؤمن مقر إدارته من إشبيلية إلى قرطبة لتوسطها بلاد الأندلس، ولذلك أرسل عبد المؤمن ابنه أبي يعقوب يوسف وأبي سعيد عثمان مع العساكر الموحدية لإعادة إصلاحها إلى سابق عهدها مع كل ما يستلزمه الإصلاح من بنائين ومهندسين وعلى رأسهم أحمد بن باسة، وتحسنت أحوال المدينة كثيراً وعادت الحياة تدب فيها من جديد على حد قول ابن صاحب الصلاة^(٢).

كان عبد المؤمن بن علي بعد إصلاح قرطبة قد أخذ يعد العدة من مراكز لإرسال جيش جديد إلى الأندلس يستطيع من خلاله التخلص من جميع الاعتداءات على مدن الأندلس وضمها تحت سلطانه، وفعلاً بدأ بتجهيز هذه الحملة الجديدة وكان توجه عبد المؤمن هذه المرة إلى إنشاء اسطول قوي يضمن له فرض السيادة في غرب المتوسط، حيث أمر ببناء السفن في جميع الجهات البحرية في المغرب وإفريقية والأندلس، وقد ذكر صاحب " الأنيس المطرب " بأن تعداد هذه السفن قد بلغ أربعمئة قطعة في مدن إفريقية والمغرب والأندلس مثل طنجة وسبتة ووهران والأندلس والمعمورة^(٣)، واستكثر من جلب الخيل والسلاح،

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٣-١٣٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٤٠.

(٣) المعمورة: مدينة تعرف بالمهدية تقع عند مصب نهر سبو في المغرب، والغابة المجاورة لها تسمى غابة المعمورة، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٠١.

وأمر بصنع السهام في جميع البلدان، فكانت قناطير مقنطرة، وطلب من قبيلته كومية أربعين ألفاً ليكونوا بطانته وحمايته وخاصته، وقرر عبد المؤمن بن علي عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م الخروج للجهاد في بلاد الأندلس وطلب إلى جميع البلاد الاستنفار للجهاد، فاجتمعت له العساكر الكثيرة من المغاربة والمرتزقة وبلغت أكثر من ثلاثمئة ألف فارس، ماعدا المتطوعة من القبائل^(١)، وتحرك عبد المؤمن من مراكش إلى رباط الفتح بسلا ينتظر تجمع العساكر والشيوخ والوفود، فاجتمع عبد المؤمن مع الشيوخ ووجوه العرب وكان ممن اجتمع مع الخليفة مؤرخ الموحدين ابن صاحب الصلاة، وكان له رأي قد أسدى به إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي، وهو تقسيم الجيش إلى أربعة أقسام لتنتقل إلى جهات الأندلس وهي أربع جهات جهة ابن الرنك بقلمرية، وجهة الببوج بالسبطاط ثمانية، والجهة الثالثة جهة أذفونش بطليطلة، والجهة الرابعة هي جهة برشلونة، واتفق الجميع على هذا الرأي^(٢).

ز- مرض عبد المؤمن ووفاته

بعد اجتماع عبد المؤمن وتقرير شؤون الأندلس، مرض مرضاً شديداً وساعات أحواله، وكان الناس ينتظرون تعافيه ولكنه كان مرض الموت، وقبل وفاته قام عبد المؤمن بإسقاط ابنه محمد من الخلافة، وولى عنه ابنه الآخر أبي يعقوب يوسف وكان ذلك بحضور أخيه الشيخ أبي حفص، وكانت وفاته يوم الجمعة عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م، وحمل ودفن في تينمل بجوار قبر المهدي ابن تومرت، وله من العمر ثلاث وستون عاماً^(٣).

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٥١-١٥٣.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٥٥.

النتائج

١- استطاع ابن تومرت نشر مذهب التوحيد الجديد بين قبائل المغرب وقد اتهم كل من لا يؤمن به بالكفر والتجسيم مثل حال الدولة المرابطية، وتطور نزاعه معها إلى الصدام المسلح في أكثر مرة.

٢- حقق ابن تومرت نجاحاً يعد انتصاراً له على معارضييه، ولكن القدر لم يمكنه من القضاء على دولة المرابطين العدو الأول له، إلا أنه مهد الطريق لخليفته عبد المؤمن بن علي في رسم ملامح دولته الجديدة الناشئة، والأطر الدينية لمذهب التوحيد الجديد.

٣- تمكن عبد المؤمن بن علي من القضاء على دولة المرابطين، وكذلك فقد رسم الأطر السياسية والعسكرية لدولة الموحدين، بالإضافة إلى الإطار الديني العقائدي لدولة الموحدين.

٤- تحولت دولة الموحدين زمن عبد المؤمن بن علي إلى امبراطورية واسعة، امتدت على مناطق شاسعة على أراضي المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وبلاد الأندلس.

٥- استطاع عبد المؤمن بن علي القضاء على كم كبير من الفتن، والتمردات، والثورات التي قامت ضده في بلاد المغرب والأندلس، لا سيما التمردات التي قامت ضده عندما جعل ولاية العهد محصورة في بيته وأسرته.

٦- وهذا بدوره يؤدي إلى استنتاج آخر وهو أن الفتن والتمردات التي نشبت ضد الموحدين في المغرب والأندلس لم يتمكن عبد المؤمن من إزاحتها عن طريقه بشكل كلي، إذ أن المنية جاءتته وهو يجهز لغزوة كبيرة في بلاد الأندلس، بهدف القضاء على تمرد ابن مردنيش الثائر في شرق الأندلس، وبني غانية حكام جزر البليار، ومحاولة تحرير بعض المدن الأندلسية من قبضة الإسبان الذين أكملوا سلسلة حروب الاسترداد ضد المدن الأندلسية الإسلامية.

٧- أثبت عبد المؤمن بن علي بأنه الرجل الفذ، والشخصية السياسية العسكرية الناجحة التي فرضت نفسها وبكل قوة وسط جملة كبيرة من التحديات والأخطار داخل بلاد الإسلام وخارجها.

٨- تميزت أساليب الموحدين بالقسوة في الضرب على أيدي العصاة، فكثيراً كان القتل هو مصير من يعارضهم أو يخرج عن طاعتهم، ويجب أن لا ينسى المرء ظاهرة التمييز التي سنّها المهدي بن تومرت لكل من يشك بولائه من أتباعه وليس أعدائه، وكان مصيرهم القتل الجماعي، واستمر خليفته أيضاً عبد المؤمن بن علي في القيام بها حتى آخر أيامه.

٩- تم استنزاف الكثير من دماء المسلمين وإراقتها في حروب الموحدين المسلمين ضد خصومهم المسلمين أيضاً لا سيما دولة المرابطين وأتباعهم، ولو كانت هذه الدماء قد بذلت في القضاء على العدو المتربص بالبلاد الإسلامية في صقلية وبقاع الأندلس لكان ذلك من أفضل الإنجازات.

رابعاً-الفصل الثالث:

خلفاء بني عبد المؤمن بن علي

حتى معركة الأرك وعصر الانهيار ٥٥٨-٦١٠هـ/١١٦٣-١٢١٣م

١-يوسف بن عبد المؤمن أبي يعقوب ٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٣-١١٨٤م

أ- ذكر اسمه وشخصيته وبعض سيرته.

ب- أعمال يوسف بن عبد المؤمن وتتضمن:

ج- القضاء على التمردات والثورات في المغرب.

د- القضاء على التمردات والثورات في الأندلس.

هـ- جهود الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على جبهة الأندلس.

و- الحرب مع الممالك المسيحية بعد عودة الخليفة أبو يعقوب إلى مراكش.

ز-إنجازات يوسف بن عبد المؤمن الحضارية.

٢-يعقوب بن عبد المؤمن المعروف بالمنصور ٥٨٠-٥٩٥هـ/

١١٨٥-١١٩٩م

أ- أعمال المنصور على الصعيد العسكري:

ب- القضاء على تمرد الجزيرة.

ج- القضاء على تمرد بني غانية حكام جزر البليار.

د- استرداد مدينة شلب والمناطق المحيطة بها من جهة الغرب.

هـ- معركة الأرك الأسباب والوقائع والنتائج.

و- الأرك استنتاجات وانتصارات.

ز- جهود المنصور بعد الأرك حتى وفاته.

ح- وفاة المنصور وبعض من سجاياه.

٣- أبو عبد الله الناصر بن يعقوب ٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٩-١٢١٣م

أ- المتغيرات التي ظهرت بداية حكم الناصر.

ب- أعمال الخليفة الناصر:

١ القضاء على تمرد عبد الرحمن الجزولي المدعو بابن الفرس.

٢ القضاء على تمرد بني غانية.

٣ الجواز إلى الأندلس والاستعداد لمعركة العقاب:

٤ فتح حصن شلبطرة

٥ الاستعدادات العسكرية ومعركة العقاب.

٦ أحداث المعركة ونتائجها وبداية انهيار دولة الموحدين.

٧ وفاة الخليفة الناصر.

النتائج

١. يوسف بن عبد المؤمن أبي يعقوب ٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٣-١١٨٤م:

تسلم أبو يعقوب يوسف زعامة الموحدين بعد وفاة أبيه عبد المؤمن الذي أقرّه على عرش الموحدين بدلاً من أخيه محمد، وكان محمد قد بويع بولاية العهد في أول أمره ثم عزله والده لأمر ظهر منه وأقرها لأخيه يوسف قبل وفاته، واستوثق ذلك من شيوخ الموحدين ووجهائهم، وقد استتبت شؤون الحكم للخليفة الموحي أبي يعقوب يوسف من بين أخوته ممن كان يرى في نفسه بالأحقية في الوصول إلى السلطة، وقد أعلن أخوا أبي يعقوب عبد الله صاحب بجاية ومحمد صاحب قرطبة الدخول في طاعة أخيه يوسف بعد ترددهم في البداية عن الدخول في طاعته، ودخلوا عليه بعد عام من تملكه عرش الموحدين، فأكرمهم ووصلهم بالمال والخلع^(١).

كان أبو يعقوب من أصحاب التجربة السابقة في ميدان العمل السياسي، عندما تولى شؤون إشبيلية في عهد والده عبد المؤمن بن علي، واشترك أبو يعقوب بصفات مماثلة لأبيه عبد المؤمن كالنباهة، وحسن الإدارة، وتدبير الأمور وتصريفها، مضافاً إلى ذلك علمه بالحديث، والإسناد، والقرآن الكريم، وكان مُكرماً لطلبة العلم، يقربهم عن غيرهم من سائر الرعية، ملماً بعلوم المهدي بن تومرت، شديداً على الأعداء، فاضلاً، أولى الأندلس اهتماماً وحماها من المعتدين، وأحسن بناءها، فكانت الأندلس في عهده بلداً جميلاً عامراً هانئاً بالاستقرار^(٢).

وقد ذكر ابن أبي زرع في " الأنيس المطرب " صفات يوسف بن عبد المؤمن بقوله: " كان أبيض اللون تشوبه حمرة، حسن القد التام، أشقر اللحية أجعد الشعر، أفلج، أقنا، أعسر أيسر، يعمل بيديه جميعاً، عاقلاً صالحاً ورعاً فاضلاً،

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٠٩.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٦٨.

متوقفاً في سفك الدماء، حليماً حسن السياسة والتدبير، مصيب الرأي، محباً للجهاد^(١).

وزاد عبد الواحد المراكشي على ذلك بقوله: "كان أبيض تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر، مستدير الوجه، أفوه، أعين إلى الطول ماهو، في صوته جهاره، رقيق حواشي اللسان، حلو الألفاظ، حسن الحديث، طيب المجالسة، أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثرها، وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام"^(٢).

ومن خلال وصف المؤرخين للخليفة يوسف بن عبد المؤمن لاسيما وصف المؤرخ عبد الواحد المراكشي، يتضح بأن أبي يعقوب كان صاحب اهتمام بالغ باللغة العربية والأدب، والقرآن الكريم، وعلم الحديث، أي أنه رجل علم وسياسة، طموح يشابه والده عبد المؤمن في كثير من الخصال، وكان يزيد عليه في حب جمعه للكتب، وخاصة كتب الفلسفة^(٣).

أ- أعمال الخليفة يوسف بن عبد المؤمن:

تسلم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن زعامة الموحدين بعد وفاة والده عبد المؤمن علي الذي بذل جهداً كبيراً من أجل توطيد الزعامة السياسية للموحدين في بلاد المغرب والأندلس، وحقق قدراً كبيراً من الأمن والاستقرار في البلاد إلى حد كبير، ومما لا شك فيه فإن أعمال عبد المؤمن على هذا الصعيد كانت محمودة مثمرة، على غاية كبيرة من الأهمية في بناء الدولة الموحدية ذات الأساس العقائدي العسكري، ولكنها لم تكن كافية بعد لبسط سيطرته الشاملة على بلاد المغرب والأندلس بشكل كامل، بسبب وجود الحركات المعادية والتمردات ضد الموحدين من داخل بلاد الإسلام وخارجها، وقد تمت الإشارة إلى ذلك مسبقاً ولم يستطع عبد المؤمن أن يحقق جميع أهدافه التي جهد فيها منذ أن تسلم زعامة الموحدين، ووافته المنية وهو في طريقه أن يستكمل فتح بلاد الأندلس، وعندما تسلم أبو يعقوب عرش الموحدين، قام بتسريح العساكر التي جمعها والده في حملته الأخيرة

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٠٥.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٣٧.

(٣) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٣٨.

إلى الأندلس قبل وفاته إلى أهاليهم وذويهم، وفرق عليهم الأموال والأعطيات، مفتتحاً حكمه بالسلم والهدوء، وعاد أبو يعقوب إلى مراكش وجاءته البيعة من جميع بلاد المغرب والأندلس، ولذلك يمكن أن يتساءل المرء: هل كان يوسف بن عبد المؤمن رجل الحكم والإدارة المناسب الذي سار عن نهج أبيه في زعامة الموحدين؟ وهل حقق أبو يعقوب مكاسباً جديدة على الصعيدين الداخلي والخارجي؟

في الحقيقة كانت أشهر المصادر التاريخية التي كان الاعتماد عليها في حياة الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن هي كتاب "المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة، وكتاب "البيان المغرب" لابن عذار المراكشي، نظراً لكون أصحابها الذين دونوها كانوا على صلة مباشرة مع الأحداث التي كانت تجري في فلك الدولة الموحدية، لاسيما ابن صاحب الصلاة الذي دون تفاصيل كثيرة زمن الخليفة عبد المؤمن ومن بعده ابنه يوسف، وكان شاهد عيان على مجريات الأحداث، ومنها المتعلقة بالنشاط الحربي العسكري للدولة الموحدية في المغرب والأندلس، وكان الكتاب الآخر هو كتاب "البيان المغرب" لمؤلفه ابن عذار المراكشي وهو من المصادر المهمة التي غطت مرحلة يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور، وكان ابن عداري قد أخذ منه نقلاً وفيراً عن ابن صاحب الصلاة، ولا يقلُّ عبد الواحد المراكشي "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" أهمية عن سابقه كمصدر أصيل للدولة الموحدية في تلك الحقبة، بل إن عبد الواحد المراكشي كان في كتابه أكثر رقةً وبلاغةً، وذوقاً رفيعاً يدلُّ على مهارة مؤلفه في التاريخ، والأدب، حيث غطى كتابه "المعجب" جانباً كبيراً من أخبار الدولة الموحدية حتى الربع الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بالإضافة إلى كتاب "الأنيس المطرب" لابن أبي زرع وهو من المصادر الحولية المهمة في هذا المضمار.

ب- القضاء على التمردات والثورات ضد الموحدين في المغرب:

لم تكن الثورات التي نشبت ضد الموحدين في بلاد المغرب تصل حدّة وشراسة مثلما كانت عليه في بلاد الأندلس، ولم يبذل الموحدون كثيراً من الجهد والعتاد لضرب أيدي الخارجيين عن سلطان الموحدين مثلما كانت جبهة الأندلس، وكان الهدوء والاستقرار يسود بلاد المغرب بعد جهود عبد المؤمن بن علي في

تأمين بلاد المغرب، وتوحيدها إلى حد كبير، واقتصرت حركات التمرد والانتفاض على الموحدين في منطقة قفصة وجبال غمارة وجبل تاسررت:

١ ارتداد قفصة عن الموحدين وإعادتها بيد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن:

كان صاحب قفصة خاضعاً لسلطان الموحدين منذ أيام عبد المؤمن بن علي، وكان أن حدثت تبدلات سياسية جديدة في المغرب الأدنى وتحديداً إفريقية، حيث كان مملوك صلاح الدين التركي قراقوش^(١) يتوسع في منطقة طرابلس الغرب وأراد أن يعقد تحالفات جديدة ضد الموحدين، فكانت مع بني غانية حكام جزر البليار الشرقية ومع صاحب قفصة علي بن المعز بن المعتز، وأراد هذا الأخير التفرد والاستقلال بملكه عن الدولة الموحدية، خاصة عندما وجد العرب قد تحالفوا مع المملوك التركي قراقوش وأظهروا العصيان، وكان جميع أهل قفصة قد وافقوا على الخروج عن طاعة الموحدين، لذلك قاموا بالتخلص من كل من كان عندهم من الموحدين، فأرسل على الفور والي بجاية يخبر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن باضطراب الأحوال في بجاية وقفصة، فنهض الخليفة الموحي وسار بنفسه إلى إفريقية سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥م محاصراً قفصة حصاراً شديداً، فضاق صاحبها ذرعاً، فخرج صاحبها متخفياً لم يعلم أحدٌ بإقباله على معسكر الخليفة، وأبدى ندمه وطلب العفو فأمنه الخليفة وأعطاه العفو والأمان، وأرسله إلى المغرب وأعطاه أملاكاً واسعة، وأعاد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قفصة إلى حضيرة

(١) قراقوش الأمير الكبير بهاء الدين الأسدي الخادم الأبيض، كان فتي يعمل لدى أسد الدين شيركوه، وعندما استقل السلطان صلاح الدين في مصر سلمه زمام القصر، وكان قراقوش عالي الهمة بنى سور القاهرة وأحاطة فيها، وبنى قلعة الجبل وقناطر الجيزة في دولة صلاح الدين، وعندما فتح صلاح الدين الأيوبي عكا سلمه إياها، وعندما استردها الفرنج أسروا قراقوش، فافتكه الناصر صلاح الدين بعشرة آلاف دينار، توفي قراقوش سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٣م؛ الصفي: الوافي بالوفيات، ج ٢٤، ص ٢٢٣؛ سبط، ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: عمار ريحاوي وآخرين، دار الرسالة العالية، ط ١، دمشق، ٢٠١٣م، ص ٥٠٤، أبو شامة، عبد الرحمن ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٩: الذيل الروضتين، تقديم: محمد زاهد، دار الجيل، ط ٢، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٩.

الدولة الموحدية، وتسلمها الخليفة أول سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م، وعين عليها واحداً من كبار الموحدين (١).

٢ القضاء على التمرد في جبال غمارة:

ظهرت حركة التمرد هذه ضد الموحدين عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م في المغرب من قبائل البربر من المنطقة التي يطلق عليها جبال العدو، وتحديداً جبال غمارة التي تتصل بسبتة، حيث قام بها شخص يدعى سبع بن منخفاد البشقي (٢)، وقام هذا الأخير بإعلان العصيان والتمرد ضد الموحدين، وامتدت شروره على الناس، وأدخل الرعب إلى قلوبهم، واستعصى على الموحدين، وقويت شوكته، وكثر أتباعه متحدياً بذلك سلطان الموحدين، وقد حاول الموحدون القضاء على تمرده أكثر من مرة إلا أنهم لم يفلحوا، مما جعل ذلك أن يخرج الخليفة أبي يعقوب بنفسه مع عساكر الموحدين ووجههم للقضاء على ذلك المتمرّد صاحب الفتن ومحاصرته في جبال غمارة، وبعد أن فرضوا حصاراً عليه من جميع اتجاهاته، انتسفوا الزروع ودخلوا مناطق غمارة، واستطاعوا الوصول إلى ابن منخفاد وصلبوه وقتلوه، وأجلّوا أتباعه الذين قد شاركوه العدوان، مما أعاد سكان تلك المناطق يعلنون الطاعة والخضوع التام لسلطان الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن، وقد أرسل الخليفة رسائل إلى جميع بلاد الموحدين في الأندلس والمغرب يخبرهم بهذا النصر المؤزر (٣).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ١٠٤؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٢٣.

(٢) وردت عند ابن عذاري ابن منقعد؛ المراكشي، ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٩٥، وذكرها صاحب المعجب في كتابه "المعجب" بأن اسمه سبع بن حيّان؛ المراكشي، ابن عذاري: المعجب، ص ٢٥١، وقد كان الاعتماد على ابن صاحب الصلاة في ذكر اسمه ابن منخفاد بكون ابن صاحب الصلاة هو الرجل القريب المطلع على شؤون الدولة الموحدية في أعلى مستوياتها، لا سيما النشاط العسكري السياسي؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٢٣١.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٢٣١-٢٣٣.

٣ الثورة ضد الموحدين في تاسررت:

ذكر ابن صاحب الصلاة قيام تمرد ضد الموحدين في جبل تاسررت من قبل قبائل البربر المقيمة هناك، وقد ازدادوا عناداً وتجبراً، ولم يقبلوا الرجوع أو الاستكانة، فمشت إليهم عساكر الموحدين يقودهم أخ الخليفة أبو حفص الذي استطاع الوصول إليهم، والقضاء على تمردهم، وإبعادهم عن ذلك الجبل الذي اعتصموا فيه، وقد ذكر ابن صاحب الصلاة في ذلك قولاً يدل على بلاغة في وصفه: "وطعنهم طعنة البطل الشجاع الحوّل، واستأصلهم قتلاً وسبياً"، وقيل في ذلك أشعاراً كثيرة ووصلت أخبار ذلك النصر إلى الخليفة أبي يعقوب الموحي (١).

ج- القضاء على التمردات والثورات ضد الموحدين في بلاد الأندلس:

١ قتال ابن مردنيش شرق الأندلس والقضاء على تمرده:

كما مر سابقاً لم يتمكن عبد المؤمن بن علي من القضاء التام على ابن مردنيش صاحب ثورة شرقي الأندلس، ووافته المنية قبل إتمام مشروعه هذا، ولكن القضاء على تمرده جاء زمن ابنه يوسف بن عبد المؤمن الذي وضع نهائياً لهذا الأخير ضد دولة الموحدين، وكما هو معروف فقد كان ابن مردنيش حليف القشتاليين ومعه صهره ابن همشك الذين شكلوا جبهة شرقي الأندلس التي قاومت الموحدين حقبة زمنية لا يستهان فيها، لذلك كان الاهتمام الباكر للخليفة أبو يعقوب هو بالتخلص من تلك العقبة التي أزعجت استقرار الموحدين بشرق الأندلس، وعقد الخليفة لأخوته أبي حفص وأبي سعيد عثمان وأبا عبد الله من إشبيلية بالخروج مع العساكر حيث اتجهوا إلى قرطبة ومنها كان الانطلاق إلى أحد الحصون التابعة لابن مردنيش وهو حصن أندوَجَر الذي كان على مقربة من قرطبة، فنازله الموحدون وفتحوه، وسلم نتيجة لذلك جميع الحصون المجاورة الذين أعلنوا الطاعة والتسليم، وكانت أخبار تقدم الموحدين ونجاحهم في إحراز الانتصارات على أتباع بني مردنيش تصل ابن مردنيش، وقد علم بأن دائرة هذه الحرب عليه لاستئصال

(١) وردت أحداث هذه الثورة عند ابن صاحب الصلاة ولم ترد عند غيره باستثناء ممن نقلوا

عنه؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٢٧٨.

شأفته، وقام باستدعاء حلفاءه القشاليين من طليطلة والمناطق المحيطة بها، واجتمعت تحت يده حشود كثيرة، فخرج ابن مردنيش بقواته من مرسية، وحاول أن يعترض الموحدون في لورقة لكي يجبرهم على العبور بطريق ضيقة، ولكن الموحدون استطاعوا العبور من طريق آخر إلى الشرق من لورقة وقصدوا مرسية، فقام ابن مردنيش بسحب قواته ليساير تقدم القوات الموحدية المتقدمة باتجاه مرسية، ووصل الموحدون إلى أول فحص مرسية، وكان ذلك يوم الجمعة من عام ٥٦٠هـ / ١١٦٥م وصمم ابن مردنيش الدفاع عن المدينة، وقام بإرسال ثلاث فرق إلى القوات الموحدية، واحدة إلى فرقة العساكر العربية المقاتلة مع صفوف الموحدين، والفرقتين الباقيتين لعساكر الموحدين، واشتبكت فرق الجيوش مع بعضها واستمر القتال طوال النهار، ولاحت بوادى النصر للمسلمين، ولذا ابن مردنيش وأتباعه بالفرار وقتل منهم خلقاً كثيراً وكان ذلك على مرآى ابن مردنيش، وهو يشاهد ما حل بأصحابه وعساكره، ولذا ابن مردنيش بالفرار إلى داخل مرسية، وتبعه الموحدون إلى مرسية وأقاموا فيها، وانتسفوا زروع ابن مردنيش وبساتينه وأقاموا الخطبة فيها للخليفة الموحدى أبو يعقوب، وضربت الطبول لذلك النصر المؤزر^(١).

وكانت الاستفادة الأخرى التي جناها الموحدون في هذا المضمار هو وقوع الخلاف بين ابن مردنيش وبين صهره ابن همشك الذي أظهر التوحيد، وقبوله الانضمام في صفوف الموحدين، وازادت مظاهر القطيعة بينهما بسبب خوف إبراهيم بن همشك من تصرفات محمد بن سعد بن مردنيش التي جعلت ابن همشك يحذر على نفسه منها، مثل قتل ابن مردنيش وزيره ابني الجذع ووضعهم في حائط على مرأى منه، وتطليق زوجته التي كانت بنت إبراهيم بن همشك وإرسالها إلى أبيها ذليلة على حد قول ابن صاحب الصلاة، ولذلك طلب ابن همشك من الشيخ أبي حفص الهنتاتي أن يرسل له عوناً يخلصه من ابن مردنيش الذي أوعز لعساكره بالإغارة على بلاد ابن همشك بعدما تأكد أن ولاء ابن همشك قد أصبح للموحدين، وأنه سيقاثل في صفوفهم، وقد ازداد إلحاح ابن همشك على الخليفة الموحدى في إرسال نجدات له لازدياد أذى ابن مردنيش على بلاده، وفعلاً أرسل

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٩٦-٢٠٠؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٨٨-٩٠.

الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن العساكر الموحدية إلى نجدته بقيادة أخيه الشيخ أبو حفص من مراكش من عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م ووجه أهل الأندلس، والتفوا مع الشيخ أبي حفص الهنتاتي في إشبيلية، وخرجوا منها قاصدين قرطبة برفقة ابن همشك، وبدؤوا بمنازلة مدينة قيطاجة ^(١) أول مدن ابن مردنيش، واستطاعوا فتحها وقتل واليها، وتابعوا تقدمهم باتجاه مرسية مدينة ابن مردنيش، وفتحوا حصن الفرّج الذي كان متنزهاً لابن مردنيش، وانتسفوا جميع البساتين والقرى المجاورة، وكان ذلك له الأثر الكبير في إضعاف ابن مردنيش وتراجع قوته على الرغم من استنجاده بالقشاليين الذين أرسلوا له نجدة ضيلة لم تتجاوز الأربعمئة فارس، وهؤلاء الفرسان توجهوا إلى لورقة، وهنا قام أهل لورقة بالانتفاض على الجنود المسيحيين وعسكر ابن مردنيش، وأعلنوا طاعتهم للموحدين بفضل العناصر التي كانت تعمل لصالح الموحدين داخل المدينة، واستطاع الموحدون دخول المدينة باستثناء قصبتها التي تحصن فيه جنود قشتالة مع واليها واعتصموا بها، واستطاعوا طلب الأمان لأنفسهم بوساطة ابن همشك الذي توسط لهم عند الموحدين، وانصرف الجنود القشتاليين إلى بلادهم يريدون نجاة أنفسهم، وكان سقوط لورقة بيد الموحدين صفة أخرى لابن مردنيش في إضعافه ^(٢)، وعاد الجيش الموحي ليحاصر بلنسية، وانضم محمد بن مردنيش ابن عم محمد بن سعد بن مردنيش إلى الموحدين وهو زوج أخته ولكن محمد بن مردنيش قتل زوجته، وصاحب جزيرة شوقر الذي أعلن الطاعة للموحدين، وكان كل هؤلاء من المقربين إلى محمد بن سعد بن مردنيش، ولم يبق معه من يثق به لما قتل من أقاربه، فاختل بذلك ذهنه، وجاءت منيته عام ٥٦٧هـ / ١١٧٢م بعد أن أقر ابنه هلال على ملكه، ويعلق المؤلف أندريه جوليّان صاحب كتاب " تاريخ إفريقيا الشمالية" أن ابن مردنيش قد كان ضحيةً لعدة خيانات من قبل عائلته، ولقي حتفه أثناء حصار مرسية، وكان ذلك بدوره قد مهد السبيل لانتصار أبي يعقوب

(١) وهذه المدينة مذكورة عند الحميري باسم قيجاطة وليس ما مرد عند ابن صاحب الصلاة، وقد ذكر الحميري بأن مدينة قيجاطة من أعمال جيان، وقد ناصبت هذه المدينة الموحدين العداء؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥١٠.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٣١٧-٣١٨.

المنصور^(١)، حيث قام قواده وأشياخه بتقديم الطاعة للخليفة يوسف بن عبد المؤمن، وكذلك فعل ابنه هلال بن مردنيش الذي وصل إلى الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن معلناً طاعته للموحدين والوقوف في صفهم، واستقبله الخليفة الموحي وأكرمه وأكرم أصحابه غاية الإكرام، وأنزله قصر المعتمد بن عباد، وبذلك يكون الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد تخلص من التمرد الكبير والحروب المستمرة التي قامت ضد الموحدين في شرق الأندلس، وكلفت الدولة كثيراً من الرجال والعتاد^(٢).

٢ قتال الموحدين الممالك المسيحية في الأندلس:

كانت هذه الجبهة من أعنف الجبهات التي واجهت الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، إذ كانت الحرب سجلاً بين الطرفين، ولم تكن لتتطفي نارها حتى تعود تلك النار لتستعر مرة أخرى من جديد، بسبب كبر هذه الجبهة عن غيرها من الجبهات، واستفحال شأن الممالك المسيحية التي لم تنفك عن مهاجمة مدن الأندلس الرئيسية مثل قرطبة وإشبيلية متممة بذلك سلسلة حروب الاسترداد التي شنتها ممالك إسبانيا المسيحية ضد ديار العروبة والإسلام.

عندما تولى الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن زعامة الموحدين بعد وفاة والده عبد المؤمن، كان العدوان الإسباني مستفحلاً على أراضي الأندلس، لاسيما هذه المرة من الناحية الشمالية المتمثل بمملكة قشتالة، والناحية الغربية والمقصود بها العدوان البرتغالي الذي أخذ بالتوسع على حساب المدن الإسلامية الأندلسية، وكان ذلك في أواخر زمن الخليفة عبد المؤمن، حيث كانت البداية المؤلمة لذلك التوسع متمثلة في سقوط المدينة الإسلامية العظيمة أشبونة ذات الموقع الاستراتيجي العظيم على نهر التاجة، والمقل الإسلامي المنيع في أراضي دولة البرتغال الناشئة تحت حكم ملكها ألفونسو هنريكي، وهو المعروف

(١) جوليان، شارل أندريه: تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد فرالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٨م، ج ٢، ص ١٤٧.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٣٨٠-٣٨٢.

في المصادر الإسلامية ابن الرنك ^(١) كما ذكر ذلك مسبقاً، وكان سقوط أشبونة بيد البرتغاليين عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م، وكالعادة الجارية فوراً يتم تحويل جامعها إلى كنيسة عندما يتغلب نصارى الإسبان على مدن الأندلس، ويقوموا باسترقاق أهلها واستعبادهم، ولم يكتفي صاحب قلمرية ألفونسو هنريكيث عند هذا الحد بل تابع تقدمه، وسيطر أيضاً على مدينة شنترين الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة أشبونة، وتم الاستيلاء على المناطق الغربية الإسلامية المحيطة بها وضمها إلى الأراضي البرتغالية، وأصبح ألفونسو هنريكيث دائم الإغارة على المناطق الإسلامية المجاورة يغزو وينهب، ويقتل ويأسر ثم يعود أدراجه، دونما مقاومة فعلية تذكر، وكان الموحدون قد انشغلوا في هذه الآونة في قتال ابن مردنيش الثائر شرق الأندلس، وفي القضاء على التمردات التي واجهتهم زمن الخليفة الموحي عبد المؤمن بن علي، وهذا الذي دفع ابن قسي كما مر سابقاً لطلب نجدة الخليفة الموحي عبد المؤمن ضد اعتداءات ابن الرنك (ألفونسو هنريكيث) على الجانب الغربي من بلاد الأندلس، وثم ارتداده وقتله، وكان أن حدث قبل وفاة عبد المؤمن عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م قيام ألفونسو هنريكيث ملك البرتغال بالسيطرة على قصر أبي دانس أو قصر الفتح كما تسميه المصادر الإسلامية، وهو ذو الموقع الاستراتيجي على البحر المحيط جنوبي شرقي أشبونة، كما استطاع الإسبان غزو مدينة باجة أكثر من مرة، وكان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد أوعز إلى واليه عمر بن تمصيلت في إعمار باجة وإصلاح الخراب الذي لحق فيها عندما دخلها ألفونسو هنريكيث، وعندما حاول عمر بن تمصيلت استرجاع فحص أبي دانس بالإغارة عليه، خرج عيله جموع من نصارى أهل شنترين، فكان ذلك سبباً لانهزامه، وأسر من قبل ألفونسو هنريكيث الذي جعل الحديد في عنقه حتى مات، وبلغ ذلك الخبر أهل باجة ففروا منها ^(٢)، وكانت هذه الحالة التي تعيشها بلاد الأندلس عشية وفاة عبد المؤمن بن علي، وانتقال الحكم إلى ابنه أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

(١) وقد ورد اسمه أيضاً في المصادر العربية الإسلامية ابن الرّيق أو ابن الرّيك، وهو كما هو معلوم ملك البرتغال ألفونسو هنريكيث؛ المراكشي، عبد الواحد: المعجب في أخبار المغرب، ص ٣٢٠.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٣٤.

كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مدركاً للخطر الصليبي المتكالب على بلاد الأندلس، ومن أجل هذا فقد أعطاها اهتماماً كبيراً، لضمان إبعاد العرب المسلمين عن اعتداءات الإسبان الشرسة عليهم، على الجبهة الغربية وهي بلاد الأندلس الواقعة على خطوط التماس المباشر مع الأراضي البرتغالية، هذه المناطق التي لم تهدأ عنها اعتداءات ملك البرتغال ألفونسو هنريكي، وكان ألفونسو هذا يقدم المساعدة بالرجال، والأموال، والعناد لرجل آخر قد لازم الاعتداء على تلك المناطق ويدعى العليج جراند الجليقي كما تذكره المصادر الإسلامية مثل ابن صاحب الصلاة، وابن عذار المراكشي^(١)، وكان جراند هذا صاحب أذى كبير للمسلمين، تركزت اعتداءاته على المناطق الإسلامية من بلاد الأندلس على المناطق المتاخمة للملكة البرتغال، حيث يقدم لنا ابن صاحب الصلاة صوراً من اعتداءات هذا الأخير، و أسلوب جراند الجليقي الخاص في التسلل إلى المدن الأندلسية الإسلامية، حيث كان يخصص الليالي الباردة الممطرة، الحالكة السواد شديدة الرياح، وقد جهز أدوات من الأعواد الطويلة، والسلالم التي تعلو بارتفاعها أسوار المدينة، ثم يقوم بالتسلل إلى أبراج الحراسة، وعندما ينام الحارس في البرج يصعد إليه، ويقول له: "تكلم على عادتك ليلاً يتشعر الناس به" فيتكلم الحارس، ويكون جميع اتباع جراند قد أكملوا صعودهم إلى البرج فيصيح هؤلاء صيحة واحدة يدخلون الرعب إلى جميع سكان أهل المدينة، ويقتلوا ويسلبوا أهلها، وكان جراند قد غدر بمدن إسلامية كثيرة على هذه الشاكلة، مثل مدينة باجة كما مر أعلاه عام ٥٥٧هـ / ١١٦٢م ومدينة يابرة^(٢) وقاصرش إلى الشمال من بطليوس، وحصوناً عديدة مثل حصن جلمانية على مقربة من بطليوس، وحصن منتانجش إلى الشمال من بطليوس، وكانت المدينة الأكثر تضرراً هي مدينة بطليوس، ولذلك نال أهلها المسلمون من آذاه الشيء الكثير^(٣).

(١) ويذكر اسمه عند الإسبان جيرالدو سمبارو، أما ابن صاحب الصلاة فينعتة بالكلب Giralada؛ المن بالإمامة، ص ٢٧٤.

(٢) وهي مدينة قديمة من كور باجة بالأندلس، وتنتهي إليها أحواز باجة حوالي مئة ميل؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٦٣٧.

(٣) المن بالإمامة: ابن صاحب الصلاة، ص ٢٨٨-٢٨٩.

وكان أن حدثت واقعة تعد غريبة من نوعها وهي التجاء فرناندو المسيحي صاحب ترّجالة^(١) إلى الخليفة أبو يعقوب الموحي وهو بمراكش، وفرناندو هذا هو صاحب النفوذ والمكانة المرموقة عند المسيحيين، وصهر الإمبراطور ألفونسو السابع ملك قشتالة وصاحب طليطلة، وقد وضع فرناندو نفسه وأخوته تحت تصرف الخليفة الموحي، وأعلن استعدادة للتحالف معه، حيث أقاموا عند الخليفة بمراكش خمس أشهر، استطاع الخليفة أن يضمّن إلى جانبه، وقد ذكر ابن صاحب الصلاة أنه كاد سيدخل في الإسلام من سياسة الخليفة يوسف في استقطابه إليه، لأن هذا سيكون بمثابة الحليف المساند للعساكر الموحدية على جبهة الأندلس، وكان ممن انضم إلى فرناندو صاحب ترّجالة أيضاً فرناندو المعروف بالبيوج^(٢) ابن ألفونسو السابع صاحب السبطاط، وذلك بسبب مسألة الخلاف على العرش، وقد قطع البيوج على نفسه وعوداً في تقديم العون والدعم للموحدين، لاسيما ضد ألفونسو هنريكيّز صاحب قلمريّة^(٣) وصنيعته جرانده الجليقي^(٤).

د- جهود الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على جبهة الأندلس:

١ قتال الموحدين ألفونسو هنريكيّز ملك البرتغال بالتعاون مع فرناندو الثاني:

(١) مدينة بالأندلس كالحصن المنيع، أسوارها وأسواقها عامرة، رجالها مشتهرين بالإغارة على بلاد الروم، ويغلب كما ذكر عنهم صاحب الروض التلصص والخداع؛ الحميري: الروض المعطار، ص ١٥٥.

(٢) وهو ابن ألفونسو السابع المعروف في المصادر الإسلامية بالسليطن، والبيوج هو لقب قد أطلق عليه، وكان هذا اللقب شائعاً في العصور الوسطى للتحقير أو التصغير، وفرناندو البيوج هذا قد حضر معركتي الأرك والعقاب، والبيوج تعني الشخص الذي يسيل لعبه من فمه باستمرار؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٠٣-١٠٤.

(٣) مدينة عظيمة ومشهورة من بلاد البرتغال، على جبل مستدير، عليها سور حصين ولها ثلاثة أبواب غاية في الحصانة، كثيرة الكروم والتفاح، ومكانها جبل من تراب لا يمكن القتال عليه، ونهرها عليه أرحاء كثيرة، وبين قلمرية وشنترين ثلاث مراحل، وبينها وبين البحر اثنا عشر ميلاً؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٩٣.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٢٨٥.

كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عالماً بأعمال ابن الرنك صاحب قلمرية وصنيعته جراند الجليقي في اعتداءهم السافر على المناطق الإسلامية المتاخمة لممتلكات صاحب قلمرية، وكان عدداً من أسرى الموحدين قد وقعوا في قبضة ابن الرنك عندما سيطر على مدينة بطليوس^(١) التي وقعت في قبضته، لذلك قام الخليفة أبو يعقوب بتجهيز جيش موحد ضخم عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م لإرساله إلى تلك الناحية من بلاد الأندلس، واستنفاذ بطليوس من أيدي المسيحيين و رفع الحصار عن الموحدين المتواجدين داخل قصبتها مع متوليها الشيخ عمر بن تمصيلت، وكان أن خرج الخليفة مع جموع الموحدين يتقدمهم أبي حفص الهنتاتي إلى إشبيلية، وعندما استعد الجيش الموحد لتخليص بطليوس من اعتداءات ابن الرنك، وصلتهم الأنباء حول وصول جيش من قوات صاحب سمطاط وآبله وهو فرناندو الببوج عازماً على دفع ابن الرنك عن جهات بطليوس وأنه جاء حامياً للمسلمين، وقبل وصول فرناندو إلى ابن الرنك وجنوده البرتغاليين أرسل رجلاً يخبر المسلمين الذين كانوا بالأسر داخل القسبة يعلمهم بقدومه لنجدتهم ويطمئنهم ويحثهم على الصبر والثبات، وكيف يقدموا له النصيح على التخلص من ابن الرنك وعساكره، واستطاع الموحدون ممن كانوا داخل القسبة عمل ثلثة في السور مكنت فرناندو الببوج وعسكره الدخول إلى داخل القسبة، وتقاتل فرناندو وعسكره مع عساكر ابن الرنك والموحدون يقاتلون معهم ويعينوهم في قتالهم هذا، ولاحت المعركة عن تغلب فرناندو وعسكر الموحدين على ابن الرنك وعساكره، قرر ابن الرنك الفرار من أرض المعركة منهزمين متزاحمين عند باب بطليوس للنجاة بأنفسهم، وكان أن انضغطت فخذ ابن الرنك اليمنى عند عمود ممدود عند باب المدينة، فسقط ابن الرنك مغشياً فعليه، فحمله أصحابه، ولكن جنود فرناندو الببوج أخذوه أسيراً، وسرحوه إلى بلاده ذميماً مهزوماً، ويكون فرناندو قد أوفى بعهده الذي قطعه على نفسه أمام الموحدين، وبذلك تمكن الموحدون من استرجاع بطليوس وإعادتها إلى أملاك الدولة الموحدية، وبعث

(١) مدينة بالأندلس من إقليم ماردة، بينهما أربعون ميلاً، حديثة العهد ابتناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي، وهي مدينة جلييلة في بسيط من الأرض، وربضها كبير ولها نهر تقوم عليه يدعى الغور، لأنه يحمل السفن ثم يغور تحت الأرض، وينتهي بجريانه إلى حصن مارنلة، ويصب بالقرب من جزيرة شلطيش؛ الحميري: الروض المعطار، ص ١١٥.

الشيخ أبو حفص برسالة إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن يخبره بهذا الانتصار (١).

٢ غزوة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وبذة:

كانت مدينة وبذة (٢) إحدى المدن الأندلسية صاحبة الموقع الاستراتيجي، وكانت قد دخلت تحت سيطرة الإسبان، ولذلك كان توجه يوسف بن عبد المؤمن من أجل استرجاعها واسترجاع الحصون القريبة منها، وانطلق الخليفة الموحي مع عساكر الموحيين من إشبيلية عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م إلى قرطبة، عازماً على غزو وبذة، وهو في طريقه إلى وبذة تسلم حصن بلج من الإسبان حيث كان ابن مردنيش قد أعطاه للنصارى عندما وقعت الفتنة بينه وبين ابن همشك، وكان لهذا الحصن مناعة كبيرة وموقعاً فريداً، وكان تسليم هذا الحصن بوساطة إبراهيم بن همشك الذي أصبح من أتباع الموحيين، ووكّل الخليفة أبو يعقوب ابن همشك على إدارة شؤونه، واتجه الخليفة بعد استلام هذا الحصن إلى حصن آخر يدعى حصن ألكرس وكان هو الآخر قد سلمه ابن مردنيش للنصارى عند خلافه مع ابن همشك، وتنازل الإسبان عن هذا الحصن أيضاً وسلموه للموحيين، وكذلك فقد كلف الخليفة ابن همشك بإدارته والإشراف عليه أيضاً، وجدّ الخليفة أبو يعقوب مع عساكر الموحيين بالسير إلى مدينة وبذة، وبالقرب منها دمروا حصناً آخر للنصارى عند وادي خمل كان الإسبان قد سكنوه، ففتحه الموحدون ودمروه بعد ذلك كأن لم يغنى بالأمس، وكان ذلك على مرأى من الإسبان من سكان وبذة، فقام هؤلاء بالخروج بعتادهم للقاء الجيش الموحي وحدثت معركة بين الطرفين، كان التغلب فيها للعسكر الإسلامي، ولكن القوة العربية المتواجدة مع عسكر الموحيين لم تكن على حماس كبير وجدية في القتال، مما

(١) للاطلاع على مضمون هذه الرسالة؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٢٩٢-٢٩٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٠٥-١٠٧.

(٢) وهي مدينة من أشهر مدن الأندلس، تقع على وادي بالقرب من أقليمش، عليها أرحاء كثيرة، وبقرها قرية يقال لها بنتيج ينعد ماؤها فيصبح حجراً أصفر في الوعاء، وينعد على أسنان أهلها فتصفر أسنانهم وتسبب الحصى لهم؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٦٢٩.

جعل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن يجد في الإسراع إلى المدينة وصعد الجبل المطل على المدينة، وأعاد تنظيم الصفوف وقرعت طبول الحرب، واستطاع الموحدون تحقيق نصر بدائي على القوات المسيحية عند منطقة سور المدينة، ودخلت العساكر الموحدية إلى أرباض المدينة ودورها، ونصبت للخليفة أبي يعقوب خيمة اجتمع فيها مع أخوته، وقسموا الجيش إلى عدة أقسام، وضعوا عليه أخوة الخليفة أبا يعقوب وكبار الشيوخ، وكان القشتاليون على الجانب الآخر قد صنعوا حفراً خارج خندق المدينة وجعلوا عليها زرباً من خشب، واتصل سير الموحدون إلى تلك الحفر، واشتبكوا مع القشتاليين وفروا منهزمين، ولم يتبقى إلا من كان بالجانب الغربي من السور، ولكن الموحدون لم يتابعوا القتال بنفس الوتيرة، ووقفت قواتهم عند السور، وحاول بعض من كان بداخل المدينة الخروج لطلب الأمان ولكن قوبل ذلك بالرفض مرتين، ولم تعد هناك همة من الموحدين في متابعة فتح وبذة، وكان الحال مقتصرًا على مناوشات متفرقة، وأعطى يعقوب ابن الخليفة أوامره بالانسحاب ورفع الحصار عن المدينة، وحرق البرج الذي بناه الموحدون لقتال القشتاليين وآلات الحصار، وانسحب الجيش الموحي عن مدينة وبذة، مما شجع القشتاليين على مهاجمة الجيش الموحي أثناء انسحابه، وأمر الخليفة العسكر بصد الهجوم ريثما تكتمل عملية الانسحاب، وهنا تكمن تساؤلات عديدة حول موقف الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حول انسحابه هذا، وكل معطيات المعركة تشير إلى أن النصر كان قاب قوسين أو أدنى، لماذا لم يتابع الموحدون تقدمهم نحو وبذة واستخلاصها من أيدي القشتاليين؟ لماذا لم يقبل الخليفة الأمان لإعطائه لأهل وبذة وأخذ المدينة بالأمان وكان قد عرض عليه ذلك؟ وهذا ممكن جداً، ولا يكلفه قوة أو معدات أو عساكر؟

ويحاول المرء إعطاء أجوبة أو تعاليل حول إقلاع الخليفة الموحي عن قتال وبذة، والارتداد عنها بهذه الصورة، وربما هذه التفسيرات لا تكون شافية إلا أنها ممكن أن تكون مقبولة، فإنه من خلال الرجوع إلى ابن صاحب الصلاة وابن عذاري المراكشي، فالمؤرخان يذكران أنه خلال حصار عسكر الموحدين للمدينة هبت رياح قوية عاتية اقتلعت الخيام، وجاء من بعدها مطر غزير، مما أفرع الناس وأعاق حركتهم في القتال، وهذا بدوره تسبب في حدوث الفوضى في معسكر الموحدين، وعدم الانضباط في قتالهم، والشيء الآخر وهو الأكثر أهمية هو وجود

التفكك وعدم التنسيق الكافي بين أفراد الجيش الموحد، لاسيما إنّ العناصر العربية قد أحجم قسماً منها عن القتال، في وقت كان الجيش أحوج ما تكون فيه إلى العناصر التي تقاوم معه ولا تلتزم الحياد وقت الحاجة إليها، وهذا بدوره أضعف وحدة الصف، والروح المعنوية عند الجنود، بالرغم من الأعداد الكبيرة التي ضمتها فئات الجيش الموحد، بالإضافة إلى قلة المؤن اللازمة لعملية تمويل الجيش، وذلك بسبب الأعداد الكبيرة للعناصر المشتركة في هذه الغزوة^(١)، وهنا يخرج المرء بنتيجة مفادها بأن فشل الموحدين في هذه الغزوة يعود إلى عدم وجود القادة الأكفاء الذين يحسنوا إدارة المعركة كما ينبغي أن تكون، وفقدان التنسيق بين قادة الموحدين وبين عناصر الجند الذين ضمهم الجيش الموحد.

بعد أن انسحب الجيش الموحد عن وبذة اتجه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى مدينة قونكة (قونكة) وهي مدينة إسلامية وعمارتها إسلامية أيضاً^(٢)، ووصل الخليفة مع عسكر الموحدين إلى وادي شوقر وهو على بعد ميلين من قونكة، وكانت المدينة محاصرة من قبل القشتاليين، وعندما علم هؤلاء بقدوم طلائع الجيش الموحد أقبلوا عن الحصار واتجهوا نحو موقع قريب عن المدينة يدعى ألبورت، وعندما دخل الخليفة مع عساكر الموحدين إلى المدينة استقبله الأهالي، وعليهم علامات الجوع والتعب بسبب الحصار، فأغدق الخليفة عليهم بالعطاء، وأعطاهم كل ما يحتاجون من المؤن والدواب، وعاین الخليفة على مقربة من المدينة جيش القشتاليين الذين كان يخيم عند الموقع السابق ألبورت، وكان على رأسهم ملك قشتالة ألفونسو الثامن، ونونة دي لارا صاحب طليطلة، ولذلك أرسل الخليفة قوة بقيادة أبو العلاء بن عزون لمعرفة قوة الجيش واستعداداته، وتدافع أبو العلاء بن عزون مع القشتاليين ثم عاد إلى الخليفة، وكان الاتفاق على القتال في اليوم

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤١١-٤١٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) لقد ذكر ابن صاحب الصلاة وصفاً دقيقاً لمدينة قونكة بقوله: "مدينة قونكة قصبته شاهقة الارتفاع، يحيط بها من الغرب وادي شوقر، بأجراف ومنحدرات حادة لا يمكن الوصول منه إليها، ومن شرقها وادٍ آخر غاية في المنعة يصبان في بحيرة عظيمة يستقي الناس منها بجانب السور، ويدخل إلى المدينة بقنطرة عظيمة إلى جانبيها برجان عظيمان مانعان للواديان"؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤١٤-٤١٥.

التالي، واستعد الموحدون للخوض في معركة جديدة مع جيوش قشتالة، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، إذ وجد الموحدون بأن القشتاليين ألقوا من مكانهم وغادروا إلى مناطقهم، وانصرف الخليفة مع عسكر الموحدين أيضاً إلى بلنسية وإشبيلية من أجل تزويد الجيش بما يلزم من المؤن والعتاد^(١)، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

٣^٢ الحرب مع قشتالة والقضاء على صاحب آبله وتمرده:

كان صاحب آبله^(٢) من أكبر أصحاب الفتن على العرب المسلمين في الأندلس، وكان يدعى القومس شان منوس، وهو معروف بلقب الأحذب النصراني صاحب آبله عند أهل الثغور، وكان يشن الغارات في شرق الأندلس وغربها على ديار العرب المسلمين حتى يصل إلى طريف^(٣) والجزيرة الخضراء، وفي عام ١١٧٣م / ٥٦٨هـ قصد إشبيلية متوجهاً نحو الوادي الكبير، وجاز مع قواته نحو استجة^(٤) وجنوب قرطبة، واستطاع أن يغنم أعداداً كبيرة من الأغنام والأبقار وأسرى من المسلمين، ومضى بهذه الغنائم قاصداً طريق العودة، ووصل خبر هذا الأحذب إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الذي جهز العساكر الموحدية من إشبيلية أخويه أبا يحيى زكريا وأبا إسماعيل إبراهيم على مقدمة ذلك الجيش الذي تألف من وجوه العرب والبربر، وكانت خطة الجيش الموحي تقضي باللاحق بجيش المسيحيين بقيادة الأحذب والقضاء عليه واسترجاع مانهبه من الغنائم

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤١٧-٤١٩.

(٢) Avilla: وهي مقاطعة من مقاطعات مملكة قشتالة القديمة، خضعت للسيطرة الإسلامية عند الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، ولكنها عادت باكراً إلى حكم القشتاليين عام ١١٤٥هـ / ٧٦٣م، وهي بالمساحة ٨٠٤٧ كيلومتراً مربعاً؛ أرسلان: الحلل السندسية، ج ١، ص ٣١٩.

(٣) جزيرة مشهورة تقع على البحر الشامي في أول المجاز على البحر الشامي، وهي مدينة صغيرة عليها سور من تراب، ويشقها نهر صغير، وفيها حمامات وفنادق، وبينها وبين الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤١٤.

(٤) وتلفظ إستجة وهي اسم لكورة من كور الأندلس متصلة بين الغرب والقبلة من قرطبة، واسعة الرساتيق والأراضي على نهر سنجل وهو نهر غرناطة، وبينها وبين قرطبة عشرة فراسخ؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٧٤.

وأُسرى المسلمين، وخرج الجيش الموحي من إشبيلية نحو قرطبة، وخرجت قوات من الجيش الموحي من قرطبة بقيادة الشيخ أبي حفص، وانطلقت الفرسان من العرب والموحيين برفقة صاحب يابرة واسمه موسى بن حمو الصنهاجي الخبير بتنقلات المسيحيين وتحركاتهم وكان يخبر الموحيين بها، وبات الأحب ومن معه من القشتاليين عند فحص قريب من قلعة رباح المشهورة يدعى فحص كركوي، ووصل الخبر للموحيين بتخيمهم هناك، وهنا استعجل الموحدون للقاء الأحب وعساكره وحدث الصدام بين الفريقين، مما جعل الأحب يغادر المعركة ملتجئاً إلى الجبل القريب، وقد ذكر ابن صاحب الصلاة قول الأحب لأتباعه عندما صعد الجبل " أنا قاعد في خبائي في رأس هذا الجبل بحيث أراكم وأنظر فعلكم"، ولكن عساكر الموحيين لم تمهلهم، وتدفخوا مع عساكر القشتاليين إلى شعاب ذلك الجبل، واستمرت المعركة بوطيسها المحتدم إلى بعد منتصف ذاك النهار، ولاحت بؤادر النصر للموحيين، واستطاعوا هزيمة القشتاليين، والوصول إلى مكان الأحب وقتله وحز رأسه، وقتل جميع من كان معه، وقد ذكر ابن صاحب الصلاة بأن من استطاع أن ينجو بنفسه من هذه المعركة نحو المئتي فارس فقط، وفاضت أيدي الموحيين وأثقلت بالغنائم، واستطاعوا فك أسرى المسلمين الذين كانوا قد وقعوا في الأسر، وحمل رأس الأحب إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى إشبيلية، وكان هذا الانتصار من أفضل الإنجازات التي حققها الموحدون في هذا المضمار لما كان لذلك الرجل من شرور عظيمة ^(١).

٤ غزو الموحيين طلبيرة وطيطة وعقد الصلح مع الممالك المسيحية:

لقد كان النصر الذي حققه الموحدون على الجيش القشتالي بقيادة القومس الأحب من العوامل المشجعة التي دفعتهم إلى شن الغارات الأخرى على جيوش المسيحيين في أمكنة أخرى، فقام الجيش الموحي بإرسال الميرة من إشبيلية إلى بطليوس برفقة أربعة آلاف فارس، وكانت هذه الميرة تحتوي ثلاثة آلاف دابة وأحمال من القمح والشعير والدقيق والزيت والآلات، وقد سلمها الموحدون إلى واليها أبي غالب بن أبي الحسين بن الموصلي، وتحركت العساكر

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمة، ص ٤٢٨-٤٣٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٢٥-١٢٦.

الموحدية بعد ذلك قاصدة طلبيرة مدينة تقع إلى الغرب من طليطلة فانتسفو زروعها وأغاروا على بطاحها، وغنموا منها غنائم كثيرة أكثر من ثلاثين ألفاً، وعادوا سالمين وقتلوا من رجال قشتالة من قاتلهم، وقام هذا الجيش بغزو آخر إلى نواحي طليطلة ودخلوا أرباضها، وسلبوا منها غنائم كثيرة، وكانت هذه الغزوات التي شنها الموحدون على أراضي قشتالة لها أثراً كبيراً في إذعان ملوكها لطلب الصلح، وإقامة الهدنة مع الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن، وكان أول من عقد الصلح مع الموحدين صاحب طليطلة نونيو دي لارا، والملك ألفونسو الثامن الذي يذكر في المصادر الإسلامية ظئر أذفونش الصغير وكان ذلك عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م، وحمل ذلك صاحب قلمرية ألفونسو هنريكيـز على عقد صلح مع الخليفة الموحي على غرار الملوك المسيحيين السابقين، وبهذا الصلح يستطيع أن يتفرغ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى إعمار ماتخرب من البلاد وإسكان المسلمين في الأماكن في المناطق الفقيرة من أرض جزيرة الأندلس، وكذلك هذا الصلح يخفف أذى المسيحيين عن مدن الأندلس والمسلمين^(١).

٥ القضاء على جراند الجليقي (جيرالدو) صنيعة ألفونسو هنريكيـز:

لم يكن جراند يوقف اعتداءاته المتكررة على المناطق الغربية من الأندلس المتاخمة لممتلكات صاحب قلمرية، وكان دائم الاعتداء والإغارة من حين لآخر، ولكن عندما عقد ألفونسو هنريكيـز صلحاً مع الخليفة الموحي، لم يعد بإمكانه القيام بالاعتداء والغزو والنهب على ديار المسلمين، ورأى جراند أنه في مصلحته الدخول في طاعة الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن، وفعلاً أرسل إلى الخليفة أبي يعقوب بأنه يريد أن يدخل في طاعته هو وأتباعه عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م، وقد قبل الخليفة أبي يعقوب منه ذلك، وأكرمه وأحسن مثواه، وأغدق عليه بالعطاء، إلا أن ذلك لم يرق إلى ألفونسو هنريكيـز سيده السابق، فأرسل إليه سراً لكي يتحايل ويرتد عن موقفه الأخير اتجاه الموحدين، ولكن هذه المراسلات شاء القدر لها أن تقع في قبضة الموحدين، وبدا واضحاً من خلالها عدم ولاء جراند للموحدين، وارتياحه في موقفه اتجاههم، وقبض الموحدون عليه وعلى أصحابه، وأرسلوه إلى سجلماسة، وحاول جراند الفرار من مكان اعتقاله،

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤٣٦-٤٣٧.

ليعبر البحر، والقدر لم يمكنه من ذلك، فألقي القبض عليه، واحتجز الموحدون رأسه، وكانت بذلك نهايته، وهو الذي فعل الأفاعيل والقتل بالمسلمين وهذه نهاية كل جبار وطاغية (١).

٦ قتال الموحدين فرناندو الببوج ملك ليون صاحب السبطاط:

كان فرناندو الثاني الببوج صاحب السبطاط (ريدريجو) قد أعلن تحالفاً واضحاً مع الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن قبل أن تعقد هدنة الموحدين مع ملوك المسيحيين منذ عام ٥٦٤هـ / ١١٦٩م، وكان ذلك التحالف وثيقاً، إذ أنه قدم المساعدة والعون للموحدين أثناء حصار الفونسو هنريكيز إلى مدينة بطليوس وكادت هذه المدينة أن تسقط بيده لولا تدخل فرناندو الببوج كما مر ذلك سابقاً، وقدم الموحدون له العون عندما تقاثل مع زعماء قشتالة آل لارا زعماء قشتالة، وأرسل له الخليفة أبو يعقوب هدية فقبلها منه، ولكن فرناندو من غير أي من الأسباب نقض هذا العهد، وقام بهجوم مباغت على أراضي الأندلس، مما جعل ذلك الخليفة يستشيط غضباً وقرر غزوه في عقر داره، فأرسل له جيشاً كبيراً من إشبيلية بقيادة أخيه أبي حفص عام ٥٧٠هـ / ١١٧٤م، وقد سار أبي حفص إلى قاعدة ملكه ريدريجو (السبطاط) ولكنه لم يستطع أن يدخلها، وتمكن أن يستولي على حصنين هما القنطرة وناضوش، وكان ذلك نصراً جزئياً (٢).

هـ- الحرب مع الممالك المسيحية بعد عودة الخليفة أبو يعقوب إلى مراكش:

١ عودة الخليفة إلى مراكش:

كان الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن قد قرر مغادرة الأندلس، والتوجه إلى عاصمة ملكه مراكش بعد أن أمضى بالأندلس خمسة سنوات متواصلة، وكان قد اطمأن على أحوال الأندلس خاصة بعد أن عقد هدنة مع ملوك ممالك إسبانيا المسيحية، وضمن على الأقل تحييد أذيتهم واعتداءهم المتكرر على مسلمي الأندلس، وغادر الخليفة إشبيلية عام ٥٧١هـ / ١١٧٦م بوداع أهل الأندلس له وخاصة بنو همشك وبنو مردنيش الذين أصبح لهم المكانة العالية والخاصة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٣٠.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٣٠-١٣١.

عند الخليفة أبي يعقوب، واتجه منها إلى طنجة، ومنها إلى مراكش، ولكن عودة الخليفة إلى مراكش لم تكن تتميز بالهناء والرخاء، فقد أصاب البلاد وباء الطاعون في مراكش، وتفشى هذا الوباء بشدة لم تكن معهودة من قبل، ونزل هذا المرض بأسرٍ كثيرة، وتوفي الكثير من أهل مراكش لاسيما خواص الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أبي عمران، وأبي سعيد، وأبو عبد الله، وزكريا صاحب بجاية، وأعظم قواد الموحدين أبي حفص بن يحيى الهنتاتي وقد توفي في طريقه إلى مراكش عندما خرج من قرطبة قاصداً مراكش فكانت وفاته في رباط الفتح بسلا ودفن هناك، وطال مرض الخليفة أبو يعقوب وأخيه أبو حفص وكادا أن يهلكا لولا عناية الله بهما حيث تعافى الخليفة وأخاه، واستمر هذا الوباء عاماً كاملاً حتى عام ٥٧٢هـ / ١١٧٧م^(١).

٢٠ نقض الملوك المسيحيين الصلح المبرم مع الخليفة بعد عودته إلى مراكش:

كانت الهدنة التي عقدها ملوك الممالك الإسبانية مع الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن هشةً بحيث أنها لم تستمر طويلاً، فحالما علم ملك قشتالة، وصاحب طليطلة، وملك البرتغال رحيل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى مراكش حتى قاموا بنقض الهدنة مع المسلمين، وأول من قام بنقضها هو صاحب طليطلة نونة دي لارا وقام بالتحرك مع قواته إلى مدينة قونكة، وكان أهل المدينة قد أرسلوا للخليفة أبي يعقوب يستغيثونه من خوف سقوط مدينتهم بأيدي القشتاليين، فأرسل الخليفة إلى أخويه الحسن وعلي واليا إشبيلية وقرطبة بأن يتحركوا إلى جهات طليطلة وقرطبة، لكي يقلع نونة ومقاتليه القشتاليون عن مدينة قونكة ويرتدوا عنها، وفعلاً تحركت جموع الموحدين من قرطبة إلى جهات طليطلة بقيادة أخ الخليفة أبو الحسن علي بن عبد المؤمن على رأس أربعة آلاف فارس، ووصل الجيش إلى جهات طليطلة فغزاها وغنم وعاد سالماً، وخرجت أيضاً قوات إشبيلية بقيادة أخ الخليفة أبو علي الحسين بن عبد المؤمن إلى جهة طليطلة واستطاعت أن تفتح حصناً على وادي التاجه، وعاد الموحدون بغنائم وأسرى كثيرة إلى إشبيلية، ولكن تلك الحركة التي قصد منها الخليفة أبو يعقوب الموحدي الضغط على

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٣٥-١٣٦.

صاحب طليطلة لكي يقلع الحصار ويرتد عن مدينة قونكة لم تعط ثمارها، واستمر نونة دي لارا في حصار قونكة محاصراً إياها تسعة أشهر، واضطرت تلك المدينة اليائسة أن تواجه مصيرها، وسلم المسلمون مدينة قونكة إلى صاحب طليطلة بعد أن نفذت عندهم كل المؤن ووسائل الدفاع عام ٥٧٢هـ/١١٧٧م، وجرياً على العادة فقد حول جامعها إلى كنيسة^(١)، وهذه أحد الأخطاء التي ارتكبتها الموحدون في مسألة حصار قونكة، فلو أن القوتين العسكريتين من قرطبة وإشبيلية توجهت مباشرة إلى قونكة لكان ذلك أفضل بكثير، وحال دون سقوط المدينة بيد القشتاليين، ويبقى هذا رأي من قبل الباحث.

وكان الملك الآخر الذي تمرد ضد الموحدين هو فرناندو الثاني الببوج الذي انطلق إلى إشبيلية ووصل إلى مناطق في عمقها مثل شريش^(٢) ونظر أركش، ولكن الموحدون قاموا من إشبيلية وتبعوه، والتقوا مع جملة من عساكر البرتغاليين فقتلوه عن آخرهم، وأخذت الغنائم التي كانت بأيديهم من الأبقار والأغنام، وسبق من هؤلاء العسكر ثمانون أسيراً وضربت رقابهم أمام مرأى من الناس^(٣)

وحذى ملك البرتغال ألفونسو هنريكي즈 حذو الملكين السابقين، فقام بنقض الهدنة التي عقدها مع الخليفة الموحي، فقام بابتداء عدوانه على مدينة باجة عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م، وانتسف زروعها، وبطش بأهلها وفر أكثر أهلها عنها إلى مدينة ميرتلة، وجاز ابن الرنك باجة إلى نواحي إشبيلية، ووصل إلى الناحية الغربية منها، وعاد إلى بلاده عن طريق باجة بعد أن أصبحت قفراً، وأخذ متولي شؤونها عمر بن تمصيلت أسيراً مع عدد من عساكر الموحدين، وأعدمه في آخر الأمر عام ٥٧٤/١١٧٨م^(٤).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٣٧.

(٢) مدينة بالأندلس من كور شذونة وهي قاعدة هذه الكورة، وتدعى أيضاً شرش؛ ياقوت: معجم البلدان، مج ٣، ص ٣٤٠.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٣٨-١٣٩.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٣٤-١٣٥.

وكانت ردة فعل الموحدين على ذلك هذه المرة من جهة البحر بأن كلف الخليفة الموحي رئيس الأسطول الموحي غانم بن مردنيش^(١) بمهاجمة شواطئ البرتغال، وفعلاً تحرك غانم بن مردنيش واستطاع الوصول إلى قبالة أشبونة وسيطر على سفينتين برتغاليتين، وعاد إلى مقره في سبتة، ورد البرتغاليين على ذلك بأن هاجموا جزيرة شلطيش الواقعة قبالة ولبة وأسرت كثيراً من المسلمين وافتردهم الخليفة الموحي، وكان الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن أن قرر إنفاذ حملة بحرية إلى شواطئ البرتغال، وعهد إلى غانم بن مردنيش وأخيه أبي العلاء بالقيام في تلك الحملة، وخرج غانم بن مردنيش يقود الأسطول الموحي، وسارت هذه الحملة البحرية إلى مياه البرتغال الشمالية عند مدينة سان مارتن دي بورتو شمالي أشبونة، وحاول غانم بن مردنيش مهاجمة هذه المدينة التي تقع على مقربة من الشاطئ، ولكن حاكمها استنفر أهل شنترين والمناطق الشمالية، وعملوا كميناً للجيش الموحي في إحدى المناطق الجبلية، استطاعوا الإيقاع به وأسر قائد الأسطول غانم بن مردنيش وأخيه أبي العلاء، واستولى البرتغاليون على السفن الموحدية وكل ماتحتويه من عتاد وأسلاب، وكانت هذه المعركة عام ٥٧٦هـ / ١١٨٠م، وقد أعطى هذا الانتصار البرتغاليين لكي يقوموا بهجوم جديد ونصر جديد على الأسطول الإسلامي الموحي في سبتة، فقاموا بحشد أسطول ضخم بقيادة الأميرال روبينو الذي تحرك بمسيرة الشاطئ قاصداً سبتة، ولكن حساباتهم هذه المرة لم تكن في مكانها، إذ أن والي سبتة عبد الله بن جامع الذي تسلم مكان غانم بن مردنيش أثناء حلبة أسره جمع أسطولا من سبتة، وخرج أسطولا آخر من إشبيلية بقيادة أبو العباس الصقلي والتقى الأسطولان في جزيرة قادس، وحسب رواية ابن عذاري بلغ تعدادهم أربعين سفينة، وخرج هذا الأسطول من شلب

(١) كان غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلاء من قواد الأسطول الموحي، وقد انتصر غانم ابن مردنيش على الأسطول البرتغالي كما هو معلوم عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م، أسر في السنة التالية على أيدي البرتغاليين عندما كان يغير على أحد السواحل البرتغالية، وبنو مردنيش ينتسبون إلى قبيلة جذام اليمنية، ومن المؤرخين من ينكر نسبهم إلى العرب، وينسبهم إلى الأسر الإسبانية التي أسلمت، واسم جدهم الأعلى مردنيش أي مارتيني بالإسبانية Martinee وأول واحد أسلم من هذه الأسرة هو أحمد بن مردنيش، وكان فيه نزعة إسبانية لأنه يشبه بملوك إسبانيا في زيهم وعاداتهم وسلاحهم؛ المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٧٨.

والتقى بأسطول البرتغاليين في موضع اشتباكهم السابق، وبعد عام كامل تماماً من وقعة " بورتو دي موس " ونشبت بين الأسطولين معركة هي الأعنف من نوعها، هزم فيها البرتغاليين شر هزيمة، وقتل قائدها الأميرال روبينو، وأسر منهم ألف وثمان مئة، واستولى الموحدون على عشرين قطعة من سفنهم، ومن

الأمثلة والعتاد الشيء الكثير، وأخذت الأموال لافتداء قائد الأسطول غانم بن مردنيش بالإضافة إلى قسم من أسرى المسلمين، وانطبق على البرتغاليين المثل الذي يذكره المؤرخون دائماً " خرجت النعمة تطلب قرنين، فعادت بلا أذنين"، وحاول بعض المسيحيين من أهل شنترين الإغارة على المناطق المجاورة من الشرف المجاور لإشبيلية، ولكن عسكر المسلمين كانوا لهم بالمرصاد وتقاتلوا معهم، وكان الظفر لجند المسلمين (١).

٣ تمردات الممالك المسيحية في جميع جهات الأندلس عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م وجهود الموحدين في صداهم:

كانت الصراعات العنيفة بين الموحدين والممالك المسيحية وحروب الكر والفر هي الميزة الرئيسية التي سيطرت على الجانبين خلال هذه حقبة، لذلك كل اعتداء يقع على أحد الأطراف يقابله اعتداء مقابل من الطرف الآخر، وكان غدر الممالك المسيحية على المسلمين في أكثر جهة، فقام أهل شنترين وأشبونة بالاعتداء على قرية قريبة من إشبيلية هي شلوة قتلوا فيها خلقاً كبيراً من المسلمين، وأخذوا منهم أسرى، ونهبوا تلك النواحي، ومثل ذلك فعلوا في حصن القصر، وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة قد خرج لحصار قرطبة، واستطاع ألفونسو أن يأخذ شنتفيلة والمنار، وكان حصن شنتفيلة من أعظم حصون المسلمين وأمنعها، إذ أن هذا الحصن يتوسط الموقع بين إشبيلية وقرطبة، ولذلك قال ألفونسو الثامن: " عندما أخذ شنتفيلة، الآن أخذ قرطبة وإشبيلة"، وقام ألفونسو بشحنه بالرجال والسلاح والمؤن، فكانوا خمسمئة فارس وألف راجل، ونظراً لحرص الموقف على الموحدين، فقد قرروا الإسراع في استعادة هذا الحصن بأي ثمن، فخرجت عساكر إشبيلية بقيادة ابن الخليفة أبي يعقوب، وحاصرت العساكر الإسلامية حصن شنتفيلة، واستطاعت قوة عسكرية موحدية من مدينة قرمونة أن تصد هجوماً

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٤٥-١٤٦.

للنصارى عند مقربة من المدينة، وتأخذ منهم أسرى ضربت رقابهم أمام أبي إسحاق بن الخليفة أبي يعقوب، وكان حصار العرب المسلمين على حصن شنتقيلة ^(١) قد طال، وضاق القشتاليون بداخله ذرعاً بالحياة، فأصابهم المرض، والجوع، والموت، ولكن ألفونسو خرج من طليطلة لفك الحصار عن القشتاليين ممن كانوا بداخل الحصن، وفعلاً ألقع الموحدون عن الحصن، واستطاع ألفونسو دخوله، ولكنه لم يجد من رجاله سوى العدد اليسير، إذ أن الجوع والمرض قد أفنى معظمهم، فأخذ ألفونسو كل من تبقى من القشتاليين، وترك هذا الحصن خالياً لا أحد فيه وذلك عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ^(٢)، فكان ذلك يعد نصراً مبيناً للموحدين رغم عدم وقوع القتال.

٤، غزو الموحدین طليطلة:

لقد كانت مدينة طليطلة إحدى المدن المتفردة بالموقع الاستراتيجي من بين مدن الأندلس، سواء أكان ذلك من جهة الإسبان أو من جهة بلاد المسلمين، وطليطلة هي بوابة طليطلة الغربية، ومن يستطيع أن يستولي عليها فقد أصبحت طليطلة في متناول يديه بالرغم من حصانتها وارتفاعها، ولذلك فقد سير الخليفة أبو يعقوب القائد الموحي عبد الله بن وانودين مع عسكر إشبيلية إلى مدينة طليطلة، وكانت خطة الموحدین تقتضي باكتساح حصن بثة ومهاجمة طليطلة من ناحية هذا الحصن، وقد ذكر ابن عذاري المراكشي المؤرخ الموحي بأن الضباب قد ساعد الموحدین في هذا الهجوم، حيث لم يمكن القشتاليين من رصد تحركاتهم جيداً، لا سيما أن هذي النواحي لم يجرء أحد من المسلمين على التجول فيها منذ زمن بعيد، وفي طريقهم التقوا بسرية من القشتاليين تقدر بعشرين فارساً فاكتسحوها إلا فارساً واحداً تمكن من الفرار وأبلغ القشتاليين بقدوم المسلمين فأسرع المسلمون بالتحصن في مكان مرتفع، واستعد الإسبان للقاء المسلمين ولم يبقَ منهم شيخاً كبيراً أو طفلاً إلا وخرج معهم، بالإضافة إلى القساوسة الذين أخذوا بتشجيعهم وضمان النصر لهم، وهنا قام القائد الموحي عبد الله بن وانودين برفع الروح

(١) ويلفظ اسم هذا الحصن كلمتين شنت فيلة يقع على جبل عال، وسكن هذا الحصن البربر منذ الحقبة الباكورة للسيطرة الإسلامية على الأندلس؛ أرسلان: الحل السندسية، ج ١، ص ٩٠.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٤٥-١٤٧.

المعنوية عند المقاتلين، واستشاط همهم، وأخذ عليهم الأيمان والمواثيق في الثبات والإقدام، وكان عمل ابن وانودين هذا موفقاً، فقد حمل المسلمون على الجيوش الإسبانية حملة رجل واحد مزقت صفوفهم وأفشلت ريحهم، فولوا منهزمين منقطعي الدابر، وبلغ من قتلى القوات الإسبانية مايزيد على العشرة آلاف فارس، ومن اليهود نحو الألف، وكان هذا نصراً كبيراً قد تحقق للموحدين، وعاد الجيش سالماً إلى إشبيلية (١).

هـ غزو الخليفة أبو يعقوب مدينة شنترين وإخفاقه في فتحها:

قرر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن التحرك إلى غزو شنترين المدينة الحصينة ذات الخيرات العظيمة وعاصمة دار الإسلام في غرب الأندلس، وكان قد ازداد أذى نصارى شنترين على العرب المسلمين في المناطق القريبة منها، فكانت هذه محاولة منه لرد الاعتداء وإعادة شنترين إلى سابق عهدها كما كانت دار الإسلام والمسلمين في الغرب الأندلسي، فانطلق الخليفة أبو يعقوب على رأس الجيش الموحي بعد أن جاز إلى الأندلس، وتجهزت العساكر الموحدية مع الوفود التي قدمت من الأندلس وانضمت إلى الجيش الموحي، وكانت بأفضل زي لها على حد قول المؤرخ ابن عذارى المراكشي، وانطلق الخليفة بالعساكر المظفرة من إشبيلية صبيحة يوم الخميس من السادس والعشرون من صفر لعام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، وأمر الخليفة العساكر بالاجتماع على باب مدينة شنترين لكي يعرفوا أحوالها وكيفية الدخول إليها، وكان نزول الخليفة على الجبل المطل على مدينة شنترين، وألقى الجيش الموحي الحصار على المدينة وكان حصاراً محكماً بحيث لم يتمكن أحد من سكانها من الخروج، واستطاعت العساكر الموحدية هدم الرض المتصل بسور المدينة، وانتصروا على عساكر البرتغاليين الذين كانوا في الرض، مما أعطاهم اندفاعاً كبيراً لكي يتقدموا في الهجوم على المدينة، ووقع القتال في اليوم التالي ووقع الكر والفر في المعركة، وصدرت الأوامر من الخليفة على الانسحاب ورفع الحصار، وهذا شيء يثير الجدل ويبعث أيضاً على الاستغراب من قرار الخليفة الموحي بسحب هذا الجيش العرمم من الفرسان والمقاتلين من أرض المعركة ورفع الحصار عن المدينة التي احتاجت قليلاً من الصبر والمثابرة

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ص ١٤٩-١٥٠.

لكي تسقط بيد الموحدين، وهذا الأمر قد كرره يوسف بن عبد المؤمن عندما أمر أصدر أوامره بالانسحاب من حصار مدينة وبذة كما مر سابقاً^(١).

٦ ارتداد الخليفة عن مدينة شنترين ووفاته:

عندما استعصت مدينة شنترين على الجيش الموحي، جاءت أوامر الخليفة للعساكر بالانسحاب، ولكن الجيش كان ينقصه التعاون، والتنسيق بين قاداته وعناصره المختلفة التي شكلت قوامه، كون التركيب القبلي للجيش شكل كل قوامه، ولذلك كانت هناك فوضى في عملية الانسحاب وكيفية، وكانت هذه الفرصة الذهبية التي كان البرتغاليون ينتظرون مثلها، فتوهمت العساكر الإسلامية بأن الخليفة أبا يعقوب قد ارتحل من أمام المدينة باكراً، من دون إعطاء أي سابق إنذار، ولم يكن لدى الكثير من القبائل المشاركة في المعركة بأن الخليفة مازال في مكانه لم يبرحه، وأنه قد وكل أمر انسحاب الجيش لابنه أبا يوسف يعقوب المنصور من أجل الحفاظ على سلامة العساكر ومنع حدوث الاعتداء من جانب البرتغاليين على المسلمين، ولكن الذي خشي منه الخليفة أبا يعقوب قد حدث، وهاجم فرسان شنترين الموحدين ونصبوا لهم الكمائن، واستشهد جملة من أشياخ الموحدين، ووجهاء الأندلس، وبعض أمراء بني مردنيش، فأمر الخليفة عساكره بتخريب الزروع وانتسافها أينما مروا عليها، وشن الغارات من أجل جلب الأتوات، وكان الخليفة أبا يعقوب قد جهز نفسه للرحيل قاصداً وادي التاجه وفي تلك الأثناء جاءت المنية، وقد تعددت الروايات الإسلامية التي ذكرت وفاته

فمن المؤرخين العرب المسلمين أمثال ابن الأثير الجزري، وابن عذاري المراكشي من يقول بأن أصابه مرض شديد، وتوافد الأطباء عليه وكانوا ملازمون له، وقد ازداد ضعفه، حتى صنعوا له سريراً ورواقاً يمنعوا عنه الهواء، وبعد أن جاوز وادي تاجه، جاءت المنية وكانت وفاته عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م، وهناك من قال: بأنه توفي عن ظهر دابته على طريق يابرة، حينما تفقده بعض خدامه، ومن المؤرخين المسلمين مثل عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب " المعجب " الذي ذكر وفاة الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن بأن سهماً قد أصابه وهو قائم في مكانه في شنترين، وتوفي نتيجة لجرحه البالغ، وكذلك ذكر ابن خلدون أنه

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٤٩-١٥٠.

توفي نتيجة لجرح بالغ أصابه، ويميل الطالب إلى الاحتمال الآخر وهو وفاة الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن نتيجة سهم أصابه أثناء رحليه عن مدينة شنترين^(١)، وهذا الأمر معقول الحدوث لأنه في ظروف كتلك الظروف والجيش في غاية التخبط والفوضى، والأعداء قد نصبوا الكمائن وبادر البرتغاليون بالهجوم على عساكر الموحدين أثناء انسحابهم، فإن إصابة الخليفة بسهم تسبب في مصرعه أمر ممكن الحدوث، ويبقى هذا تحليلاً يحتمل الصواب أو الخطأ ورأي من قبل الطالب.

و- إنجازات يوسف بن عبد المؤمن الحضارية:

كان الخليفة الموحي أبا يعقوب من أشهر خلفاء الموحدين علماً ومعرفةً، كما أنه تصدر الخلفاء الموحدين في الإعمار والبناء، وكانت منجزاته العمرانية خير دليل على حبه للبناء والعمران، وماتزال صومعة الخيرالدة وجامع إشبيلية الأعظم^(٢) من أروع الإنجازات الحضارية والأعمال العمرانية في إسبانيا هذه الأيام بالرغم من تغيير هويتها، إلا أنها ماتزال تحتفظ بقلبها الأصيل، ولذلك تستحق تلك المنجزات أن يتحدث المرء عنها ولو بسطور قليلة، لكي تكون تلك المعالم معروفة عند ابن المغرب والمشرق العربي على حد سواء.

لقد استغل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مرحلة الهدنة التي عقدها مع ملوك إسبانيا عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م، وعمل على تنفيذ الأعمال العمرانية خاصة في إشبيلية، فإنه كان يعطيها جلّ اهتمامه من ناحية أسوارها، أو قناطرها، أو بنا المدينة ككل، فقد ذكر ابن صاحب الصلاة المؤرخ الموحي الذي كان شاهد عيان على بناء جامع إشبيلية والصومعة، عملية البناء من أولها حتى نهايتها، فيذكر أنه في عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م أمر الخليفة أبو يعقوب الموحي بإقامة الجامع الكبير في إشبيلية، وكان جامع إشبيلية القديم لا يتسع للمصلين، فأمر الخليفة بهدم الجامع القديم والديار الملاصقة له، وأوكل الخليفة أبو يعقوب مهمة تخطيطه وإعمارها إلى المهندس البارع أحمد بن باسة ألمع مهندسي عصره علماً ومعرفةً بالبناء وهو الذي أشرف على عملية بناء مدينة الفتح على جبل طارق زمن الخليفة

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٣٢٥؛ المراكشي، عبد الواحد: المعجب ص٢٦٠-٢٦١؛

ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٢٧؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ص١٦٤-١٦٥.

(٢) ينظر إلى صورة الخيرالدة ص١٧٦.

عبد المؤمن بن علي، فكانت إشبيلية قد اكتظت بالبنايين والنجارين والعمال من جميع بلاد الأندلس ومن المغرب مثل مدينة فاس ومراكش، وبدأ ببناء المسجد في رمضان، وأنشأت بداية قواعده الضخمة من الحجارة والآجر، حيث أسست له أرجل معقودة متداخلة عميقة تحت الأرض، وكانت الآلات والمعدات التي استخدمت في هذا البنيان ضخمة من أجل الارتفاع في هذا البناء إلى أكبر قدر ممكن، وفعلاً كان بناء المسجد عظيماً، جاء في أجمل الصور الفنية التي أبدعتها عقلية العصور الوسطى، واستطاع المهندسون والبناؤون تغيير وجهة المجاري المائية التي كانت تسير تحت الأرض إلى مكان آخر، وكان هناك تصريف آخر للمياه التي ترد من المناطق المحيطة بالمسجد إلى وجهة بعيدة عنه، والأجمل من هذا وذاك منبره ومحرابه من أكثر أشياء المسجد جمالاً وغرابةً وأبهةً، وقد اتخذ من خشب الصندل والأبنوس ومعمول عليه صفائح من الذهب والفضة، وعليه أشكال من الذهب الإبريز، حيث تصبح مثل البدر في الليل الحالك، وكانت مقصورته من الخشب الفريد، وكان الخليفة بنفسه يشرف على بناءه متابعاً لأعماله حتى اكتمل بناؤه من جهاته الأربع، واستغرق بناؤه ثلاث سنين وأحد عشر شهراً، وأقيمت في هذا المسجد أول خطبة للجمعة من الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة عام ٥٧٧هـ/١١٨١م، وأول من أقام الصلاة فيه الشيخ عبد الرحمن بن عفير اللبلي^(١).

وكان قد ألحق بجامع إشبيلية الأعظم الصومعة العظيمة التي يطلق عليها الخيرالدة، ولم تكتمل عملية بنائها إلا زمن ابنه يعقوب أبا يوسف المنصور، وكانت هذه الصومعة من أفخم أبنية العصور الوسطى بهاءً، وجمالاً، والحق يقال عندما ذكرها ابن صاحب الصلاة: "تُعشي الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز، وبشعاع رونقها، ويتداخل الخبر مع الخبر"، كما أمر الخليفة يوسف بن عبد

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٣٨٢-٣٨٩، وقد ذكر صاحب الحل أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد أمر ببناء المسجد والصومعة سنة ٥٧٢هـ/١١٧٧م، ولكن هذا سنة الانتهاء من بناءه، لأن ابن صاحب الصلاة ذكر بأن المسجد والصومعة قد بدأ البناء بها سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م، واستمر البناء مدة أربع سنوات، وهذا يتفق مع صاحب الحل، وقد تم ذكر ذلك للإيضاح؛ ابن السماك: الحل الموشية، ص ١٥٧-١٥٨؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ٢١٠-٢١١.

المؤمن ببناء الأسواق الكبيرة والحوانيت إلى جانب الصومعة والجامع الكبير، ونقلت أكبر أسواق المدينة إليها مثل العطارين والخياطين وغير ذلك، مما زاد في تجارة هذه المدينة، وكذلك ازداد إقبال الناس على الأسواق فازدهرت تجارتها وعمرت (١).

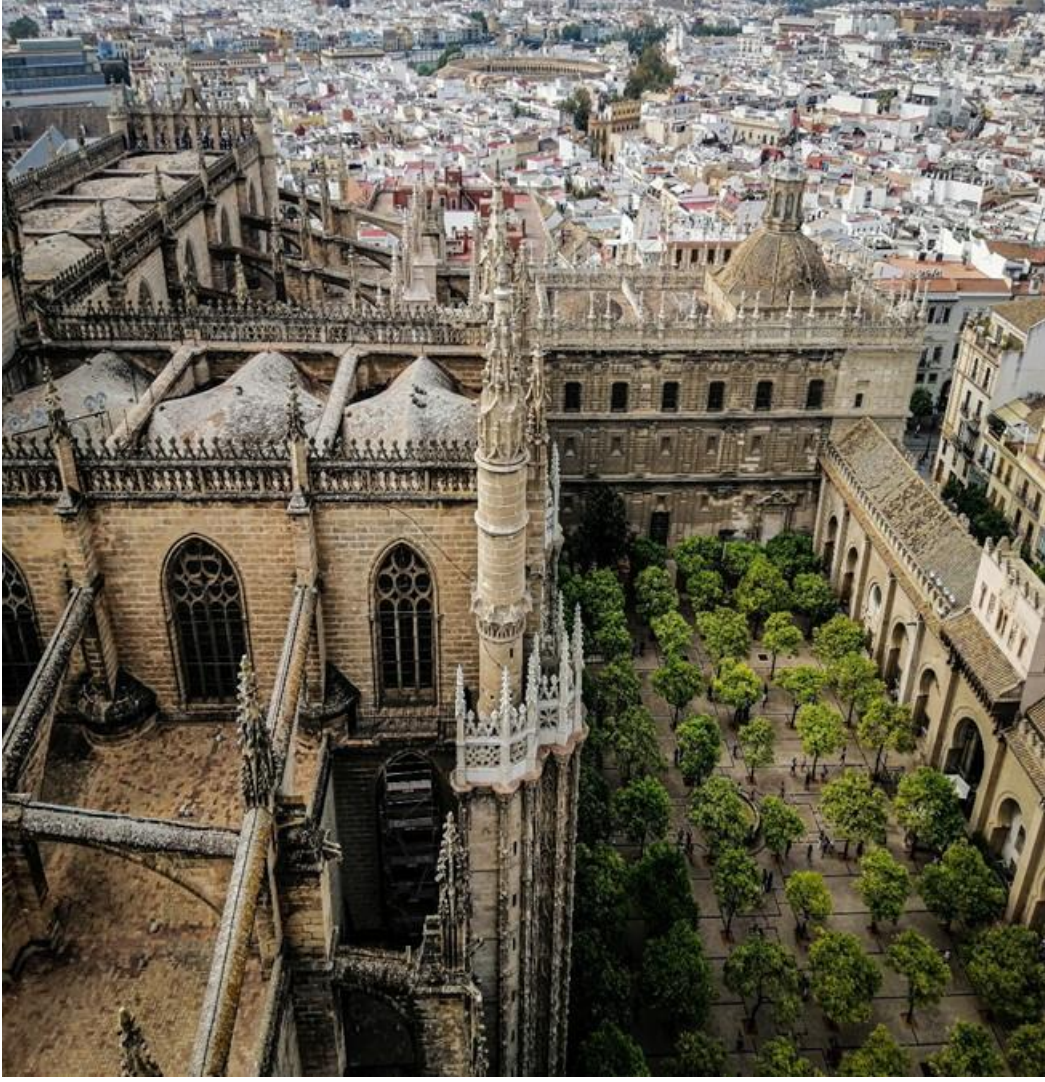
(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٣٨٢-٣٩٦.



صورة الخیرالدة فی الوقت الحاضر؛ منظر من الناحية الأمامية

بتصرف عن ویکیبیدیا؛

<https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/>



صورة الخيرالدة من الجهة العلوية الجانبية، بتصريف عن موقع ويكيبيديا؛

<https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/>

النتائج

يستنتج مما سبق مايلي:

١- سار يوسف بن عبد المؤمن على سياسة أبيه في الضرب على أيدي العصاة والتأثرين ضد الحكم الإسلامي الموحي في بلاد المغرب والأندلس، وقد استطاع المنصور أن ينهي الثورات التي اشتعلت ضد حكم الموحدين بشرقى الأندلس، والمتمثلة بإنهاء حكم وتمرد بني مردنيش التأثيرين شرقى الأندلس، وتحويلهم بسياسته الحكيمة إلى أتباع وجنود مخلصين في صفوف الجيش الموحدي.

٢- كانت الثورات التي نشبت زمن الخليفة أبو يعقوب في بلاد المغرب عبارة عن عصيان مدني للحكم الموحدي إن صح التعبير، ولم تكن هناك مقارنة بحجم الثورات والمخاطر التي لقيتها جيوش الموحدين في بلاد الأندلس.

٣- ازادت حدة الهجمات الصليبية المسيحية عمقاً وخطورة على الوجود الإسلامي في الأندلس زمن الخليفة أبي يعقوب الموحدي، فكانت الحروب لا تكاد تنقطع على جبهات القتال مع ممالك المسيحية في شمال وغرب الأندلس باستثناء زمن المهادنة مع ملوك إسبانيا مثل مملكة قشتالة، وليون، والبرتغال وغيرها من ممالك الشمال الإسباني.

٤- ظهرت قوة جديدة في الحوض الغربي للبحر المتوسط وهي قوة الأسطول الموحدي الذي أخذت قوى أوروبية المسيحية تحسب له الحساب، وأثبت الموحدون جسارة وقوة كبيرة أمام أساطيل المسيحية في الجزء الغربي من حوض المتوسط، وكان انتصار الموحدين على البرتغال في المعارك البحرية خير دليل على هذا، وذلك مرده للاهتمام الكبير من جانب الخلفاء الموحدين في زيادة قطع الأسطول، وإنشاء دور صناعة السفن في مدن المغرب والأندلس الساحلية.

٥- كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مقداماً لايتورع عن خوض غمار الحرب بنفسه، ولكنه لم يكن بشدة بأس والده وقوة شكيمته، إذ كان ميله إلى السلم أدعى من خوض الحروب عنده، وظهرت بعض الثغرات في قراراته عندما أعطى أوامره بالانسحاب عن مدينة وبذة، ومثلها عند حصار شنترين على الرغم من أن قوة الجند الإسلامي عظيمة كثيرة العدد والعتاد، ولكن عندما كانت تستدعي

الحاجة للحرب كان صاحب ثبات وعزيمة في ساحات المعارك، حتى إن وفاته كانت وهو يخوض حرباً مع مسيحيي شنترين كما مر ذلك سابقاً.

٦- كان يوسف بن عبد المؤمن رجل علم وبناء، محباً للعلوم والآداب، ورعاً تقياً، حريصاً كل الحرص على رفع الظلم عن العباد، وإعادة الحقوق إلى أهلها، محباً لفرض العدالة على الجميع، وكانت الأعمال العمرانية الفريدة التي بدأ أبي يعقوب بها وأكملها من بعده ابنه المنصور مثل المسجد الأعظم بإشبيلية والصومعة والأسواق المحيطة به والقناطر والأسوار تشهد على اهتمام الخليفة بالناحية العمرانية والمرافق العامة في البلاد، ويستطيع المرء أن يقول بأن ميول الخليفة أبي يعقوب قد كانت أندلسية أكثر منها مغربية، وبدا ذلك واضحاً في توجهاته وسياسته.

٢. أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠-٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٩م.

خلف أبو يوسف يعقوب المنصور أباه يوسف بن عبد المؤمن بعد وفاته بموقعة شنترين، وكان المنصور قد أخذ البيعة العامة من أهل الأندلس والمغرب عامة، وغادر إشبيلية إلى مراكش، وافتتح عهده بإزالة المنكرات مثل الخمر وكل المسكرات، وتهدد بعقوبة الموت لمن يشرب الخمرة، وأرسل بذلك كتباً إلى كافة البلاد، وكُسرت في عهده أواني كثيرة جداً من الخمر، وكان المنصور قد أجلس نفسه للاحتكام ومعرفة أحوال الناس عن كثب، والمنصور هو الذي قام بالتوسعة في مراكش، وجلب إليها كل ما يلزم من البنائين والصنّاع، والتي تعرف بحومة الصالحة (١).

وقد ذكر صاحب كتاب " المعجب " خصال المنصور النبيلة من سيرته الحميدة بقوله: " وكان في جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل، متحريراً له بحسب طاقته، وما يقتضيه إقليمه والأمة التي هو فيها، كان في أول أمره أراد الجري على سنن الخلفاء الأول ... " (٢).

وابتدأ المنصور أيام حكمه بداية طيبة بعد أخذ البيعة له، حيث قام بتوزيع مئة ألف دينار ذهبي من بيت مال المسلمين ووزعها للفقراء والمحتاجين، وأرسل إلى جميع عمال بلاده يأمرهم بتسريح من في السجون، وأكرم العلماء والفقهاء وقربهم إليه، وفرّق على جنده أموالاً كثيرة (٣).

وقد ذكر ابن أبي زرع وصفاً بليغاً لشخص الخليفة المنصور، وأيام حكمه التي نعم فيها القاصي والداني بالأمن والرخاء بقوله: " وكان ذا عزم ورأي ودين وسياسة، وهو أول من كتب العلامة بيده من الموحدين، " الحمد لله وحده"، فجاء عملهم على ذلك، وهو واسطة عقدهم الذي ضخم الدولة وشرفها، وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبنية حسنة، صنع الله في أيامه الأمن في

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٧٣-١٧٤.

(٢) عبد الواحد: المعجب، ص ٢٨٤.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢١٧.

المغرب والمشرق والأندلس، فكانت الضعينة تخرج من بلاد نول لمطة حتى تصل برقة لاترى من يعارضها ولا من يكلمها" (١)

وهذا الوصف من قبل أبي زرع هو إشارة إلى أن العصر الموحي زمن الخليفة المنصور قد بلغت الدولة فيه عصرها الذهبي، وأقصى درجات الأمن والرخاء، بالإضافة إلى الناحية العمرانية التي تابع فيها المنصور الأعمال العمرانية التي أنشأها والده يوسف بن عبد المؤمن، وزاد المنصور على ذلك ببناء المدارس في إفريقية والمغرب والأندلس والمارستانات، وأكمل يعقوب المنصور بناء مدينة الرباط التي خططها وشرع في تنفيذها والده يوسف بن عبد المؤمن، ولكن القدر لم يمهله إكمال ذلك، فتابع البناء يعقوب المنصور وانتهى من بناء أسوارها، وبنى فيها جامعاً واسعاً، وقد بالغ ابن أبي زرع في وصف اتساعه: "لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه"، وبنى له مأذنة غاية في العلو والارتفاع على شاكلة منارة الإسكندرية، وكانت هذه المدينة كبيرة طولها يقرب من فرسخ (٢)، وأكمل أيضاً صومعة جامع إشبيلية الأعظم، والأسواق المحيطة بها، ولذلك والحق يقال: "كانت أيامه زينة للدهر، وشرفاً لأهل الإسلام، ولم يزلوا أعزة فيها ظاهرين على العدو قاهرين له" (٣).

أ- أعمال يعقوب المنصور على الصعيد العسكري:

١ القضاء على تمرد بني غانية الملتثمين حكام الجزائر وجزر البليار:

افتتح الخليفة الموحي يعقوب المنصور أعماله بتوزيع الأموال على الفقراء والمحتاجين، والعفو والصفح عن المحبوسين، وكل ماتعلق بأعمال البر والعطاء والبناء، وكانت ذلك بادرة طيبة وموفقة من الخليفة عندما تسلم عرش الموحيين بعد وفاة والده، والعمل الآخر المحمود الذي قام به الخليفة هو متابعة بناء المنشآت العمرانية التي كان قد بدأ فيها والده يوسف بن عبد المؤمن التي

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢١٧

(٢) الفرسخ هو مقياس قديم من مقاييس الطول، ويقدر بطول ثلاثة أميال؛ مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ٢٠٠٤م، ص ٧١١؛ المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢١٧-٢١٨.

ذكرناها سابقاً، ولكن لم يكد الخليفة ينعم بالعهد الجديد حتى ظهر تمرد بني غانية من جديد في جزر البليار والجزائر، وكان بنو غانية قد التزموا الهدوء والحياد بالنسبة لجانب الموحدين زمن حكم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، حيث كان أبو إبراهيم إسحاق بن محمد بن غانية قد هادن الموحدين، واعترف بسلطانهم، وعندما أرسل إليه الخليفة أبو يعقوب يوسف إليه كتاباً عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م يطلب منه الاعتراف رسمياً بسلطان الموحدين ^(١)، عرض إسحاق الأمر على قومه ووجوه أصحابه فمنهم من قبل الاعتراف بسلطان الموحدين، ومنهم من رفض التبعية والاعتراف بسلطانهم ^(٢).

ولكن المؤرخ الغبريني يذكر في رواية أخرى تختلف بعض الشيء عما جاء به المراكشي، حيث ذكر الغبريني أنه عندما كان إسحاق بن غانية بجزيرة ميورقة، وجاءه كتاب من خليفة مراكش الموحي يطلب منه البيعة والدخول في طاعته، فامتنع عن البيعة، وكان بين يديه علي ويحيى، فقال للرسول: " أنا لا أراهم ولا يروني، ولكن قل للموحدين يهيئون ما ينفقون على على رأس هذين" وقد أشار إلى رأسي ولديه، فتركه رسول الموحدين ^(٣).

وهاتين الروايتين تحملان اختلافاً واضحاً حول علاقة بني غانية مع سلطان الموحدين، بين القبول في دخول بني غانية بطاعة الموحدين والاعتراف بسلطانهم، أو الرفض والإعراض عنهم.

وهكذا كان شأن بني غانية مستقلين بحكم مناطقهم التي كانت تحت نفوذهم من أيام المرابطين، وكانت جزيرة ميورقة هي المقر الرسمي لحكم بني غانية في شرق جزيرة الأندلس، ووصفها المؤرخ عبد الواحد المراكشي في كتاب المعجب بقوله: " وهذه الجزيرة- أعني ميرة- أخصب الجزر أرضاً، وأعدلها هواءً،

(١) لقد كان كتاب ألفرد بيل من الكتب المهمة التي تحدثت عن بني غانية بشكل خاص، وكان قد تضمن العلاقات السياسية بين الموحدين وأمراء بني غانية حكام الجزائر الشرقية، ودور بني غانية في إفريقيا؛ A.Bell: les Benuos Ghanya patis 1903.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٦٩.

(٣) الغبريني، أحمد بن أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، ط ٢، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٤٦.

وأصفاها جواً، طولها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخاً، اتفق أهلها على أنهم لم يروا فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت، من ذب أو سبع أو حية أو عقرب منذ أن عمرت، إلى غير ذلك مما يخشى ضرره، ويجاورها بالقرب منها جزيرتان تقربان منها في الخصب، تسمى إحداهما مُثْرَقَة و الأخرى يابسة^(١)، وقد كان اعتراف بنو غانية بسلطان الموحدين اعترافاً اسمياً ليس أكثر من ذلك، وكانت دعوة بني غانية للخليفة العباسي في بغداد.

وقبل الكلام عن إعلان بني غانية العصيان والتمرد على دولة الموحدين، فلا بد من الحديث عن القوة التي وصل إليها بني غانية، ومناطق نفوذهم في الجزائر، وعلاقتهم مع ممالك إسبانيا المسيحية ومدن الجمهوريات الإيطالية.

منذ اشتداد دعوة الموحدين المصامدة في الأندلس، تحسس ملوك بني غانية خطرهم على وجودهم في الأندلس، فقام محمد بن غانية بالخروج مع جموعه من الأندلس إلى جزر البليار الشرقية، واستطاع أن يملكها جميعاً، لاسيما أن بنو غانية قد تمكنوا من تأسيس ملك لا يستهان بقوته في منطقة المتوسط، باعتبارهم ورثة دولة المرابطين وحلفائها المخلصين، بالإضافة إلى أنهم كانوا يستقطبون كل العناصر من المغرب والأندلس الموالية للمرابطين والغير راغبة في الخضوع لسلطان الموحدين، كما أنهم أسسوا أسطولاً قوياً استطاعوا من خلاله أن يدافعوا عن ممتلكاتهم في الحوض الغربي من المتوسط في منطقة الجزر، خاصة من النشاط السياسي العسكري البحري لمدن جمهوريات إيطاليا وممالك المسيحية بالمتوسط، وخير ما يستشهد به الطالب هو كلام المؤرخ عبد الواحد المراكشي عندما ذكر نشاط إسحاق بن محمد بن غانية في البحر المتوسط وتعاضم قوته في الجزر بقوله: "وأقبل على الغزو وصرف عنايته إليه، فلم يكن له هم غيره، فكان له في كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم، يغنم ويسبي في الروم أشد نكاية، إلى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالاً، فقوي بذلك أمره وتشبه بالملوك إلى أن توفي في سنة تسع وسبعون ، وفي أولها وفي آخر أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن"^(٢).

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٦٨.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٦٩.

كان بنو غانية على إطلاع قريب على المتغيرات السياسية داخل الدولة الموحدية، وكان سَلَمهم مع الموحيدين سلماً يدعى في هذه الأيام سياسة النأي بالنفس وانتقاء شر الطرف الآخر إلى أن تحين الفرصة المناسبة للإنقضاض ولذلك كانوا يستغلون أية فرصة مواتية، ويقوموا بالتوسع على أراضي الدولة الموحدية، وقد وجد إسحاق بن محمد بن غانية الفرصة الملائمة، عندما فشل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في فتح شنترين، وارتد الجيش الموحيدي عن أسوارها، وتوفي الخليفة أبو يعقوب يوسف، ورافق ذلك فوضى كبيرة في صفوف الجيش الموحيدي، وكان التمزق والتفرقة قد سيطر على قلوب العسكر، والخليفة أبو يوسف المنصور قد انشغل بالقيام بالإصلاحات الناجمة عن تلك المعركة، ولذلك انتهز بنو غانية مثل هذه الفرصة، فقام علي بن إسحاق بن غانية بمهاجمة مدينة بجاية عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م^(١) بعد أن ضمنوا الموافقة من بعض أهلها الناقمين على حكم الموحيدين من بقايا أسر بني حمّاد، وحاول واليها الموحيدي التصدي لهذا الهجوم السريع، فقام بجمع الفرسان وأجناد العرب في تلك الناحية وتصدى لاعتداء بني غانية على مدينة بجاية، ولكن الأعراب الذين انضموا إليه مالبثوا أن تخلوا عنه والتحقوا بجنود الملتئمين، ولذلك فرّ والي بجاية مع عساكره إلى مراكش، وأبلغ الخليفة يعقوب المنصور بخطورة الموقف، والإسراع بإرسال النجادات السريعة لإسترداد بجاية من أيدي الملتئمين من بني غانية، ونجح علي بن غانية في دخول بجاية مع عساكره، وقتلوا من وجدوا فيها من الموحيدين، وأسرع علي بن إسحاق بن غانية إلى السيطرة على قلعة بني حماد فملكها والمناطق المحيطة بها^(٢).

(١) ذكر ابن عذاري وابن خلدون أن علي بن إسحاق بن غانية قد دخلوا بجاية عام ٥٨١هـ / ١١٨٤م، بينما ذكر ابن الأثير وعبد الواحد المراكشي بأن بني غانية قد دخلوا بجاية عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م؛ المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٧٠، ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٢٨-١٢٩، ابن عذاري: البيان المغرب، ص ١٧٧-١٧٩، ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٧٠-٢٧٢.

وأمام هذا الوضع المتدهور في مدينة بجاية، لم يتوانى الخليفة الموحي المنصور عن إرسال حملتين واحدة برية ^(١) والأخرى بحرية إلى بجاية، وكانت الحملة البحرية كبيرة بقيادة قائد الأسطول الموحي أبو العباس الصقلي يرافقه كبار الموحدون ووجهائهم، ووصلت الحملتان والتقتا في مدينة فاس، ثم تابعت طريقها إلى تلمسان، وكان لقدم القوات الموحية أثراً كبيراً على اختلال قوى بني غانية في بجاية وقلعة بني حماد، لاسيما إنَّ الخليفة الموحي قد بعث بالعفو والأمان والصفح عن الأهالي وكان ذلك أثره كبيراً على إخماد الفتنة، والإسراع في طيها، وحالما وصل قائد الأسطول الموحي أبو العباس الصقلي إلى مدينة بجاية، فتحت المدينة أبوابها، ودخل الجيش الموحي المدينة، وعمل أحد كبار الموحدين الشيخ ابن جامع وهو من أحد المقربين للخليفة أبي يوسف على منع الجند من نهب المدينة بحد السيف، وكان في المدينة أخوة علي بن غانية يحيى وعبد الله فارتحلا منها إلى قسنطينة التي كان أخوهم علي بن غانية يحاصرها حصاراً شديداً، وعندما سمع علي بن غانية بقدوم الجيش الموحي ارتحل عن قسنطينة متوجهاً إلى إفريقية، ونزل الخليفة المنصور بالقرب من بجاية وعين رجلاً من كبار الموحدين عليها هو محمد بن أبي سعيد الجنفيسي، وجهاز المنصور جيشاً عظيماً إلى تونس عين عليه رجلاً من أسرة بني عبد المؤمن يعرف يعقوب بن عمر، وبقي الخليفة المنصور بالقرب منها، وسار هذا الجيش والتقى مع عسكر بن غانية، ولكن رعى الأقدار مكنت بني غانية من عسكر الموحدين ودارت الهزيمة عليهم، فانهزم الموحدون شر هزيمة كما يقول المراكشي في المعجب " هزيمة قبيحة"، وتبعتهم العرب والبربر يقتلونهم في كل مكان، وهلك قسماً منهم عطشاً، والبقية التي كتب لها الحياة عادت إلى الخليفة المنصور في تونس، ولم يثن ذلك عزيمة المنصور في القضاء على تمرد الملتهمين من بني غانية، فخرج هو بنفسه وجمع جيشه وسار إلى جموع علي بن غانية فلقاهم في موقع يدعى حامة دقيوس، فاستطاع المنصور التغلب على بني غانية وكسر شوكتهم، وأثن فيهم قتلاً، فخرج علي بن غانية فاراً بنفسه، ولكن عاجلته المنية في خيمة عجز أعرابية، ولذلك اجتمع الرأي على تعيين يحيى بن غانية زعيماً لهم بعد وفاة أخيه

(١) ذكر ابن الأثير أن تعداد هذا الجيش نحو عشرين ألف مقاتل؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١٠،

علي بن غانية، إذ كان يحيى رجلاً شهماً شجاعاً، ولكن دعوة الموحدين كانت قد انتشرت في ميورقة عاصمة ملك بني غانية، والذي قام بأمرها هو أخوه محمد بن إسحق، ولكن أخيه عبد الله بن إسحق قد استطاع الدخول إلى ميورقة، وأعاد شؤون الحياة السياسية كما كانت تحت سيادة بني غانية، ونفى أخيه محمد بن إسحق إلى الأندلس، وهناك لاقى هذا الأخير اهتماماً كبيراً من جانب الموحدين، وقد عينوه حاكماً على مدينة دانية وبقي فيها حتى وفاته، ويخلص المرء بنتيجة مفادها أن الخليفة الموحي استطاع تقليص نفوذ بني غانية كثيراً، كما أنه استطاع وضع حدٍ لتمردهم في المغرب الأدنى والأوسط، ولكنه لم يتمكن من القضاء نهائياً على دولة بني غانية ونفوذها في المتوسط^(١).

٢ القضاء على الثائر المتمرد على الموحدين المدعو بالجزيري:

ظهر رجلاً في مدينة مراكش زمن الخليفة يعقوب المنصور يدعى بالجزيري وهو رجلٌ كان عالماً بالمتشابه من الروايات حافظاً لها، وكان يثير الجدل والفتنة أينما حل بين العامة، ويدعو الناس إليه ويعبث بأفكارهم فأصبح له أتباع كثير، وكان اختلاطه أكثر ما يكون بالعامة من الناس، فوصل خبره إلى الخليفة المنصور وهو بإشبيلية، فأمر المنصور بطرده من البلاد، وكان الجزيري في أرض مراكش، ولكن عمال المنصور في المدينة لم يتمكنوا من القبض عليه، إذ كان الجزيري ماهراً بالاختفاء عن الناس، والتنقل بين المدن، فكان أن ظهر فجأة في مدينة فاس، وتمكن متولي مدينة فاس الموحي من القبض على أتباعه، وقتل قسماً منهم ونفى قسماً آخر، واتسعت فتنة هذا الرجل وعبر الأندلس، وتداولت سيرته الألسن، وظهر في مدينة مالقة، واستطاع عامل المدينة الموحي القبض عليه وعلى أتباعه، ولكن القاضي المسؤول عنه أفرج عنه لقاء رشوة قبضها من الجزيري، فكانت عقوبته بالضرب بالسوط بعدد الدنانير التي أخذها لقاء الرشوة، وغاب الجزيري على الأنظار، وظهر مرة أخرى في مدينة مرسية، ولكن في هذه المرة تم القبض عليه وسيق إلى إشبيلية، وطيف به على الجميع، فكان يكذب كل

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٧٥-٢٧٦.

ما ينسب إليه، ولكنه اعترف بكل الأباطيل والأكاذيب التي لفقها ونشرها بين العامة، فعذب وصلب في نهاية الأمر^(١).

٣ استرداد مدينة شلب والمناطق المحيطة بها من منطقة الغرب:

كانت معركة شنترين التي قصد الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فتح مدينة شنترين والمناطق المحيطة بها، قد أعطت ملك البرتغال ألفونسو هنريكي _ كونه قد خرج من هذه المعركة منتصراً_ دافعاً كبيراً لأن يتقدم في عدوانه على المناطق المجاورة له من ديار الإسلام، ويتوسع على حساب أملاك الدولة الموحدية، وكانت وفاة ألفونسو هنريكي بعد مدة يسيرة من وفاة الخليفة أبو يعقوب يوسف، والذي تابع مملكته ابنه الملك سانشو وهو المعروف سانشو الأول، وتابع سانشو هذا طريق والده في العداء ومهاجمة المسلمين، وكانت أخبار عدوانه على الحصون والمدن المجاورة لا تخفى على الخليفة يعقوب المنصور، وكان الخليفة المنصور مشغولاً بمسألة الإصلاحات، وتمرد بني غانية، بالإضافة إلى أن القوات الموحدية في الأندلس بحاجة إلى التنظيم والترتيب، وقليلة العدد، ولذلك تمهل الخليفة المنصور في إرسال جيش كبير إلى مدينة شلب والمناطق المجاورة لها لاسترجاعها، ولذلك لا بد الوقوف قليلاً عن سقوط تلك المدينة بيد البرتغاليين والتعريف بها، وكيف استطاع البرتغاليون دخول المدينة على الرغم من حصانتها وعلوها الشاهق.

تقع مدينة شلب إلى الجنوب الأقصى من أرض البرتغال على البحر المحيط، وهي من أكثر بلاد المسلمين حصانة ومنعة مثل باجة ويابرة من بلاد الغرب الأندلسي، وتقع هذه المدينة على ربوة مرتفعة على نهر دراد الذي يصب في المحيط الأطلسي، وحول هذه المدينة تكثر الغابات والأشجار خاصة أشجار الزيتون، وخير وصف لهذه المدينة هو وصف الحميري في "الروض المعطار" عندما ذكر هذه المدينة بقوله: "... وهي بقبلي مدينة باجة، ولها بسائط فسيحة وبطائح عريضة، ولها جبل عظيم منيف كثير المسارح والمياه، وأكثر ماينبت فيه التفاح العجيب يتضوع منه روائح العود إذا أرسلت فيه النار"^(٢)، ثم يذكر الحميري

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٢٠٨.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٣٦٤؛ المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٨٠.

وصف المدينة والأسواق والسكان : " والمدينة في ذاتها حسنة الهيئة، بديعة البناء، مرتبة الأسواق، وأهلها وسكان قراها عربٌ من اليمن وغيرها، وكلامهم بالعربية الصريحة، وهم فصحاء يقولون الشعر، وهم نبلاء خاصتهم وعامتهم، وأهل بوادي هذه البلدة في غاية الكرم لا يجاريهم فيه أحد... " (١).

لقد كانت هذه المدينة والحصون المحيطة بها محط أنظار ومطامع صاحب البرتغال الملك سانشو الأول ابن الملك ألفونسو هنريكيز، ولم يتردد سانشو الأول في مهاجمة تلك النواحي من بسائط الغرب الأندلسي، خاصة بعد إخفاق الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن في فتح شنترين وارتداده عنها، وكان هذه المرة قد تحالف مع القادة الصليبيين ووصلته إمدادات كبيرة ولكن هذه المرة من جهة القوات الصليبية المتجهة إلى الشرق من أجل إنقاذ الموقف الصعب للصليبي المشرق بعد الضربة الموجهة للمؤسسة العسكرية الصليبية بعد معركة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، ووصلت هذه القوات عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩م إلى المياه الإسبانية، وتحديداً قبالة مدينة شنت ياقب (٢)، ولكن مسيحيي المدينة خافوا على مدينتهم وكنيستهم من نهب هؤلاء، فقاتلوهم وطردوهم عن قبالة شواطئ مدينتهم فتوجهوا نحو الجنوب، وسار أيضاً أسطولاً آخر من بلاد الإنجليز والفلاندر ودفعت به الرياح إلى شاطئ أشبونة، وكانت هذه فرصة لاتعوض للملك سانشو الأول، فأحسن استقبالهم وأكرمهم وتحالف معهم واعدأ إياهم بالأسلاب والغنائم التي سيحصلوا عليها من غزو قواعد الجنوب الإسلامي الأندلسي، ولذلك توفرت عند الملك سانشو الأول أعداداً كبيرة من المقاتلين يستطيع مهاجمة تلك الجهات من أراضي المسلمين، وقام سانشو عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩م بإرسال قوات برية إلى جهات شلب، وسار أسطول صليبي آخر بمحاذاة شاطئ البرتغال إلى الجنوب من ثغر بورتماو على المحيط جنوب مدينة شلب، وأول ما هاجمته تلك القوات

(١) الحميري: الروض المعطار، ص ٣٦٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢١٩.

(٢) تلفظ أيضاً شنت ياقوب أي القديس يعقوب، ويعقوب هذا هو يعقوب الحواري الذي قتل في بيت المقدس، فوضعه تلامذته في مركب، فجرى ذلك المركب في البحر الشامي ثم إلى البحر المحيط، واستقر أخيراً في هذا الموضع الذي عرف باسمه على ساحل البحر المحيط، وبنيت على قبره كنيسة عظيمة تعرف بكنيسة شنت ياقب، ويقصدها الجميع من بلاد الروم والقسطنطينية والفرنجة؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣٧٠.

الصليبية البرتغالية هو حصن ألبور الذي يقع إلى الغرب من ثغر بورتماو، وقتلوا جميع من فيه من المسلمين، ثم تابعت العساكر الصليبية زحفها حتى وصلت إلى أرياض شلب، وانتسفت زروعها وحاصروا المدينة بكل طاقاتهم، وحاول سانشو الأول اقتحام المدينة أكثر من مرة ولكن محاولاته هذه باءت بالفشل، وضربها بالمنجنقات والنبال ضرباً شديداً، ولم يتمكن من دخول المدينة، وصمد أهل المدينة أمام الحصار الشديد ورغم كل محاولات الجنود الصليبيين فتح ثغرات في الأسوار، ولكن استدل سانشو على نبع المياه الذي يزود المدينة بالمياه، وكان أهل مدينة شلب قد نصبوا عليه برجاً للدفاع عنه، فقام الصليبيون بمهاجمة هذا البرج، وجرت معركة عنيفة غير متكافئة مع المسلمين ظفر بها الصليبيون، واستطاعوا قطع الماء عن المدينة، وكانت هذه هي الضربة القوية لأهل المدينة لأنهم سيهلكون عطشاً فضلاً عن الجوع، فقاموا بمراسلة سانشو ملك البرتغال وعرضوا عليه تسليم المدينة مقابل الأمان لأنفسهم وأمتعتهم، وقبل سانشو هذا العرض، ولكن سمح لهم بالخروج فقط بأنفسهم دون أي متاع^(١)، ودخل البرتغاليون المدينة بعد ثلاثة أشهر من الحصار الشاق ونهبوا جميع مافيها، وكان سقوط شلب ضربة مؤلمة في صدر الخليفة الموحي المنصور نظراً للموقع الخطير الذي تقع فيه المدينة، لقربها من إشبيلية أهم أركان قواعد الأندلس الإسلامي آنذاك، ومن هنا كان حرص الخليفة المنصور استغلال أي ظرف من الظروف المواتية لإعادة شلب ومحيطها إلى أملاك الدولة الموحدية الإسلامية، وكان الخليفة المنصور قد قاد بنفسه حملتين إلى شلب الأولى كانت عام ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م سار الخليفة المنصور من إشبيلية إلى قرطبة، وأوعز إلى والي قرطبة أن يسير بعسكر الموحيين من إشبيلية إلى شلب، وتزامن ذلك مع وصول الأسطول الموحي إلى ثغر بورتماو على المحيط الأطلسي، ووصلت عساكر الموحيين إلى مدينة شلب وألقت عليها الحصار، بينما قوات المنصور المتواجدة في قرطبة

(١) ذكر المؤرخ يوسف أشباخ في كتابه " تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحيين " أنه لم يكن الأمان لكل الناس المحاصرين داخل المدينة، وأنه لم ينبج من القتل من سكانها وكان تعدادهم ستين ألفاً سوى ثلاثة عشر ألفاً وسبي الباقيون أو قتلوا، وقسمت الغنائم بين الصليبيين؛ أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحيين، مكتبة الخانجي، ط٢، القاهرة، ١٩٩٦م، ج١، ص٣٦٨.

خرجت من قرطبة بقيادة الخليفة يعقوب المنصور نحو الشمال الغربي على نهر التاجه، وكان خطة المنصور فيما يبدو تخفيف ضغط الملك البرتغالي سانشوا عن القوات الموحدية المحاصرة مدينة شلب، لاسيما إن حجم القوات المتوفرة بين يديه لا يستهان فيه بعد دعم الصليبيين له كما مر سابقاً، وهنا سيضطر هذا الأخير أن يحتجز جزءاً من قواته لمقاتلة الجيش الموحي الذي تحت قيادة الخليفة المنصور، وكان سير المنصور إلى الشمال من شنترين ثم قام بمهاجمة السهول المحيطة بها وانتساف زروعها، ثم تابع المنصور طريقه إلى ربوة مرتفعة، فحاصرها الجيش الموحي حصاراً محكماً، مما اضطر قائدها إلى تسليمها بالأمان، فقبل الخليفة بذلك العرض، ودخلها الموحدون وخربوها ودكوا أسوارها، فأصبحت اطلالاً، واستمر تقدم الجيش شمالاً حتى وصل مدينة طومار، وألقي الحصار عليها، ولكن دفاعات المدينة كانت قوية، وطال حصارها، وأصدر المنصور أوامره بالانسحاب لأسباب تتعلق بإمداد الجيش، وتوعك صحة المنصور، وقلة المؤن، وأمر المنصور قواته المحاصرة مدينة شلب بترك الحصار والعودة إلى إشبيلية، وكانت هذه المحاولة الأولى التي نفذها أبو يوسف المنصور من أجل استرجاع شلب والحصون المجاورة، أما المرة الأخرى التي قام فيها المنصور بغزو بلاد البرتغال فكانت انطلاقة أيضاً من إشبيلية، فجمع المنصور جموع الموحدين، وكل ماتستلزمه معدات القتال والحصار، بأن يكون الجيش كامل العتاد والسلاح، فخرج من إشبيلية عام ٥٧٨هـ / ١١٩١م، واخترق وادي يانة متجهاً أرض البرتغال، ووصل إلى قاعدة قصر الفتح (قصر أبي دانس) ذات الموقع المتميز جنوب شرق أشبونة، وهنا قام المنصور بتقسيم الجيش إلى فرق اختصت كل واحدة منها بمهمة معينة، فقامت فرقة العبيد بردم خنادق المدينة من جوانبها جميعاً، وأقبلت العساكر إلى جانب السور تريد إحداث نقب فيه استعداداً منها لاقتحام المدينة، ولكن المدافعون البرتغاليون اجتهدوا في إلقاء الحجارة والنبال على عساكر الموحدين، الأمر الذي دفع المنصور إلى إيقاف القتال ثلاثة أيام، ثم عاود الجيش اقتحام المدينة، وعبرت سفن الموحدين في النهر الذي يشرف على مدينة القصر، وتمكنوا من نصب المنجنوقات على أطراف المدينة، وتمكنوا نصب أعداداً كبيرة منها، وصدرت الأوامر في اليوم التالي بالهجوم ورمي المدينة بالمنجنوقات، وكان لهذه الأدوات أثراً كبيراً في إضعاف دفاعات المدينة إلى حد كبير، مما دفع القائمين عليها من عساكر البرتغاليين طلب الأمان والاستسلام، فقام المنصور بترتيب

شؤون هذا الحصن وشحنه بالرجال والسلاح، وخصص له مستلزماته وأجور تنفق على القائمين بأمره، وبعد حصن القصر توجه المنصور إلى الحصن الآخر وهو حصن قلمالة وهذا الحصن لا يقل أهمية عن سابقه، ولكنه أشد منعة وقوة، ولكن عزيمة المنصور على فتحه كانت أمتع وأشد، مما دفع البرتغاليين إلى تسليمه وطلب الأمان من الخليفة الموحي المنصور، فقبل المنصور عرضهم، ودخلته عساكر الموحيين وأخذت كل مافيه من أثاث ومعدات، وأمر المنصور بهدم هذا الحصن، ومثل ذلك كان مصير حصن المعدن ذو الارتفاع الشاهق، فسلبه الموحدون وهدموه كأنه لم يغن بالأمس، وأصبح أطلالاً تذروه الرياح، وبعد أن نظم المنصور قواته، انطلقت العساكر جنوباً حيث مدينة شلب من شهر جمادى الثانية عام ٥٨٦هـ/١١٩١م، وحاصروا المدينة من كل جانب بعد أن تمكنوا من ردم الخنادق المحيطة بها، وبدأت العساكر بدك أسوارها بالمنجنيقات الضخمة، وكانت دفاعات البرتغاليين متينة في بادئ الحصار، بحيث لم يتمكن الموحدون من إحراز أي تقدم، وكانت عساكر الموحيين تقف عند الأسوار، ولكن تمكن بعض العساكر من إيجاد ثلثة في السور المحيط بالمدينة، وكان الإعياء والتعب قد نال عساكر البرتغاليين فخلدوا ليلاً إلى الراحة، ولم يتوقعوا أن يقوم الموحدون بالهجوم فجراً، فتمكنت فرقة من العسكر أن تدخل من ثلثة السور، ورفعوا الرايات الموحدية على الأسوار، وتعالص صيحاتهم، واستيقظ سكان شلب على العساكر الإسلامية وهي داخل المدينة، مما تسبب ذعرهم فبادروا إلى التسليم وطلب الأمان، وأمهلم المنصور عشرة أيام لمغادرة المدينة، وفعلاً دخلت العساكر الموحدية المدينة وعادت شلب مدينة إسلامية كما كانت سابق عهدا في قبضة المسلمين^(١)، ورحل الخليفة عن المدينة بعد أن رتب شؤونها قاصداً إشبيلية، وبنى المنصور منزلاً عظيماً بمثابة الحصن خارج إشبيلية للدفاع عن المدينة و ماحولها من الأراضي من اعتداءات البرتغاليين المتكررة على ديار المسلمين^(٢).

(١) الناصري: الاستقصا، ص ١٨٤، ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٢٩.

(٢) لقد ذكر ابن أبي زرع أن القائد الذي أوكلت إليه مهمة فتح مدينة شلب لم يكن الخليفة الموحي يعقوب المنصور بل إن اسمه محمد بن يوسف والي قرطبة آنذاك، وذكر ابن أبي زرع أنه عاد إلى قرطبة ومعه خمسة عشر ألف أسير وثلاثة آلاف أسير، بينما ذكر ابن عذاري أن الخليفة المنصور هو الذي قاد الحملة إلى شلب بنفسه ووافقه مثل ذلك ابن =

وعاد الخليفة المنصور بعد نجاحه في تحرير شلب والحصون المجاورة لها إلى إشبيلية ثم غادرها إلى مدينة مراكش، ولكنه أصابه مرض اشتد عليه كثيراً فور وصوله إلى مراكش، وأشار عليه الأطباء بالانتقال إلى مدينة فاس، فحمل على محفة ونقل إلى فاس، وبقي أشهراً على حاله حتى تماثل للشفاء، وأثناء وجود الخليفة في مدينة فاس قام بدعوة الناس إلى مبايعة ابنه أبي عبد الله محمد الناصر ليخلفه بولاية العهد، وقد أخذ مبايعة الناس في المغرب والأندلس، وكان ذلك حرصاً من الخليفة على حصر الخلافة في بيته، وهذا بالطبع استمرار لسياسة الخليفة عبد المؤمن بن علي كما رسمها من قبل في حصر الخلافة بأيدي أسرته.

ب- معركة الأرك الأسباب والوقائع والنتائج : ١١٩٥/هـ - ١١٩٥ م:

لم يكن الجواز إلى الأندلس وقتال قوات ممالك إسبانيا المسيحية هو الهدف الذي كان الخليفة يعقوب المنصور يرمي إليه فور انتهائه من إعادة فتح مدينة شلب والحصون المجاورة لها، بل كانت خطة المنصور تقتضي بالتوجه بعساكر الموحدين إلى إفريقية لإخماد تمرد بني غانية الذي استفحل شأنهم مجدداً في إفريقية، فما الذي يا ترى قد دفع بالمنصور إلى أن يغير قراره، ويعيد ترتيب جيوشه متوجهاً إلى الأندلس بدلاً من إفريقية؟ ولذلك لا بد أن يتوقف المرء قليلاً للإجابة عن ذلك التساؤل وتقديم إيضاحات حول تلك الأسباب.

عندما تحرك الخليفة يعقوب المنصور من مراكش يريد إفريقية من أجل تأديب بني غانية بعد استفحال أمرهم في إفريقية، أرسل إلى عمال الأندلس بالحضور إليه، وعندما وفد عمال الأندلس وهو برباط الفتح أخبروه بأن الهدنة التي عقدها مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن ^(١) عام ١١٩٠ م قد انتهت، وأنه أرسل

= خلدون وهذا الرأي هو رأي أقرب للصحة في رأي الباحث ؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ، ص ٢١٩؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٢١٠-٢١٢؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٢٩.

(١) ألفونسو الثامن الذي يدعى النبيل ١١٥٥-١٢١٤ م ، وهو ملك قشتالة الذي اشتهر في حروب الإسترداد، وحروبه ضد المسلمين زمن الموحدين، وكان له دوراً كبيراً في تقليص النفوذ الموحيدي في بلاد الأندلس، وكان قد مني بهزيمة كبيرة أمام الموحدين في معركة الأرك العظيمة عام ١١٩٥/هـ - ١١٩٥ م، ولكنه تابع جهوده ضد المسلمين ولم تنته الهزيمة الموجعة أمام المسمين في الأرك أو تمنعه من مواصلة نشاطه ضد الموحدين في القيام بجمع =

عماله إلى جميع الحدود الإسلامية منذراً لهم بذلك، وكانوا يغيرون بين الحين والآخر على مناطق الثغور، ويعتدون، ويغنمون ثم ينصرفوا إلى بلادهم، حتى وصلوا في إحدى غاراتهم إلى القرب من إشبيلية، فضلاً عن إرسال ألفونسو الثامن ملك قشتالة واليه على طليطلة بقوات من القشتاليين للإغارة على أراضي الأندلس الإسلامي، وكانت تلك الغارات شديدة الوطأة على المسلمين، عاثت فيها فساداً وتدميراً، وسلباً، ونهباً، كل هذه الأنباء تتواتر على الخليفة المنصور وهو كان ينوي تأديب الثائرين بإفريقية، ولكن أنباء الأندلس التي بعثها عماله ووفود أهل الأندلس عليه، قد جعلته يعدل عن قراره في الذهاب إلى إفريقية وتغيير خط سيره إلى العبور للأندلس.

وقد ذكر المؤرخ الناصري صاحب كتاب "الاستقصى في أخبار المغرب الأقصى" نقلاً عن ابن خلكان بأن ألفونسو الثامن ملك قشتالة قد أرسل كتاباً إلى المنصور يتهدده ويتوعده، ويرمي إلى أهانتة وتصغيره، وعندما قرأه المنصور مزقه وكتب على إحدى قطعه آية قرآنية: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٣٧)، ثم كتب عبارة "الجواب ماترى لا ماتسمع"، وكان المنصور قد عقد العزم، وجمع الحشود، وقرر العبور مسرعاً للأندلس لمواجهة الجيوش التي حشدتها ألفونسو الثامن ملك قشتالة بالتحالف مع الممالك المسيحية الأخرى (٢).

= تحالف كبير من الأمراء الصليبيين في حملة ضد الموحدين والمعروفة بمعركة العقاب هزم بنتيجتها الموحدين هزيمة منكرة بقيادة الخليفة الناصر محمد الموحدي عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م، وكان لها دوراً كبيراً في التفوق المسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية؛

ألفونسو الثامن . ملك قشتالة <https://ar.wikipedia.org/wiki>

(١) سورة النمل: الآية ٣٧.

(٢) الناصري: الاستقصا، ج ٢، ص ١٨٦، وقد ذكر المؤرخ أبو القاسم المعروف بالشريف

السبتي بأن المنصور قد أبلغ صاحب الرسالة التي أرسلها إليه ألفونسو الثامن ملك

قشتالة بعد أن أمر بإيصاله إلى مليكه بقوله: " جواب صاحبك الغادر يتلقاه عن قريب؛

السبتي، أبو القاسم: رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، تح: محمد الحجوي، وزارة

الأوقاف في المملكة المغربية، ١٩٩٧م، ج ١، ص ١٤٩٩.

كانت الخطوة الأولى التي اتخذها المنصور بداية إعلان الجواز للأندلس أن سمح للفئات التي شكلت قوام عسكر الموحدين أن تعبر الأندلس واحدة تلو الأخرى، ولا يسمح بأن تعبر أكثر من واحدة في نفس الوقت من أجل تنظيم تمويل الجيش بكل عناية ودقة، وجعل على كل فئة من فئات الجيش الموحد قائداً من بينهم يتولى القيادة، وكان عبور الخليفة إلى الأندلس يوم الخميس عشرين من جمادى الآخرة عام ٥٩١هـ / ١١٩٥م، حيث توجه المنصور مع كبار أشياخ الموحدين إلى إشبيلية، وانتظر حتى استكمال عبور الجيش بأكمله إلى الأندلس، وهذه التحركات للجيش الموحدية لم تكن خافية بالطبع على ملك قشتالة، وكان هو من جانبه قد طلب العون من ملكي ليون ونافارا، وقد وعدها بتقديم العون له، وإرسال العساكر حين الطلب، ولكن ملك قشتالة لم ينتظر قدوم قوات الملكين السابقين، ومضى مع عساكره الكثيرة إلى طلبيرة، وكان ألفونسو الثامن قد شرع ببناء حصن جديد في منطقة من مناطق قلعة رباح تدعى الأرك، ومن هذه المنطقة أخذت القلعة تسميتها، وكانت أعمال منطقة الأرك تفصل بلاد العرب المسلمين عن بلاد مملكة قشتالة، أي مناطق حدودية بين البلدين، ولذلك كان اختيار ألفونسو الثامن ملك قشتالة لتلك المنطقة كي لا يسمح لأحد بالعبور إلى بلاده، فعكس بجنده في تلك المنطقة، وأخذ يتربص قدوم قوات الخليفة المنصور يعقوب الموحدي، وعلى الجانب الإسلامي فقد انطلق الخليفة المنصور وهو يفيض حماساً إلى لقاء أعدائه، كما ذكر ذلك ابن أبي زرع عندما قال: "... لم يدخل بلداً ولم ينتظر أحداً، ولم يلتفت لمن أبطأ ولا لمن قعد، بل صمم نحوه وقصد..." (١)، وقد تابع تقدمه حتى وصل على مقربة من أعدائه على بعد مرحلتين من الأرك، ولكن على الرغم من استعجال المنصور بالإسراع إلى عسكر ألفونسو، إلا أنه لم يقيم بأي هجوم مباشر قبل التشاور، والاجتماع بكبار القادة والشيوخ يستنصحهم ويرى الرأي المناسب في إعلان حربه ضد عسكر القوات المسيحية ومليكتهم ألفونسو الثامن، وكان التشاور مع أشياخ العرب، وثم أشياخ زناتة والمطوعة والقبائل، ثم كانت المشورة مع قادة قادة الأندلس، وهم أصحاب المشورة الفعلية لأن البلد بلدهم، وهم يعرفون الإسبانيين وحيلهم بالحرب أكثر مما يعرفها غيرهم،

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٢٣.

وكان الذي تولى ذلك القائد المحنك الصالح ابوعبد الله بن صناديد ^(١)، فقربه إليه الخليفة المنصور إليه وطلب مشورته، فكان جواب هذا القائد الفذ بأن يقدم الخليفة قائداً من قواده ممن عرف بقوته، وإخلاصه، ودينه على فرق العرب وزناته والمصامدة والمتطوعة، ويتوارى الخليفة وجند الموحدين عنهم بحيث لا يلحظ أعدائهم شيئاً من ذلك، فإذا كان الظفر بالمعركة لعساكر الإسلام فيكون قد تحقق النصر وهو المراد، وإن لم يكن كذلك ينقض الخليفة بعساكره من وراء ظهور المسلمين ويحمي مؤخرة الجيش المقاتل، ويكون العدو قد أنهكه القتال، وعساكر الخليفة تكون بكل طاقتها لم يعتريها التعب، فأعجب الخليفة المنصور بهذا الرأي ووافقه في ذلك، وهذا رأي في غاية الفطنة والذكاء.

وقد جاء في رواية ابن أبي زرع بأن الخليفة المنصور بات في تلك الليلة ساجداً راکعاً يصلي، وأنه استبشر خيراً بالنصر لرؤيا شاهدها في منامه، وكانت أولى الخطط التي بدأ الجيش تنفيذها في اليوم التالي بأن يكون الجيش الموحي بقيادة الخليفة المنصور، والجيش الذي يترأسه أبوعبد الله بن صناديد يسيران متتابعان، بحيث يتقدم جيش ابوعبد الله بن صناديد على جيش الخليفة، ويعسكر جيش الخليفة في المكان الذي كان الجيش الأول قد نزل فيه وغادر منه، وكان السير على هذا المنوال حتى اقتربت العساكر الإسلامية من عساكر قشتالة وهي في جانب حصن الأرك، وهنا قام القائد الموحي أبو يحيى بن أبي حفص بتعبئة العساكر الموحدية تعبئة الحرب، وأوقف كل قبيلة في مكانها، وقسم الجيش إلى الميمنة، وجعل فيها عسكر الأندلس، وكانت قبائل زناته ومصمودة والعرب ومعظم قبائل المغرب في الميسرة، والمتطوعة والرماة في المقدمة، وبقي هو القلب مع قبيلة هنتاتة، وكان هناك ثمة شيء آخر كان له دوراً كبيراً في رفع معنوية المقاتلين و همهم في القتال، وهو قيام القادة العسكريين في الطواف بين المقاتلين، يحثونهم على الجهاد والثبات، ووحدة الصف عند لقاء العدو، فقام أحد القادة العرب وهو جرمون بن رياح يمشي بين صفوف المقاتلين، ويتلو عليهم الآيات القرآنية التي

(١) أبو عبد الله بن صناديد القائد الأندلسي البارع المحنك صاحب الخطة الفذة الذكية التي أشارها على المنصور الموحي في أفضل الأساليب لتقسيم الجيش العربي الإسلامي الموحي، وكان الخليفة المنصور قد أخذ برأيه وحقق نصراً ساحقاً على ألفونسو الثامن ملك قشتالة؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٢٤.

تحت على الجهاد والنبات أمام العدو مثل الآية الكريمة: "قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَصُروُا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾" (١)، والآية الأخرى: "قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾" (٢)، وفعل الشيخ أبو يحيى بن أبي حفص مثل فعله، فقد أبلغ الناس بأن الخليفة يطلب منهم السماح والعفو منهم بقوله: "يقول لكم سيدنا أمير المؤمنين اغفروا له، فإن هذا موطن الغفران، وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم، وهو يقول لكم: إنما موضع غفران" فخشع الناس لهذا القول ورقّت قلوبهم، وقال الشيخ أبو يحيى أيضاً عندما شاهدة فرقة كبيرة من القشتاليين قوامها سبعة آلاف أو ثمانية آلاف فارس حسب رواية أبي زرع (٣) تهاجم مقدمة الجيش الإسلامي، وقد لبس هؤلاء الزرد والحديد وغير ذلك فقال للمسلمين: "معشر المسلمين اثبتوا في مصافكم، ولا تزالوا من مواضعكم، وأخلصوا لله تعالى نياتكم وأعمالكم، واذكروا الله عز وجل في قلوبكم، فإنما هي أحد الحسنين: إما الشهادة والجنة، وإما الأجر والغنيمة" (٤)، وفي هذه الأثناء وصلت فرقة كبيرة من عساكر الإسبان إلى مقربة من عسكر المسلمين، وتدافعوا إلى جهة القلب ظناً منهم أن الشيخ أبي يحيى وثبت المسلمون معه ثباتاً عظيماً، وتقاتلوا مع المنصور، فصمد الشيخ أبا يحيى وثبت المسلمون معه ثباتاً عظيماً، وتقاتلوا مع القشاليين، واستشهد الشيخ أبو يحيى ومعه جماعة من المسلمين، وصبر المسلمون في القتال أمام هذه الفرقة التي كانت تعد الصفوة في جيش ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وكان فرسان هذه الفرقة قد نالوا بركة صلوات القساوسة الذين رشوهم بالماء المعمّد، وأقسم هؤلاء الفرسان أيماناً بأن لا يتركوا من المسلمين الذين يلقوهم إنساناً حياً، ولكن عساكر المسلمين قد استطاعت أن تلتف عليهم، وتحيط بهم في الربوة التي فيها ألفونسو معتصماً بها وجموعه التي يزيد عددها على ثلاثمئة ألف بين فارس وراجل، وتعلقت العساكر الإسلامية بهذه الربوة، وحالوا بينهم وبين

(١) سورة محمد: ٧.

(٢) سورة آل عمران: ٢٠٠.

(٣) وهناك رواية أخرى عند الناصري يذكر أن عدد هذه الفرقة من الجيش عشرة آلاف فارس وهم مدججون بالسلاح؛ الناصري: الاستقصا، ج ٢، ص ١٨٩-١٩٠.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٢٥-٢٢٦.

ألفونسو الثامن وعساكره، وأمعنوا القتل في صفوفهم، فطحنوهم طحناً، وأفنوهم عن آخرهم، وكان ذلك ضربة قاصمة لملك قشتالة عند شاهد خيرة عساكره تفنيهم آلة الحرب عن آخرهم، والضربة الأخرى التي حلت به، عندما همَّ بمن معه من عسكر أن يغير بهم على المسلمين، فهاله مشاهدة رايات الدولة الموحدية تبرز أمامه، وعندما سأل عنها أبلغوه أن هذا جيش الخليفة المنصور وعساكره الكثيرة التي تزلزل لها قلب ألفونسو وعساكره، وأن الذي قاتلهم من العساكر لم يكونوا إلا طلائع عساكر الموحدين من العرب وهناتاة، فانقلب ومن معه شر المنقلب، والحالة الدقيقة لأحوال هذا الجيش مع ملكه يصفها لنا المؤرخ ابن أبي زرع: "فقذف الله الرعب في قلوب الكافرين، وولوا الأدبار منهزمين، وعلى أعقابهم ناكسين، وتلاحقت بهم فرسان المجاهدين، يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقتفون أثارهم، ويحكمون فيهم رماحهم وشفارهم، ويروون من دمائهم السيوف، ويذيقونهم مرارة الحتوف" (١).

ودارت رحى المعركة على ألفونسو وعساكره، وقتل منهم أعداداً كبيرة، ولاذ الملك مع نفر يسير من عساكره بالفرار، وذكر المؤرخ ابن عذاري المراكشي نتيجة هذا الانتصار العظيم بقوله: "أجلت الحرب عن حصيد من القتلى كالزرع المحصود والصخر المنضود كأبين على الوجوه لغير سجد، ومستلقين على الجنوب دون هجود" (٢)، ولحقت بهم عساكر العرب المسلمين فور الانتهاء القتال إلى حصن الأرك لحصاره، إذ أنهم اعتقدوا أن ألفونسو الثامن قد تحصن بداخله ولكن ألفونسو قد استطاع أن يدخل إلى الحصن من باب، ويخرج من باب آخر من الجانب الخلفي له، واستطاع المسلمون اقتحام الحصن بعد أن أضرموا النار في أبوابه ودخوله، وكان في داخل الحصن جميع مؤنات الإسبان وعددهم والأسلحة، والدواب والمعدات وأمتعة كثيرة لا تحصر، وأخذ المسلمون من حصن الأرك من زعماء الفرنجة أربع وعشرون ألف فارس أسيراً من زعماء الممالك الإسبانية ولكن الخليفة المنصور أطلقهم وامتنَّ عليهم بالعفو والسماح، وكانت هذه سقطة من إحدى سقطات المنصور، ولكن رواية ابن أبي زرع هذه مبالغ فيها، إذ أنه ليس من المعقول أن يكون عدد رؤساء الفرنجة وحدهم دونما عساكرهم ونساؤهم

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٢١٩-٢٢٠.

أن يصل إلى هذا الرقم، بينما يذكر ابن خلدون في "العبر" أن عدد الأسرى من زعماء الفرنج كانوا خمسة آلاف من زعمائهم ^(١)، ورواية ابن الأثير تشير إلى أن عدد أسرى الفرنج في الأرك كان ثلاثة عشر ألفاً منهم ^(٢)، ويذكر المؤرخ الشريف السبتي في كتاب "رفع الحجب المستورة" أنه بلغ عدد الذين تم أسرهم نحو خمسة آلاف شخص من المسيحيين ككل بين كبير وصغير، وكان هؤلاء الأسرى قد افتدى بهم الخليفة المنصور أسرى من المسلمين عند ألفونسو ملك قشتالة ^(٣)، وعندما يقاطع المرء بين هذه الروايات يجد أن الأقرب إلى الواقعية بمعطيات تلك الواقعة وذلك الزمن هي رواية ابن خلدون وصاحب كتاب "الحجب"، ورواية ابن عذاري المراكشي، الذين قدروا بأن أعداد أسرى الأرك بلغ خمسة آلاف أسير، ويبقى ذلك رأي واجتهاد من قبل الطالب والله أعلم.

وقد أشار المؤرخ ابن الأثير إلى الحالة الصعبة التي آل إليها ألفونسو الثامن ملك قشتالة بعد أن فقد أعظم شجعانه وأفرسهم في وقعة الأرك، وقد اعتمد عليهم اعتماداً مطلقاً، واغتر بذلك أيما غرور، وهذا بدا واضحاً في خطابه الذي بعث به إلى الخليفة المنصور يستفزه مقللاً من شأنه، متحدياً إياه في أفضل بلد من بلاده، فعاد خائباً يجر أذيال الهزيمة بعد هذه الضربة القاصمة التي حلت به وبجيشه، فيقول ابن الأثير فيه: "وأما الفئش فإنه لما انهزم حلق رأسه، ونكس صليبه، وركب حماراً، وأقسم أن لا يركب بغلاً ولا فرساً حتى تنتصر النصرانية" ^(٤)، وفي رواية الناصري: "... وأقسم ألا يركب فرساً ولا بغلاً ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنتصر النصرانية" ^(٥).

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٣٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٣٧.

(٣) السبتي، محمد القاسم: رفع الحجب المستورة عن محاسن أهل المقصورة، ص ١٥٠٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٣٧.

(٥) الناصري: الاستقصا، ج ٢، ص ١٩٢؛ ابن السماك: الحلل الموشية، ص ١٥٩.

ج- الأرك استنتاجات وانتصارات:

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الشهيرة في التاريخ الإسلامي، شأنها شأن معركة الزلاقة، أو غيرها من معارك العرب المسلمين عبر تاريخهم المجيد، وقد أثبتت وبرهنت بالوقت نفسه على غنى الساحة الإسلامية بكل مقومات ومستلزمات الاستراتيجية الإسلامية اللازمة للوقوف في وجه المعتدين، فضلاً عن وحدة الصف، واجتماع كلمة المسلمين، بالإضافة إلى جانب لا يقل أهمية عن هذا وذاك وهو الدعم المعنوي الذي قدمه قواد الأرك مما أعطى ثماره المباركة على النصر العظيم للمسلمين في هذه المعركة، كما أن هناك جانباً قد أفصحت عنه الأرك وهو سلبية ملك قشتالة ألفونسو الثامن الذي اغتر غروراً كبيراً بما تحت أيديه من قوات وعساكر، معتبراً نفسه عميد ممالك المسيحية آنذاك، وأن جنده وعسكره يشكل نخبة جيوش إسبانيا، وليس هناك من قوة تستطيع الصمود أو حتى الوقوف في وجهها على أقل تقدير، ولذلك أسرع بقواته من طليطلة قبل قدوم عساكر حليفه ملك ليون ونافارة لكي يكسب مجد هذه المعركة ضد المسلمين وحده دونما سواه، وهذا جعله أمام موقف لا يحسد عليه وخاض المعركة بمفرده وحصد نتائجها القاسية بفناء غالب جيشه، وعاد مهزوماً يجر أذيال هزيمته إلى طليطلة.

أما على الجانب الإسلامي، فقد تطايرت أنباء الفرح وانتصار المسلمين في الشرق والغرب، وكانت قلعة الأرك هي أول ثمار هذه المعركة التي دخلها المسلمون فور انتهائهم منها، وغنموا من هذا الحصن كل الذخائر، والمؤن والأسلحة، التي وضعها ألفونسو بداخله لأهمية موقعه الاستراتيجي بالقرب من بلاد المسلمين، وغدت معركة الأرك مبعث سرور وابتهاج بمجرد الحديث عنها ونسي المسلمون ما أغمهم من الجروح السابقة، وقد تغنى الشعراء ومجدوا هذا النصر المؤزر، فكانت الأرك كما ذكرها ابن عذاري المراكشي: "جاءت معركة الأرك بالفرح والهناء والشفاء لصدور المسلمين"^(١)، وكان شاعر البلاط الموحي أبو العباس الجراوي قد نظم شعراً بليغاً حول الأرك بقوله:

هو الفتح أعبى وصفه النظم والنثر وعمّت جميع المسلمين به البشري

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٢٠-٢٢١.

وأنجد في الدنيا وغار حديه فراقته به حسناً وطابت به نَشْراً
لقد أورد الأذفونشُ شيعته الرّدى وساقهم جهلاً إلى البطشة الكبرى
ودارت رحي الهيجا عليهم فأصبحوا هشيماً طحيناً في مهبّ الصبّا يذرا^(١)

د- جهود الخليفة المنصور بعد الأرك حتى وفاته:

بعد أن فرغ المنصور من معركة الأرك التي خرج ظافراً منتصراً قام بتسريح القبائل والجنود التي قاتلت معه، وطلب منهم أن يكونوا على أتم الاستعداد إذا طلب منهم ذلك، وعاد هو إلى إشبيلية، وأقام في حصن الفرج الذي كان قد أنشأه على الوادي الكبير، وكان المنصور يحب هذا الحصن، ويؤثر الإقامة فيه كثيراً، ولذلك استكمل زروعه، وأقام النواعير على الوادي الكبير اللازمة لعملية سقايته، وقام باستكمال المسجد الجامع الذي بناه والده يوسف بن عبد المؤمن، وفي ربيع العام التالي قرر متابعة أعماله العسكرية في الأندلس، وعندما تجهز المنصور بالعساكر تشاور مع القادة العسكريين لتحديد وجهة الغزو الجديد في الأندلس، فتقررت وجهة الغزو إلى بلاد الجوف^(٢) من الأندلس، وعندما علم ملوك إسبانيا بعزمته على الخروج أرسلوا لطلب الهدنة والصلح فرفض المنصور طلبهم هذا، وانطلق بعساكره يريد بلاد الجوف لاسترجاع المناطق التي أخذها الإسبان خلال حروب الاسترداد من عام ٥٩٢هـ / ١١٩٦م، وكانت أولى المناطق التي صمم الخليفة المنصور على انتزاعها هو حصن منتانجش الشاهق، وهو من أعظم الحصون وأكبرها في مناطق جهات بطليوس، وهذا الحصن يشهد دائماً مظاهر الحروب والتوتر والنزاعات، وأقبلت العساكر الموحدية على حصار هذا الحصن بكل قوة ونصبوا عليه آلات الحصار، وعندما شاهد الحامية القشتالية إصرار القوات الموحدية على فتح هذا الحصن والأعداد الكبيرة للقوات المحاصرة طلبوا النزول وتسليم الحصن بالأمان، فوافق الخليفة المنصور على طلبهم، وأمر قائد الجيوش الأندلسية عبد الله بن صناديد إيصالهم إلى منطقة آمنة، ولكن هؤلاء

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) بلاد الجوف كما ذكرها ياقوت الحموي: أرض مطمئنة أو خارجة في البحر، في غرب الأندلس، مشرفة على البحر المحيط، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٨.

وهم في طريقهم إلى بلاد الفرنج خرجت عليهم مجموعة من أوباش العرب كما يطلق عليهم ويذكرهم ابن عذاري بهذا الوصف، وقام هؤلاء بالقتل والسبي والنهب، فغضب الخليفة المنصور من هذا التصرف المشين الذي لايعرف للعهود قيمةً، فأمر بالقبض على هؤلاء وأسر منهم، وقام عبد الله بن صناديد بإيصال الرجال والنساء إلى بلاد الفرنج ثم عاد مجدداً، وأما بالنسبة للجيش الموحيدي بعد أن استطاع دخول حصن منتانجش قصدت القوات الموحدية ركن الثغر الشمالي وهي مدينة ترجالة التي تقع إلى شمال شرق من منتانجش، ودخلتها العساكر دون أي مقاومة لأن أهلها كانوا قد أخلوا المدينة عندما علموا بمقدم الموحدين وهذا ذكره ابن عذاري المراكشي في " البيان المغرب"، وهناك رواية أخرى من كتاب " رسائل موحدية" للمستشرق ليفي بروفنسال في الرسالة الخامسة والثلاثون التي تشير إلى أن الموحدون قد دخلوا مدينة ترجالة بحد السيف فجاء فيها: " ثم عمدنا إلى ترجالة قاعدة الثغر الشمالي ترضعه بذرّها، وتدرّبه على شرّها، مدينة لم يخافوا عليها للحوادث ظفراً ولا ناباً، ولا توهموا أن سيغلّقون لها في وجه منازل باباً، فعندما سمعوا بالمرور عليهم نادى فيهم منادي الجلاء في ساعة القتل والسبا، فاتبعهم من سرعان الجيوش من قتل مقاتلهم وسبي حريمهم، ولم ينبج منهم إلا من تخطّاه جناح السيف أو دخل في خفارة الليل " (١)، ودخل الموحدون مدينة أخرى بعد مدينة ترجالة وتدعى مدينة إبلتانسية (٢)، وهذه المدينة جاء أيضاً ذكرها في رسالة الفتح، وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة قد جهد في الإنفاق عليها وشحنها بالعتاد والذخيرة وحصن أسوارها جيداً، وجلب إليها كثيراً من سكان أهل الشمال وأقعدهم فيها، ولكن ما إن علم سكان المدينة بقدوم العساكر الموحدية حتى قاموا بإخلاء المدينة باستثناء الحامية التي بقيت في قلعتها، فإنها اعتصمت بداخلها، ولكن عساكر الموحدين أمطرت القلعة بالنبال حتى اضطرت الحامية للتسليم بالأمان

(١) بروفنسال: رسائل موحدية، ص ٢٤٤؛ المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٢) لم يتم إيجاد مصدراً جغرافياً قد تحدث عن هذه المدينة أو ذكرها باستثناء هذا المصدر في نص الرسالة؛ الحميري: الروض المعطار؛ ياقوت: معجم البلدان؛ ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافية.

بعد يوم واحد فقط من الاعتصام بداخلها^(١)، ثم تابعت العساكر الموحدية طريقها شرقاً إلى مدينة طليبة قاعدة طليطة الكبرى، فقاموا باكتساح زروعها وأشجارها إلا أنهم كانوا يفتقرون إلى أدوات الحصار، فقاموا بتخريب كل شيء حولها من عمران وبناء وجعلوه مساوياً للأرض، وهذه الأفعال كانت تجري على مرأى من ملك قشتالة وهو صاغر لا يحرك ساكناً بداخل طليطة، وهذا شيء يدل على ضعفه واستكانة همته، واتجه الجيش الموحي شمالاً ليسقط على طليطة من جهة الشمال، وعندما وصل الموحدون إلى أسوار طليطة وجدوا أن فرسانها استعدوا للدفاع والاستماتة عنها وتوزعوا حول أسوارها، فقام الجيش الموحي بانتساف الزروع وتخريب الأرياض وإظهار قوته، ولم يحاول الخليفة المنصور أن يقتحم المدينة واكتفى فقط بتخريب الزروع والأرياض، وهذا شيء يبعث على التساؤل؟ ألم يكن بوسع المنصور أن يقتحم عاصمة ملك قشتالة ويعيد طليطة حصن الإسلام القديم إلى حاضرة الخلافة الإسلامية؟ وهو بأوج قوته ومعه من العساكر والمتطوعة أعداداً كبيرة، ولو أراد ذلك لتحقق له؟ لاسيما وملك قشتالة في أدنى درجات ضعفه ووقف موقف العاجز أمام جيش الخليفة المنصور صاحب الجيش العرم الذي يكتسح الأرض ويزرع الرعب قبل قدومه؟ أمام هذه التساؤلات لم يجد الطالب مايتلج الصدر في إعطاء تفسير مناسب للإجابة عن هذه التساؤلات، واكتفت المصادر الإسلامية الصامتة عن ذلك بذكر تلميح بسيط وهو أن الخليفة المنصور خشي على الجيش مشكلة التمويل واختلال توازنه وقد أنهكه التعب من السير والقتال، وهناك رواية أخرى ذكرها المؤرخ المقري في نفح الطيب مفادها: أنه عندما حاصر الجيش الموحي طليطة واشتد في حصارها حتى أنها أوشكت على السقوط، خرجت إليه والدته الملك ألفونسو الثامن وبناته ونسائه ومثلن بين يديه، وطلبن من الخليفة أن يبقي عليهم، فرق قلب المنصور لطلبهن وأشفق عليهم، وترك حصار المدينة ثم ارتد عنها^(٢)، وهذه الرواية تفتقر إلى الموضوعية ومنطق الدبلوماسية العسكرية في فكر رجل عسكري عرف مكر عدوه كالخليفة المنصور، على أية حال لم يدخل المنصور عاصمة ألفونسو الثامن طليطة، وانساح الجيش الموحي جنوباً وخرب ماصادفه من الأرياض والأشجار المحيطة

(١) بروفنسال: رسائل موحدية، ص ٢٢٤، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج ٢، ص ٢٠٧.

بطليلة، وعاد المنصور أدراجه جنوباً إلى قلعة رباح، ثم قرطبة، وقرمونة، ثم إشبيلية، واستغرقت هذه الغزوة مدة ثلاث شهور عاد فيها الجيش الموحي متقلاً بالغنائم والأسرى، وكانت محاولة لاستعراض قوة الجيش الموحي داخل العمق العسكري الإسباني كما يبدو (١).

وكانت الغزوة الأخيرة من غزوات الخليفة المنصور عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م إلى أراضي قشتالة، بعد انتهاء فصل الشتاء، أكمل الجيش الموحي تعبئته، وكثرت العساكر الوافدة إلى إشبيلية حتى غصت المدينة بهم، وخرج المنصور بمن معه من العساكر من إشبيلية يريد قرطبة من أجل تأمين الأقوات اللازمة لتمويل الجيش الكبير الذي يريد جهات طليطة، لذلك قسم المنصور الجيش إلى عدة أقسام ليسهل عليه تمويله، وتزويده بما يلزم من المؤن، وعندما انتهى المنصور من ترتيب الجيش تحرك إلى طليطة مخترباً جبل الشارات (سييرامورينا)، وهو في طريقه جاءتته رسل ألفونسو ملك قشتالة لطلب الصلح فصرفهم دونما جواب يذكر، واستمر المنصور في سير حتى وصل طليطة عازماً على اختراق أراضي قشتالة، فقامت العساكر بانتساف زروعها وأرباضها، وحاصر طليطة، ولكن الجيش الموحي لم يدخلها، وهناك وصلت الأخبار إلى الخليفة المنصور أن ملك أراجون قد أرسل العون إلى زميله ملك قشتالة، وأنهما في قلعة مجريط (٢) يعسكران بجندهما لقتال الموحدين، فترك طليطة وتوجه بعسكره إلى مجريط للقاء عساكر الحليفين، ولكن الملكين انسحبا بقواتهما من قلعة مجريط واعتصما في الجبال القريبة منها، وتركا في القلعة قوات النخبة، لتتولى مهمة الدفاع عنها، وعندما حاول الموحدون اقتحام الحصن دافع القشتاليون عنه بكل قواهم، وصمد هذا الحصن ولم يسقط بيد الخليفة المنصور، فعزف الخليفة عنه

(١) بروفنسال: رسائل موحية، ص ٢٢٤-٢٢٧؛ المراكشي، ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٢٢٣-٢٢٥؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٢٩.

(٢) مجريط مدينة عريقة شريفة من بناء العرب المسلمين بناها الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن وحصنها أيضاً، ومدينة مجريط مدينة صغيرة وكانت خلال السيطرة الإسلامية فيها مسجد جامع وخطبة وهي بالقرب من طليطة؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٤٥.

واتجه بقواته إلى وادي الحجارة^(١) وهي منطقة خصبة غنية بمزروعاتها ومياهها الوفيرة، ووصلت العساكر الموحدية إلى ساحتها، وقد كانت هذه المدينة قد نالت دعم ألفونسو الثامن ملك قشتالة من الرجال والعتاد ولكن عسكر الموحدين سحقوا هذه القوة، وسقط منهم القتل والجريح، ولأذ بالفرار من استطاع أن ينجو بنفسه، وفي صبيحة اليوم التالي استعرضت العساكر الموحدية في مدينة وادي الحجارة قوتها في عرض عسكري ضخم أربب مضاجع ألفونسو الثامن ملك قشتالة، ثم عاد الخليفة المنصور بعد هذا العرض الضخم لعساكر الموحدين إدراجه إلى قرطبة ووصل إليها بأواخر شهر رمضان من عام ٥٩٣هـ / ١١٩٧م، ثم توجه بعد ذلك إلى إشبيلية، ووصلها في عيد الفطر بعد أن يكون قد استغرق أربعة شهور منذ أن غادر المنصور إشبيلية وعاد إليها مظفوراً مثقلاً بالغنائم^(٢).

وأثناء إقامة المنصور في إشبيلية وصلت إليه رسل ملوك إسبانيا تطلب منه الهدنة والصلح، فأجابهم للصلح مدة خمس سنوات، وقد رأى المنصور أن في ذلك سبيل إلى ترتيب قواته وتنظيمها جيداً، خاصة أنه قد عقد تحالف بين مملكتي قشتالة وأراجون، وكان أثر ذلك التحالف واضحاً عندما هاجم المنصور بقواته مدينة الحجارة، وتمكن الموحدون من إحراز النصر على القوات المتحالفة إلا أنهم لم يستطيعوا الدخول إلى المدينة، لذلك كان قبوله للصلح خشية أن تتحالف ضده جميع إمارات المسيحية في إسبانيا، وبالإضافة إلى أن الصلح يمكنه من إكمال الإصلاحات التي بدأ فيها في إشبيلية، وكان على رأس تلك الأعمال هو إكمال بناء صومعة الجامع الأعظم في إشبيلية، وهي من أعظم الإنجازات العمرانية زمن الموحدين في بلاد الأندلس والمعروفة باسم لاخيرالدا اليوم، والتي ماتزال تشمخ زهواً وحسناً حتى هذه الأيام، على الرغم من محاولة الإسبان طمس هويتها ومعالمها التاريخية، وماتزال آثارها الإسلامية واضحة المعالم لامعة البريق، وكان الخليفة المنصور قد أمر أن تزين صومعة الجامع بالتفافيح الذهبية الضخمة، وهذه التفافيح آية من آيات الزخرفة الإسلامية، التي طليت بالذهب ثم رفعت هذه

(١) وهي مدينة تعرف بمرج الفرج بالأندلس، وهي بين الجوف والشرق من قرطبة، وبينها وبين طليطلة خمس وستون ميلاً، وأشهر غلاتها الزعفران الذي يحمل إلى سائر البلاد، وبينها وبين مدينة سالم خمسون ميلاً؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٦٢٨.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٢٢٥-٢٢٧؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٤، ص ١٨٤.

التفافيح تحت إشراف المهندسين إلى أعلى الصومعة في جمع كبير من الناس، فكانت عند رفعها وإزالة أقمشة الكتان عنها كالشمس تبهر الأبصار ببريقها الذهبي، وقد ذكر ابن أبي زرع في " روض القرطاس " عظمة بناء الصومعة والتفافيح المذهبة عليه بقوله: "... ولا أعرف لها قدراً إلا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المؤذن حتى قلع الرخام من أسفله، وزنة العمود الذي ركبت عليه أربعون ربعاً من الحديد، وكان الذي صنعها ورفعها في أعلا المنار المعلم أبو الليث الصفار، موهت تلك التفافيح بمئة ألف دينار ذهباً" (١).

وعندما انتهى المنصور من الإشراف على بناء هذه الصرح المعماري الجليل، توجه إلى حصن الفرج الذي أشرف على بنائه خارج إشبيلية للإقامة فيه، وكان الخليفة المنصور يفضلُه عن غيره من الحصون لطيب هوائه وجمال موقعه، فأقام به مدة ثم عاد إلى إشبيلية، وقام الخليفة المنصور بتنظيم الشؤون الإدارية وعين الولاة والعمال لجهات الأندلس، فقام بتعيين ابنه أبا زيد لولاية إشبيلية، وولاية بطليوس للسيد أبي الربيع بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وقام بتقوية الحاميات في جميع جهات الأندلس ودعم التحصينات اللازمة لذلك، وهذه الإصلاحات قد أنجزها المنصور في بلاد الأندلس، وأمر الخليفة بعد ترتيب شؤون الأندلس بالاستعداد للجواز إلى المغرب (٢).

هـ- وفاة الخليفة المنصور وبعض سجايه ٥٩٥هـ / ١١٩٩م:

عبر الخليفة المنصور إلى المغرب بعد أن قام بترتيب شؤون الأندلس، وأول ما وصل إليه مدينة فاس حيث أقام فيها للراحة، ثم انتقل إلى مدينة مراكش عام ٥٩٤هـ / ١١٩٨م، وأصيب بوعكة أضعفته كثيراً، ولذلك كانت أولى الخطوات التي قام بها المنصور هو أخذ البيعة لابنه أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر من سائر البلاد، فبايعه سائر الموحدين والشيوخ وجاءته بالقبول من جميع القواعد والأركان في المغرب والأندلس، وكانت أعمال العمران التي أمر المنصور بإقامتها في مراكش قد أنجز معظمها عند رجوعه إليها، وكان الخليفة المنصور يقوم بأعمال البر مثل الاهتمام بالأطفال اليتامى، وينفق عليهم ويكسوهم، وعندما

(١) ابن أبي زرع: رلائيس المطرب، ص ٢٢٩.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٣٠.

اشتدت أحوال المرض على المنصور قام بجمع أشياخ الموحدين وأخذ منهم المواثيق والعهود، لا سيما الوقوف مع ابنه الناصر كونه صغير السن، وأن يكونوا له معيناً، وأوصى المنصور بالطلبة والشيوخ، والفقراء والمساكين، ويذكر ثم اتجه الخليفة المنصور ببصره إلى المجلس الذي انعقد حوله وقال لهم مخاطباً بدموع يذرفها بقوله: "أوصيكم بتقوى الله تعالى، وبالأيتام واليتيمة"، فقال له الشيخ أبو محمد عبد الواحد: يا سيدنا يا أمير المؤمنين، ومن الأيتام واليتيمة؟ قال: اليتيمة جزيرة الأندلس، والأيتام سكانها المسلمون، وإياكم الغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها، وحماية ثغورها، وتربية أجنادها وتوفير رعيته، ولتعلموا أنه ليس في نفوسنا أعظم من همها، ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى، وحسن نظركم فيها، فانظروا من المسلمين، وأجروا الشرائع على مناهجها "

وإن هذا القول الذي ذكره المنصور يعكس للمرء مدى الفهم العميق الذي أدركه المنصور للأحوال السياسية والاستراتيجية العسكرية لبلاد الأندلس، وكذلك الأخطار المحيطة بها، خاصة التخوف الذي فطن له المنصور من اتحاد ممالك المسيحية في جبهة واحدة ضد العرب المسلمين في بلاد الأندلس، فعندما ذكر كلمة " اليتيمة والأيتام " كان يسعى لإفهام مجلس شيوخ الموحدين، والقادة العسكريين، وكل من حضر ذاك المجلس بأن بلاد الأندلس يجب أن تكون مركز الثقل العسكري، والاهتمام الأول لدى خليفته وقواده، كونها نقاط التماس المباشر مع بلاد الممالك الإسبانية، ونقطة ساخنة مشتعلة بالحروب المتجددة مع الممالك المسيحية المتفرقة، وإن كان هناك تحالفات أو معاهدات صلح أو حتى صداقة بين القوى الإسلامية والمسيحية من حين لآخر^(١).

وذكر صاحب روض القرطاس أن الخليفة المنصور في آخر أيامه عندما اشتد مرضه عليه، وشعر بدنو أجله قام مجتمعاً بكبار شيوخ الموحدين، وذكر أنه خلال توليه الحكم قد ارتكب أخطاءً ثلاثة لم يندم إلا عليها بقوله: "... ولما اشتد به المرض قال: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث، وددت أني لم أفعلها: أولها: إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب، لأنني أعلم

(١) وهذا يبقى رأياً للباحث من وجهة نظر حول شخصية المنصور الفذة التي اشتملت خصالاً كثيرة قلما تتواجد في ملوك عصره وزمانه.

أنهم أصل فساد، والثانية : بنائي رباط الفتح، أنفقت فيه من بيت المال وهو صعيد لايعمر، والثالثة : إطلاقي أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم " (١)، وهذه الأخطاء التي ذكرها المنصور كانت لها تبعات سلبية لاحقاً إلى حد ما، وأهمهما أسرى الأرك الذي أفرج عنهم سيشترون لاحقاً في معركة العقاب مع خليفته الناصر كما سيمر ذلك لاحقاً إن شاء الله، وهذه هي أيام المنصور الباقية تتسارع لكي تحضره الوفاة يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م وقد ورد هنالك اختلاف في المصادر حول زمن وتاريخ فاته (٢)، حيث كانت وفاته بقصره بمنطقة الصالحة التي أحدثها لاحقاً في العاصمة مراكش، ثم حملت رفاته ودفن بتينمل، وقد تأثر الناس كثيراً لفراق شخصية عظيمة من بني عبد المؤمن مثل الخليفة الموحي المنصور، لأن عصره كان يمثل العصر الذهبي لدولة بني عبد المؤمن، وهو نجم بني عبد المؤمن لا محال في ذلك، وفي عهده اشتدت دولة الإسلام بالأندلس لصالح تراجع قوى ممالك المسيحية داخل الأراضي الأندلسية.

ويستطيع المرء أن يذكر شيئاً يسيراً من سيرة المنصور من كتابات المؤرخين العرب المسلمين مثل ابن أبي زرع وابن خلكان وابن الأثير، فذكر ابن أبي زرع في كتابه "الأنيس المطرب بروض القرطاس" فقال: "وكان المنصور من أجل ملوك الموحدين وأكثرهم صيتاً، وأحسنهم في الأحوال كلها، ولّي والملك قد تمهد واتسق، والمال قد توفر، وكانت له الهمة العالية، والعزائم الملوكية، والدين المتين، والسيرة الحسنة في المسلمين" (٣).

وذكر المؤرخ الناصري في كتاب "الاستقصى" نقلاً عن ابن خلكان في ترجمته للخليفة المنصور وخصاله الحميدة، وأورد الطالب هنا مختصراً يسيراً عن

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٣٠.

(٢) فقد ذكر ابن خلكان أنه توفي في غرة جمادى الأولى، وقيل في غرة صفر، وقيل في ربيع الآخرة، وليس مثلما ذكر ابن أبي زرع في ربيع الأول، وكان ابن خلكان قد ذكر شيئاً آخرًا عن وفاة المنصور، وهو أنه بالقرب من قرية تدعى حمارة من أعمال البقاع الشامي مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب، وأن أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم أدنى شك فيه، والله أعلم؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ١١٥-١١٦.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٣٠-٢٣١.

صفات الخليفة المنصور البدنية والأخلاقية كما جاء عند الناصري في ذكر سيرته، فقال الناصري : " ... وقال ابن خلكان : كان يعقوب المنصور رحمه الله صافي السمرة جداً، إلى الطول ماهو، جميل الوجه، أفوه، أعين شديد الكحل، ضخم الأعضاء، جوهري الصوت، جزيل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة"، ثم ذكر أخلاقه وصفاته النفسية : " ... رفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس، ونظر في أمور الدين والورع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين، كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الناس في أيامه، وعظمت الفتوحات...، وكان ملكاً جواداً متمسكاً بالشرع المطهر، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينهى عن المنكر كما ينبغي من غير محاباة، ويصلي بالناس الصوات الخمس، ويلبس الصوف، ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق" (١)

ولذلك سادت أيام الخليفة المنصور مظاهر الأمن والاستقرار في أرجاء امبراطوريته الواسعة، وكان الناس في عهده من أقاصي المغرب إلى مشارقه يتنقلون بين البلاد ولا أحد يعترضهم، وقد ذكر ابن أبي زرع اتساع بلاد الموحدين وملك الخليفة المنصور من بلاد المغرب والأندلس من بلاد نول (٢) من السوس الأقصى إلى بلاد القبلة من الصحراء، وهذه البلاد تحتوي بلاداً ومدناً وقرى وحصوناً كثيرة، وسكانها من عرب وبربر تحت لوائه طائعين، يؤدون الخراج المترتب عليهم دون أي تذمر، ويخطبون له على المنابر (٣).

(١) الناصري: الاستقصا، ص ١٩٨-١٩٩.

(٢) نول: من بلاد السوس الأقصى بالمغرب، وتدعى أحياناً نول لمطى، ومدينة نول كما ذكرها الحميري إحدى مدن الإسلام، مدينة كبيرة في أول الصحراء، تقع على نهر كبير يصب في البحر المحيط، ولهذه المدينة شهرة كبيرة باللمط وهو حيوان يشبه البقر، يصنع من جلده أفخر أنواع الدروق؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٦٠٦.

(٣) ابن أبي زرع: روض الأنيس المطرب، ص ٢٣٠.

٣. الخليفة محمد بن يعقوب المنصور الملقب بالناصر لدين الله ٥٩٥هـ - ٦١٠هـ / ١١٩٩-١٢١٣م:

أخذ الخليفة يعقوب المنصور البيعة لولده الناصر بالخلافة في آخر أيامه، وبايعه شيوخ الموحدين وزعماء العشائر، والقبائل من بلاد المغرب والأندلس، وعندما توفي الخليفة المنصور _ رحمه الله _ تسلم ابنه الناصر عرش السلطة الموحدية وأخذ البيعة الثانية من عموم الناس في هذا اليوم، وكان عمر الناصر حين توليه العرش سبعة عشر عاماً وأشهر، كما ذكر ذلك المؤرخ عبد الواحد المراكشي في كتابه " المعجب "، ووصف المراكشي صفات الخليفة الناصر بأنه كان أبيض، أشقر شعر اللحية، أشهل العينين، أسيل الخدين، حسن القامة، كثير الإطراق، شديد الصمت بعيد الغور _ كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه، حليماً، شجاعاً، عفيفاً عن الدماء، قليل الخوض فيما لايعنيه جداً، إلا أنه كان يُبْخَلُّ أولاده (١).

أ- المتغيرات الجديدة التي ظهرت خلال بداية حكم الناصر:

تسلم الناصر زعامة البلاد، وكانت أراضي الدولة الموحدية مرهوبة الجانب موفرة النعم، والأمن تنعم بالاستقرار والهدوء إلى حدٍ كبير بداية عهده، خاصةً وأن الاتفاقيات التي عقدها ملوك إسبانيا مع والده السلطان يعقوب الموحدي كانت ماتزال سارية المفعول بداية استلامه زمام السلطة، ولكن هذا الهدوء الذي أشرق مع تسلم الناصر لدين الله خلافة الموحدين مالبث أن تغيرت أركانه، وتبدلت أحواله، ولكن الخليفة الناصر لم يقف مكتوف الأيدي حيال التمردات التي نشبت ضد الموحدين في المغرب والأندلس، ولذلك يطرح المرء تساؤلاً حول جهود الناصر الحثيثة في الصمود أمام الثورات : هل كان الناصر صامداً صمود أبيه وجده ضد كل الأخطار التي نشبت ضد الموحدين في المغرب والأندلس؟ وهل نجح الناصر في مساعية للإبقاء على الدولة الموحدية دولة قوية مرهوبة الجانب؟ وهل أثمرت جهود الخليفة الناصر في هذا المضمار أم أصابها الإخفاق؟

للإجابة على تلك التساؤلات فإنه من المهم بمكان معرفة المتغيرات الداخلية والخارجية التي عاشتها الدولة الموحدية أثناء حكم الخليفة الناصر

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣٠٧.

الموحدي، ومن أهم تلك المتغيرات عودة بني غانية للتمرد من جديد ضد حكم الموحدين، بعد أن ركنوا إلى الهدوء النسبي الذي استطاع الخليفة المنصور تحقيقه ضدهم في أوائل عهده، وهذه كانت أحد العقبات الكبيرة التي واجهت الخليفة الناصر لدين الله، لاسيما إنَّ تمرد هؤلاء قد استنزف كثيراً من الطاقات البشرية والمادية لدولة الخليفة الناصر، واشتمل بقعة كبيرة من أراضي الدولة، لذلك فمن الضروري تقديم شروح وافية على نشاط بني غانية، والوقوف على أعمال الخليفة الناصر ضد أطماعهم، والقضاء على خطرهم .

عندما يعود المرء أدراجه إلى نشاط بني غانية الذي ذكره الطالب سابقاً خلال الحديث عن عهد الخليفة المنصور، وكيف أنه استطاع تجميد نشاطهم دونما القضاء عليهم ككل إن صح التعبير، يدرك أن القوة التي امتلكها بني غانية لم تكن تمرداً عادياً، أو مجرد حركة ثورية بسيطة قامت هنيئاً ضد الدولة الموحدية ثم انطفأت جذوتها، ودخلت عالم النسيان، لقد كان ملوك بني غانية خلفاء المرابطين، وقوادهم وجنودهم الأوفياء، لذلك كان تطلع بني غانية بجديّة إلى القضاء على دولة الموحدين سواء أكان ذلك في مرحلة البدايات والتأسيس أو في مرحلة الازدهار والقوة، حيث أنهم لم يروا في دولة الموحدين إلا دولة غاصبة سلبت بالغدر دولة أسيادهم المرابطين، واستطاعت إقصاءهم والتتكيل بهم، ومن أجل هذا سعى ملوك بني غانية إلى التحالف مع جميع القوى في غرب المتوسط حتى مع المسيحيين في جمهوريات إيطاليا أو مع مملكة أراجون وغيرها، واتباع كل الوسائل الكفيلة لهم للقضاء عليهم، وهذا يفسر بدوره عدم القدرة الكافية لدولة الموحدين من أجل القضاء التام على دولة بني غانية من المرة الأولى أثناء الصدام العسكري بين القوتين، وقد استمر نفوذ بني غانية في غرب المتوسط على الرغم من قوة الموحدين، واتساع قواعد ملكهم في الأندلس والمغرب طيلة عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي وصولاً إلى حفيده الخليفة الناصر لدين الله، وكانت حروب الكر والفر سجلاً بين الطرفين، فكلما شعر الموحدون بانطفاء خطر بني غانية وتفرقهم، هبَّ هؤلاء من جديد، يثيرون القتل والأسر في المناطق التابعة لحكم الموحدين، وكانت الانتفاضة والدائرة الكبيرة لدوائر خطر بني غانية قد حصلت زمن الخليفة الناصر لدين الله، بعد وفاة الخليفة المنصور، حيث قام يحيى بن إسحق بن غانية بالاستيلاء على طرابلس التي كانت من ممتلكات حليفه

السابق قراقوش، ثم سيطر يحيى على قابس بعد محاصرتها وقطع نخيلها، وأقام فيها دعوة العباسيين، ثم استطاع ابن غانية السيطرة على المهديّة بعد أن تمكن من القضاء على متزعمها عبد الكريم الكومي الذي سمى نفسه " المتوكل على الله"، وهو ينتمي إلى الموحدين، ولكنه حاول أن يستقل عن دولة الموحدين، واستطاع المتوكل على الله أن يتمكن من المهديّة، ويعتقل واليها من قبل الخليفة الناصر لدين الله، ولكن ابن غانية نجح في محاصرة عبد الكريم هذا، ودخل المهديّة عام ٥٩٧هـ / ١٢٠١م، وسجنه مع ابنه، ولكن عبد الكريم توفي بسجنه، وابنه قد أرسله بالسفينة إلى ميورقة، وتوفي قبل وصوله إلى ميورقة (١) غرقاً بتدبير من يحيى بن إسحاق بن غانية (٢).

وبالعودة إلى نشاط يحيى بن غانية الذي استمر في سياسته التوسعية على حساب الدولة الموحدية، فتمكن هذا الأخير من مد نفوذه إلى بلاد الجريد والقيروان، وصولاً إلى باجة إلى الغرب من تونس التي حاول اقتحامها، وبهذا تكون مدن الشمال الإفريقي باستثناء المنطقة الساحلية قد سقطت في يد يحيى بن

(١) وهي أكبر جزر البليار وأكثرها خصوبة، تقابل هذه الجزيرة من جهة القبلة مدينة بجاية، وبينهما ثلاثة مجارٍ بحرية (المجرى يعادل مسيرة يوم) ، ومن جهة بلاد الجوف تقابلها برشلونة من جهة بلاد أرغون، وبينهما مجرى واحد، ومن الشرق جزيرة منورقة وبينهما مجرى واحد في البحر مقداره أربعون ميلاً، وإلى الشرق من ميورقة جزيرة سردانية وبينهما في البحر مجريان، وغربي ميورقة تتوضع جزيرة يابسة وبينهما مجرى واحد في البحر طوله سبعون ميلاً، وجزيرة ميورقة هي الجزيرة الأم لهاتين الجزيرتين، فتحها المسلمون سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م، وتعاقب عليها حكم العرب المسلمين حتى كان آخر العهد بها زمن الموحدين عام ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م عندما سيطر عليها ملك أرغون بصورة نهائية؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٩٠.

(٢) لقد كان عبد الكريم الكومي هذا من الجنود المدافعين عن المهديّة ضد تمردات العرب الذين يقومون بغارات النهب والسلب على أراضيها، واشتهر عبد الكريم بمدافعتة عنها، ولذلك كان له اليد الطولى في تسلم زعامة المهديّة ومحاولته الاستقلال فيها حتى قدوم يحيى بن غانية الميورقي ودخوله المهديّة كما تم ذكر ذلك مسبقاً، وقد ذكر ابن الأثير وابن خلدون ذلك مطولاً؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٥٩-٢٦٠، ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٣٢-٣٣٣.

غانية، وأصبح وضع الشمال الإفريقي محرّجاً للخليفة الناصر، وتشاور الناصر مع أصحابه في أمر ابن غانية، ومسألة توسعته التي بدا الناصر ينظر إليها بعين القلق، فأشار قسماً من أشياخ الموحدين بمسألة يحيى بن غانية، وكان رأي الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص بقتال ابن غانية، ووضع حدٍ لتمرده في إفريقية، وأخذ الناصر برأي الشيخ عبد الواحد الحفصي، واستعد لقتال يحيى بن غانية، فأرسل الشيخ أبو زيد متولي إفريقية من قبل الخليفة الناصر جيشاً بقيادة أخيه أبو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن والي بجاية، وكان في هذا الجيش جملة وفيرة من شيوخ الموحدين، وكما قال " صاحب المعجب " : " لم أر لهم جيشاً أضخم منه ولا أكثر منه سلاحاً ولا أحسن عدة "، والتقى الجيشان في منطقة بين قسنطينة وبجاية، ولكن دائرة الهزيمة وقعت هذه المرة على جيش الموحدين، واستولى ابن غانية على معسكرهم، وجميع أمتعهم، واستطاع أبو الحسن الفرار والنجاة عائداً إلى بجاية وهو في أسوأ حالاته^(١).

لقد وصل سلطان يحيى بن غانية في انتصاره المتكرر على جيوش الموحدين إلى مرحلة الذروة، وأقصى درجات اتساعه في شمالي إفريقية وجزر البليار، وكانت حكومة مراكش مدركة بأن هذا الخطر سيقضي عليها مستقبلاً، وكان الخليفة الناصر قد شغلته فتنة أخرى في بلاد السوس عن تجهيز جيش عرمرم لفتح إفريقية، والقضاء بصورة نهائية على سلطان يحيى بن غانية، ولذلك لا بد من ذكر أحداث هذه الفتنة في بلاد السوس ثم العودة إلى أعمال الخليفة الناصر في حربه ضد بني غانية.

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣١٣-٣١٤.

ب- أعمال الخليفة الناصر:

١ القضاء على تمرد عبد الرحمن الجزولي المدعو ابن الفرس:

حسبما جاء في المصادر التاريخية الإسلامية فقد كان عبد الرحمن الجزولي هذا رجلاً من علماء الأندلس، وكان يعرف أيضاً بالمهر وأبي قصبه أيضاً، وكان قد حضر اجتماعاً مع الخليفة المنصور قبل وفاته، وظهر منه كلام ينذر بالفتنة ولكنه اختفى بعدها وظهر بعد وفاة المنصور، وانتحل صفة "الإمامة" وادعى بأنه القحطاني الذي يخرج في آخر الزمان، ويملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً كما ورد ذلك في الحديث، وجرياً على عادة العامة من الناس فإنها مالت إلى تصديقه والإيمان بما يقول، و طارت أنباء هذا الرجل في بلاد السوس، وكثر أتباعه، وقويت شوكته، واستطاع أن ينتصر على الحملات الصغيرة التي كانت ترسلها حكومة مراكش للقضاء على هذا المتمرّد، ولذلك لم يكن لدى الناصر خياراً سوى إرسال جيش موحد ضخم كثير العتاد والسلاح، وسار هذا الجيش إلى بلاد السوس، وقام قواد الموحدين من تحذير المصامدة عن التغافل عن هذا الرجل، والتسامح معه، والخطر الذي سينولهم على يديه إن استمروا في احتضانه والمشي بمشورته، فكان ذلك خير وسيلة لانفضاض جموع أبي قصبه عنه والتحاقهم بعسكر الموحدين، وتمكنت العساكر من الوصول إلى أبي قصبه أخيراً وقتلته، وكل من وقف معه من أتباعه، واحتزوا رأسه وأرسلوه إلى مراكش، وكان ذلك عام ٥٩٨هـ/١٢٠٢م^(١).

والآن بعد الانتهاء من شأن الثائر السوسي والإزعاجات التي تسببها لحكومة مراكش قرر الخليفة الناصر أن يضع حداً نهائياً لتمرد بني غانية وكان ذلك يقوم على أساسين هما:

- ١- القضاء على القاعدة المركزية التي تقدم دعماً كبيراً للثوار من بني غانية في الحوض الغربي للمتوسط، وهذه القاعدة هي عاصمتهم ميورقة أكبر جزر البليار.

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣١٥-٣١٦؛ والذي ذكر أن هذا الثائر يعرف بابن الفرس هو المؤرخ ابن خلدون في العبر، ج ٦، ص ٣٣٦.

٢- القضاء على وجود بني غانية في كافة بلاد إفريقية.

ومن أجل ذلك بدأ الخليفة الناصر بالإعداد لمشروعه الكبير بتجهيز العتاد والأموال والرجال والسلاح لتصفية بني غانية واقتلاعهم بصورة نهائية في ميورقة ثم إفريقية.

٢ فتح ميورقة والقضاء على حكم بني غانية فيها:

كانت ميورقة الموطن الرئيسي الذي عاش فيه بنو غانية حكاماً مستقلين بأنفسهم، يتبعون الحكم المرابطي ويدافعون عنه كما ذكر ذلك سابقاً، واستمد حكام بني غانية قوتهم ومراكز إمدادهم البحري والعسكري من الجزيرة، وانطلقوا من مركز هذه الجزيرة يوسعون قاعدة ملكهم في المناطق الشمالية لمدن إفريقية مثل طرابلس، وقابس، وقفصة، وبلاد الجريد، وغير ذلك وصولاً إلى مناطق المغرب الأوسط، وكانت سياسة التقرب من الممالك المسيحية، ومدن الجمهوريات الإيطالية، هي العلاقات التي ميزت حكام بني غانية عن غيرهم من حكام البلاد الإسلامية في مغرب البحر المتوسط، وعند العودة قليلاً إلى الوراء في تطور الوضع السياسي في ميورقة، فبعد أن تمكن عبد الله بن إسحق بن غانية إقصاء أخيه محمد واستبد في حكم الجزيرة، وبقي أخاه يحيى في إفريقية يهاجم مدن إفريقية، ويوسع نفوذ حكم بني غانية على حساب أملاك الموحدين، وكان عبد الله يقدم قطع الأسطول والسلاح والمؤن إلى أخيه يحيى، لذلك كانت خطة الناصر بضرب الميورقيين في قاعدة حكمهم جزيرة ميورقة، وقطع كل المساعدات على يحيى في إفريقية، وبالتالي تصبح تصفية بني غانية مهمة أقل عبأً وتكلفةً على عاتق الدولة الموحدية، ولذلك كان قصد ميورقة هو الهدف الأول للخليفة الموحي الناصر، وفعلاً تم تجهيز القوة العسكرية الضخمة الضاربة للموحدين في مياه المتوسط، وكان أسطول سبنة يشكل العماد الأساسي لهذه القوة التي تألفت من ألفي ومئتي فارس، وسبعمئة من الرماة، وخمسة عشر ألفاً من الرماة، وكان عدد القطع حوالي ثلاثمائة جفن متعددة الأنواع، إضافة إلى أعداد الدروع و المناجيق والقسي التي تقصر عنها الأعداد، ووضع الناصر قيادة هذا الأسطول تحت قيادة عمه أبو العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن والشيخ أبو سعيد بن أبي حفص، وأقلع هذا الأسطول من ثغر دانية عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م يريد ميورقة، وكانت أنباء هذه التحركات غير خافية على عبد الله بن غانية، فقام بمهاجمة

جزيرة يابسة^(١) الواقعة إلى الجنوب الغربي من ميورقة ولكنه لم يفلح، ثم قام عام ٥٩٨هـ/١٢٠٢م بمهاجمة جزيرة منورقة وانتزعاها من أيدي الموحدين وولى عليها رجلاً يثق من عنده، وكان ذلك العمل من أجل تأمين جزيرة ميورقة من الهجوم الموحيدي المباغت عليها، ولكن تلك الإجراءات لم تكن تعطي ثمارها، إذ أن أبو العلاء الذي تولى قيادة الحملة انحرف قبل توجهه إلى ميورقة اتجاه جزيرة منورقة واستطاع استرجاعها، وقتل حاكمها الذي عينه عبد الله بن غانية، وبهذا يكون الجيش الموحيدي قد استطاع إحكام قبضته على ميورقة وحصارها حصاراً شديداً، وبدأ الجيش الموحيدي عملياته باحتلال مرسى الجزيرة، فقام عبد الله بن غانية بصدد هجوم الموحدين، وتميز القتال بشراسته وعنفه ودامت المعارك سبعة أيام، وكان النصر لحليف الموحدين بعد أن قاتل الميورقيون قتال المستميت، وقتل عبد الله بن غانية وطيف برأسه في المدينة، وأعطى قائد الأسطول الأمان لجميع أهل الجزيرة، بما فيهم أهل عبد الله بن غانية، ومنع النهب والسلب في المدينة، وبهذا تكون جزر البليار جميعها قد صارت بقبضة الموحدين، وخرجت عن قبضة بني غانية، ولكن هذه الجزيرة لن تنعم بالاستقرار طويلاً بيد الموحدين، حيث أن صاحب برشلونة سيقوم بغزو هذه الجزيرة، والقضاء بصورة نهائية على السيادة الإسلامية على الجزيرة عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، يذكر ذلك صاحب الروض المعطار وينفرد عن غيره من المصادر التي أشارت إلى ذلك إشارة فقط، فذكر غزو الموحدين إلى جزر البليار بقوله: "... ثم إن الطاغية البرشلوني تحرك إلى ميورقة عازماً عليها، فنزل عليها أسطوله في شوال سنة ست وعشرين وستمئة، فأراها من القتال وشدة الحصار وأنواع المحن ما لم يجر مثله في زمان، وحكم عليها عنوة بعد طول الحصار والقتل والسبي " (٢).

(١) إحدى جزر البليار بالقرب من ميورقة، وهي تقع في طريق من يخرج من مدينة دانية الأندلس قاصداً جزيرة ميورقة، وهي مشهورة بزيببها الفاخر وأخشابها الكثيرة؛ ياقوت: معجم البلدان، مج ٥، ٤٢٤.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٥٦٨؛ وقد ذكر فتح الجزيرة عند ليفي بروفنسال في الرسالة المرقمة السادسة والثلاثين وهي بخط الكاتب عبد الله بن عياش وهي صادرة عن الديوان الناصري؛ بروفنسال: رسائل موحدية، ص ٢٤٤-٢٢٢٤٦.

٣٦ القضاء على نفوذ بني غانية في إفريقية:

لقد كان لسقوط جزر البليار بيد الموحدين واقع شديد الصدمة على يحيى بن غانية في إفريقية حيث أنه لم يبقَ دافعاً له في الشمال الإفريقي أحد، ولم يكن له إلا ما بين يديه من ممتلكات في إفريقية، وهذا يفسر إصرار يحيى بن غانية في انتزاع تونس عاصمة الموحدين في إفريقية، والمناطق المحيطة به، حيث أنه لم يتبقى للموحدين سوى ثغر بجاية، بالإضافة إلى أنه كانت معاملة يحيى بن غانية بمنتهى القسوة للمناطق التي يسيطر عليها، مثلما حصل عند دخوله تونس حيث قام بفرض ضريبة كبيرة على السكان، وتم تحصيلها بقسوة شديدة، وبالطبع لم يقف الخليفة الناصر مكتوف الأيدي حيال نشاط يحيى بن غانية وعبثه في تلك النواحي من إفريقية، ولذلك لم يتأخر الناصر عن إرسال جيش كبير لاستئصال شأفته، والتخلص من سلطانه، وكان هذا الجيش الذي بعث به الناصر يتألف من قسمين: الأول بحري يحتوي قطع كثيرة يسير إلى تونس وكان هذا الأسطول بقيادة أبي يحيى بن أبي زكريا الهزرجي، والقسم الآخر هو جيش بري بقيادة الخليفة الناصر بنفسه، انطلق من مراكش عام ٦٠١هـ / ١٢٠٤ م، وتجمعت الجيوش الموحدية في قاعدة رباط الفتح، وانطلقت مجتمعة تريد إفريقية، وعندما علم يحيى الميورقي بقدم ذلك الجيش الجرار ووصله إلى بجاية، أدرك بأن لا قبل له حيال ذلك، فقام بجمع أمواله وذخائره وأرسلها إلى المهديّة، بينما توجه بقواته جنوباً إلى بلاد الجريد، وتحالف مع العريان، وأخذ منهم الموائيق على المحاربة معه ومناصرته في حربه ضد الموحدين، ووصلت القوات البحرية الموحدية إلى تونس واستطاعت أخذ المدينة، وكل من وجد فيها من أتباع بني غانية، ووصل الخبر إلى الخليفة الناصر بذلك، فلحق يحيى بن غانية إلى بلاد الجريد نحو ققصة، وبعد ذلك إلى قابس يطارد يحيى بن غانية الذي فر إلى المهديّة وحشد معظم قواته هناك، وكان أن وُكِّل أمر الدفاع عن المدينة لابن عمه علي بن الغازي، وتحصن هو ومن معه من عساكر في جبل دمر، وهو مكان حصين لكي يباغت القوات الموحدية أثناء وصولها إلى المهديّة، ووصلت عساكر الموحدين، وفرضت حصاراً شديداً على المهديّة من جهتي البر والبحر، وكان الخليفة الناصر على رأس القوات الموحدية التي جاءت من جهة البر، ولم يخفَ على الخليفة الناصر خطة يحيى الميورقي في تحصين نفسه مع عساكره في جبل

دمّر، فأرسل له قوة مكونة من "أربع آلاف جندي بقيادة عبد الواحد بن أبي حفص لمقاتلة يحيى الميورقي في جبل دمر، وعندما عاين يحيى بن غانية قوة هذا الجيش وضخامته، أدرك يائساً بأن لاقباله له بهذه القوة، فأراد يحيى أن ينصرف بقواته عن لقاء جيش الموحدين إلا أن قواده أصروا على ثباته في المعركة، وكان النصر حليف الموحدين في هذه المعركة التي عرفت بوقعة تاجرا، واستطاع يحيى الفرار حياً بشرذمة صغيرة ممن بقوا أحياء في هذه المعركة، وقتل أخيه جبارة، وكان يحيى قد أبقى أهله وعياله على مسافة خمسة فراسخ من أرض المعركة، ولولا ذلك لكانوا وقعوا في الأسر والسبي، وانسحب إلى داخل الصحراء وكان ذلك عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، بينما عاد الشيخ عبد الواحد الحفصي مع الجيش إلى الخليفة الناصر وهو يحاصر المهديّة، وقد ذكر صاحب " الأنيس المطرب " بأن حصار المهديّة كان محكماً من جهتي البر والبحر، والمناجيق تضربها بالرميات العنيفة، حيث كانت عساكر الموحدين والعرب تتوالى للقتال بشكل في الليل والنهار، ولم يتمكن الجيش الموحي من دخول المدينة، حيث كان والي المدينة الميورقي يدافع عن المدينة بكل عزم وثبات، وهذا الوالي هو ابن عمّ ليحيى بن غانية، وكان خبيراً مخضرمّاً بشؤون القتال والدفاع، وكان يطلق عليه الموحدون الحاج الكافر، وقد أثبت جسارة وعزماً على الدفاع عن المدينة، وأفشل كل هجوم كان يقوم به الموحدون في دخول المهديّة، ولكن الجيش الموحي جاء بمنجنيق كبير للغاية يرمي لمسافات بعيدة، وبدؤوا يضربون فيه المدينة، وجاءت إحدى الرميات في باب المدينة المثقل بصفائح الحديد فانطوى هذا الباب من شدة الضربة فاندesh هذا القائد من هول مشاهدته، وأدرك أنه لا قبالة له بمجابهة جيش الموحدين والاستمرار في مقاومتهم، فعرض النزول عن المدينة، وتسليمها بالأمان وأن يسمحوا له بالعبور إلى يحيى بن غانية الميورقي، فقبل الخليفة الناصر عرضه ذلك، وتسلم الناصر منه المدينة ودخلها الخليفة الناصر عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م بعد أن عفى على جميع أهلها، وخرج الميارقة من المهديّة بالأمان، ولكن والي المدينة راسل الخليفة الناصر مبيناً له الدخول في طاعته، فقبل الخليفة الناصر طلبه في غاية السرور وبذل كثيراً في إكرامه والترحيب به وأطلق عليه الحاج الكافي،

وأصبح هذا الرجل قائداً من قواد الموحدين، وتوفي لاحقاً كما سيرد في معركة العقاب في الأندلس^(١).

والآن عادت معظم ممتلكات شمال إفريقية جميعها إلى دولة الخليفة الناصر الموحدي، وقد عين الناصر الموحدي الشيخ عبد الواحد الحفصي على تونس، والمناطق المحيطة بها بعد إصرار الخليفة الناصر عليه أن يتولى شؤونها، وكانت هذه الخطوة من الخطوات الإيجابية التي اتخذها الخليفة الناصر، فقبل الشيخ عبد الواحد منه ذلك، واستشرط عبد الواحد أن يعود إلى بلاط مراكش حالما ينتهي بالمهمة الموكلة إليه، وعبد الواحد هذا هو الذي سيشكل نواة للدولة الحفصية المستقبلية وحاضرتها تونس، وهو صاحب المكانة العالية عند الموحدين فهو عميد أشياخ الموحدين، وصهر الخليفة الناصر، حيث كان متزوجاً بنت الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، أما على صعيد الأحداث المتسارعة عند يحيى بن غانية الميورقي فقد لمَّ شمله، وأعاد الكرة هذه المرة متحالفاً مع قبائل الصحراء الجنوبية المكونة من الأعراب والبربر، وقد عزم يحيى على إعادة الهجوم على جيوش الموحدين بعد خسارته في معركة تاجرا، وقد واثته الفرصة عندما غادر الخليفة الناصر تونس متوجهاً إلى مراكش، فتحرك مع جموعه يريد إفريقية ويسحق قوة الموحدين في تلك النواحي، ولكن لم تكن هذه التحركات خافية على الشيخ عبد الواحد الحفصي، إذ سرعان ما جمع قوة كبيرة من الموحدين والعرب، والتقى الجمعان في منطقة تدعى تبشة على ضفة وادي شبرو^(٢)، وانهزم يحيى بمن معه من قوى متحالفة شر هزيمة، واستطاع أن ينجو بنفسه من أرض المعركة وهو جريحاً إلى قلب الصحراء، وغنم الموحدون معسكر الميارقة وأسلابهم وعتادهم، ولكن هذه الهزيمة لم تنهي يحيى بن غانية عن معاودة الكرة واستئناف القتال مجدداً، فقد قام يحيى الميورقي بجمع أشقائه وتحالف مع بطون زناتة، ولكنه هذه المرة غير وجهة مسيرته متجهاً إلى المغرب بدلاً من إفريقية لكي يكون بعيداً عن عيون الشيخ عبد الواحد الحفصي، واستطاع يحيى الوصول إلى واحات

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) وقد ذكر صاحب الروض أن المنطقة تدعى تبسة من بلاد إفريقية على وادي شبرو، وذكر هزيمة يحيى بن غانية أمام جيوش الناصر الموحدي؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣٦٠.

سجلماصة، ومهاجمة المدينة هجوماً عنيفاً، ونهب غنائمها الوفيرة، ووزعها على أصحابه فقويت بذلك نفوسهم، ولا يخفى على أحد أن موقع سجلماصة قريباً على الحاضرة الموحدية مراكش، وهذا تحول خطير ومفاجئ من قبل عدو لا يستكين مثل يحيى بن غانية، وتحقق ليحيى مالم يكن يطمح إليه، إذ أن بعض بطون زناتة المتواجدة في معسكره اتصلوا بأقربائهم المتواجدين إلى الجنوب من مدينة تلمسان من بطن زناتة، وأعلم هؤلاء أن والي تلمسان الموحدى ليس لديه قوات كثيرة يدافع بها عن المدينة، وهو في مكان بعيد عن المدينة، فباغته يحيى بجمع كثيف استطاع أن يفتك به وبجميع عسكره الذي ثبتوا لهم، ووصل يحيى بعد ذلك إلى ظاهر تلمسان، وقد أفسد الزروع وخرب ونهب، ومثل ذلك فعل عند دخوله تاهرت، وجعل المدينة أطلالاً كأن لم تعمر بالأمس، فزادت هذه الأعمال جيش الميورقي قوة، وانتعشت نفوسهم بما حققته من مكاسب في هذا الانتصار السريع، وقرر لذلك يحيى تسديد ضربته الساحقة إلى إفريقية، وقد انضم إلى جيشه الآن طوائف جديدة من العرب والغز^١، ولكن هذا التحرك الذي سارع يحيى بتنفيذه كان يقابله تحرك أسرع وضربة أسبق من قبل والي إفريقية الشيخ عبد الواحد الحفصي حيث كان يراقب تحركات يحيى بن غانية وهو على أهبة الاستعداد لقتاله، لذلك خف الشيخ الحفصي بقواته يعاجل جيش الميورقي قبل دخوله إفريقية عام ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م، وسار نحو بلاد الجريد جنوباً عند قابس، وثم جبل نفوسة حيث كان الميورقيون يجتمعون مع حلفائهم، والتقى الفريقان عند جبل نفوسة، وهاجمت العرب ميسرة الجيش الموحدى وحققَت نجاحاً مبدئياً، فأدى ذلك إلى انكشاف ميسرة الجيش الموحدى وانهزم قسماً من القوات التي وجدت فيه، ولكن الشيخ عبد الواحد الحفصي ثبت ثباتاً عظيماً في المعركة، وقلب الكرة على جيش الميورقي بن غانية، فانهزمت جموعه، وولوا الأدبار، وعساكر الموحدين تأخذهم أسراً وقتلاً، وكاد الموحدون أن ينفوهم عن آخرهم لولا دخول الليل، واستولى الموحدون على جميع أسلاب وممتلكات يحيى وعتاد جيشه وأسلحته، وكانت هذه الضربة القاصمة والنهائية ليحيى بن غانية الذي لم تعد تقوم له قائمة بعد هذه المعركة، ولم يعد له ذكر على الصعيد السياسي العسكري ووقع اليأس في قلبه المنكسر، وعاد الشيخ عبد الواحد الحفصي مظفراً منتصراً، وأبلغ الخليفة الناصر برسالة منه يخبره

(١) وهم من الفرقة التي كانت قد قدمت بلاد المغرب برفقة مملوك صلاح الدين الأرمني قراقوش.

بالقضاء على قوة بني غانية، ووضع الحد النهائي لتمردهم على ممتلكات دولة الموحدين^(١).

وهكذا كانت النهاية الأخيرة لقوة بني غانية على يد الشيخ الحفصي الذي استطاع تحطيم هذه القوة الكبيرة في حقبة قصيرة، لا سيما عندما توجه أخو يحيى بن غانية إلى الشيخ الحفصي، وقد فارق أخيه رغبة منه في الانضمام إلى معسكر الموحدين، حيث كانت وفاة يحيى بن غانية بعد معارك متفرقة، وقد انفض عنه معظم أصحابه، وقتل أكثر أهله، فأصبح طريداً شريداً حتى وافته المنية عام ٦٣١هـ/١٢٣٣م^(٢)، وبذلك أسدل الستار عن دولة بني غانية للأبد، على الرغم من أن ملوك بني غانية كانوا شديدي المراس، يتصفون بالقوة، والجرأة والشجاعة، وقد ناصبوا العداء للموحدين، وعجزت جيوش الدولة الموحدية على القضاء عليهم بصورة نهائية إلا على يد الشيخ الحفصي الذي علت مكانته، وأصبح الرجل الثاني في دولة الموحدين بعد أسرة بني عبد المؤمن.

٤ الجواز إلى الأندلس والاستعدادات العسكرية لمعركة العقاب:

كان الخليفة الناصر منذ أن تولى عرش الموحدين مشغولاً بإخماد الانتفاضات والفتن التي قامت ضد الموحدين في بلاد المغرب وإفريقية، ولم يكن الخليفة في منأى عن أحداث وأحوال بلاد الأندلس، لكنه فضل أن يتخلص من الفتن والاضطرابات في تلك البلاد بالدرجة الأولى ثم ينطلق إلى بلاد الأندلس، حيث المتغيرات الجديدة، وطبول الحرب عادت للقرع من جديد من قبل مملكة قشتالة بالدرجة الأولى، وغيرها من ممالك الصليب المسيحي بالدرجة الثانية وقبل الحديث عن معركة العقاب فلا بد من تقديم عرض مبسط لتلك الأحوال والمتغيرات السياسية بين القوى الممثلة بممالك المسيحية في جانب، وامبراطورية الموحدين الإسلامية على الطرف الآخر:

لقد ذُكر قبل قليل انشغال الخليفة الناصر منذ أن تربع على عرش الخلافة في حوادث إفريقية والمغرب عن جزيرة الأندلس، وقد طال ذلك لاسيما

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٢٥٤-٢٥٦؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٢) رسالة ماجستير: أثر ثورة بني غانية على الدولة الموحدية، جامعة بوزريعة، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٥٤.

صراع الخليفة مع بني غانية، والتخلص بصورة نهائية من وجودهم في جزر البليار وإفريقية كما ذكر ذلك سابقاً، وهذا الإنشغال عن أحداث ومتغيرات الأندلس قد أعطى دافعاً كبيراً وفرصة توصف بالذهبية لممالك إسبانيا في التفرغ لاستئناف نشاطها العسكري ضد مسلمي جزيرة الأندلس بالدرجة الأولى، خاصة وأن الهدنة المعقودة منذ زمن الخليفة المنصور مع مملكتي قشتالة وليون قد أخذت بالانتهاء، واستعدت قشتالة وعلى رأسها الملك ألفونسو الثامن لغزو الأندلس، محاولة منه لرفع الحيف الذي وقع عليه منذ أيام هزيمة الأرك، وتحصن ألفونسو في قلعة شلبطرة، وهي قلعة منيعة قريبة من قلعة رباح التي سيطر عليها المنصور منذ أيام الأرك، وقام ألفونسو بشن الغارات على ممتلكات الموحدين متخذاً من شلبطرة مركزاً لنشاطه الحربي ضد المسلمين، وطالت غزواته أحواز مدن كثيرة مثل أندوجر، وجيان، وبياسة، حتى مرسية، ثم يعود مثقلاً بالغنائم إلى عاصمة ملكه طيطة، ونال المسلمون من أذاه الشيء الكثير، ومثل ذلك فعل بيدرو الثاني ١١٧٨-١٢١٣م ملك أراجون رداً على هجوم قام به الأسطول الموحيدي إلى مياه برشلونة، وأنزل بها خسائر كبيرة، وعاد مثقلاً بالغنائم، فقام بيدرو الثاني بمهاجمة بلنسية، وعاث فيها فساداً، واستولى على حصون فيها، وجاء الخليفة الناصر وفداً من شيوخ شرق الأندلس، وقد أخبروه بالاعتداءات التي قام بها البرشلوني على أراضي المسلمين، فوعدهم الناصر بالجواز إلى الأندلس، والتصدي لاعتداءات المسيحيين وتقديم العون لهم، وكان الخليفة الناصر قد استجاب لهذه الدعوة التي هزته من الداخل، وقرر الجواز إلى الأندلس، على الرغم أنه راسل والي تونس الحفصي يستشيريه باستئناف القتال إلى الأندلس، وقد نصحه بالتريث عن ذلك الموضوع، ولكن الخليفة الناصر لم يكثرث لرأي الشيخ الحفصي، وأرسل إلى جميع بلاد المغرب وقبائله، والأندلس، يستنهض الهمم على الجهاد، والجواز إلى الأندلس، ومحاربة ممالك إسبانيا .

جهز الخليفة الناصر آلات الحرب ومعدات، وانطلق مجاهداً من مراكش عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م، وسار بداية إلى رباط الفتح، ومكث هنالك شهرين، ثم قصد قصر كتامة، ولكن مسألة تأمين أقوات الجيش أثناء عبوره إلى الأندلس كانت صعبة، وعانى الجيش خلالها مصاعب كثيرة، وأدى ذلك لغضب الخليفة الناصر بسبب الإهمال والاختلاس، وقبض الناصر على المقصرين وأرسلهم

مصفيدين إلى فاس، ثم أمر الخليفة باستكمال التجهيزات، وعبر المجر إلى الأندلس، ووصل الناصر إشبيلية، وهناك تم استدعاء المقاتلين من كافة بلاد الأندلس وتجمعت الجيوش في إشبيلية، فكانت أعداد العساكر من الفرسان والرجالة كثيرة الذي يفوق الوصف، فقد ذكر ابن أبي زرع ضخامة ذلك الجيش عندما ارتحل مصاحباً للخليفة الناصر بقوله: "... وارتحل إلى إشبيلية في جيوش لا تحصى وأمم كالجراد المنتشر، قد ملأت السهل والوعر، وضاق بهم المتسع والنجد والغور، فأدرك الناصر الإعجاب لما رأى من كثرة جنوده، فقسم الناس على خمسة فرق، فجعل العرب فرقة، والمطوعة فرقة، وكانوا مئة وستين ألفاً مابين فارس وراجل، وقواد الأندلس وحشودها فرقة، والموحدين فرقة " (١)، وكانت أخبار تلك الجيوش قد وصل إلى ممالك الصليب، فقاموا بإفراغ المناطق القريبة من تخوم بلاد المسلمين من السكان، وأول من وصل من ملوك إسبانيا يقدم الولاء والطاعة للخليفة الناصر هو ملك بيونة (٢) الذي طلب الصفح والعفو من الخلفة الموحيدي، وقد أكرمه الخليفة الناصر، ووعده بالأمان له ولبلاده، وهنا لا بد من الحديث قليلاً عن الجانب الإسباني، وكيف كانت أعمال التعبئة العسكرية والتفاهات السياسية بين تلك الممالك؟

كما ذكر أعلاه فقد تحصن ألفونسو الثامن في قلعة شلبطرة المنيعه واتخذها مقراً لأعماله الحربية، ولكن ألفونسو هذه المرة، أراد أن يسبغ على حملته صفة القدسية، والمباركة البابوية لتكون حرباً صليبية بامتياز، فقام بإرسال مبعوث من عنده إلى البابا لكي يطلب له العون من جميع ممالك الصليب، ويحصل على أكبر لفيف من المقاتلين في صفوفه وبمباركة بابوية محضة، ولأقى طلبه هذا قبولاً كبيراً من مناطق كثيرة خاصة من جنوب فرنسا المركز الصليبي المتقدم آنذاك في إرسال الحملات الصليبية إلى قواعد بلاد الإسلام، وقد تكفل البابا لمن خرج في

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٣٤.

(٢) لقد ذكر المحقق في حاشية كتاب روض القرطاس أن الذي قدم على الخليفة الناصر هو ملك بنبلونة لا بيونة، وذكر ابن خلدون في كتاب العبر أن الذي قدم عليه هو الببوج صاحب ليون الذي كان قد لجأ إلى الموحدين منذ زمن، والأقرب إلى الصواب هو صاحب بنبلونة كما ذكر المحقق في حاشية روض القرطاس؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٣٥-٢٣٧؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٣٥.

هذه الحرب بالغفران التام، وهكذا تضافر الدعم الصليبي للإمبراطور ألفونسو الثامن، وتوفرت تحت يديه أعداداً عظيمة من العسكر المتطوعة والوافدة إليه من قبل البابا، وهناك نقطة أخرى قد قام ملك قشتالة بها وهي إبرام الصلح والتفاهم مع ملوك الممالك الإسبانية الأخرى، مثل آراجون والبرتغال وغيرها من أجل ضمان حيادهم، ودعمهم بنفس الوقت في قتاله جيوش المسلمين، وقد جاء في رواية صاحب كتاب " المعجب " بأن حشود ألفونسو الثامن كانت ضخمة وكبيرة استتفرت بلاداً كثيرة، حتى ذكر وصول نفيده إلى صاحب القسطنطينية في هذه الحرب بقوله: "... وخرج الأذفونش _ لعنه الله _ إلى قاصية بلاد الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن السام ^(١)، حتى بلغ نفيده إلى القسطنطينية، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشونوني لعنه الله ! " ^(٢)، إلا أن ذلك الحشد الكبير الذي نظمه ألفونسو الثامن لم يكن فور وصول قوات الخليفة الناصر إلى أرض الأندلس، بل كان بعد فتح الخليفة الناصر حصن شلبطرة الذي سوف تُذكر حادثة فتحه من قبل الجيش الموحيدي عشية وصول الخليفة الناصر للأندلس.

٥ فتح حصن شلبطرة:

بعد وصول الخليفة الناصر إلى إشبيلية، خرج منها يريد بلاد قشتالة، فانطلق عام ٦٠٨هـ / ١٢١١م من إشبيلية إلى جهة جيان ثم بياسة، ثم اتجه شمالاً نحو قلعة شلبطرة، وهذه القلعة هي غاية في المنعة وهي حصن لايرام، قد تطاول في البنيان إلى عنان السماء، فوق ريو مرتفعة بالقرب من جبال الشارات، وكان الإسبان يتخذونه مكاناً يحتمون به ويقصدونه، ولم تكن هذه القلعة العظيمة هي الوجهة المقصودة للناصر، ولكن وزيره ابن جامع أبو سعيد ^(٣) هو الذي أقنعه

(١) لقد ذكر المحقق في كتاب المعجب ورود تلك الكلمة في أصل المخطوط، وأنه رجع أن تكون هذه الكلمة " ومن ألمان "؛ المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣١٩.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٣) الوزير الموحيدي الذي استوزه الناصر ولم يكن موفقاً بذلك الاختيار، والذي يعرف عن هذا الوزير بأنه كان له دوراً كبيراً في إخفاق المسلمين في موقعة العقاب التي فني فيها قسماً كبيراً من شباب الأندلس والمغرب، ولم تقم بعدها قائمة تذكر للقوة العربية الإسلامية في الأندلس باستثناء دولة بني الأحمر في غرناطة، وكما ذكر المؤرخ السلاوي أن الوزير ابن

بوجوب السيطرة على هذه القلعة الاستراتيجية أولاً ثم استكمال المسير إلى بلاد قشتالة فنزل الخليفة الناصر عند رأيه، وألقى حصاراً كبيراً حول حصن شلبطرة، ونصب عليه أعداداً كبيرة من المنجنيقات الضخمة بعد أن سيطروا على أرباض شلبطرة وحصناً أمام شلبطرة يدعى حصن اللّج، وكانت رميات المناجق بالحجارة الكبيرة الصماء لا تطاق ، وقد ضاق المدافعون عن شلبطرة ذرعاً بها، وأرسلوا إلى ألفونسو وهو في طليطلة يستأذنه في تسليم الحصن مصطحبين معهم حجارةً من المناجيق التي ترمى بها القلعة، ووافق ألفونسو على طلب الحامية تسليم الحصن للمسلمين لأنه أيقن بأن لا إمكانية له بإنجاده وفيه القوة الكبيرة من عسكر المسلمين، ومعهم آلات الحرب الكثيرة، والسلاح، والعتاد وغير ذلك، وخرج القشاليون بمن معهم بالأمان إلى سيدهم لا يلوون إلا النجاة بأنفسهم، ودخل الجيش الإسلامي هذا الحصن المنيع، وأعادته إلى أملاك الدولة الموحدية، وهنا يتوقف المرء قليلاً عند المصادر التاريخية الإسلامية التي ذكرت حادثة فتح شلبطرة، حيث كان هناك اختلاف واضح بين تلك الروايات حول مدة الحصار، وحول النتائج التي ترتبت على هذا الحصار، فقد ذكر المؤرخ الحميري صاحب "الروض المعطار" أن حصار شلبطرة استمر إحدى وخمسين ليلة، وتم تسليم الحصن بالأمان، أما المؤرخ ابن أبي زرع فقد ذكر أن جيش الموحدين قد استمر محاصراً للحصن ثمانية أشهر، وذكر عبد الواحد المراكشي أن الحصار كان وجيزاً دون الإشارة إلى طوله أم قصره، والمؤرخ الذي انفرد برواية مفصلة حول الحصار وماترتب عليه من نتائج هو المؤرخ ابن أبي زرع، حيث أشار إلى انفراد وزير الخليفة أبو سعيد بن جامع بالقرار، ومعه رجلاً آخر يدعى ابن المثنى، وكان الخليفة الناصر لا يقوم بعمل إلا بمشورتها، وكان الوزير ابن جامع رجلاً غير مشهور أو معلوم النسب عند الموحدين، وكان دائم السعاية والتكيل لشيوخ الموحدين الكبار الذين اعتمد عليهم الناصر، وكانوا عنده أهل مكانة ورأي، فانفض

جامع كان غاية في سوء التدبير وتنفيذ غاياته لصالحه ولو كان ذلك على حساب غيره، وهو الذي أشار على الناصر بإبعاد شيوخ الموحدين أصحاب الخبرة والمشورة عن مجلس الناصر مما جر ذلك الوهن وسوء الترتيب والتنظيم على إدارة الخليفة الناصر، ولاحقاً سببت نقمة العناصر الأندلسية على الجيش الموحيدي وزادت الأمر سوءاً؛ الناصري: الإستقصى في أخبار المغرب الأقصى، ج ٢، ص ٢٢١-٢٢٢.

شيوخ الموحدين من مجلس الناصر، بسبب سوء معاملة ابن جامع لهم، وأصبح اعتماد الناصر الموحي على هذين الرجلين، كما أسلفنا سابقاً، وكان حصار شلبطرة والإصرار على فتحها من قبل الوزير ابن جامع قد استوقف الناصر على حصارها، وهذا الحصار كما أشار ابن أبي زرع قد استمر طويلاً حتى ثمانية أشهر ودخل الشتاء، ونقصت المؤن، واشتد البرد، وفترت همة العساكر على القتال، وصحیح أن الجيش تمكن من فتح شلبطرة، وخسر ألفونسو هذا الحصن المنيع والمقل العظيم، إلا أنه من جانب آخر قد أعطى ألفونسو الثامن ملك قشتالة فرصة كبيرة للوقوف على قوة المسلمين، ومكنته هذه المدة الطويلة للحصار من طلب الدعم، واستنفار الهمم من جميع بلاد المسيحية كما ذكر سابقاً، لذلك كانت قوة الممالك الإسبانية في المعركة المقبلة كبيرة وضخمة تعادل قوة الموحدين، بل وتزيد عليها، وقد تألف هذا الجيش العرمرم من جيوش قشتالة، وأراجون، ونافارا وإمدادات للمقاتلين من جليقية والبرتغال، وعلى رأس هذا كله مباركة البابا صاحب المكانة الكبيرة في أمم المسيحية آنذاك، وكان ألفونسو الثامن كما ذكر يوسف أشباخ في كتاب "تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين" قد تلقى دعماً إضافياً أيضاً من المؤن والسلاح من جميع أنحاء فرنسا وإيطاليا، وكان العدد الذي اجتمع عند ألفونسو الثامن ملك قشتالة مكوناً من عشرة آلاف فارس، وخمسين ألفاً من الرجال، وألفين من البارونات وحاشيتهم الخاصة بهم، أي تعداد الجيش الكلي مايزيد على سبعين ألف مقاتل، وقام البابا بإلقاء خطبة أمام جموع الصليبيين بنفسه، حثهم على القتال ضد المسلمين، كما أنه حث رجال الدين على لبس السواد والسير حفاة، وصيام ثلاثة أيام طلباً من الله تحقيق النصر ضد المسلمين^(١)

وكانت هذه التحركات التي قام فيها ألفونسو الثامن ملك قشتالة غير خافية على الخليفة الناصر الموحي، فعندما فتح الناصر شلبطرة، استنفر الناس للجهاد في جميع الجهات، وصار لديه جموع عظيمة من المقاتلين والمتطوعة والعبيد، وقد ذكر الناصري أن أعداد المقاتلين التي خرجت بالمجموع العام ستمئة ألف مقاتل، وهذا تقدير كبير من الحشود، وهذا الرقم الذي ذكره الناصري هو قريب أيضاً من أعداد الجيش الموحي التي ذكرها المؤرخ ابن أبي زرع حيث ذكر بأن

(١) أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص ٣٥٨-٣٦٠.

أعداد العساكر من المتطوعة قد بلغ مئة وستون ألفاً مابين فارس وراجل، ومن حشود الرجال ثلاثمئة ألف راجل، ومن العبيد الذين يمشون بين يديه بالحرب ثلاثون ألفاً، ومن الرماة والأغزاز عشرة آلاف هذا دون المرتزقة من الموحدين وزناتة والعرب^(١)، أي أن أعداد المقاتلين الذي اشتركوا في هذه الحرب يفوق نصف مليون مقاتل، وعلى الرغم من تقارب الأعداد التي ذكرها كلا المؤرخين، وإن كان هناك نقلاً عن مصادر أخرى فإن هذا العدد في رأي الطالب هو رقم مبالغ فيه كثيراً، بسبب النظر إلى تلك الأيام وإلى مراكز أمداد الجيش وتمويله، ناهيك عن المنطقة التي الجبلية التي ستحدث المعركة فيها هي منطقة في أوعار كثيرة، ولا تتسع تلك المنطقة لهذه الأعداد الكبيرة من الناس، لذلك فمن المحتمل أن تكون هذه الأعداد مبالغ فيها والتعداد الحقيقي لجيش الناصر هو أقل من ذلك والله أعلم.

٦ أحداث المعركة ونتائجها وبداية انهيار دولة الموحدين:

الآن بعد ذكر مكونات الجيش القشتالي مدعوماً بصليبيي أوروبا تقريباً مع الغالبية الفرنسية، والجيش الموحيدي بفرقه الخمسة التي ذكرت سابقاً، انطلق ألفونسو الثامن من قاعدة ملكه طليطلة التي غصت بالوافدين إليها من جميع أنحاء أوروبا، وانتظمت جيوش الحملة الصليبية في ثلاثة جيوش جرارة من أجل تنظيم عملية التمويل وإمداد الجيش على نحو أفضل، فكان الجيش الأول في الطليعة الذي ضم الوافدين إلى ملك قشتالة، وهذا الجيش يقدر تعداده بين سبعين ألف إلى مئة ألف مقاتل، ويقوده القائد القشتالي لويز دي هارو، ويساعده الأساقفة ومطارنة المقاطعات الفرنسية القريبة من قشتالة، والجيش الثاني كان بقيادة الملك بيدرو الثاني مؤلف من الأراجونيين والقطلونيين، والجيش الثالث أضخم هذه الجيوش ويتألف من جنود قشتالة، وليون، والبرتغال، وعدد فرسانه لوحده دون مشاته ثلاثين ألف فارس، وتحركت الجيوش الثلاثة من طليطلة عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م، وعلى الجهة المقابلة فقد تحرك الخليفة الناصر من إشبيلية من محرم من نفس العام متجهاً إلى جيان قاصداً بذلك جيوش إسبانيا، وكانت طلائع الصليبيين قد وصلت إلى الحدود الإسلامية، واقتحمت حصناً صغيراً يدعى حصن

(١) الناصري: الاستقصا، ص ٢٢٠؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٤٠.

ملجون وقتلت حاميته الصغيرة، ثم سارت عساكر قشتالة مسرعة إلى قلعة رباح تلقى عليها حصاراً وتهاجمها جيوشها الثلاثة من نواحيها الثلاثة أيضاً، وكانت قلعة رباح من أمنع القلاع والحصون على الحدود الإسلامية مع مملكة قشتالة، وكانت تقع إلى الجنوب من نهر يانة، وقد لاقت الجيوش الصليبية صعوبة في عبور النهر، إذ أن القوات الإسلامية قد وضعت على طرفيه الخوازيق والصنانير لإعاقة تقدمهم، واختلفت الآراء في وجوب مهاجمته، واقتحامها أو تأجيل افتتاحها إلى مابعد المعركة، فوقع الخيار على مهاجمة القلعة، وتم بالفعل مهاجمة القلعة بشدة وحوصرت القلعة حصاراً شديداً، ولكن تحصينات القلعة العظيمة صمدت وحالت دون سقوطها، بالإضافة إلى بسالة القائد الأندلسي أبو الحجاج بن قادس من خيرة قواد الأندلس، وجنوده الذين صمدوا بكل قوة وعددهم سبعين مقاتلاً أمام هذه القوة الكبيرة من حشود الصليبيين، وكان هذا القائد الأندلسي يبعث بالكتب إلى الخليفة الناصر وهو على شلبطرة الكتاب تلو الآخر، ويطلب النجدة منه، ولكن وزيره ابن جامع لم يكن يُطلع الخليفة على كتب ابن قادس، ولا يخبره بأحواله ولا أحوال من معه من عساكر المسلمين تحت الحصار، وهذا بدوره أطال مدة الحصار، وعندما أيقن ابن قادس أنه لم يعد بإمكانه الاستمرار في مقاومة الحصار، وأن النجاة بأرواح من معه من عسكر المسلمين وأسرهم هو الحل الأسلم بدلاً من فنائهم جميعاً، فعرض على ملك قشتالة تسليم القلعة بالأمان، والخروج بأنفسهم، وكسب حياتهم، فقبل ألفونسو ذلك العرض، وفضل عدم إراقة دماء أكثر من أجل تلك القلعة، وتسلمها ألفونسو ودخلها الإسبان، وهذا أدى إلى شقاق في معسكر ألفونسو لأن المتطوعة التي جاءت معه لم يرضوا بذلك الحل، وقبول خروج ابن قادس ومن معه أحياءً دون قتلهم عن آخرهم، وعاد قسماً لا يستهان فيه من المتطوعة إلى بلادهم، وقد أشار المؤرخ عبد الواحد المراكشي إلى ذلك الخلاف الذي وقع في معسكر ألفونسو بقوله: "... وخرج الأذفونش - لعنه الله - من مدينة طليطلة في جموع ضخمة، حتى نزل على قلعة رباح وهي كانت للمسلمين، افتتحها المنصور أبو يوسف في الوقعة الكبرى ^(١) فسلمها إليه المسلمون الذين بها، بعد أن آمنهم على أنفسهم؛ فرجع عن الأذفونش - لعنه الله - بهذا السبب جموع كثيرة، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة

(١) المقصود فيها معركة الأرك.

المذكورة، وقالوا: إنما جئت بنا لتفتتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين، مالنا من حاجة في صحبتك على هذا الوجه! " (١)، وخرج ابن قادس بمن معه من المسلمين من أنجاد الأندلس، وسار ابن قادس ومعه صهره إلى معسكر الخليفة الناصر ليبلغاه بالحالة الصعبة والمعاناة الشديدة التي وصلوا إليها حتى سلموا قلعة رباح إلى ملك قشتالة، وقد التقى بهم قواد الأندلس وفرحوا لقومهم، ولكن ابن جامع وزير الناصر قام بالقبض عليهما وحال دون وصولهم إلى الخليفة الناصر، وقام بالوشاية بهم عند الخليفة، ويحملهم مسألة سقوط قلعة رباح على عاتقهم، وطبعاً كان نبأ سقوط قلعة رباح بيد الإسبان مثل الصاعقة على صدر الخليفة الناصر، وأمر بقتلهما بالرمح على الفور، وهذا أدى إلى تذمر كبير من قبل الأندلسيين وبغضهم وكرههم للخليفة الناصر والموحدين بشكل عام، وقام ابن جامع زيادة على ذلك، وأحضر قواد الأندلس وصرفهم عن قيادة الجيش، وذكر ابن أبي زرع قول ابن جامع لقواد الأندلس: "قال لهم: لا حاجة لنا بكم، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾" (٢)، وهذا التصرف ستكون له عاقبة كبيرة كما سيذكر، وخطأ الخليفة الناصر هو أكبر من خطأ وحماقة وزيره، ولم يتعلم من والده المنصور، أن خير الجند والقواد هم جنود الأندلس، ولم يقدم المنصور على معركة الأرك إلا واستشار قواد الأندلس، وأخذ برأيهم خاصة دونما غيرهم .

وعندما علم كلاً من الخليفة الناصر، وألفونسو وقوع شلبطرة بيد الموحدين وقلعة رباح بيد القشتاليين تحركت عساكر الطرفين، والتقت في موضع يدعى حصن العقاب، وهو على مقربة من قلعة رباح وضربت المصاف للقتال، وقد صور ابن أبي زرع أحداث المعركة بتفاصيل لم يجدها الطالب عند غيره من المصادر الأصلية غير التي نقلت عنه، باستثناء المصادر التي نقلت عن مصادر إسبانية وترجمت إلى العربية مثل كتاب " تاريخ عصر المرابطين والموحدين " ليويسف أشباخ، ولذلك كان الاعتماد عليهما في ذكر تفاصيل المعركة، فيذكر المؤرخ ابن أبي زرع بأنه عندما نصبت القبة الحمراء للناصر، واصطفت حوله

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣٢١.

(٢) سورة التوبة: ٤٧.

العبيد من كل جانب بالسلاح والعتاد، والساقات والطبول مع الوزير ابن جامع وقد شكل هؤلاء سلسلة حديدية حول الخليفة الناصر وكأنه جالس في برج منيع وأقبلت إليهم جموع القشتاليين، وأعطى الخليفة الناصر إشارة بدء الهجوم والقتال، وكانت الطبول تفرع بشدة ولها أصواتٌ مدوية، والتقى الفريقان في هذه المعركة، وفي البداية شن فريق المتطوعة هجوماً عنيفاً على القشتاليين، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا تلك الصفوف، حيث كان فرسان الفرق الدينية التي تمثلت بالداوية والاسبترية متواجدة داخل الجيش القشتالي، وقتل من المتطوعة أعداداً كبيرة، ثم قام القشتاليون بهجوم عنيف، وطاردوا به المهاجمين فثبت المسلمون، وقابلوا هذا الهجوم العنيف بصمودٍ أقوى مما اضطر الجنود القشتاليين إلى التراجع والفرار، وانسحب معهم فرسان الفرق الدينية، وكانت البداية طيبة بالنسبة للمسلمين، ولما رأى ملك قشتالة ألفونسو الثامن تراجع قواته وجنود حلفائه أراد السير بنفسه مع قواته الاحتياطية المكونة من عساكر طليطلة وليون، وقال عبارته المشهورة: "إن الساعة قد حانت لنلقى الموت المجيد" ^(١) إلا أن القادة ورجال الدين منعه من ذلك، وأرسلوا قوة تشكل النخبة في الجيش الصليبي لدعم الجيش الذي تراجع إلى الورا، وقاموا بهجوم كاسح استطاعوا من خلاله النفوذ إلى داخل المعسكر الإسلامي، حيث كان الخليفة الناصر محاطاً بحرسه داخل السلسلة الحديدية، واستطاعت تلك القوة أن تخترق صفوف المسلمين، وثبت المتطوعون في المعركة، وقتلوا عن آخرهم، وهذا كان على مرأى عساكر الأندلس والموحدين والعرب، ولم تحرك تلك الفرق ساكناً، وبعد أن فرغت عساكر المتحالفة الإسبان من المتطوعة، حملت على باقي القوات الإسلامية حملة شديدة ولكن قوة المسلمين لم تكن تصمد على الرغم من كثرة الإعداد والحشود، وأول من لاذ بالفرار هم قواد الأندلس وحشودهم، لأنهم لم ينسوا أفعال وزير خليفة الموحدين ابن جامع الشنيعة مع قائدهم الباسل ابن قادس، وهذا أدى بدوره إلى اختلال توازن الجيش الإسلامي، وكثر القتل في صفوف المسلمين، وتراخت عزائم المقاتلين، وثبت الخليفة الناصر في المعركة، وكان العبيد الذين يتولون حمايته من كل جانب، قد طالتهم أيدي المهاجمين المسيحيين، وقتل معظمهم والخليفة الناصر قد سكن في مكانه، وهو يرى القتل في صفوف المسلمين، لاسيما وأنه قد رأى مقتل ابنه الأكبر أمام أعينه

(١) أشباح: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ج ١، ص ٤٠٧.

وهو يقاتل في المعركة، ففضل كما يبدو الهلاك على العيش، وأوشكت الروم أن تصل إليه، وهو يقول " صدق الرحمن كذب الشيطان " وقعد في خيمته، فجاءه أعرابي على فرس سريع وطلب منه أن يركب فرسه ويغادر أرض المعركة، وفعلاً ركب الناصر على الفرس السريع في نفرٍ يسير من أصدقائه المخلصين، وتوجه إلى بياضة ثم إلى إشبيلة وغادر إشبيلية إلى الحضرة المراكشية، ولم تغن عن الناصر جموعه العظيمة التي تجتمع لغيره من ملوك الموحدين، وظن أن جموعه العظيمة ستجلب له النصر، وما النصر إلا من عند الله، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً^(١).

أما على الجانب الصليبي، فقد تحقق لهم نصراً عظيماً لم يكونوا يطمحوا لنصر مثله منذ القدم، فقد فاضت أيدي هؤلاء بدماء المسلمين، وقتل من المسلمين ما يفوق الوصف، وتعال الصياح في معسكر ألفونسو "أن لا أسر إلا القتل، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره" ولذلك كانت معركة العقاب من أكثر المعارك التاريخية فتكاً بالمسلمين، ولو تحدث المرء بأنه لم تقم للمسلمين قائمة بعدها في أرض الأندلس لكان محقاً في ذلك، وبالعودة إلى المصادر التاريخية التي ذكرت تعداد المسلمين الذين مضوا نحبهم في هذه المعركة، فقد كان هناك اختلاف واضح ما بين المصادر الإسلامية والمصادر الإسبانية، فعلى سبيل المثال ذكر في حاشية كتاب المؤرخ عبد الواحد المراكشي " المعجب " عندما تحدث المؤرخ عن معركة العقاب أن تعداد القتلى في صفوف المسلمين وقد جاء كلامه بالصيغة التالية: " بلغ عدد القتلى من المسلمين في هذه المعركة مئات الآلاف، يقول الكثير إن عددهم بلغ خمسمائة ألف، والمقل إنهم مئة ألف؛ ولم يجز على مسلمي الأندلس في تاريخهم الطويل مثل ما جرى عليهم في هذه الواقعة المشؤومة"^(٢)، وكان المؤرخ ابن أبي زرع قد ذكر في كتابه " الأنيس المطرب " أنه لم ينج من الألف إلا واحداً، وهذا رقم كبير عندما يذكر ابن أبي زرع أن مجموع القوات الإسلامية كان مايزيد على خمسمئة ألف مقاتل^(٣)، وكل المصادر الإسلامية الأخرى قد ذكرت أرقاماً قريبة من رواية ابن أبي زرع أو رواية عبد الواحد المراكشي، وهذا يبعث

(١) حول الموقع الجغرافي للمعركة ينظر إلى خارطة المعركة ص ٢٣٧.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣٢٢.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٤٠-٢٤١.

المرء على الإستغراب عندما يرى بأن المصادر الإسبانية قد ذكرت أن أعداد القتلى قد كانت في صفوف المسلمين كبيرة، ولكن ليس إلى الدرجة الأعداد التي ذكرتها المصادر الإسلامية، فقد ذكر المؤرخ يوسف أشباخ في كتاب " تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين" عندما ترجم عن مصادر إسبانية (١) إلى العربية عن حادثة معركة العقاب بأن ثلاثة شهود عيان قد حضروا المعركة وهم الملك ألفونسو الثامن، ومطراني طليطلة وأربونة عن خسائر المسمين، فردريك الطليطلي يقدرها بمائتي ألف شخص، والملك ألفونسو بمئة وثمانين ألف فارس عدا المشاة، بينما مطران أربونة يقدر الخسائر بستين ألف، ومن هلك بالفرار كان كثيراً، والروايات المسيحية جميعها تتفق في أن أعداد القتلى من الإسبان كانت ضئيلة جداً، بينما أعداد القتلى من المسلمين كانت لا تتجاوز مئتي ألف مقاتل، وهذا بالطبع لا يتوافق مع الروايات الإسلامية التي ذكرت أعداداً كبيرة كما ذكر ذلك أعلاه (٢).

ج- وفاة الخليفة الناصر:

لم تطل الأيام بالخليفة الناصر الموحي بعد وصوله إلى مراكش حيث عقد البيعة لولده يوسف الملقب بالمستنصر، وكان ذلك في العشرة الأخيرة من ذي الحجة لعام ٦٠٩هـ/١٢١٢م، ودخل الناصر بعد ذلك قصره واعتزل الناس، وذكر ابن أبي زرع أنه مات مسموماً بفعل وزرائه لأنه نوى البطش بهم، فعاجلوه بدس السم له بواسطة إحدى جواريه، وكان ذلك في شعبان من العام المقبل ٦١٠هـ/١٢١٣م (٣).

وتعرف معركة العقاب عند الإسبان باسم مشهور في المصادر الإسبانية " لاس نافاس دي تولوزا" (Las Navas De Toloza) أي هضاب أو عقاب تولوسا

(١) من هذه المصادر التي ترجم عنها الدكتور يوسف أشباخ هو كتاب مطران طليطلة رديك الطليطلي الذي اكتفى أشباخ بذكر اسم المصدر فقط دونما أن يذكر عن كتابه أية تفاصيل أخرى.

(٢) أشباخ: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ص ٤٠٩-٤١٠.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٤١.

أو موقعة أبده، وأصبح هذا اليوم هو يوم احتفال رسمي عند المسيحيين سمونه ظفر الصليب (١).

وإذا أراد المرء أن يعطي مزيداً من الأسباب التي أدت إلى هزيمة العقاب غير التي ذكرت في سياق الحديث، فيذكر الطالب إلى ماذهب إليه المؤرخ عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب " المعجب " وهو تغير نوايا جند الموحدين على القادة فيما يتعلق بمسألة العطاء، حيث كانت تتقاضي العساكر أجورها في كل أربعة أشهر، ولكنهم في زمن الخليفة الناصر أبطئ عنهم ذلك، لاسيما عندما جمعهم وانطلق بهم إلى الأندلس قاصداً ملك قشتالة في هذه المعركة المشؤومة، فذكر المراكشي تقاعس مجموعة من العساكر لا يستهان بها عن حمل السلاح بقوله: "... وخرجوا وهم كارهون؛ فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسألوا سيفاً، ولا شرعوا رمحاً، ولا أخذوا قي شيءٍ من أهبة القتال، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك " (٢).

لقد كانت معركة العقاب من المعارك الخطيرة والفاصلة في التاريخ الإسلامي ككل، وعلى صعيد الأندلس بشكل خاص، فقد وضعت حداً كبيراً للتفوق الإسلامي في جزيرة الأندلس، وأصبح الآن يقابل التوسع وكسب مناطق النفوذ في شبه الجزيرة الإيبيرية تراجعٌ واندحارٌ واضح للقدرة الإسلامية، بعد أن عاشت عصرها الذهبي خلال مرحلة الخلفاء الموحدين الأقوياء مثل عبد المؤمن وابنه يوسف، وحفيده يعقوب المنصور وصولاً إلى عصر الناصر، وعلى العكس تماماً كان الجانب الإسباني قد استفتح بهذه المعركة عهداً جديداً من الانتصارات المتكررة، وأصبحت مدن الأندلس مرتعاً خصباً لاعتداءات ممالك إسبانيا، وأصبح الباب مفتوحاً على مصرعيه أمام حروب الاسترداد، وتهاوت مدنٌ أندلسية إسلامية جديدة في قبضة الإسبان مثل قرطبة وإشبيلية أعظم حواضر الإسلام في الأندلس، وستدخل الدولة الموحدية من الآن فصاعداً مرحلة الاضمحلال ثم التهاوي والسقوط لاحقاً على يد المرينيين من عائلة عبد الحق عام ٦٦٨هـ/١٢٧٠م.

(١) أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ص ٤٠٨-٤٠٩.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣٢٢.

النتائج

ومما سبق نستنتج مايلي:

١- عاشت دولة الموحدين عصرها الذهبي الزاهر في عهد الخلفاء الموحدين من بني عبد المؤمن حتى زمن الخليفة الناصر، وقد ساد الهدوء والسلام والاستقرار إلى حد ما بلاد الأندلس والمغرب وبلغ ذلك ذروته في عصر الخليفة المنصور، وكانت ميزات تلك الحقبة التي شهدت البلاد أن استظهر الإسلام في بلاد الأندلس، وتراجع المد الصليبي وما يسمى حروب الاسترداد أو يمكن القول إنه تجدد خلال تلك المرحلة.

٢- استطاع الموحدون أن يفرضوا أنفسهم كقوة عظيمة يحسب لها الحساب في مغرب البحر المتوسط، بما في ذلك بلدان غرب أوروبا وجنوب إيطاليا، بالإضافة إلى أن قوة الأساطيل البحرية التي ملكها الموحدون ساعدتهم إلى حد كبير في القضاء على منافسيهم خاصة أسرة بني غانية حكام جزر البليار لسنين طويلة، حتى زمن حكم الخليفة الناصر الذي تمكن من تقويض وجودهم كقوة كبيرة لها تأثيرها في الحوض الغربي من المتوسط.

٣- كان الانتصار الذي حققه المنصور ضد ألفونسو الثامن ملك قشتالة في معركة الأرك من أهم البواعث التي جعلت ملوك إسبانيا يطلبون ود الدولة الموحدية، وكان بمثابة فرض نوع من الهيمنة الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وارتداد قوى الممالك الإسبانية على نفسها، وهذا بدوره دفع ملوك تلك الممالك وعلى رأسها ألفونسو الثامن ملك قشتالة طلب الهدنة والصلح من سلطان الموحدين وخليفته يعقوب المنصور.

٤- كان تسلم الخليفة الناصر عرش الموحدين بعد أبيه المنصور تحول واضح في رسم معالم المسار الاستراتيجي والعسكري الذي وضعه خلفاء بني عبد المؤمن في بلاد المغرب والأندلس، وعلى الرغم من أن الخليفة الناصر قد وضع حداً نهائياً لتمرّد بني غانية حكام جزر البليار، وهذا بالطبع مالم يستطيع الخلفاء الموحدون قبله فعله منذ أن تسلمت أسرة بني عبد المؤمن بن علي زعامة الموحدين، إلا أنه ارتكب أخطاءاً جسيمة كان لها أثراً بالغاً

ليس على إضعاف دولة الموحدين وسقوطها فحسب، بل كان ذلك الأثر على إضعاف الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس ككل.

٥- لم يكن الخليفة الناصر يتمتع بالحنكة السياسية الكافية التي تمتع بها والده وجده من أجل إبقاء كفة موازين القوى في غرب المتوسط مرهونة بسيادة الإمبراطورية الموحدية وعظمتها، وكانت جوانب ذلك الضعف تتجلى في اعتماد الخليفة الناصر على مشوره حاجبه ووزيره ابن جامع الذي ذكر سابقاً، وغض الطرف عن سياسته الحمقاء في إبعاد كبار شيوخ الموحدين وقادة الأندلس الذين كان لهم تأثيراً عظيماً في مجلس والده المنصور، لاسيما فيما تعلّق بتنظيم القتال وجيوش المسلمين في أرض الأندلس باعتبارهم أعلم وأخبر من المغاربة الأفارقة في طبيعة بلادهم وعدوهم، وكان قتل القائد الأندلسي الشجاع ابن قادس وصهره الذين استماتوا في الدفاع عن قلعة رباح قبل تسليمها للقشتاليين من أعظم الأخطاء وأشدّها أثراً على الجيش الموحي، وكانت النتيجة تحاملاً شديداً من قادة الجيش الأندلسي على الخليفة الناصر ووزيره ابن جامع، وهذا بدوره دفعهم لترك أرض المعركة من أول مواجهة مع جيوش إسبانيا.

٦- كانت معركة العقاب من أشد المعارك تأثيراً على المسلمين منذ وجودهم في أرض الأندلس زمن بني أمية، حيث أفنت هذه المعركة أعداداً عظيمة من شباب المسلمين في الأندلس والمغرب، ولم تغن كثرة الجيوش وأعداد المقاتلين التي كانت تحت يد الناصر قبل تلك الموقعة المشؤومة، ولم يعلم أن النصر لا يكون إلا من عند الله وحده، وكان النصر حليفاً لأعدائهم بدلاً أن يكون بأيديهم.

٧- لم تقم قائمة للمسلمين في الأندلس بعد موقعة العقاب، وأوشكت مدن الأندلس أن تسقط برمتها بيد ممالك قشتالة والبرتغال وليون وغيرها من ممالك أوربة، لو تدارك عناية الله لمسلمي الأندلس بأن هيئ الله لها قواداً من أرض الأندلس والمغرب تدخلت للدفاع حماية للإسلام والمسلمين عما تبقى منها ضد حروب الاسترداد التي ازدادت وحشية ودموية بعد معركة العقاب.

٨- لم تسقط الدولة الموحدية بعد موقعة العقاب بصورة نهائية، ولكنها دخلت أنفاق السبات المظلم الذي لم يعد لها من خلاله تأثير فاعل على الساحة الاستراتيجية والعسكرية كقوة مؤثرة فاعلة في الحوض الغربي للمتوسط، وأخذت قوى جديدة تظهر على الوجود، وتحل مكانها شيئاً فشيئاً حتى كانت نهايتها على يد أسرة بني عبد الحق من بني مرين التي أنهت سلطانها، ودخلت حاضرتها مراكش عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م.

٩- ظهر في بلاد الأندلس زعيمين تنافسا على السيادة بعد اضمحلال سلطان الموحدين بها وهما: محمد بن يوسف بن هود^(١) الذي تزعم مناطق شرقي الأندلس، وتلقب بالمتوكل على الله وحكم باسم الخلافة العباسية ورفع شعار السواد، وامتدت مناطق سلطانه من الجزيرة الخضراء حتى المرية جنوباً، والزعيم الآخر الذي ظهر في وسط الأندلس ونافسه في السيادة هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس النصري المعروف بابن الأحمر^(٢) الذي اتخذ من جنوب الأندلس مركزاً لنشاطه، وستكون غرناطة هي المركز والقاعدة الكبيرة لدولته المستقبلية، وفي بلاد المغرب ظهرت هناك ثلاثة أسر حاكمة خرجت من أنقاض الدولة الموحدية المتهاكمة، وقد توزعت بلاد المغرب وتنازعت على سلطانه لاحقاً، وهي الأسرة الحفصية في تونس التي أسسها الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص، الذي عينه الخليفة

(١) محمد بن هود الجذامي هو الذي قام بشؤون الأندلس بعد انقراض دولة الموحدين، وكان قد ملك مرسية وإشبيلية وقرطبة، ونازل ابن الأحمر الذي تزعم في جنوب الأندلس وتلقب عدة ألقاب منها أمير المسلمين؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج ٢ ص ٢٤٦؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٧٤.

(٢) عقدت له بالبيعة بداية في أرجونة بالقرب من قرطبة، ثم امتد سلطانه على كافة المناطق التي تبقت بيد المسلمين في الأندلس بعد أن هزم ابن هود ثلاثة مرات؛ وكانت دولته آخر دول الإسلام وآخر معقل من معاقل الإسلام في بلاد الأندلس، الصفي، ابن أبيك: الوافي بالوفيات، اعتناء س. ديدرينغ، دار صادر بيروت، ط ٣، بيروت، ١٩٩١م، ج ٥، ص ٢٥٥.

الناصر على بلاد إفريقية الشمالية وحتى حدود المغرب الأوسط، وأسرة بني زيان ملوك المغرب الأوسط^(١)، وبني مريين ملوك المغرب الأقصى^(٢).

(١) أو بنو عبد الواد كما هو السائد في تسميتهم، ينتمي بنو عبد الواد إلى الأسرة العلوية الشريفة، واتخذ بنو عبد الواد من مدينة تلمسان حاضرة لملكهم، وشكلوا أسرة حاكمة على المغرب الأوسط الذي عرف بالجزائر، وكان بنو عبد الواد قد انحازوا إلى الموحدين عندما ملكوا المغرب الأوسط ثم انفصلوا عنهم وكونوا أسرة حاكمة استقلت في حكم المغرب الأوسط؛ ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٨٣-٨٤؛ التنسي، محمد بن عبد الله: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تح: محمود آغا بوعياض، موفم للنشر، الجزائر، ٢٠١١م، ص ١١١-١١٢.

(٢) يعود نسب بني مريين إلى قبائل زناتة، ويعد بنو مريين أنفسهم من أشرف قبائل زناتة فخراً وشرفاً ونسباً، ويرفع بعضهم نسب بني مريين إلى الخليفة علي بن أبي طالب؛ ابن أبي زرع: الانيس المطرب، د.م، ص ٢٧٨-٢٧٩، ابن الأحمر، اسماعيل: روضة النسر في دولة بني مريين، المطبعة الملكية، ١٩٦٨م، ص ٨.



الشكل (٧) مؤنس، حسين: الأطلس التاريخي، ص ١٠٣.

خامساً-الفصل الرابع:

مدن الجمهوريات الإيطالية البحرية في الحوض الغربي للبحر
المتوسط خلال العصر الموحد
تعريف.

- ١ - الصعود السياسي والتجاري لمدن الجمهوريات الإيطالية في القرنين السادس والسابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي.
- ٢ - عوامل ازدهار التجارة في مدن الجمهوريات الإيطالية.
- ٣ - نشاط مدن الجمهوريات الإيطالية التجاري والحربي في البحر المتوسط في القرنين السادس والسابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي (الحوض الشرقي).
- ٤ - الدور السياسي للجمهوريات الإيطالية في حوض شرقي المتوسط (القسطنطينية وبلاد الشام ومصر).
- ٥ - نشاط مدن الجمهوريات الإيطالية في مغرب البحر المتوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي.
- ٦ - العلاقات الموحدية مع مدن الجمهوريات الإيطالية (البندقية، جنوة، بيزة).
 - أ- علاقة الدولة الموحدية مع جنوة.
 - ب- علاقة الموحدين مع جمهورية بيزة.
 - ج- علاقة الموحدين مع جمهورية البندقية.
 - د- علاقة الموحدين مع جنوب فرنسا وقطالونية.

النتائج

تعريف:

تطلق تسمية الجمهوريات الإيطالية أو الجمهوريات البحرية الإيطالية على مجموعة من المدن البحرية المطلة على البحر المتوسط والأدرياتيكي والتيراني، وقد شهدت هذه المدن نهوضاً بارزاً في العصور الوسطى، وكانت المدن الإيطالية البحرية تدعى أحياناً بالدوقيات مثل دوقية البندقية، وأحياناً تدعى بالممالك مثل مملكة جنوة، مملكة بيزة وذلك حسب الأنظمة المتبعة في كل مدينة من هذه المدن المتنافسة خصوصاً في مجال التجارة التي شكلت عصبها الأساسي وقوام هيكليتها، وقد استفادت معظم المدن الإيطالية البحرية من موقعها الجغرافي الذي توسط عالم العصور الوسطى استفادةً عظيمة، لاسيما الدور الكبير الذي قامت فيه تلك المدن في نقل البضائع من المشرق إلى غرب وشمال أوروبا، وجلب البضائع من الأسواق الأوروبية الشمالية، والغربية خاصة أسواق الشامبيني والفلاندرز إلى حوض المتوسط الشرقي والغربي، وأكثر المدن الإيطالية شهرة بهذا الخصوص الواقعة على البحر الأدرياتيكي مثل البندقية، وباري، ورافينا وتارنتو، ومنها على الساحل الغربي مثل نابولي، وسالرنو، وبيزة، وأما في وجنوة (١) وقد قامت الأنهار الإيطالية بدور لا يستهان فيه أيضاً في الملاحة النهرية داخل أراضي القارة الأوروبية، وأكثر هذه الجمهوريات شهرة وأكثر انتشاراً في عالم البحر المتوسط الشرقي والغربي: جمهورية البندقية وبيزة وجنوة وهذه الجمهوريات سوف يتم الشرح عن نشاطها التجاري والحربي في الحوض الشرقي والغربي الذي نمت وتطور في القرن السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي.

(١) هناك مدن بحرية إيطالية كثيرة على شواطئ البحر الأدرياتيكي والبحر التيراني، وهذه المدن لها نشاط تجاري لا يستهان في أهميته، وهي واضحة على الرسم المبين في الصفحة التالية.



الشكل (٨) خارطة توضح موقع المدن الإيطالية بما في ذلك جزيرة صقلية
وسردينيا وكورسيكا (١).

(١) لاروس: أطلس بلدان العالم، ص ٢٢٤.

١. الصعود السياسي والتجاري لمدن الجمهوريات الإيطالية في القرنين السادس والسابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي:

شهدت البحرية العربية الإسلامية تراجعاً واضحاً في ميدان التفوق العسكري و الاستراتيجي في عالم البحر المتوسط منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وقد كانت تلك السيطرة غير كاملة على جميع أطرافه وأجزائه، ومع أن الفتوحات العربية الإسلامية الباكرة قد وصلت إلى داخل القارة الأوروبية، إلا أنها لم تصل إلى المرحلة التي وصلت إليها الإمبراطورية الرومانية التي أطلقت عليه تسمية البحر الرومي، ويستطيع المرء أن يقول بأن الفتوحات الإسلامية قد قسمت البحر المتوسط إلى قسمين واضحين متمايزين، حيث تطّبع الجزء الشرقي والجنوبي منه بالطابع العربي الإسلامي، بالإضافة إلى بلاد الأندلس، و جنوب إيطاليا التي خضعت للسيطرة الإسلامية لعدة قرون، بينما بقيت الأجزاء الغربية والشمالية منه تحت تأثير الإمبراطورية الرومانية الشرقية ممثلة بالعاصمة البيزنطية القسطنطينية، وأواسط إيطاليا وجنوبي فرنسا، وكانت الصراعات بين تلك القوتين مستمرة على امتداد العصور الوسطى التي ظهر فيها التفوق العربي الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وبدأت السيطرة الإسلامية تضعف شيئاً فشيئاً على البحر المتوسط خاصة بعد سقوط صقلية، وخروج المسلمين من جنوبي إيطاليا على يد الغزاة النورمانديين، مع تراجع القوة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس بعد حروب الاسترداد الإسبانية، هذا الوهن الذي أصابها قد ترافق أيضاً بظهور قوى سياسية جديدة أخرى، وضعت نفسها في مزاحمة القوة العربية الإسلامية في حوضي المتوسط، لا سيما الأجزاء الجنوبية لبلدان القارة الأوروبية على البحر المتوسط والذي يقصد فيه الطالب هنا مدن الجمهوريات الإيطالية التي أصبحت تمتلك قوة لا يستهان فيها، حيث كان لها تأثيراً كبيراً في العصور الوسطى خاصة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وهي المرحلة التي كانت الحملات الصليبية على العالم العربي الإسلامي بمشرقة ومغربه لا تكاد تنقطع، حيث قامت الأخيرة بتقديم الدعم، والعون الكامل للمؤسسة الصليبية، ولولا الدعم الذي قدمه الإيطاليين للحملات الصليبية خاصة السفن المستخدمة في نقل الجنود الصليبيين، لما استطاعت الحركة الصليبية تحقيق النجاح المطلوب، وقد فضل الصليبيون الالتجاء للموانئ الإيطالية

بعد الخسارة الكبيرة التي لحقت بهم باستخدام الطريق البرية ^(١) خلال الحملات الصليبية الأولى، وخير دليل يستشهد به المرء على حقيقة ذلك هو ما ذكره المؤرخ الألماني ويلم هايد ^(٢) (١٨٢٣-١٩٠٦م) W.Heyd عندما تحدث عن دور التجار الإيطاليين في إنشاء الممالك الصليبية بقوله: "وإذا كانت جماعة التجار الإيطاليين قد أسهمت بنصيب كبير في إنشاء دول الصليبيين، فإن دورها كان أهم أيضاً في تنظيم هذه الدول، ويمكن أن تؤكد أنه من غير معونة الأساطيل الإيطالية، لم يكن بمقدور اللاتينيين أن يحافظوا على فتوحاتهم" ^(٣)

ولذلك لا يبالغ المرء عندما يقول بأن الإيطاليين قد أصبحوا رواد الحركة السياسية والتجارية في مياه المتوسط، بل وإن صياغة الفكر التجاري والعلاقات التجارية في ذلك البحر قد تأثر إلى حد كبير بنشاط المدن الإيطالية وخاصة مدن الجمهوريات التجارية المعروفة ذلك الحين البندقية، وجنوة، وبيزة التي تميزت بنشاطها الواضح في العصور الوسطى، وهذا بالتأكيد لا ينفي وجود مدنيات أخرى تجارية إيطالية كان لها دوراً مماثلاً على ذلك الصعيد مثل أمالفي، و نابولي،

^(١) رفعت بك، محمد: التيارات السياسية في حوض البحر المتوسط، لجنة البيان العربي للطباعة والنشر، مصر، ١٩٤٩م، ص ٢٩-٣٠.

^(٢) Wilhelm Heyd كان مؤرخاً ألمانياً بارعاً في تاريخ العصور الوسطى، ولد هايد في مدينة ألمانية تدعى ماركغرونجين عام ١٨٢٣م، وعمل أميناً للمكتبة الدولية الملكية في شتوتغارت حتى أصبح مديراً لها عام ١٨٧٣م، وركز اهتماماته بالأبحاث التاريخية حول تاريخ التجارة في العصور الوسطى وخاصة التجارة الشرقية للمدن الإيطالية، وعمل كنائب للجنة فروتمبيرغ لتاريخ الدولة، وألف بيليوغرافيا لتاريخ فروتمبيرغ عام ١٨٩٥م وكانت في أحد عشر مجلداً، توفي ويليام هايد شتوتغارت ١٩٠٦م؛

https://de.wikipedia.org/wiki/Wilhelm_Heyd

^(٣) يعد كتاب المؤرخ الألماني ف. هايد من الكتب الموسوعية التي بحثت في التاريخ التجاري والسياسي لدول أوروبا خلال حقبة الحروب الصليبية، وعنوان هذا الكتاب يوحي للمرء بأن المؤلف قد تحدث فيه فقط عن التجارة وأعمالها والسلع والبضائع إلى ما هنالك، ولكن العمل الذي قام به المؤلف شمل جانباً سياسياً وعسكرياً كبيراً من خلال كلامه عن المعارك والجيش والأحداث السياسية؛ وف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تقديم: عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ج ١، ص ١٤٩.

وغيرها من المدن الإيطالية التي كانت لها علاقات سياسية مع دول الحوض الغربي مثل جنوب فرنسا، وإسبانيا، والشمال الإفريقي الإسلامي، وإذا تساءل المرء: لماذا كانت مدن هذه الجمهوريات سباقة على صعيد النشاط التجاري والسياسي عن غيرها من القوى السياسية في المتوسط خاصة المعسكر الصليبي في أوروبا الغربية؟ وما هو الدور الذي قامت به على صعيد الحركة الملاحية والنشاط الحربي العسكري في البحر المتوسط؟

هذه التساؤلات التي ينبغي للمرء أن يجيب عليها تتوقف على مدى معرفة العلاقات التجارية والسياسية التي سادت بين دول عالم المتوسط في العصور الوسطى، وبالتحديد في زمن الإمبراطورية الموحدية في الجزء الغربي من العالم العربي الإسلامي في القرن السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي لأنها هي الحقبة الزمنية المراد الحديث عنها.

لقد سبق الكلام في بداية البحث عن القوى السياسية التي كانت متواجدة في حوض المتوسط الغربي زمن الإمبراطورية الموحدية، مثل ممالك إسبانيا المسيحية مثل قشتالة، والبرتغال، وليون، وبرشلونة، ومدن الجمهوريات الإيطالية: كالبنديقية وجنوة وبيزة، والنورمانديين جنوب إيطاليا وصقلية، ودويلات أخرى مستقلة عن الموحدين مثل دولة بني غانية حكام جزر البليار أصحاب العلاقة المتميزة مع الممالك المسيحية في غربي المتوسط مثل مملكة أراجون وقشتالة وغيرها، وكان الحوض الغربي للمتوسط عالماً قائماً على العلاقات التجارية بين الدول المطلة على شواطئه بامتياز، خاصة مدن الجمهوريات الإيطالية جنوة وبيزة، والبنديقية صاحبة التجارة الرائدة في تجارة العصور الوسطى، ولذلك فإنه قبل كل شيء لابد من معرفة العوامل التي أدت إلى ازدهار التجارة في مدن الجمهوريات الإيطالية في العصور الوسطى، وجعلتها تتصدر العالم المتوسطي في الحياة السياسية والتجارية والعسكرية في مشرق هذا البحر ومغربه.

٢. عوامل ازدهار التجارة في مدن الجمهوريات الإيطالية

تعد إيطاليا وريثة العالم الروماني القديم، والعاصمة روما مركز الكرسي البابوي الذي مثل أعلى سلطة دينية سادت في العصور الوسطى، وهي بحكم موقعها الاستراتيجي الجغرافي من أكبر حلقات الاتصال التجاري بين الحوض الشرقي للبحر المتوسط وأوروبا الشرقية مع بلاد الغرب الأوروبي مثل إسبانيا وفرنسا^(١)، وكانت القسطنطينية هي الأخرى قد تميزت بعلاقات اقتصادية متطورة عما كان سائداً في الغرب الأوروبي، مثل النشاط التجاري البحري والصناعي للقسطنطينية مع بلاد الشرق مثل الهند، والصين، وروسيا، وبلاد فارس، وبلاد الشام، ومصر، بينما وصل النظام الإقطاعي الذي ساد البلاد الواقعة خلف جبال الألب إلى قمته، وهذا بالطبع لم يصل إلى ذلك الحد في مدن الجزيرة الإيطالية، حيث كانت الصناعة والتجارة مزدهرة عامرة في مدن إيطاليا، بينما لم تكن بهذه في إسبانيا وفرنسا (غالية) وبلاد الغرب الأوروبي في ذلك الحين باعتبار أن إيطاليا وريثة الإمبراطورية الرومانية المتحضرة ذات النفوذ الكبير، والطرق التجارية الواسعة، والقوانين الراسخة، الأمر الذي ساعد المدن الإيطالية أن تستأنف نشاطها التجاري، وتكون في طليعة المدن التجارية، فنشأت في مدن الجمهوريات الإيطالية خاصة البندقية، وجنوة، وبيزة حركة تجارية رائدة أدت إلى ظهور نظام جديد يدعى نظام القومونات التي كان قوامها الفاعل في هذه المرحلة طبقة التجار، وهذا بدوره أدى إلى تقليص السيطرة الإقطاعية، وأنظمتها في المدن الإيطالية عما كانت عليه في الغرب الأوروبي، ومن هنا فإنه لا بد من التعريف بمصطلح القومون الذي أنشأته طبقة تجار المدن الإيطالية في العصور الوسطى، وهو حسب التعريف الذي أورده الدكتور عادل زيتون _رحمه الله_ في كتابه " العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب" بأنه : المدينة التي تتمتع بالاستقلال السياسي والحكم الذاتي، وفقاً لقوانين وتنظيمات تخدم مصالح الطبقة التجارية، ويختار

(١) يتحدث الإدريسي بإسهاب عن الموقع المتميز لمدينة روما وأهميتها الاستراتيجية الجغرافية، بالإضافة إلى المكانة المرموقة التي تتميز فيها روما عن غيرها من مدن أوروبا، فهي مقر الكرسي البابوي الذي مثل أعلى سلطة دينية عرفت في العصور الوسطى، وهي بأي حال عاصمة الإمبراطورية الرومانية العريقة؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٧٥١.

أهلها وحكامهم وموظفيهم بأنفسهم دون أن يكون هناك مندوب من قبل سيد أو حاكم خارجي يتحكم فيها" (١).

ومن هذا التعريف المذكور يجد المرء أن النظام التجاري القومونات الذي ظهر في مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في مدن الجمهوريات، وإن كان مختلفاً في ترتيبه الزمني بين تلك المدن الإيطالية حسب طبيعة ظروفها، قد حافظ إلى حدٍ كبير على مصالح التجارة، وحماها من سيطرة رجال الدين والنبلاء، وجعل من طبقة التجار قوة حقيقية ضمنت لهم مصالحهم وامتيازاتهم على مر الأيام، مع أنه لم يكن بنفس التأثير في جميع المدن الإيطالية، إلا أن له دوراً واضحاً امتد على جميع شواطئ البحر الإدرياتيكي والجنوبي التيراني، وأسهم لاحقاً في جذب الناس من المناطق الريفية المحيطة إلى المدينة (٢).

وشجع العمل بالتجارة بالنسبة للأقنان الذين عملوا في إقطاعيات أسيادهم على الهروب من الأرياف، ومناطق الزراعة إلى المدن للعمل كمستخدمين عند التجار مقابل أجور نقدية، وعلى الرغم من العقوبات التي وضعها رجال الدين والنبلاء، وحتى النظام الإقطاع ضد طبقة التجار، كان مصير هذا النزاع أن يحسم لصالح طبقة التجار في نهاية المطاف، وهذا شكل دافعاً عند النبلاء أن يتحولوا إلى رجال إدارة وتجارة كما هو حال البندقية وجنوة.

كما إن الامتيازات والإعفاءات التي منحها الأباطرة للتجار الإيطاليين سواءً أكان ذلك في القسطنطينية، أو بلاد الغرب الأوروبي، قد شجع كثيراً في عملية ترسيخ النظام الاقتصادي القومي، وقد تجسدت تلك الامتيازات كتخفيض الضرائب على البضائع أو الامتيازات الإمبراطورية، كالامتيازات التي حصلت عليها كل من مدينتي جنوة وبيزة من الأباطرة الألمان، الذين أكدوا لهم بموجبه الحصول على الرسوم الجمركية من أسواقهم، وحصل أهل بييزة أيضاً على براءة من الإمبراطور هنري الرابع Henry IV عام ١٠٨١م أخذوا من خلالها حق

(١) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ٣٠.

Gino, Luzzatto: An Economic history of Italy, translated PHILIP Jones, (٢) London, P68.

السيادة الكاملة على مدينتهم، وهذا كان له بالطبع أهمية كبيرة في تقوية النظام القوموني في مدن الجمهوريات التجارية المختلفة، أما في البندقية فقد قامت فيها سلطة يمثلها سيد يطلق عليه الدوق أو دوك، وكان هذا ينتخب من قبل سكان البندقية أنفسهم، أي أن المدينة قد وصلت إلى نظام تجاري مزود بسلطة سياسية ذاتية الحكم وهذا جعل من البندقية وحدة تجارية وسياسية متماسكة داخل المدن الإيطالية وخارجها^(١).

وشهد القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي تطوراً كبيراً في الازدهار التجاري للقومونات الإيطالية في جنوة، وبيزة، والبندقية، حيث ظهرت الشركات التجارية وتطورت أشكال العقود التجارية، وكان ظهور ذلك النوع من التطور في العقود والشركات التجارية نتيجة الظروف الناجمة عن الأخطار في البحر المتوسط، مثل القرصنة، والحروب، والمنافسات التجارية بين دويلات البحر المتوسط، وهذا بدوره أدى إلى ظهور أنواع من الشركات التجارية ذات التمويل الخارجي، وكان ذلك قد زاد من رؤوس الأموال المستخدمة في التجارة خاصة تجارة البحر المتوسط^(٢).

ولا بد من الإشارة إلى أن الصفة العامة التي اشتركت فيها القومونات في جنوة، وبيزة، والبندقية هي أن قيام تلك القومونات لم يكن نتيجة قرارات سياسية إمبراطورية أو بابوية، إنما انبعث من الواقع والمبادرات المحلية الخاصة بسكانها والشيء الآخر هو أن تطور القومونات في هذه المدن كان نتيجة للقوى الاقتصادية عامة، والتجارية خاصة لكل منها، ولم يكن نتيجة عمل سياسي أو شيء من هذا القبيل، كما لم يترافق التحول إلى القومونات التجارية المدنية أي أعمال خاصة بالتمييز العرقي أو الديني^(٣).

غير أن الموقع الجغرافي لمدن الجمهوريات الإيطالية على سواحل بحر الأدرياتيك، والمتوسط، قد أسهم بشكل طبيعي في أن تتوجه تلك المدن البحرية

(١) . Brown, Horatio.F: studies in the history of Venice, London, 1907AH, vol1, p336-337.

(٢) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ٣٥.

(٣) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ٣٤.

إلى البحر^(١)، وهذا تطلب وجود دور لصناعة السفن التي تغطي مطامح تلك الدول بالدرجة الأولى لأن التجارة أحد أكبر هواجسها، وتوفرت الأخشاب اللازمة لصناعة السفن، والأيدي العاملة الماهرة بفنون صناعتها منذ أمدٍ قديم ولذلك كانت مدن الجمهوريات الإيطالية على حد سواء تنتج أنواعاً كثيرة من السفن، منها التجاري، ومنها الحربي، والقوارب بمختلف أنواعها، وعلى سبيل المثال يذكر المرء السفن التي استخدمتها البندقية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وحتى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي السفن المستديرة (Round ships) وهذه السفن قد خصصت لنقل الأحمال الثقيلة واعتمادها الكلي على الأشرعة وتخدم زمناً طويلاً، والسفن الطويلة (Galle) التي تستخدم للأغراض الحربية، وقد زودت بمجاذيف، وأقل ارتفاعاً واتساعاً من سابقتها، وكانت تستخدم هذه السفن أيضاً لنقل البضائع الخفيفة، ومرتفعة الثمن مثل التوابل من الشرق إلى متاجر البندقية، وأما السفن التي استخدمتها جنوة فقد كانت متنوعة مثل السفن الشراعية التي تسمى (navis) ، والسفن الشراعية التي تستخدم المجاذف وتسمى باللاتينية sagitta، وكان هناك نموذج ثالث ما بين النموذجين يدعى Tartana وهذا النوع مزود بالمجاذيف، والشراع، وكان هذا النوع يستخدم من أجل نقل الخيول والمؤن للصليبيين، وقد حرصت المدن البحرية الإيطالية على توفير الاتساع في السفن من أجل التجار، وأغراض السلع التجارية بالإضافة إلى توفير الأمان لنقل الجيوش الصليبية، وأمتعتها في حوضي المتوسط الشرقي والغربي^(٢).

(١) يذكر الإدريسي بأن الموقع الجغرافي لمدن الجمهوريات الإيطالية على السواحل البحرية قد ساعدها إلى حدٍ كبير على تقوية أساطيلها الحربية والتجارية، فيذكر على سبيل المثال مدينة جنوة بقوله: ".... وأهلها تجار مياسير يسافرون براً وبحراً، ويقتحمون سهلاً ووعراً، ولهم أسطول مخيف، ولهم معرفة بالحيل الحربية والآلات السلطانية..."، ومثل ذلك يتحدث عن مدينة بيزة ويذكرها باسم مدينة بيش بقوله: "ومدينة بيش من قواعد بلاد الروم ولأهلها مراكب وخيل واستعداد لركوب البحر وقصد البلاد" ويذكر ذلك عن مدينة البندقية؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٧٥٠-٧٥١.

(٢) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ٥٥-٥٦.

ومن هنا كانت الأساطيل الإيطالية التي تجوب البحار هي الركيزة الكبيرة، وشريان الحياة التجاري والعسكري لتلك الجمهوريات، مما كان له أثر بلا شك أن تكون مدن الجمهوريات الإيطالية في العصور الوسطى صاحبة دور فعال في الحروب الصليبية في مشرق المتوسط ومغربه، وسيتم الحديث عن ذلك لاحقاً.

٣. نشاط مدن الجمهوريات الإيطالية التجاري والحربي في البحر المتوسط في القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي (الحوض الشرقي):

لقد أسهمت عوامل الازدهار التجاري المبكر لمدن الجمهوريات الإيطالية كما تم الإشارة إلى ذلك أعلاه في دفع عجلة التطور التجاري والسياسي لها في ميدان البحر المتوسط ، وبالتأكيد ترافق ذلك التطور بتفوق واضح للملاحة البحرية الإيطالية في صناعة السفن التجارية والحربية التي أخذت تجوب البحر المتوسط دونما انقطاع، و ظهر ذلك التأثير على النشاط السياسي الذي بدا واضحاً، وتنامى شيئاً فشيئاً في حوضي المتوسط مشرقه ومغربه، حيث حققت كل من البندقية وجنوة وبيزة مكاسباً كثيرة لدرجة أنها أسهمت في بعض الأحيان في وضع القرار السياسي الذي كان يصدر عن حكومات البلاد التي منحتها كثيراً من الامتيازات في أراضيها، ووصلت قوة هذا النفوذ على سبيل المثال عندما استطاعت البندقية الوصول إلى دفة الحكم، عندما قامت بتقليد إمبراطور لاتيني على عرش القسطنطينية يخدم مصالحها وامتيازاتها، وهذا يتفق مع المثل التاريخي المعروف: "الراية تتبع التجارة"، ومن هنا تأتي أهمية معرفة العمل السياسي الذي ترافق مع النشاط التجاري البحري لمدن الجمهوريات الإيطالية في المتوسط، وكيف أسهمت تلك الجمهوريات في مشاركة الأحداث السياسية في الجزء الغربي من البحر المتوسط؟ وهل كان هذا النشاط قوياً له تأثيراً واضحاً على القوى السياسية في مغرب المتوسط؟

في البداية وقبل الحديث عن النشاط السياسي والتجاري لجمهوريات مدن إيطاليا في مغرب البحر المتوسط، لابد من تقديم بعض الشروح المختصرة عن نشاطها في الجانب الآخر من عالم المتوسط والمقصود فيه الجزء الشرقي من البحر المتوسط، لأن الرؤية من خلال نافذة واحدة ستكون أقل وضوحاً وشمولاً

مما لو كانت عليه عند معرفة الدور الكلّي لمدن الجمهوريات الإيطالية في البحر المتوسط ككل.

كما هو معلوم لقد شكل البحر المتوسط وحدة متكاملة منذ قديم زمانه، فالقوة العسكرية التي كانت تمتلك مفاتيح القوة في مغربه، سيكون لها تأثيراً بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على الجانب الشرقي أيضاً، والعكس على ذلك صحيحاً، والدليل على ذلك المساعدات العسكرية المتمثلة بالأسلحة والسفن التي كانت تقدمها مدن جمهوريات إيطاليا البحرية للحملات الصليبية على المشرق أو المغرب الإسلامي على حد سواء، خاصة الحملة الصليبية الرابعة والخامسة، إذ كان توجه السلطان صلاح الدين الأيوبي سلطان بلاد الشام ومصر إلى خليفة الموحدين الخليفة المنصور في طلبه قطعاً من الأسطول، وإغلاق المنافذ البحرية في وجه السفن الصليبية المتجهة إلى بلاد الشام ومصر خير دليل على ذلك الدور^(١)، وكما أن العلاقات القائمة بين حكومة القسطنطينية الشرقية ومدن الجمهوريات الإيطالية البحرية اللاتينية التجارية، والعسكرية، تعطي دليلاً كبيراً على مداخله التأثير في مشرق المتوسط ومغربه، خاصة الحملة الصليبية الرابعة والخامسة، التي تم إعدادها في أوروبا الغربية، وتلقت دعماً كبيراً من مدن إيطاليا خاصة البندقية، وجنوة، وبيزة التي وجدت في تلك الحملتان أكبر تمثيل لمصالحها التجارية في بيزنطة، وبلاد الشام، ومصر، ومن أجل ذلك سيذكر المرء إسهام مدن إيطاليا في القيام بتلك الحروب:

كانت الحملة الصليبية الرابعة إحدى الحملات الصليبية التي أثارت جدلاً كبيراً في عالم العصور الوسطى عامةً، وعالم البحر المتوسط بشكل خاص، وسبب ذلك الجدل كما هو معلوم هو انحراف هذه الحملة عن مسارها المحدد لها، وتغيير وجهتها من مصر الإسلامية إلى الإمبراطورية البيزنطية المسيحية

^(١) وهي السفارة التي أرسلها السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة المنصور الموحدي، وذكرت في المصادر الإسلامية، ونالت كلتا السفارتين الترحاب من قبل الخليفة الموحدي المنصور ولكن لم تسفر عن أي نتيجة سوى تبادل الهدايا بين الطرفين؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٨٢-١٨٣.

(١)، وليس من الضرورة في هذا المقام أن يخوض المرء في أحداثها، وتفاصيلها ونتائجها، أو حتى دور البندقية في تغيير مسارها، وكل ما يهمنا هنا هو إبراز الدور الذي أسهمت فيه المدن الإيطالية كالبندقية وجنوة وبيزة في أحداث هذه الحملة والدعم الذي قدمته تلك الجمهوريات والمكاسب التي حققتها أو خسرتها في تلك الحملة.

كما هو معلوم فإن البندقية قامت بتقديم مساعدات كبيرة للصليبيين، وكان أهمها السفن اللازمة لنقل الجيش الصليبي، مع الإمداد بالمؤن اللازمة لمدة تسعة شهور، وكان اجتماع القوات الصليبية شتاءً في مدينة زارا (٢) التي استرجعتها البندقية بفضل القوات الصليبية من ملك هنغاريا، وكان اتجاه الحملة إلى مصر عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م، ولكن أثناء تواجدهم في المدينة، وصل وفد من القسطنطينية يطلب المساعدة والعون من الصليبيين من أجل تقديم الدعم للأمير البيزنطي إسحق بن ألكسيوس الذي خلعه أخيه عن العرش، أن يعيدوه إلى عرش القسطنطينية، واستطاعت القوات الصليبية بمساعدة البنادقة إعادة إسحق إلى العرش البيزنطي، وأدى ذلك إلى فرار أخيه ألكسيوس الثالث، ولكن البيزنطيون قاموا بثورة أطاحت بالامبراطور الجديد، عندئذٍ قرر الصليبيون احتلال القسطنطينية، وتتصيب ملك لاتيني على عرش القسطنطينية، وتحقق ذلك لهم، وكانت البندقية هي المستفيد الأكبر من بين الأطراف المتصارعة، وحققت البندقية

(١) يذكر ديورانت في الموسوعة التاريخية " قصة الحضارة" بأن البندقية قد قبضت رشوة مالية كبيرة من سلطان الأيوبيين لقاء تغيير طريق الحملة المتجهة إلى مصر باتجاه القسطنطينية، وحسب ما يتجه إليه ديورانت بأن البندقية تحصل على ثروة كبيرة في تجارتها مع مصر الإسلامية من خلال بيعهم السلاح والخشب والحديد واستيراد العبيد منهم، فلم يريدوا أن يخاطروا في هذه التجارة للقيام بهذه الحرب، ويذكر ديورانت بأن البنادقة لم يريدوا أن يقتسموا نصيبهم من هذه التجارة مع بيزة أو جنوة، لذلك عندما كانوا يفاوضون الصليبيين أرسلوا وفداً سرياً إلى سلطان مصر ضمنوا له سلامة بلاده من تلك الحملة؛ ديورانت، ول

وايريل: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، بيروت، د.ت، ج ١٥، ص ٤٧.

(٢) زارا: أهم مدن الثغور على البحر الأدرياتيكي بعد مدينة البندقية، لاروس: أطلس بلاد العالم، ص ٢٢٤.

انتصاراً عظيماً تلخص في تحقيق أهدافها التجارية، واحتكاراتها التجارية الشرقية في عالم البحر المتوسط، وامتكت البندقية لوحدها ما يقارب ثلث القسطنطينية وأحياءها، ونالت شرفاً لم يحظ به أي من الإيطاليين، وهو الوصول إلى موانئ البحر الأسود، واحتكار تجارته لوحدهم، مبعين بذلك التجار البيزنطيين والبيازنة عن تجارة هذا البحر الذي كان حكراً عليهم فيما مضى، لذلك كانت الحملة الصليبية الرابعة من أكبر النعم التي حصلت في أيدي البنادقة، في حين لم تحظ بقية المدن الإيطالية مثل جنوة، وبيزة بالحظ الوافر الذي حصل في أيدي البنادقة، حيث لم تتل هاتان المدينتان في الإسهامات الكبيرة التي سعت بها البندقية^(١).

أما الحملة الصليبية الخامسة التي استهدفت أرض مصر بعد انحراف الحملة السابقة عن مسارها إلى القسطنطينية، والتي قام بالدعوة لها البابا أنوسنت الثالث ١١٦٠-١٢١٦م^(٢) الذي أكد على اشتراك المدن الإيطالية في هذه الحملة، فإنّه من باب الترغيب للمشاركة في تلك الحملة، قام بمنح الغفران التام لكل من يقوم بتقديم سفنه لنقل الجنود أو من يساعد ببناء السفن من أجل الاشتراك في تلك الحملة، وفعلاً قامت المدن الإيطالية البندقية وجنوة وبيزة بتجهيز السفن اللازمة لذلك، وتزاحمت على المنافسة في ذلك، ووصل التنافس إلى حد النزاع المسلح، إلا أنّ ذلك النزاع لم يكن من أجل الولاء للصليب وحماية المقدسات، بل كانت المقاصد والمطامع الاقتصادية في المشرق الإسلامي هي الدافع الحقيقي وراء ذلك، وفعلاً جهزت المدن الإيطالية السفن اللازمة لهذه الحملة، وقامت البندقية لوحدها من بين المدن الإيطالية، بتجهيز عشر سفن كبيرة الحجم عدا

(١) لاحظ تفاصيل هذه الحملة في الموسوعة الشامية؛ زكار: الموسوعة الشامية، الجزء العاشر.

ديورانت، ول وايريل: قصة الحضارة، ج١ ص٥٢-٥٤.

(٢) البابا إينوسنت الثالث : بابا الكنيسة الكاثوليكية واسمه لوتاريو دي كونتي دي سيني، وهو من أكثر البابوات تأثيراً في تاريخ البابوية، وله تأثير كبير على أنظمة الحكم في أوروبا، وكان يتخذ قانون الحرمان الكنسي لإجبار الأمراء للإذعان لقرارته، وعم الكنيسة الكاثوليكية من خلال المراسيم البابوية، وهو الذي دعى إلى الحملة الصليبية الرابعة إلى مصر التي بدورها انخرفت إلى القسطنطينية كما هو معلوم، وإلى شن حملة صليبية إلى بلاد الأندلس؛

إينوسنت الثالث/ <https://ar.wikipedia.org/wiki>

السفن الأخرى الصغيرة من أجل نقل عساكر الصليبيين إلى المشرق، وانطلقت تلك السفن بالعساكر الصليبية، ووصلت هذه الحملة إلى عكا عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، وحملت هذه السفن ثلاثين ألفاً من المقاتلين الصليبيين، وهم خليط من الأسكندنافيين والنمساويين وهم مهرة مدربين على الرمايات والمنجنيقات (١).

والمهم هنا بأن تلك الحملة قد وصلت إلى دمياط، وأطبقت حصاراً على المدينة من جهة الساحل الشمالي، واستطاعت القوات الصليبية بمساعدة الإيطاليين أن تأخذ المدينة بالأمان في نفس العام، ولكن فيضان النيل الذي جاء نتيجة فتح السودان من قبل القوات الإسلامية، ووصول إمدادات للمسلمين، قد أوقعت الصليبيين في مأزق كبير، وصاروا يقبلون بأي عرض يقدم إليهم، وكان للإيطاليين دوراً حاسماً في ذلك، إذ أنهم رفضوا العروض السخية التي قدمت إليهم من جهة المسلمين، مقابل تسليم مدينة دمياط، لأنهم وجدوا فيها الميناء الحصين، والبلد العامر بالخيرات الذي يغطي رغباتهم ومطامعهم الاقتصادية التي تفوق بكثير الدافع العسكري أو الديني، والحصول أيضاً على الإعفاءات الجمركية على بضائعهم التجارية بكون المدينة بيد القادة الصليبيين، وهذا هو الذي دفع الإيطاليين إلى رفض العروض والاتفاقية التي قدمها المسلمون إلى الجانب الصليبي، وهذا يذكر مراراً وتكراراً بأن المدن التجارية الإيطالية في دعمها للصليبيين كانت تستند على الأساس التجاري بالدرجة الأولى، وكان رفضهم لأي عرض تقدم إليهم مقابل تسليم دمياط كان سبباً من الأسباب التي أسهمت في فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر (٢).

(١) عمران، محمود سعيد: تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، ط ٤، السويس، ٢٠٠٠م، ص ١٩٧.

(٢) عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٧٥.

٤. الدور السياسي للجمهوريات الإيطالية في حوض شرقي المتوسط (القسطنطينية وبلاد الشام ومصر):

تمتعت مدن جمهوريات إيطاليا كالبندقية، وجنوة، وبيزة بعلاقات مميزة مع الإمبراطورية البيزنطية خلال القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، كان الاهتمام التجاري والحصول على امتيازات متعددة أبرز ما جاء فيها، فقد تضمنت الامتيازات تخفيض الرسوم الجمركية، والسماح بإقامة أحياء للتجار الإيطاليين في القسطنطينية إما في داخلها أو خارجها في أغلب الأحيان، وكان التنافس بينها واضحاً لا يكاد ينقطع من أجل الحصول على امتيازات أفضل، أو إعفاءات على الضرائب الجمركية في أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وأحياناً كان يصل هذا التنافس إلى الصدام المسلح بين البندقية وجنوة وبيزة، ويعتدي أحد هذه الأطراف على الآخر، وكثيرة هي الأمثلة على ذلك، إلا أن السياسة التي انطلقت منها القسطنطينية وأباطرتها، هدفت إلى خلق نوع من التوازن بين مصالح تلك المدن ومصالحها على أن لا يطغى طرف على الآخر، دون أن يؤثر ذلك سلباً على اقتصاد بيزنطة، إلا أن التوافق لم يكن دائماً حال السياسة التي انتهجها أباطرة القسطنطينية، بل كان يحدث في بعض الأحيان نزاعاً بين حكومة بيزنطة والتجار الإيطاليين، ويسوق المرء ما ذكره الدكتور عادل زيتون ، عندما ذكر السلبات التي عادت على بيزنطة من خلال الامتيازات الكثيرة التي منحت إلى مدن جمهوريات إيطاليا بقوله: " ولا ريب في أن الامتيازات التي مُنحت للتجار الإيطاليين، وبصفة خاصة البنادقة، قد ألحقت أبلغ الأضرار وأخطرها في بيزنطة واقتصادها، وأدت إلى منافسات بين هؤلاء التجار الإيطاليين عبر الإمبراطورية، وخلقت الحسد والحقد في نفوس البيزنطيين الذين نظروا إلى هؤلاء الأجانب وهم ينهبون ثرواتهم ويسيطرون على أسواق امبراطوريتهم واقتصادها بقوة السيف" (١).

وهذا القول يؤكد حقيقة الدافع الكبير عند التجار الطليان الذي كان قاعدته المصالح التجارية في رسم سياستهم، وتحركاتهم في حوض البحر المتوسط، وكانت هذه التحركات وفقاً لهذه المصالح بالذات، ولم يكن الجانب الديني يشكل

(١) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ٦٨.

عاملاً كبيراً في النشاط السياسي العسكري للمدن الإيطالية، بقدر ما كان محققاً للأطماع والمكاسب التجارية والجمركية، وفعلاً نجح الطليان في تحقيق المكاسب من الصليبيين مقابل تقديم الدعم اللازم لتلك الحملات كالسفن، والإمدادات والمعدات اللازمة لذلك، ويحصلون بالمقابل على امتيازات تجارية، والإعفاء من الضرائب أو تخفيضها، بالإضافة إلى مناطق خاصة بالأسواق، والأحياء في المدن الخاضعة لسيطرة الصليبيين، وكانت الدولة البيزنطية التي تغلغت فيها ذراع التجار الإيطاليين، ونافسوها في تجارتها، تشكل المقر الرئيسي لهم خاصة البنادقة الذين استفادوا إلى حد كبير من المراسيم، والإعفاءات الإمبراطورية على الجمارك التي كانت تفرض على التجار الذين يدخلون أراضي الإمبراطورية ويخرجون منها، وكثيرة هي المعاهدات التي أبرمتها مدن الجمهوريات الإيطالية مع الإمبراطورية البيزنطية، وأحياناً كانت تأخذ هذه المعاهدات الصفة السياسية العسكرية، لا سيما المتعلقة بتقديم الدعم والعون للجيش الصليبي التي كانت تصل من الغرب الأوروبي إلى بلاد الشام، ومصر، والمغرب الإسلامي، وهذه الحقيقة التي لا بد للمرء أن يقف عندها، ويستذكر الطالب ما قاله المؤرخ اللاتيني جاك دي فترى jac de vitry^(١) عندما تحدث عن دور الجمهوريات الإيطالية في الحروب الصليبية بقوله: "إن أهمية الإيطاليين بالنسبة إلى الأراضي المقدسة لا تقتصر على دورهم في الحروب، وإنما في نقل السلع والمتاجر والحجاج والمؤمن

(١) وهو صاحب كتاب "history of the Jerusalem" وقد طبع هذا الكتاب في لندن ونشر عام ١٩٧٦م، وجاك دفتري لم يكن مؤرخاً فحسب بل كان صاحب مكانة دينية كبيرة من الشخصيات القيادية أثناء الحروب الصليبية، وخاصة الحملة الصليبية الخامسة إذ كان له دوراً بارزاً فيها فقد كان أسقفاً لعكا ونائب الكرسي البابوي في فرنسا وألمانيا، ويذكر سهيل زكار في موسوعة الحروب الصليبية في الجزء الرابع والثلاثون القسم الخاص بتاريخ القدس وهو من تصنيف جاك دي فترى المذكور أعلاه، حيث ذكر فيه مشكوراً ترجمة جيدة عن شخصية ديفتري وأثرها في الحملة الصليبية الخامسة، وأحداث هذه الحملة ومجرياتها؛ زكار، سهيل: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تح: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، ١٩٩٨م، ج ٣٥ ص ١٢٣-١٢٧.

والأسلحة إلى الأراضي المقدسة " (١)، بالإضافة إلى وجود الصليبيين واستقرارهم في الإمارات الصليبية التي كونوها في بلاد الشام قد تطلب دعماً مستمراً من جهة البحر لاعتماد الصليبيين على طرق التجارة في تحقيق الثراء، والتي تعرف فيما يسمى بتجارة (الترانزيت)، وهذه التجارة لا تؤتي أكلها إلا إذا كانت هناك عملية النقل منتظمة بين الشرق والغرب، وهذا الدور كانت تؤديه السفن والأساطيل الإيطالية وبكل نجاح، ولهذا كانت الصلات وثيقة على أشدها مع البنادقة، والجنوية، والبيازنة، لأنهم ماهرون في فنون التجارة والملاحة البحرية، والأسطول التجاري والحربي معاً، وطبعاً كانت المدن الإيطالية تأخذ امتيازات عظيمة في الأراضي البيزنطية مثل الأحياء، وأسواق التجارة الخاصة لكل منها، وترافق ذلك بتنافس شديد بين مدن الجمهوريات البندقية وجنوة وبيزة، ووصل في بعض الأحيان إلى الصدام المسلح، وحرق الدور وأحياء بعضهم البعض، خاصة النزاع المستمر بين الجنوية والبنادقة، وكانت تلك المستوطنات قد تركزت بشكل أساسي في العاصمة البيزنطية القسطنطينية (٢).

ولم تكن القسطنطينية هي المحطة الوحيدة من بلاد الشرق التي اتجهت إليه أنظار التجار الإيطاليين في حوض المتوسط الشرقي، بل كانت سواحل بلاد الشام ومصر من المحطات التجارية والاستراتيجية التي حاولت كل من مدن إيطاليا أن تعقد مع سلاطينها وملوكها معاهدات مماثلة، تحصل بموجبها على امتيازات تجارية خاصة بها في تلك البلاد، مثل المعاهدات التي عقدتها البندقية مع السلطان الأيوبي الملك العادل، وقد أرخت هذه المعاهدة عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م تقضي هذه المعاهدة على منح التجار البنادقة امتيازات وخدمات تجارية في موانئ

(١) vitry, de j: the history of the jerusalem, in p.p t.s, London, 1896, (١) p.57.

(٢) وقعت حروب كثيرة بين الجنوية والبنادقة كان الانتصار في معظمها للبنادقة وذهب نتيجة لذلك أعداد كبيرة من القتلى من كلا الجانبين، وتدخل البابا لحل هذه الأزمة لأنها ستؤدي إلى انهيار كبير للقوة الصليبية في سواحل بلاد الشام، واستمر النزاع طويلاً على الرغم من وساطة البابا في الصلح، وكانت بيضة تحالف البندقية في صراعها مع جنوة نظراً لطول الصراع مع الجنوبيين؛ سيد صبرة، عفاف: العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١٨٩-٢٠٨.

مصر، وأن يقوم السلطان بحماية البنادقة داخل الأراضي المصرية، ومنحت المعاهدة البنادقة فندقين في الإسكندرية، كما كان أهم نقطة جوهريّة في بنود الاتفاقية بأن لا يقوم البنادقة بأي عمل صليبي حربي ضد مصر، وتعهد البنادقة أيضاً بعدم تقديم أي دعم لأي عمل عدواني صليبي ضد الديار المصرية (١).

وقد أرسلت البندقية سفيراً لها إلى حلب عام ١٢٠٧-١٢٠٨م، واستطاع هذا السفير أن يقيم معاهدة تجارية مع متولي حلب وهو غياث الدين غازي بن صلاح الدين، وقد أتاح هذه المعاهدة للبندقية في الحصول على فندق، وحمام، وكنيسة، وتعهد السلطان الأيوبي تقديم كافة المساعدات إلى تجار البنادقة في المدينة (٢).

ولم تكن هذه الاتفاقية إلا واحدة من الاتفاقيات العديدة التي أبرمتها جمهوريات إيطالية بحرية في بلاد المسلمين والقسطنطينية من الحوض الشرقي للمتوسط، والشيء المهم الذي يمكن أن يستخلصه المرء من هذه الاتفاقيات هي أن النشاط التجاري لجمهوريات إيطالية بحرية قد ترافق بنشاط سياسي فاعل ومؤثر في المنطقة ولم يكن هامشياً، ولذلك لا يمكن تحديد النشاط السياسي العسكري بشكل مستقل إلا في ضوء المنظور الصحيح للمصالح التجارية المحركة لتلك الجمهوريات في هذه المنطقة، وغالباً ما قامت هذه الجمهوريات كالبندقية مثلاً بتأدية دور مزدوج في سياستها اتجاه المسلمين والصليبيين معاً، فكانت ترسل المساعدات اللازمة للصليبيين من أجل القتال ضد صلاح الدين الأيوبي في الشام، وعلى الجانب الآخر نقلت السلع التجارية الحربية مثل السلاح، وألات الحرب و القتال إلى الشام ومصر، وهذا الدور المزدوج من أجل ضمان مصالح البندقية مع الجانبين معاً، وخير دليل يقدمه المرء على ذلك هو ما ذكره المؤرخ القلقشندي في كتابه الموسوعي "صبح الأعشى" عندما تحدث عن تلك السياسة المزدوجة التي قامت فيها مدن الجمهوريات الإيطالية (٣).

(١) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ١٩٢.

(٢) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ١٩٢.

(٣) لقد ذكر القلقشندي في "صبح الأعشى" نصاً من الرسالة التي بعث بها السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، وذكر في نص هذه =

والتعليق الآخر على ذلك الموضوع هو ما ذكره الرحالة المسلم ابن جبير ت ٦١٤هـ/١٢١٧م^(١) حول تلك الحقيقة، عندما زار بلاد الشام ومصر زمن السلطان العادل صلاح الدين الأيوبي، وشاهد كيف تدخل البضائع التجارية لهذه المدن إلى داخل الأراضي الإسلامية رغم الحروب المستمرة بين الصليبيين والمسلمين بقوله: "وما أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين"^(٢).

ولم تنقطع علاقات البندقية حتى بعد انقضاء دولة الأيوبيين وحلول دولة المماليك عوضاً عنها، فهناك الكثير من المعاهدات والاتفاقيات التي عقدتها البندقية مع السلاطين المماليك حتى بعد رحيل الصليبيين بشكل نهائي عن مصر وبلاد الشام بالرغم من الفتور الذي طرأ عليها في بعض الأحيان أثناء قيام الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي مثل الحملة الصليبية الخامسة على مصر عام ٦١٥-٦١٨هـ/ ١٢١٨-١٢٢١م واشتركت البندقية في تلك الحرب، وقدمت المساعدات اللازمة للصليبيين، لأنها كانت ترى أن نجاح هذه الحملة هو تحقيق لمزيد من المكاسب التجارية في مصر وبلاد الشام، وقد انتهت الحملة الصليبية الخامسة كما ذكر سابقاً معلوم بفشل الصليبيين في السيطرة على مصر

= الرسالة السياسة المزدوجة التي تقوم فيها مدن جمهوريات إيطاليا: البندقية وبيزة وجنوة اتجاه بلاد المسلمين... وتتم الرسالة عند القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣ ص ٨١-٩٠.

(١) أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، الشاطبي البلنسي، ولد في بلنسية سنة ٥٤٠هـ من أسرة عربية عريقة، وسمع العلوم عن أبيه في شاطبة، وكان من علماء الفقه والحديث، عرف علوم الدين وشغف بها، والعلوم اللغوية والأدبية، وبلغ في علوم الآداب الغاية وتقدم في النظم والنثر، وقد قام ابن جبير برحلات ثلاثة وأشهرها رحلته المشهورة إلى بلدان المشرق الإسلامي حيث ألف كتابه الشهير "رحلة ابن جبير" أو "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، توفي في الإسكندرية عام ٦١٤هـ/١٢١٧م؛ الذهبي: العبر في خبر من غير، ج ٣، ص ١٦٣، الحنبلي، ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٥، ص ٦٠. ووضع كتابه المسمى "رحلة ابن جبير"؛ ابن جبير: رحلة بن جبير، ص ٥-٦.

(٢) ابن جبير: رحلته، ص ٢٧١.

والبقاء في دمياط، ونجاح الملك الكامل في التصدي لهم وإجلاءهم عن مصر^(١)، وكان موقف البندقية إذ ذاك أن دمياط وأهميتها الاستراتيجية هي أهم بكثير من استرداد مملكة بيت المقدس، وستعود بفوائد عظيمة عليهم، لذلك كان التجار الإيطاليين وفي مقدمتهم البندقية أشد رفضاً للعرض السخي الذي قدمه الملك الكامل للتنازل للصليبيين عن مملكة بيت المقدس، مقابل صرف انظارهم عن مصر^(٢)، وبالطبع كان الإخفاق الذريع هو مصير هذه الحملة، ولكنه كان يعكس في نفس الوقت بأن الأطماع والمصالح التجارية للتجار الإيطاليين بالذات هي التي شكلت المحرك الرئيسي الذي دفعها للمشاركة في هذه الحملة ولم يكن وازعاً دينياً كما هو معلوم.

ولم تكن البندقية هي المدينة الإيطالية الوحيدة التي كان لها دوراً تجارياً وسياسياً عسكرياً في الحوض الشرقي للمتوسط، بل كان إلى جانبها جمهوريات جنوة وبيزة، إلا أنها لم تكن بالنقل الذي يوازي وجود البنادقة في تلك المنطقة، وكان التنافس فيما بينها سجالاً لا يكاد ينقطع، فقد كانت بيزة صاحبة علاقات مميزة مع الدولة الفاطمية في مصر، وجددت بيزة صلاتها بحكومة مصر زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي ووقعت اتفاقية عام ٥٦٨هـ / ١١٧٣م، حصلت بموجبها على حمّام، وكنيسة، وفنادق، وحق ممارسة الطقوس الدينية، والموازين والمكايل الخاصة بهم، وتبع تلك المعاهدة سلسلة من المعاهدات أخرى أدت إلى تقوية تجارة بيزة مع بلاد الشام ومصر، وكان أكثر ما يؤدي إلى تراجع تلك العلاقات السياسية المزدوجة التي كانت تقوم فيها اتجاه الصليبيين والمسلمين معاً، وخصوصاً أثناء الحروب الحملات الصليبية، كالحملة الخامسة التي هاجمت دمياط، ولكن حكومة مصر لم تقوم بأي إجراء ضد التجار البيزيين المتواجدين في مصر، ولكن منذ بداية القرن السابع الهجري وأواخر القرن الثالث عشر الميلادي عانت تجارة بيزة تدهوراً واضحاً في العلاقات التجارية مع مصر وبلاد الشام، حيث أن سقوط مملكة الصليبيين في المشرق بصورة نهائية عام ١٢٩١م

(١) المطوي، محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط٢، تونس، ١٩٨٢م، ص ١٠٧.

(٢) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٩، القاهرة، د.ت، ج ٢ ص ٢١٩-٢٢٠.

والمراسيم البابوية بمنع المتاجرة مع بلاد المسلمين، قد أسهم في إضعاف تلك العلاقات، ولكن لم تنقطع بشكل كامل، حيث استطاعت سفارة أرسلت من بيزة عام ٧٨٦هـ/١٣٨٥م أن تقوم بالتفاهم مع السلطان برقوق المملوكي (٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٩م^(١)) بالاستمرار في العلاقات التجارية مع مصر والشام، والتعويض عن الأضرار التي لحقت ببعض التجار البيازنة في الإسكندرية خير دليل على استمرار تلك العلاقات حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي^(٢).

وكان نشاط جمهورية جنوة في بلاد المسلمين في مصر والشام مترافقاً مع نشاط كل من الجمهوريتين السابقتين، إذ أنّ جنوة صاحبة ارتباطات باكرة مع السواحل الشامية المصرية، وما يهمنها هو نشاطها في القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، حيث كانت السفن الجنوبية تقوم بنقل البضائع والسلع من بلاد المغرب، والأندلس إلى الإسكندرية والشام، وتقوم بنقل الحجاج من شمال إفريقية إلى الشام ومصر، حتى إن السفينة التي حملت المؤرخ المسلم ابن جبير ت ٦١٤هـ/١٢١٧م عندما قام برحلته المشهورة إلى الشرق كانت جنوبية، وقد ذكر ذلك ابن جبير بلسانه عند كلامه عن انطلاقه إلى الشرق بقوله: " فلما كان ظهر الثلاثاء من اليوم الثاني، يسر الله علينا في عبور البحر إلى قصر مصمودة تيسيراً عجيباً، والحمد لله، ونهضنا إلى سبتة غدوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه، وألفينا بها مركباً للجنوبيين مقلعاً إلى الإسكندرية بحول الله،

(١) الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن أنص العثماني اليلبغاوي الجركسي، وهو السلطان الخامس والعشرون من سلاطين المماليك في بلاد الشام ومصر، وهو أول سلاطين المماليك البرجية، تولى السلطنة مرتين، وأصله من بلاد الشركس من قبيلة كسا، والذي = تولى شراؤه ونقله إلى مصر تاجر هو عثمان خوجة التركي، وتدرج برقوق في المناصب العسكرية حتى استطاع الوصول إلى عرش السلطنة مرتين، وكانت أهم الحوادث التي جرت في عهد السلطان برقوق، ظهور تيمورلنك في أواسط آسيا بعد سيطرته على مناطق كبيرة وجعل سمرقند هي العاصمة لملكه الواسع، وبداية ظهور السلطنة العثمانية في آسيا الصغرى ؛ المغلو، سامي عبد الله: أطلس تاريخ العصر المملوكي، مكتبة العبيكان للنشر، ط ١، الرياض، ٢٠١٣م، ص ١٧١-١٧٢.

(٢) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ٢١٤.

عز وجل، فسهل الله علينا في الركوب فيه " ^(١)، ولذلك فقد كان من الطبيعي أن تحذو حذو البندقية وبيزة في القيام بمعاهدات تجارية مع بلاد المسلمين وسلطينها في الشام ومصر، فقد ذكر الدكتور المرحوم عادل زيتون وهو ينقل فيما نقله عن المؤرخ الألماني ف. هايد Heyd المعاهدات التي وقعتا جنوة مع السلطان صلاح الدين الأيوبي، ومن بعده أخيه الملك العادل، ففي عام ٥٧٢هـ/١١٧٢م وقعت الحكومة الجنوبية معاهدة مع صلاح الدين الأيوبي كانت أساساً في العلاقات الجنوبية المستقبلية مع الشام ومصر، واستمرت لحقبة طويلة ^(٢)، وازدهرت العلاقات الجنوبية بصورة مشرقة زمن السلطان العادل الأيوبي، وهناك إشارة أخرى عند المؤرخ المقرئزي تشير إلى علاقة حميمة كانت تربط أحد كبار التجار الجنوبية واسمه كليام الفرنجي مع الملك العادل الأيوبي، مشيراً في ذلك في كتابه الحولي " السلوك " من حوادث سنين ثمان وستمئة بقوله: " وفيها خرج العادل من القاهرة، فسار إلى دمشق وبرز منها يريد الجزيرة، فوصل إليها ورتب أحوالها وعاد إلى دمشق ومعه كليام الفرنجي " ^(٣)، وفي مكان آخر من حوادث سنين إحدى عشر وستمئة ذكر المقرئزي أن الملك العادل قد أمر كليام الفرنجي الجنوبي أن يقيم معه في دار الوزارة ^(٤)، وهذا دليل واضح على الحفاوة التي حضي بها التجار الجنوبيين في مصر وبلاد الشام آنذاك، واستمرت العلاقات الودية للجنوبيين حتى بعد زوال دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك، فيذكر لنا المؤرخ المقرئزي في مكان آخر قدوم رسول مقدم الجنوبية على الملك الظاهر بيبرس، وقد أكرمه غاية الإكرام والحفاوة والترحاب، وعلى الرغم من الصراعات التي كانت تحدث بين الصليبيين والمسلمين لم تتأثر مصالح جنوة مع بلاد المسلمين، بل كانت أصدقاء انتصار الظاهر بيبرس على الصليبيين قد قبولت بالترحاب من قبل الجنوبيين، وهذا ما يفسر نقلهم المواد الأساسية لصناعة السفن كالقار والحديد والخشب إلى أرض مصر، على الرغم من صدور قرار بابوي يمنع نقل مثل هذه السلع إلى بلاد المسلمين، ولم ينقطع سيل السفارات والهدايا الجنوبية التي أرسلتها حكومة

^(١) ابن جبير: رحلته، ص ٥.

^(٢) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ٢١٥-٢١٦.

^(٣) المقرئزي: السلوك، ج ١ ص ٢٩٣.

^(٤) المقرئزي: السلوك، ج ١ ص ٢٩٩.

جنوة إلى بلاد مصر والشام حتى عهد خلفاء الظاهر بيبرس، حيث كانت تصل السفارات إلى مصر وتغادرها بكل الحفاوة والتكريم من قبل السلاطين المماليك (١).

وقد ذكر ابن الفرات في تاريخه وصول سفارة أيضاً وهي محملة بهديّة قيّمة إلى بلاط القاهرة عام ٦٧٤هـ/١٢٧٦م، وتبعتها سفارة أخرى بعد عشرة أعوام سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م تميزت هذه العلاقات بالازدهار والانتعاش التجاري وهو ما ميز جنوة عن غيرها من دول الجمهوريات الإيطالية الأخرى في مصر وبلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي (٢).

٥. نشاط مدن الجمهوريات الإيطالية في مغرب البحر المتوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي:

لم يكن مغرب البحر المتوسط جانباً مستقلاً عن الأحداث السياسية التي كانت تدور في مشرقه، خصوصاً الجانب الذي تعلق بأحداث الحروب الصليبية وإفرازاتها في المنطقة، لاسيما عندما نتحدث عن القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، وهي الحقبة النشطة من مرحلة الحروب الصليبية، وكما كانت بلاد المشرق الإسلامي في صراع مرير مع الصليبيين كانت بلاد المغرب الإسلامي هي الأخرى في جبهة محتدمة لا يكاد ينطفئ لهيبها حتى تعود للصراع مرة أخرى، إذ شهدت بلاد المغرب والأندلس نشاطاً حربياً كبيراً خاصة على الجبهة الإسبانية التي لم تنقطع وتيرة الحروب معها، وقد ازدادت حدة وشراسة نتيجة الضعف الذي أصاب القوة العربية الإسلامية في الأندلس والمغرب، حيث بدأ ذلك يتضح يوماً بعد يوم، بعد فقدان العرب جزر البحر المتوسط مثل صقلية ومالطا إلى غير ذلك من المناطق الحيوية في غرب المتوسط، وهذا كان عاملاً مهماً في انتقال السيادة البحرية في البحر المتوسط

(١) المقرئزي: السلوك، ج ٢ ص ٩٤.

(٢) ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم تاريخ الدول والملوك ت ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، تح: قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٦م، مج ٨، ص ٤٤.

من القوة البحرية الإسلامية إلى المدن الأوروبية، وخاصة مدن الجمهوريات الإيطالية^(١). وهذا بدوره جعل من تلك الجمهوريات لاعباً رابحاً في ميدان القوة العسكرية البحرية^(٢).

وكان هذا التطور والازدهار الذي تمتعت به مدن إيطاليا التجارية يقابله على الطرف الآخر من ضفة المتوسط ضعف واضح في القوة الإسلامية الموحدة خاصة بعد معركة العقاب التي كانت بمثابة الضربة القاصمة لقوة الموحدين في المغرب وبلاد الأندلس عموماً، ولم تكن مدن إيطاليا التجارية بعيدة عن هذا المسرح السياسي، أو الاقتصادي في مغرب البحر المتوسط، بل كان لها أثراً فاعلاً سواء أكان ذلك على صعيد النشاط التجاري، أو النشاط العسكري الحربي في الجزء الغربي من البحر المتوسط، فكيف تجلّى هذا الدور الذي قامت به مدن الجمهوريات الإيطالية لاسيما بأن الساحة السياسية في المتوسط الغربي لم تكن خالية أو تشهد فراغاً سياسياً فحسب، بل كان هناك عدداً كبيراً من الممالك المسيحية، والقوى الإسلامية التي ذكرت سابقاً في الحوض الغربي للمتوسط، وجميعها تسعى إلى الهيمنة وفرض مناطق النفوذ؟

عندما يتحدث المرء عن القرنين السادس والسابع الهجري / الثاني عشر والثالث عشر الميلادي زمن الإمبراطورية الموحدية، يدرك بأن المرحلة التاريخية من ذلك العصر كانت حافلة بالنشاط السياسي العسكري، والتجاري في ذلك الجزء منه، لاسيما إن الحركات والحملات الصليبية كانت ماثلاً بحكم القائمة على ديار الإسلام في مشرق البحر المتوسط ومغربه، ولا يستطيع المرء أن يغفل عن الإسهامات الكبيرة التي قدمتها مدن الجمهوريات الإيطالية في هذا المضمار خاصة فيما يتعلق بالنشاط البحري والأساطيل اللازمة لنقل الجنود وما إلى هنالك.

في واقع الأمر كان هناك نشاطان متلازمان وهذا غير جديد على مدن إيطاليا البحرية هما: النشاط التجاري والسياسي الاستراتيجي، وضمن هذين المجالين كانت مصالح المدن الإيطالية تمتد بأذرعها، وترسم سياساتها بحسب

(١) نسيم يوسف، يوسف: العصور الأوروبية وحضارتها، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٨٧م، ص ٢٤٦.

(٢) أرشيبالدوس: القوى البحرية في البحر المتوسط، ص ٣٢٣.

مايخدم مصالحها، وكان النشاط البارز في الحوض الغربي للمتوسط يختلف قليلاً في شكله عن نظيره الشرقي، من حيث المدن، والعلاقات السياسية، فكانت البندقية ذات نشاط كبير، كما ذكرنا سابقاً في الحوض الشرقي من المتوسط، بينما كانت جنوة وبيزة بحكم الموقع الجغرافي القريب من الشمال الإفريقي، والجزء الغربي من المتوسط ذات تأثير أكبر في ساحة المتوسط، والغرب الأوروبي بشكل عام، وكانت هناك ظاهرة أخرى قد بدت وتبلورت في حوض المتوسط الغربي، وإن كانت تتدرج تحت النشاط السياسي الفردي أحياناً إن صح التعبير، ألا وهي ظاهرة القرصنة التي كانت منتشرة في مغرب المتوسط، بينما كانت بصورة طفيفة في الجانب الشرقي منه، و السبب في الحديث عن القرصنة هو أن هذه الظاهرة كانت مشتركة بين العناصر المسيحية، سواءاً أكانت إيطالية، أو إسبانية، أو برتغالية، بالإضافة لها العناصر الإسلامية، وكان لها أثراً لا يستهان فيه على سير الحركة السياسية في الحوض الغربي للمتوسط خاصة خلال القرنين السادس والسابع الهجري /الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، أي زمن الإمبراطورية الموحدية، حيث كان هناك نشاط سياسي واضح من قبل الحكومات الإسلامية والمسيحية للتدخل من أجل القضاء على هذه الظاهرة أو التخفيف من حدتها إذا كان الأمر ممكناً، وغالباً ما كانت تعقد الهدنات والاتفاقيات بين الإمبراطورية الموحدية والمسيحية بهذا الخصوص، ولذلك شكلت القرصنة ثقلًا واضحاً على العلاقات السياسية المغربية مع الجمهوريات الإيطالية، حيث كان للقرصنة أهدافاً متعددة خاصة بين الشعوب المتحاربة لمدة زمنية طويلة، وهذا ما أكد عليه الباحث الفرنسي الشهير دي ماس لاتري^(١) – De Mas Latrie بقوله : " في العصور الوسطى من النادر جداً

(١) لويس دي ماس لاتري (١٨١٥-١٨٩٧م): مؤرخ فرنسي من القرن التاسع عشر، كان مؤرخاً بارعاً في الأعمال التاريخية المتعلقة بالعصور الوسطى، حيث يعد مؤسس تاريخ قبرص، واشتهر كباحث متميز وأستاذاً للدبلوماسيين في مدرسة دي شارتس، ثم شغل عضواً في أكاديمية النقوش والآداب عام ١٨٨٥م، وكان أيضاً عضواً في لجنة الأعمال التاريخية والعلمية، ومنح البابا بيوس التاسع دي ماس لاتري لقب الكونت، واشتهر لاتري بالعديد من المؤلفات التاريخية خاصة فيما يخص فرنسا، وعلاقات الأمم المسيحية مع عرب شمال إفريقيا في العصور الوسطى... إلخ؛

أن تعيش الشعوب في سلام تام مع الشعوب الأخرى، ففانون الحرب كان يسود هذه المدن وتلك الممالك، حيث يوجد بجانب المسيحيين من عامة الشعب من يمتلكون السفن ولديهم القدرة وبناء السفن الحربية، وإعلان العداء على كل من قاموا بأفعال سيئة من القراصنة" (١).

ولذلك يمكن أن يعط المرء تعريفاً بسيطاً لعملية القرصنة: حيث أنها نوع من أنواع النشاط البحري الذي تمارسه السفن والمراكب البحرية ضد المراكب الأخرى، ويكون إما بغرض السلب والنهب، أو بغرض الدفاع (٢)، وفي بعض الأحيان تكون القرصنة صادرة من جهة رسمية حكومية من قبل الحكام أنفسهم، وعندما تكون دفاعاً عن السواحل والممتلكات وصد هجمات الإسبان فإنها تمثل جهاداً بحرياً وواجباً شرعياً لا بد من القيام به، ولذلك شكلت القرصنة أحد جوانب النشاط السياسي في حوض المتوسط الغربي بين المسلمين والدول المسيحية، على صعيد العلاقات المغربية المسيحية في القرن السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي في أوقات السلم أو الحرب، فقد وصف دومينيك فاليريون Dominic Valirian المؤرخ الفرنسي (٣) الذي ألف كتاباً حول المغرب الأوسط بعنوان " بجاية ميناء مغربي " ظاهرة القرصنة بأنها " تشويش للعلاقات

(١) De Mas Latrie: Triates De Paix Et De Commerces Cocernant Les : (١) Arabes De l AFrique septentrional Eau Relations Des Chretiens Aves Moyen Age ,Paris, 1981AH,2,vol,p94-95.

ويذكر المؤرخ الفرنسي دي ماس لاتري بأن القرصنة في نصوص المعاهدات كانت تختص المسيحيين أكثر بكثير مما تكون عند العرب المسلمين، ويتابع لاتري قوله " بأنه يجب رفض التحيز التاريخي الذي يلقي باللوم على العرب في أعمال النهب التي يقوم فيها قراصنة البحر المتوسط، ولذلك لم تكن التدابير التي يتخذها السلاطين المسلمين تحتاج إلى درجة التدابير الصارمة التي يتخذها الحكام المسيحيين ضد قراصنتهم. De Mas latrie: traits,p129.

(٢) نجلاء عبد النبي: القرصنة اللاتينية في شرق حوض البحر المتوسط على عصر السلاطين المماليك ص ٥٥١.

(٣) باحث تاريخي فرنسي معاصر، وكتابه هذا هو أطروحة دكتوراه تقدم فيها بجامعة السوربون بفرنسا، ونوقشت هذه الرسالة عام ٢٠٠٠م، وهو زميل للمترجم الدكتور عمار علاوة الذي ترجمه إلى العربية في جزاين من جامعة قسنطينة.

السياسية بين بين ضفتي البحر المتوسط" وهذا وصفاً دقيقاً للقرصنة، عندما ينظر إلى أن العلاقات الطبيعية بين المسيحيين والمسلمين هي حالة الحرب، وكانت الهدنات التي توقفها مسألة مؤقتة^(١)، أي أن عملية القرصنة التي كانت السلطات الرسمية تسعى إلى الحد من نشاطها، ومنعها كانت تتركز على السفن الغير تابعة لأي معاهدة صلح أو أي اتفاق مبرم معها، ولكن القرصنة سواء أكانوا من المسلمين أو المسيحيين لم يكونوا يميزوا بين تلك العمليات وغيرها ولا يهتمهم في نهاية المطاف إلا ما يجنونه، ويحققوه من مكاسب وأرباح، وهذا بالطبع يكون له ردود أفعال دبلوماسية وعسكرية كما أكد ذلك المؤرخ الفرنسي روبر برنشفيك^(٢).

وقليلة هي المصادر الإسلامية التي تناولت الكلام عن النشاط البحري المسيحي والإسلامي، بما في ذلك عملية القرصنة في الجانب الغربي من حوض البحر المتوسط، مع الملاحظة إلى أن معظم هذه المصادر التي ذكرت هذا النشاط البحري كانت مصادر غير إسلامية، ويستثنى من المصادر العربية الإسلامية المؤرخ ابن خلدون الذي تحدث عن النشاط البحري الإسلامي الذي يمكن أن يندرج تحت عنوان القرصنة، عندما تكلم عن قرصنة أهل بجاية على الأساطيل الأوروبية المتواجدة بالقرب من سواحل المغرب، فيقول عن هذا النشاط: "وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر يضعون الأسطول، ويتخيرون له أبطال الرجال ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائريهم على حين غفلة، فيتخطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة، فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم، تضج طرق البلاد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغلون في فدائهم بما يتعذر معه أو يكاد، فشق ذلك على أمم الفرنجة، وملأت قلوبهم ذلة وحسرة، وعجزوا عن الثأر به وصرخوا على

(١) فاليريون، دومينيك: بجاية ميناء مغربي، ترجمة: علاوة عمارة، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ج ١ ص ٥٥٥.

(٢) برونشفيك، روبر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، ١٩٨٨م، ج ٢ ص ٩٤.

البعد بالشكوى إلى السلطان بإفريقية، فصم عن سماعها، وتطارحوا بثهم وتكلهم فيما بينهم، وتداعوا لنزال المسلمين والأخذ بالثأر منهم" (١).

هذا النص الذي ذكره ابن خلدون يشير إلى قرصنة متبادلة بين الطرفين، ويشير أيضاً إلى أن منطقة المغرب الأوسط، كانت أكثر تعرضاً من غيرها من شواطئ بلاد المسلمين من دول المغرب لغارات القراصنة المسيحيين وخاصة قرصنة جنوة وبيزة قبل قدوم الموحدين وبعدهم أيضاً، وكثيرة هي الأمثلة على عمليات القرصنة في أحد عمليات القرصنة الإيطالية على شواطئ المغرب الإسلامي، وتحديدًا مدينة بجاية ذات الموقع المتميز زمن ملوك بني حمّاد، عندما هاجمت سفنٌ جنوية يقارب عددها مئة واثنين وعشرين مركباً عام ٥٣١هـ / ١١٣٦م سفناً إسلامية بجائية، استولت على بضائعها وعلى تلك السفن أيضاً (٢)، كما قامت أيضاً سفنٌ جنوية أخرى عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م بالاعتداء على أحد المراكب التابع لبيزة وهو راسياً في ميناء بجاية محمل بالسلع والبضائع، وقد ذكر المؤرخ دومينيك فاليريان أن جرأة القراصنة الجنوبيين قد دفعت بهم إلى إحراق عدة مراكب كانت راسية أمام مدينة بجاية، وكانت القرصنة البجائية تحصل على عوائد كبيرة من عملياتها بما في ذلك الأسرى المسلمين معظمهم من الأندلسيين والمغاربة (٣)، لذلك أصبحت القرصنة الجنوبية ذات أثر واضح لإثارة ردود أفعال سكان السواحل، ويشير إلى ذلك الرحالة اليهودي بنيامين التطليلي ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م في رحلته، عندما تحدث عن الجنوبيين وأعمالهم في القرصنة البحرية بقوله: "والجنويون مسيطرون على البحار، يجوبونها بسفنهم الخاصة والمسماة غاليس Galles، ويقومون بأعمال القرصنة على الروم والمسلمين، فيعودون إلى جنوة بالأسلاب والغنائم الوفيرة" (٤)، و يروي دومينيك فاليريان أيضاً حادثة تشير إلى ذلك، عندما

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٥٧٨.

(٢) De Mas Latrie: triates,p35.

(٣) فاليريان: بجاية ميناء مغربي، ج١، ص ٥٥٨.

(٤) التطليلي، بنيامين: رحلته، ترجمة: عزرا حداد، تقديم: عبد الرحمن عبد الشيخ، المجمع

الثقافي، ط١، أبو ظبي، ٢٠٠٢م، ص ٢٩.

التجأ سكان جيجل^(١) إلى الجبال وقت الصيف أثناء موسم الملاحة، وأكد حادثاً آخر عام ١٥٦٠هـ / ١١٦٦م عندما التجأ مراكباً جنوبياً قذفت به العاصفة إلى سواحل جيجل، حيث قتل السكان قسماً من طاقم تشغيله ظناً منهم بأنهم قراصنة وأخذوا الباقي إلى الأسر في بجاية^(٢).

وهذا الأمر يشير إلى تضارب في العلاقات السياسية ما بين الجمهوريات الإيطالية خاصة جنوة وبيزة، حول السيطرة والتحكم في أكبر قدر ممكن من المياه الإقليمية في الحوض الغربي للمتوسط، وهذا التنافس قد تطور أحياناً إلى صدام مسلح وعنيف بين الجانبين، فقد نشبت معركة عام ١٢٣٨هـ / ١٢٤١م بين جنوة وبيزة، عندما قام البيزيون باختطاف أحد السفن الجنوبية المتجهة من إسبانيا إلى تونس، فقام الجنوبيون بالرد على ذلك سريعاً، بأن قاموا باحتجاز سفينة بيزية محملة بالبضائع، وأحرقوا بقية المراكب التي كانت إلى جانبها، واتسع نطاق الخلاف بين الجمهوريتين حتى شمل رعاياهم في شمال إفريقيا^(٣)، لذلك كانت تسعى الحكومات والدول التي تعاني من نشاط القراصنة إلى وضع الاتفاقيات والمعاهدات من أجل الحد من انتشار هذه الظاهرة، أو تقليل خطرهما إن أمكن ذلك، وهنا يجدر الكلام حول النشاط البحري بصورة عامة ما بين الإمبراطورية الموحدية ومدن الجمهوريات الإيطالية الثلاثة في ضوء العلاقات السياسية الخاضعة للاتفاقيات والمعاهدات الرسمية في الحوض الغربي للمتوسط .

(١) مدينة جيجل مدينة قديمة على البحر، لها سور قديم كثيرة الأعناب والفواكه، وعلى هذه المدينة جبل يدعى زلدوي كثير الخصب يسكنه قبائل كثيرة من البربر، وبينها وبين جيجل موضع يدعى المنصورية عليها جبل عظيم مثل الحائط ممايلي جهة البحر؛ مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ١٢٨.

(٢) فاليريان: بجاية ميناء مغربي، ج ١، ص ٥٥٨.

(٣) برنشفيك، روبر: تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي، ج ١، ص ٦٣-٦٤.

٦. العلاقات الموحدية مع مدن الجمهوريات الإيطالية -البندقية، جنوة، بيزة:

كانت مدن الجمهوريات الإيطالية ذات حضور مشترك في حوضي المتوسط الشرقي والغربي، إلا أن هذا الحضور لم يكن متساوياً في كلا الجانبين، فالبندقية مثلاً كانت تتميز بالنشاط الحربي العسكري والتجاري المميز في الحوض الشرقي من المتوسط خاصة في القسطنطينية، وبلاد الشام، ومصر، بينما كان مركزها وقوتها العسكرية أقل ثقلاً في الحوض الغربي للمتوسط، في حين كانت جنوة وبيزة أكثر وجوداً وثقلاً بحكم الموقع الجغرافي، و طبيعتها المناخية في الجزء الغربي منه، وكانت هذه الجمهوريات على روابط وصلات مع الدول التي سبقت قدوم الموحدين كالمرابطين، وبني حمّاد ملوك المغرب الأوسط، وهذه العلاقات بالنسبة للجمهوريات الإيطالية لم تكن خالية من المنافسات مع مع إسبانيا أو منطقة جنوب فرنسا مثل مارسيليا، ويذكر الطالب أحد الأمثلة في ميدان التنافس عندما استولى الجنويون على سفينة بيزية كانت راسية بميناء مرسيليا كانت في طريقها للعودة من مدينة بجاية في عام ٥٥٩هـ/١١٦٥م، تلك المنافسات قد دفعت بجنوة وفلورنسا، وبيزة، والبندقية، إلى تكثيف تواجدها السياسي والتجاري في خاصة ببلاد المغرب، والقواعد المغربية الشهيرة مثل بجاية، وتونس، وسبتة وغيرها، لا سيما بأنه من الواجب ألا يغيب عن الأذهان عند قدوم الموحدين، ونجاح الخليفة الموحي عبد المؤمن بن علي في توحيد المغربين الأقصى والأوسط وطرده النورمانديين من المهدية عام ٥٥٥هـ/١١٥٩م، فقد أصبح من الواجب التعامل مع هذه السلطة الجديدة، والإمبراطورية الموحدية الفتية التي تسلمت الآن زعامة المغرب الإسلامي، وقسم من بلاد الأندلس، ومن أجل ذلك كانت تسعى المدن الإيطالية للتفاهم، ووضع الاتفاقيات مع القوة الموحدية الناشئة، وكانت تلك المدن متفاوتة الصلة والمواثيق والعلاقات السياسية بين الموحدين من طرف، والمدن الإيطالية الأخرى من طرف آخر، ولذلك سيتم عرض هذه العلاقات للدولة الموحدية لكل مدينة من مدن الجمهوريات الإيطالية بشكل مفصلٍ ومستقل عن الآخر:

أ- علاقة الدولة الموحدية مع جنوة:

لقد كانت جنوة من بين الجمهوريات الإيطالية ذات العلاقات السياسية والتجارية الأوسع والأقدم مع ساحل الشمال الإفريقي، لا سيما قبل قدوم الموحدين^(١)، وتسلمهم زمام السلطة، كدولة المرابطين، وملوك بني حمّاد وغيرهم من الممالك التي زالت بقدوم الموحدين الذين قاموا بتوحيد بلاد المغرب برمتها تحت سلطة واحدة، وهذا الوضع الجديد قد فرض على المدن الإيطالية أن تتعامل مع الواقع الجديد خصوصاً على الساحة المغربية، لذلك قامت جنوة بتكثيف جهودها في من أجل إقامة علاقة ودّ مع الخليفة الموحي، وخصوصاً بعد أن سيطر الموحدون على بجاية أكبر مركز من مراكز المغرب الأوسط عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، وأرسلت جنوة عدة مبعوثين إلى الخلفاء الموحدين، ونجحت في إقامة معاهدات واتفاقيات معهم^(٢)، فكانت أول اتفاقية نظمت فيه العلاقات بين الجانبين عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣-١١٥٤م، وتجددت العلاقة بين الجانبين بعد فتح الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي مدينة المهدية، حيث سمح للجنوبيين أن يتاجروا مع الموانئ السواحلية للدولة الموحدية مثل طرابلس وتونس وبجاية وسبتة مع أداء ضريبة لا تتجاوز ٨% على سلعهم ومع بجاية كانت ١٠%، وهذه هي الاتفاقية التي عقدها المبعوث الخاص للحكومة الجنوبية أوتوبون OTTOBONE الذي قدم سفيراً على الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، واستقبل بكل حفاوة وتكريم، وعقدت معاهدة في العاصمة مراكش يضمن هذا الاتفاق لجنوة حرية التنقل في جميع بلاد الخلافة الموحدية براً وبحراً لمدة خمسة عشر عاماً^(٣)، وقد ذكر الدكتور أحمد عزوي في كتابه "رسائل موحدية جديدة" بأن الجنوبيين قاموا بتركيز نشاطهم في البداية على ميناء بجاية، وثم قامت الدولة الموحدية بالسعي إلى خلق نوع من التوازن مع جميع الموانئ والمدن الموحدية الأخرى مثل سلا، وسبتة، وغيرها، وقامت جنوة بمضاعفة أعداد مؤسساتها لتشمل

(١) عزوي، أحمد: مجموعة رسائل موحدية جديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٢ ص ٨٨-٨٩.

(٢) De Mas latrie: traites, p90.

(٣) التازي، عبد الهادي: الوسيط في التاريخ الوسيط، ص ٩٢؛

مدن تونس، وسبته، وطرابلس^(١)، حيث كانت المهدية تستقبل السفراء الجنوبيين بانتظام، وكان الجانبين يسعون لاحترام تلك الاتفاقيات خصوصاً السلطات الجنوبية التي كانت تعاقب بشدة كل من كان يخرق المعاهدات مع دولة الموحيدين، فضلاً على التنافس كبير مع جمهورية بيزة حول الموانئ الموحدية مثل الموانئ التونسية خاصة بجاية، المركز الموحيدي المتقدم آنذاك، ولذلك سعت مدن الجمهوريات الإيطالية إلى تكثيف نشاطها وتواجدها في تلك المنطقة خاصة مع الولاة الموحيدين في تونس التي تسلمت شؤونها الأسرة الحفصية التي حكمت باسم خليفة مراكش الموحيدي^(٢)، وعلى الرغم من حدوث بعض المناوشات ما بين السفن الموحدية والجنوبية كالحادثة التي اعترضت فيها سفن موحدية على مقربة من جزيرة سردينيا سفينة جنوبية كانت في طريقها إلى مصر، وطلب الموحدون على متن السفينة معرفة هوية الأشخاص المسافرين على متنها، أثار هذا التصرف حفيظة الجنوبيين، وعدوه بمثابة إهانة لهم، فقاموا بمهاجمة المسلمين، وعندما علم الموحدون هوية الجنوبيين، اعتذروا لهم وسلّموا السفن إليهم، فلم يؤثر ذلك على العلاقات الجنوبية الموحدية، واستمرت جنوة في إرسال وفود ومبعوثين جنوبيين إلى بلاط الخلفاء الموحيدين، وعلى الجانب الموحيدي فقد التزم الخلفاء الموحيدين الحفاظ على علاقات السلم مع الجنوبيين ابتداءً من الخليفة عبد المؤمن بن علي، وأبناءه، وأحفاده، وكانت العلاقات الجنوبية الموحدية وثيقة في عصر الخليفة عبد المؤمن بن علي، وكانت بجاية بالذات في ذلك العهد أكبر مركز للتبادلات التجارية الجنوبية الموحدية، نظراً لقرب المسافة بين جنوة وبجاية، حيث لا تزيد المسافة مئة وعشرين ميلاً بين المنطقتين، وبسهل الطريق من جنوة إلى بجاية عبر جزيرتي كورسيكا وسردينيا القريبتين من بجاية، لذلك لم يكذب ينه عصر عبد المؤمن بن علي حتى سارعت السلطة الحكومة الجنوبية إلى تجديد اتفاقياتها مع الخليفة الموحيدي يوسف بن عبد المؤمن بن علي مدتها خمسة عشر عاماً، بعد أن أرسلت سفيرها Otto Bono de Alberici، تضمنت هذه الاتفاقية حماية التجار الجنوبيين، وضمان الحماية لسلعهم في جميع المناطق الموحدية، وتجددت هذه الاتفاقية عندما أرسلت حكومة جنوة إلى سبته وفداً آخر سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م التقى بالخليفة الموحيدي

(١) عزايوي، أحمد: مجموعة رسائل موحدية، ج ٢، ص ٨٨.

(٢) برونشفيك، روبر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج ١ ص ٥٢-٥٣.

يعقوب المنصور، وكان مؤلفاً من سفيرين هما wiliam zibinus و obertus de Nigro ، وكان من شأن هذه الاتفاقية أن تزيد نفوذ الجنوبيين في بلاد المغرب خاصة مدينة سبتة وسلا بعد أن اقتضرت المبادلات الأولى على مدن المغرب الأوسط مثل تونس، وبجاية، حيث أصبح الجنوبيون سادة الأعمال التجارية في مدينة سبتة، ولا بد للمرء أن يذكر قولاً بليغاً للدكتور محمد الشريف في كتابه " سبتة الإسلامية" حول السياسة الجنوبية في بلاد المغرب بقوله: " لقد كانت الاهتمامات التجارية الجنوبية تغلب على طموحاتهم السياسية ببلاد المغرب، عكس الأرغونيين والقشتاليين أو القشتاليين الذين ربطوا العلاقات التجارية بالعمل العسكري في أغلب الأحيان" (١).

وقد أشار أيضاً أحد الجنود الألمان الذين اشتركوا في الحملات الصليبية على المغرب الإسلامي بالأهمية الكبيرة لمدينة سبتة في الشمال الإفريقي، وكذلك اهتمام كل من جنوة وبيزة المتنافستين على وجودهما على أراضيها بقوله: " إنَّ سبتة أغنى مدن المغرب، والأكثر شهرة بفضل تجارتها مع جنوة وبيزة، ومع جميع التجار المسيحيين المتوافدين على إفريقيا" (٢).

لذلك كانت مدينة سبتة أيضاً من المراكز الكبرى التي قصدتها الجنوبيون والتي نافست تونس، وبجاية، على الرغم من موقعهما القريب من جنوة، وهذا بدوره أيضاً يشير إلى عامل الأمان الذي استطاع الخلفاء الموحدون من ذرية عبد المؤمن بن علي تحقيقه خلال المرحلة الذهبية من عصر الدولة الموحدية، وبقيت موانئ الشمال الإفريقي أساساً متيناً لا يمكن لجمهورية جنوة الاستغناء عنه، وهنا يكمن استفساراً لا بد من الإجابة عنه وهو: لماذا وضعت جنوة كامل ثقلها على الأرض المغربية بدلاً من الحوض الشرقي للمتوسط؟ وحرصت كل الحرص على إقامة علاقات سياسية وتجارية وثيقة مع الدولة الموحدية حتى بعد معركة العقاب ١٢١٢/هـ ١٢٠٩م التي أخذت فيها عرى دولة الموحدين تتفصل شيئاً فشيئاً؟

(١) الشريف، محمد: سبتة الإسلامية، عصر الموحدين والمرينيين، منشورات جمعية تطاون، ط٢، الرباط، ٢٠٠٦م، ص ٨٤-٨٥.

(٢) الشريف: سبتة الإسلامية، ص ٨٨.

عند العودة إلى الوراء قليلاً في بداية هذا الفصل في الفقرة الأولى التي تحدثت عن نشاط مدن الجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط بما في ذلك السواحل المصرية، والشامية، والعاصمة البيزنطية القسطنطينية، عندما حدث النزاع بين مدن الجمهوريات الإيطالية خاصة جنوة والبندقية، وحُسم النزاع في منطقة القسطنطينية لصالح البندقية، حيث كان التوقيت هو الحملة الصليبية الرابعة ٥٩٨-٦٠١هـ/١٢٠٢-١٢٠٤م، وقد رفضت جنوة كما هو معروف الاشتراك في هذه الحملة، و نالت البندقية في هذه الحملة نصيباً كبيراً من النجاح والامتيازات والأرباح في بلاط القسطنطينية لصالح تقليص الوجود الجنوبي عن أراضي الإمبراطورية البيزنطية وهذا أدى إلى إضعاف الوجود الجنوبي والإضرار بمصالح الجنوبيين و هذا أولاً، فضلاً عن تراجع التواجد الجنوبي على الموانئ الشامية على سواحل بلاد الشام التابعة للصليبيين بسبب نجاح السلطان الأيوبي صلاح الدين الأيوبي في القضاء على التواجد الصليبي بعد الهزيمة الكبيرة التي أنزلها بهم في معركة حطين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وأفقد المؤسسة العسكرية الصليبية كثيراً من أسباب قوتها وتواجدها على مناطق الساحل الشامي وهذا ثانياً، الأمر الذي دفع بجنوة للعمل على تقليص نشاطها كثيراً في منطقة الحوض الشرقي للمتوسط، وجعلها تتوجه بأنظارها الآن إلى المغرب الإسلامي ذو السيادة الواحدة المتمثلة بزعامة الخلفاء الموحدين، خاصة و إنّ بلاد المغرب الأوسط والمغرب الأقصى هي المنطقة الحيوية التي رسم الجنوبيون خططهم إلى تكثيف وجودهم فيها، وكانت جهود الموحدين السياسية التي حققت استقراراً نسبياً في المنطقة قد آتت أكلها في تمتين العلاقة بين الإمبراطورية الموحدية وجنوة واستمرارها حتى بعد معركة العقاب القاصمة لطور القوة والنفوذ الموحد في بلاد الأندلس أولاً ثم المغرب ثانياً، ولكن جنوة بنشاطها السياسي والتجاري في الحوض الغربي للمتوسط حتى أواخر أيام الحكم الموحد، استمرت لاعباً وسيطاً ما بين بلاد المغرب في الشمال الإفريقي، وشمال أوروبا خاصة في أسواق الفلاندرز والشامبيني^(١)

(١) من أشهر الأسواق الأوروبية في العصور الوسطى، كانت هذه الأسواق من أضخم الأسواق في أوروبا الغربية تتبادل البضائع التجارية مع بلاد المسلمين والمدن الإيطالية وأشهر بضاعتها الفراء الجملة، والجلود والصوف الإنكليزي، وكان إقليم فلاندرز في الشمال الأوروبي غني جداً بالأنهار والموانئ التي اكتسبت شهرة تجارية كبيرة، وكانت ممرات =

ومراكز الصناعات في لمبارديا، حيث كان الجنويون يرسلون كثيراً من منتجات بلاد المغرب إلى لمبارديا وشمال أوروبا مثل الجلود والشب، ولذلك لم يذكر في العلاقات الموحدية الجنوبية مايدلل على أعمال عدائية أو حدوث مصاعب تعكر صفو العلاقات بين الطرفين، وهذا ما يفسره الدكتور أمين توفيق الطيبي في كتابه " دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس " عندما تحدث عن العلاقات الإيجابية بين الموحدين وجمهورية جنوة البحرية بسبب انشغالهم في النشاط الحربي في الأندلس والتصدي لنفوذ بني غانية بقوله: " ولعلَّ قيام العلاقات التجارية بين دولة الموحدين الفتية وبين جنوة يرجع _ كما أسلفنا _ إلى انشغال الموحدين في حروبهم في شبه جزيرة إيبيرية وانشغالهم كذلك في التصدي لبني غانية في الجزائر الشرقية أولاً، ثم إفريقية، كما يرجع كذلك لمصالح الجانبين التجارية البحتة، لا سيما وأن تجارة المشرق انقطعت - أو كادت أن تنقطع _ بسبب الحروب الصليبية " (١)

ولكن عندما تدهورت الأحوال السياسية في أواخر الحكم الموحي حدثت بعض النزاعات بين الجنوبيين وحكومة مراكش، بسبب نزاعهم من أجل السيطرة على سبتة أشهر الثغور الموحدية آنذاك، واستغل بعض الجنوبيون المتواجدين في سبتة الأحوال المتدهورة للدولة الموحدية والاضطرابات الناشئة عنها، وحاولوا السيطرة على المدينة، وقد ذكر تلك الحادثة بالتفصيل ابن عذار المراكشي في " البيان المغرب"، وقد كان متولي شؤون سبتة آنذاك أبو العباس اليانشتي الذي تزعم البلد بعد الثورة على الخليفة الموحي الرشيد (٢)، فكتب أبو العباس بنوايا

= الألب الشريان الرئيسي لهذه الأسواق، مادة الأسواق التجارية العالمية؛ بيرين، هنري: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، تح: عطية القوسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، ١٩٩٦م، ص ٩٩ ومابعد.

(١) الطيبي، أمين توفيق: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ١٤٠.

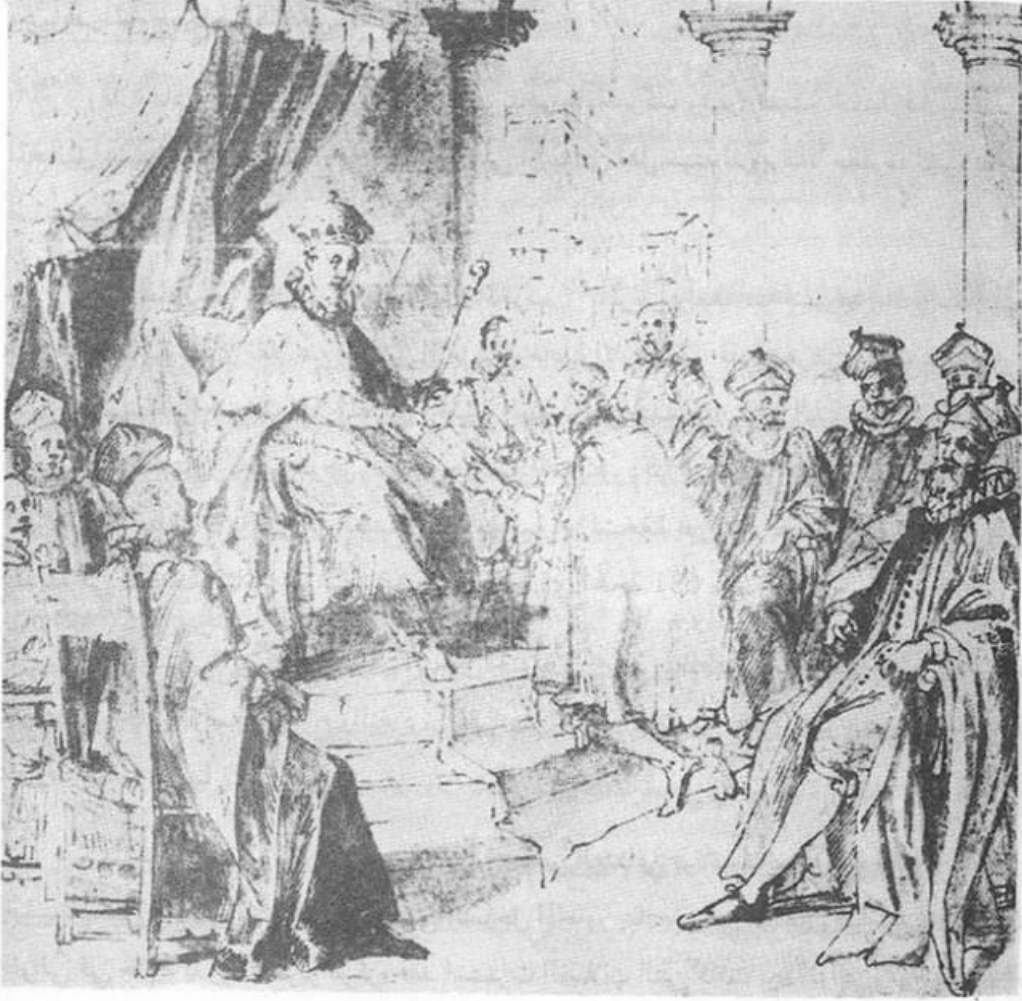
(٢) هو أمير المؤمنين أبو محمد عبد الواحد بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي، بويغ بالخلافة عام ٦٣٠هـ/١٢٣٣م، وكان على نزاع مع ابن عمه المعتصم بن الناصر حتى توفي المعتصم سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م، ووشهدت مدة حكم الرشيد اضطرابات وصراعات كثيرة، ومالبث أن توفي الرشيد غرقاً عام =

الجنوبيين يعلم القبائل الساكنة بنواياهم في السيطرة على مدينة سبتة، واستطاع سكان المدينة تدارك الأمر، وهمُّوا بالجنوبيين قتلاً، وفتكاً، حتى اضطر من بقي على إلقاء نفسه في المراكب، والهروب عائدين من حيث مجيئهم، واقلعوا من ميناء سبتة، وهم عائدون التقوا بمراكب كانت في البحر تعود لجنوة، وأخبروهم بالهزيمة التي حلت بهم في سبتة، ففروا الرجوع إلى سبتة، وذكر ابن عذاري أن عدد مراكبهم يتجاوز المئة، فلما اقتربوا من سبتة نصبوا عليها المناجيق، ولكن لم يفلحوا هذه المرة أيضاً، ثم وقع الصلح بينهم وبين أهل سبتة على أن يدفع أبو العباس اليانشتي تعويضاً لهم عن خسائرهم في المرة السابقة، وانتهت تلك المحاولة الفاشلة من أهل جنوة، وكان عام جنوة عند أهل سبتة مشهوراً وذكر ابن عذار أن ذلك قد حدث عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م أو عام ٦٣٦هـ/١٢٣٩م^(١).

= عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م؛ المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣٥٦، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٥٤.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٥٠، ويمكن الرجوع إلى أحد المراجع باللغة الإنكليزية وهو كتاب الحوليات الجنوبية وفيه مادة غنية حول النشاط الصليبي الجنوبي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ويدعى حوليات كافارو.

Martin Hall and Jonathan Phillips: Caffaro, Genoa and the twelfth-Century Crusades, University of London, UK.



لقد كانت جنوة أول دولة أنشأت لها علاقات مع المغرب على عهد الموحدين منذ 546=1153، وقد جذدت هذه الاتفاقية عام 555=1160 لمدة خمسة عشر عاماً وتنص على ثمانية في المائة للديوانة بالنسبة لسبتة، وعشرة في المائة بالنسبة لبجاية...
حاكم جنوة يعطى تعليماته لسفرائه... عن أرشيف الدولة جنوة

التازي: الوسيط في التاريخ الوسيط، ص ٩٣.

ب- علاقة الموحدين مع جمهورية بيزة:

لم تكن علاقات البيازنة مع دول المغرب العربي الإسلامي جديدة العهد بقدم الموحدين، بل كانت العلاقات ترجع إلى أيام المرابطين، وبني حمّاد ملوك القلعة، حيث يذكر الدكتور المرحوم عبد الهادي التازي منذ أيام المرابطين كانت تبحر السفن المغربية إلى جمهورية بيزة، وفي عام ٥٢٧هـ/١١٣٣م أبحرت سفينتان مغربيتان كانت تحمل على متنها بعثة دبلوماسية من ملك المغرب علي بن يوسف بن تاشفين، وكانت تشكل بيزة قوة عسكرية بحرية لا يستهان فيها في مياه الحوض الغربي للمتوسط، وكان نتيجة المفاوضات بين السلطة الحاكمة في بيزة والوفد السياسي المغربي توقيع معاهدة سلمية وتجارية في العشرين من شعبان عام ٥٣١هـ/١١٣٣م، وقد كان هذا الاتفاق يتضمن مناطق من أرض المغرب مثل تلمسان وغيرها من مناطق النفوذ المرابطي، ويجب أن لا يغيب عن الأذهان القوة الحقيقية التي كانت تتمتع فيها جمهورية بيزة حيث كان بمقدورها لوحدها أسطولا يتراوح عدده ما بين مئة إلى مئة وخمسين قطعة بحرية كان بمقدورها أن تفرض هيمنة على كامل البحر التيراني^(١).

وعند قدوم الموحدين كقوة فتية عظيمة على أرض المغرب كان الطريق مفتوحاً أمام العلاقات البيزية الموحدية منذ عهد باكر، وكانت العلاقات الموحدية شبيهة مثل سابقتها مع بيزة، حيث يذكر الدكتور التازي قدوم قنصل جمهورية بيزة ويدعى كوكو كريفى Coco Griffi عام ٥٦١هـ/١١٦٦م قاصداً بلاط الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي، ووقع اتفاقاً بين الموحدين والبيزيين، وكان هذا الاتفاق أساساً مستقبلياً للعلاقات بين الجانبين، وأعاد الخليفة أبو يعقوب بموجب الاتفاق الامتيازات السابقة التي حصلت لها بيزة مثل الحق في إنشاء الفنادق في منطقة زويلة المشهورة بتواجد الأوروبيين على ساحتها، وقيام سلام دائم بين الموحدين والبيزيين طالما الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن

(١) التازي: الوسيط في التاريخ الوسيط، ج ١، ص ٢٩٨.

باقٍ في السلطة، حيث تسلم القنصل البيزي هدايا قيمة من خليفة الموحدين حملها معه إلى البلاط البيزي آنذاك ^(١) .

ثم تكررت مراسلات البيزيين إلى الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن أبي يعقوب، وكانت هذه المراسلات في أعلى مستوياتها من جانب البيزيين، حيث قام رئيس بيزة وأسقفها ويدعى أوبالدي (Ubalde) وهو حاكم أيضاً جزيرة كورسيكا، وسردينية، بكتابة رسالة إلى الخليفة الموحي أبي يعقوب من بيزة، وقد أشار في هذه الرسالة إلى التذكير بالاتفاق الذي قام به المبعوث البيزي السابق كوكو كريفلي (Coco Griffi)، ويخبره بأن مركباً تابعاً لجزيرة صقلية محملاً بالقمح، اضطر هذا المركب للأحوال السيئة للطقس أن يرسو في طرابلس، ونفذ الماء الذي كان بحوزتهم، واضطر أصحاب المركب إلى البحث عن الماء، فقدم مركب من متولى شؤون طرابلس، فقبض عليهم وهم في سجنه إلى هذا التاريخ، وقد ذكرت هذه الرسالة في أكثر من مصدر، إلا أن الأصل يعود إلى المستشرق الإيطالي ميشيل أماري الذي ذكر هذه الرسالة مفصلة، وسيذكر الطالب جزءاً من الطلب الذي تقدم به رئيس أساقفة بيزة إلى الخليفة الموحي أبي يعقوب: "... لنا مركب من تجارنا، وأهل قطرنا وأنظارنا أوسقاً بالقمح، من جزيرة صقلية، وأقلعوا يريدون مدينة أطرابلس حماها الله، فأسقطهم الريح في أحواضها، وكان الماء قد عجزهم فنزلوا إلى البر ليستقوا فلم يتركهم أهل الموضع إلا حتى باعوا منهم من القمح قليلاً، فلما كان في أثر هذا وصل من مدينة أطرابلس غراباً معمرّاً من عند واليها ومقدمها وقبض على القوم وأنهبهم ن وقبض على الذي وجد في المركب من التجار ونجا بعض منهم في العشاري..." ^(٢)

كما أن هناك رسالة أخرى وجهتها بيزة إلى الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن، يحملها مبعوث خاص من قبل أسقف بيزة، وكورسيكا، وسردينية هذه الرسالة مؤرخة بتاريخ ٥٦٨هـ / ١١٨٢م، وتؤكد هذه الرسالة على الاتفاق السابق الذي عقد مع الخليفة الموحي أبي يعقوب وعلى التزام بيزة من جانبها ببند

(١) التازي: الوسيط في التاريخ الوسيط، ج ٢، ص ٧٢-٧٣.

(٢) AMARI, MICHEL: I DIPLOMI ARABI DELL ARCHIVIO FIORENTINO, tseto . Original, TOSCANI, P25-28

الاتفاق، وتطلب من الخليفة الموحي الالتزام أيضاً بالاتفاقية المعهودة، واستمرار السلام بين الطرفين، وتشير إلى بعض العراقيل التي كان يواجهها البيزيين في مدينة بجاية، مثل: عدم السماح لهم في البيع والشراء من مدينة بجاية، والطلب منهم ضريبة فوق الضريبة المتفق عليها وقيمتها العشر، لذلك كانت هذه الرسالة تطلب من الخليفة الموحي إلزام رعيته بالاتفاق الموحي البيزي المعلوم، وهذا جزء من الرسالة المذكورة تطلب إلى الخليفة الموحي ذلك: "... فرغبنا إلى الحضرة المكرمة أيد الله نصرها، أن ينفذ أمرها العالي إلى العمال والمتصرفين في أنظارها أن يحملوا تجارنا ومسافرينا على ما جرت به عادتهم، فيما تقدم من الإقبال والإيراد، ولا يطلبون منهم خلاف ما عاينوه من المألوف منه والمعتادين، ولا يهوبهم فزعاً، ولا يندھونهم بإذاية برأً وبحراً، والله بعزته يبقي ما بيننا على ما يرضاه موصولاً، ولا يجعل للغير عليه سبيلاً..." (١).

غير أن بعض الأحداث والاعتداءات كانت تقع أحياناً من قبل البيزيين على الموانئ الموحدية، ولم يكن للسلطات الرسمية البيزية أي إسهام فيها، ويمكن أن يدرجها المرء تحت أعمال قرصنة بحرية كما أسلفنا سابقاً، وكان من شأن هذه الأفعال التي يقوم بها البيزيون أن تعكر صفو العلاقات الموحدية البيزية، ولكن الخلفاء الموحدين استطاعوا أن يحسنوا التصرف، ويتشددوا قليلاً مع المعاهدات التي تجريها الدولة الموحدية مع بيزة، ويذكر المرء مثلاً على ذلك عندما قامت السلطات الموحدية عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م بالتضييق على التجار البيزيين، ولم يسمحوا لهم بالمتجارة معهم إلا إذا كانت بضاعتهم تفوق ٥٠٠ دينار، وهذا ما أشارت إليه الرسالة السابقة التي أرسلها رئيس أساقفة بيزة، وكورسيكا، وسردينية إلى الخليفة الموحي أبي يعقوب عندما أخبره بحقيقة ذلك، وأنه ليس من بنود اتفاقية السلم والتجارة مع بيزة أن لا يقبل التجار الذين تقل بضاعتهم عن خمسمئة دينار (٢)، بالإضافة إلى التحالف الميورقي البيزي الذي عقده بني غانية حكام جزر الباليار مع بيزة عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م (٣) العدو اللدود للموحدين، الأمر الذي دفع

(١) AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p12

(٢) AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p12.

(٣) أحمد موسى، عز الدين: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، ط١، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٧٧.

ال خليفة المنصور إلى التشدد مع البيزيين عند بداية تسلمه شؤون الحكم كخليفة بعد استشهاد والده يوسف بن عبد المؤمن، لذلك كانت الاتفاقية التي عقدها الخليفة المنصور مع الوفد البيزي الذي قدم لتهنئته لاعتلائه العرش فيها تشددٌ وتحفظٌ على البيزيين، وبنود هذه المعاهدة الجديدة التي عقدت عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م، قد ذكرت في نص الرسالة الموجهة إلى حكومة بيزة^(١)، وأهم بنود هذه الاتفاقية التي أقر المنصور مدتها خمس وعشرون عاماً وهي: أنه لا يحق للبيزيين إلا النزول في أربعة مناطق حددها لهم وهي: سبتة، ووهران، وبجاية، وتونس، وخصصت مدينة المرية في الأندلس عندما تكون هناك حاجة لإصلاح سفنهم في حال حدوث أعطال فيها، وكل من خالف ذلك فدمه وماله مباحان، ومحاربة القرصنة وملاحقة القراصنة أينما وجدوا، وألا يحملوا أحداً من المسلمين على ظهر سفنهم، وتحدد الضريبة بمقدار العشر جريباً على العادات السابقة، أعطائهم الأمان في المناطق المخصصة لهم، فلا يسمح لأحد بالتعرض إليهم، وإذا لقيتهم الأساطيل الموحدية فلا يتعرضون لهم، ولا يعتدوا عليهم^(٢).

وبالرغم من شروط الاتفاقية التي كانت أكثر جدية وصرامة مع الجانب البيزي، إلا أنها استمرت ودامت بين الطرفين، وازداد إقبال البيزيين على موانئ الدولة الموحدية، والتزمت كل من بيزة والدولة الموحدية شروط هذه الاتفاقية، ولكن ذلك الالتزام لم يكن يخلو من حركات التمرد، والقرصنة التي كانت تسجل من كلا الجانبين، ف وقعت حادثة كانت تمثل اعتداءً سافراً من قبل بعض القراصنة البيزيين، بعد استلام الخليفة الناصر عرش الإمبراطورية الموحدية عام ٥٩٥هـ/١١٩٨م وتسببت حرجاً كبيراً في العلاقات الموحدية البيزية، فقامت سفينتين بيزيتين وتدعى في التسمية العربية "مسطحات"، وهما تصطحبان سفينتين حربيتين بالنزول في ميناء تونس، وهاجمت هذه السفن ثلاث مراكب تابعة للمسلمين كانت تتجهز للإقلاع وهي محملة بالبضائع نحو المشرق، فقاموا بقتل جماعة كبيرة من المسلمين، فضلاً على الذين ألقوا بأنفسهم إلى البحر، وماتوا غرقاً، وانتهكوا الحرمات، وأخذوا المراكب بحمولتها، وردوا بعض الأسرى بأسوء الأحوال، وهذه الحادثة مذكورة في الرسالة الموجهة إلى حكومة بيزة لتتخذ أقصى

(١) De mas latrerie: traites, p28-30.

(٢) AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p20-22.

العقوبات بحق المعتدين، كما أفصحت هذه الرسالة بأن الحكومة الموحدية قامت بتعويض بعض الخسائر التي أسفر عنها الهجوم السابق عن طريق بيع القمح الذي كان بيد التجار البيزيين على مرأى من الشهود، وأصحاب الرأي والمشورة ومن البيزيين أيضاً، وتشير هذه الرسالة المؤرخة سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م إلى وجود الأسطول الموحي في المنطقة القريبة، وأنه لم يتعرض لأي من سفن البيزيين، سوى أنه قبّح عليهم هذا الفعل، وذكرهم بالصلح المبرم، وكان بإمكانه القيام بأي عمل عدائي على أي سفينة بيزية متواجدة على القرب من الأسطول^(١).

وكان رد السلطات البيزية على هذا الاعتداء المذكور، بأن عدت هؤلاء خارجين عن معاهدة الصلح المبرمة مع الموحيين، وقامت ببيع جميع أملاك البيزيين الذين قاموا بالاعتداء لأنهم لاذوا بالفرار، حيث ذكر الدكتور عبد الهادي التازي بأنه قد عُهد إلى كاتب تابع لجمهورية بيزة واسمه دي مانودي دي سينو Dimano di cino بأن يقوم بكشف أسماء الملاكين ومقادير القمح، على مشهد من الناس^(٢).

كما أرسل متولي تونس وهو أبو زيد عبد الرحمن بن أبي حفص بن عبد المؤمن بن علي الذي تولى شؤون تونس من عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م رسالة أخرى إلى حكومة بيزة يطلب منهم القدوم إلى بلاد الموحيين للتجارة، ويعطيهم أماناً على تحركهم في بلاده، مع الالتزام ببنود المعاهدة السابقة مع الخليفة المنصور الموحي^(٣).

وجرى اعتداء آخر من قبل السفن البيزية على مراكب راسية للمسلمين في تونس، فقاموا بنهب المراكب وأخذوا جزءاً منها، وقتلوا جماعة من المسلمين ممن كانوا بالمراكب، وعلى أثر هذا الاعتداء الذي قام به البيزيون أرسل متولي تونس عبد الرحمن بن أبي حفص رسالة إلى حكومة بيزة رسالة

(١) AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p22-26.

(٢) التازي: الوسيط، ج ٢، ص ٨٠.

(٣) لم يذكر المرسل متولى تونس تاريخ إرسال الرسالة مثل الرسائل السابقة، ولكنها على الأغلب في بداية تسلمه شؤون الولاية، AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p29-30.

مؤرخة سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، يطلب منهم معاقبة الفاعلين، والتزام الحكومة الموحدية اتفاق السلام والتجارة مع بيزة، ويكرر لهم أن الأمان الممنوح لهم ولتجارهم مازال ساري المفعول، وأنَّ الخليفة الناصر الموحي مازال على عهده مع حكومة بيزة، ويطلب جواباً منها على تصرفها حيال هؤلاء المعتدين (١) .

وهنا لا بد من طرح التساؤل التالي: لماذا تكررت اعتداءات السفن البيزية على موانئ الدولة الموحدية، مع أن هذه الاعتداءات قد ترافقت مع القتل والنهب والسلب والاعتداء على حرّيات المسلمين؟ ومن ثم يكون جواب الحكومة الموحدية بالتزامها الاتفاق المبرم مع حكومة بيزة، وهي مستمرة في إعطاء الأمان على أراضيها لحكومة بيزة؟

إن الإجابة عن ذلك تتوضح بالعودة إلى الحالة السياسية التي كانت تمر فيها الدولة الموحدية، عندما تسلم الخليفة الناصر عرش الموحدين بعد وفاة والده المنصور، وفي تلك الآونة كانت الحالة السياسة للدولة الموحدية مضطربة في تونس، حيث عاد نشاط بني غانية - كما مر ذلك سابقاً - إلى الاستفحال من جديد في تونس، وكان بني غانية يحاولون أن يتحالفوا مع أية جهة تخدم سياستهم العدائية اتجاه الموحدين، ولذلك كانت الحكومة الموحدية تغض الطرف عن تلك الاعتداءات من أجل التفرغ لضرب بني غانية، وهذا ماحدث فعلاً عندما كانت الضربة القاضية لبني غانية بنجاح الخليفة الناصر السيطرة على ميورقة المقر الرئيسي لبني غانية في جزر البليار، بل وقامت السلطات الموحدية بطلب دعم من بيزة استعداداً لمواجهة بني غانية أو على الأقل ضمان حياد بيزة في هذا الصراع، وهذا ما أكدته رسالة وجهها والي سبتة ناصح بن عبد الله إلى حكومة بيزة يطلب منها تقديم مساعدة بحرية، والذي أوكل إليه حمل هذه الرسالة إلى حكومة بيزة يدعى أنجلو سبنوله (ANGELO SPINOLA) (٢) وهذه الرسالة صادرة بتاريخ ٥٩٧هـ/١٢٠١م وفي مقدمتها: "بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً، القناصلة والأشياخ والأعيان الذين ببيجة وفقهم الله تعالى...، وقد أودعنا الشيخ الأكرم أنج اسبنولة وفقه الله ليتكلم معكم في ذلك،

(١) AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p34-35.

(٢) واسم حامل هذه الرسالة في نصّها هو الشيخ "أنج اسبنولة" كما ورد في نص الرسالة؛

ويؤكد عليكم غاية التأكيد، فلتسرعوا بالبراز إلى ذلك، والله سبحانه يعرفنا وإياكم مافيه الخير للجميع... " (١).

وكان النجاح قد تكلل للناصر في القضاء على نفوذ بني غانية بصورة نهائية، لاسيما عندما استطاع القضاء على عاصمة ملكهم في ميورقة والسيطرة عليها، وحاول الخليفة الناصر على إبقاء العلاقات السياسية والتجارية طيبة مع بيزة، ولذلك أرسل برسالة إلى حكومة بيزة إلى القنصل البيزي كودفري دسكونت (Gerqdo kodifri Desekunt) عن طريق السفير المرسل من قبله جيرادو يؤكد فيها التزامه الاتفاق المبرم معها، وأنه ضامن لرعاياه السلامة والأمن في الأمكنة المحددة لهم من أراضي الإمبراطورية الموحدية، ويطلب منه الالتزام بحماية المسلمين وعدم الإضرار بهم، وهذه الرسالة مؤرخة بعد القضاء على نفوذ بني غانية كما سلف بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ٦٠٧هـ، وقد أرسلها باسم الخليفة الناصر متولي شؤون تونس الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي ١٢١٠م، ومقدمة هذه الرسالة: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً، إلى القنصر الأجل كودفري دسكونت وفقه الله ويسره لما يرضاه من عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص... " (٢).

واستمرت العلاقات الجيدة ما بين الموحيدين وحكومة بيزة حتى آخر عهدها، على الرغم من وجود بعض التوترات، والاضطرابات السياسية التي كانت تعصف بالمنطقة الغربية للبحر المتوسط، لا سيما أنّ القرصنة كانت تؤدي إلى حرج واضح في الاتفاقيات الموحدية البيزية المرتبطة بنشر الأمان والسلم لكلا الجانبين، حتى بعد إعلان الحفصيين الاستقلال عن الدولة الموحدية عام ٦٣٤هـ/١٢٣٧م، وكانت المعاهدات قائمة بين الجانبين على تجديد الهدنة، والصلح المبرم من الاتفاقيات السابقة، وأشهر المعاهدات التي وقعتها الدولة الحفصية مع حكومة بيزة معاهدة الصلح المبرم عام ٧١٣هـ/١٣١٣م، وكانت مدتها عشرة أعوام من تاريخه، وفيها بنود كثيرة تتعلق بإقرار الصلح بين البيزيين والمسلمين من بلاد الموحيدين، وحل المشاكل الناتجة عن حدوث الخصومات بين

(١) AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p36-37.

(٢) AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p78-79.

الفريقين، وتأمين التجارة والمراكب التجارية، والعمل على منع الاعتداءات من قبل أي قوة تنتمي إلى أحد الجانبين خصوصاً منع اصطحاب السفن الحربية إلى البلاد الساحلية طالما الصلح قائماً، بالإضافة إلى تحديد المناطق المتفق على نزولهم ومتاجرتهم فيها، وهذا الصلح قد أقره الملك الحفصي أبو يحيى زكريا الحفصي وهذه المعاهدة أصبحت ركيزة أساسية للعلاقات القائمة ما بين الحفصيين والبيزيين^(١).

لقد بقيت العلاقات البيزية الموحدية علاقات مميزة طيلة عهد الدولة الموحدية، وقد استمرت على الرغم من وجود بعض الأعمال المتمثلة بالقرصنة البحرية، أو الحروب والتنافس فيما بين المدن الإيطالية على الموانئ المغربية خاصة موانئ المغرب الأوسط المتمثل ببجاية، وفيما بعد موانئ المغرب الأقصى مثل سبتة، كما إن الدولة الموحدية بفضل سياستها الإيجابية في اجتذاب التجار الإيطاليين بشكل عام قد حققت نوعاً من التوازن السياسي للإيطاليين على أرض المغرب، وهذا ما لمسه المرء خلال هذه العلاقات.

ج- علاقات البندقية مع الدولة الموحدية:

كانت البندقية أحد الجمهوريات الإيطالية التي أقامت علاقات ودية مع الدولة الموحدية، إلا أن نشاطها في الحوض الشرقي للمتوسط كان هو الأكثر اتساعاً وشمولية منه في الحوض الغربي للبحر المتوسط، ويأتي ترتيب البندقية بعد الجمهوريتين السابقتين أي جنوة وبيزة من حيث النشاط السياسي والتجاري، والشيء الذي لا بد من الإشارة إليه هو ندرة المصادر التي تحدثت عن النشاط البندقي في أراضي الدولة الموحدية خاصة المصادر العربية الإسلامية، وقد اقتصرت علاقات البندقية مع الدولة الموحدية على مناطق محددة من الدولة الموحدية مثل تونس، وفي زمن الحكام الحفصيين التابعين لعرش الخلافة الموحدية، حيث يذكر الدكتور أحمد عزاوي في كتابه "رسائل موحدية" أنه لا يوجد في الرسائل الجديدة التي تعلقت بالدولة الموحدية ما يخص علاقة البنادقة

(١) تفاصيل هذه الرسالة مذكورة عند ميشيل أماري، وينودها تزيد على العشرين بنداً وتحمل هذه الرسالة رقم ٢٩.

بدولة الموحدين، وكل ما ذكر عن علاقة البنادقة مع الموحدين هو المعاهدة التي أبرمها الوالي الموحي في تونس أبي زكريا يحيى بن أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص، وكانت هذه المعاهدة طويلة الأمد حيث أبرمت لأربعين عاماً بتاريخ ٦٢٨هـ/١٢٣١م، وكان الممثل لجمهورية البندقية السفير بيير ديلفينو (Pierre Delfino)^(١)، ولذلك كانت لهذه الاتفاقية من أهم الاتفاقيات التي أبرمتها البندقية مع حكومة الموحدين وهي على شاکلة الاتفاقيات التي وقعتها الدولة الموحدية مع بيزة وجنوة خصوصاً فيما تعلق بالأمن والسلام في أرض الموحدين والبنادقة^(٢).

د- علاقة جنوب فرنسا وقطلونية بالدولة الموحدية:

ساعد امتداد الإمبراطورية الموحدية على مناطق واسعة من الحوض الغربي للمتوسط مثل المغرب العربي برمته، و الجزء الإسلامي من الأندلس أن تحتك بدول كثيرة بالقرب من حدودها، مثل مدن الجمهوريات الإيطالية التي سبق الحديث عنها، ومناطق من جنوب فرنسا والجزر الغربية من ذاك الحوض مثل كورسيكا، وسردانية التي لم تكن بمعزل عن تلك التأثيرات الإسلامية، لاسيما إنَّ النشاط الحربي والتجاري للأسطول الموحي في مياه المتوسط الغربية كان فاعلاً ومؤثراً، وهنا لا بد أن يذكر المرء المراحل التي مرت فيها العلاقات الموحدية مع جنوب فرنسا وقطلونية حسب أطوار القوة التي امتلكها كل طرف، ففي المرحلة الأولى يجد المرء النشاط الواضح لحكام جزر البليار في مغرب المتوسط، وفي هذه المرحلة التاريخية كان بنو غانية حكام هذه المنطقة يتجنبون الصدام مع الموحدين، ويهادونهم إن صح القول، وهذه المرحلة من العلاقات الهادئة بين الموحدين وبنو غانية تعد نموذجاً من سياسة الوفاق التي التزم بها الطرفين في بداية الأمر، والشئ الآخر الذي خدم سياسة بنو غانية في تلك المرحلة هو انشغال الموحدين بالفتوحات في بلاد المغرب، والجهاد في بلاد الأندلس، ووجود أمير شرقي الأندلس وهو ابن مردنيش كحاجز منيع في تقدم الموحدين إلى ثغور الأندلس الجنوبية الشرقية التي تطل على جزر البليار، بالإضافة إلى ذلك قيام بني غانية بالغزوات البحرية على بلاد المسيحية وإرسال الهدايا والأسرى إلى

(١) De Mas latrie: traits, p210-211.

(٢) التازي، عبد الهادي: الوسيط، ج٢، ص ١٠٠.

عرش الخليفة الموحي، وكان يرى الموحدون في بني غانية حاجزاً أمام هجمات الممالك الإسبانية على بلاد المغرب^(١)، ولذلك لا بد من استعراض نشاط بني غانية والموحدين خاصة فيما تعلق بالنشاط العسكري البحري في هذه الحقبة.

عند العودة إلى المصادر التاريخية الإسلامية مثل المصادر المغربية كابن عذاري المراكشي، وابن صاحب الصلاة، وابن خلدون وغيرهم من المؤرخين المسلمين، يجد المرء أنّ من بين المؤرخين الذين تناولوا الحديث عن جزر البليار وحكامها من بني غانية، كحكام مستقلين وتابعين فيما سبق للحكم المرابطي كانوا قلة، ولم نجد في المصادر التاريخية الإسلامية ما يدل على الأعمال الداخلية لملوك بني غانية، واكتفت المصادر التاريخية بالحديث فقط عن الصراعات التي نشبت بين الموحدون وبني غانية، وكيف كانت نهايتها، مثل المؤرخ ابن خلدون، وتحديث مصادر أخرى وهي مصادر موحدية كتبت لصالح البلاط الموحي ونظرت أن كل من تضاربت مصلحته مع مصالح الساسة الموحدون هم أعداء ألداء يجب الخلاص منهم مثل المؤرخ الموحي ابن صاحب الصلاة مؤلف كتاب "المن والإمامة"، وتحديث مصادر إسلامية أخرى باختصار شديد عن الأعمال الجهادية التي كان يقوم فيها بني غانية ضد الأساطيل المسيحية كالأساطيل الإيطالية مثل البيزية والجنوية، وأساطيل مملكة قطلونية وصقلية النورماندية كالمؤرخ ابن عذاري المراكشي، وكان اعتماد الطالب على المراجع التي ترجمت عن مصادر غير إسلامية^(٢)، ورجع إليها نظراً للمادة التاريخية التي ألقت بظلالها على نشاط بني غانية السياسي الحربي جنوب فرنسا ومملكة قطلونية، وكذلك ضد

(١) سيسالم، عصام سالم: جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار)، دار العلم للملايين، ط ١، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٣٣٠.

(٢) كان المرجع الذي اعتمد عليه هنا هو "جزر البليار المنسية" الذي ذكر في الحاشية السابقة، وكان المؤلف قد اعتمد بشكل كبير على كتابات مؤرخين أحدهما يدعى المؤرخ الميورقي الذي يدعى الباروكمبانير ALVARO Campaner، وهو صاحب كتاب "تخطيط تاريخي لجزر البليار"، والمؤرخ الآخر هو المؤرخ الفرنسي Alferd Bel الذي ألف كتاباً يدعى "بنو غانية" وهذان الكتابان لم يترجما إلى العربية، ومنشوران باللغة الفرنسية؛ سيسالم، سالم: جزر البليار المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار)، ص ٦١٤-٦١٥.

الأساطيل البيزية الجنوبية التي قامت في نهاية الصراع بعقد معاهدات سلام وتجارة مع حكام جزر البليار من بني غانية، وهذا ما سيتم شرحه مفصلاً.

كما تم الإشارة عليه سابقاً فإنّ بني غانية استطاعوا أن يكونوا حكماً مستقلاً في المرحلة الأولى من علاقتهم بالموحدين، وهي المرحلة الذهبية من الحكم الميورقي التي استطاع فيها ملوك بني غانية تكوين أسطولاً لا يستهان في قوته في الحوض الغربي من المتوسط، وأكثر الشخصيات التي برزت من بني غانية في هذه الحقبة هما محمد بن علي بن غانية، وإسحق بن محمد بن علي بن غانية، حيث كانت الحقبة التي حكم فيها بنو غانية ٥٤٣-٦٠٠هـ / ١١٤٨-١٢٠٣م من العصور الذهبية لحكم بني غانية لجزر البليار، حيث كانت تستقطب الوافدين إليها من بقايا المرابطين الذين فرّوا نتيجة فتح الموحدين لبلاد المغرب، ومن حروب الاسترداد الإسبانية من مناطق الثغر الأعلى في الأندلس^(١)، فهذا أدى إلى ازدياد قوة بني غانية في جزر البليار، وجعلهم يندفعون بأساطيلهم في غرب المتوسط يحققون النجاحات في التصدي للأساطيل المسيحية.

وهذه القوة التي امتلكها الميورقيون قد جعلت كلاً من القوتين البارزتين في مغرب البحر المتوسط وهما: بيزة وجنوة تعقد تحالفاً مع ملوك بني غانية ومعاهدات تجارية، وهذا ما أشار إليه صاحب كتاب " جزر البليار المنسية" في نقله عن قول المؤرخ الميورقي ألباروكمانير ALVARO Campaner عندما تحدث عن قوة أساطيل جزر البليار في تأثيرها على أساطيل جنوة وبيزة بقوله: " ما كان الجنويون ولا البيزيون ليتنازلوا إلى التعامل مع هؤلاء " الكفار " إلا إذا كانوا يعرفون مدى قوتهم، ويعملون لذلك حساباً، فقد عرفوا ماكانوا عليه هؤلاء المسلمون البلياريون من كفاءة وقدرة، بعد أن تعرضوا لأضرار بالغة من الحملات البحرية التي جوبهوا بها، والتي طالما عانوا منها من مهاجمة الأساطيل البليارية المتكررة لثغور بلادهم" ^(٢).

وفي رواية المؤرخ عبد الواحد المراكشي هناك ما يشير إلى النشاط الذي قام به إسحق بن محمد بن غانية في جنوب فرنسا، ومملكة قطلونية، فكان يغزوهم

(١) سيسالم: جزر البليار المنسية، ص ٣١٩.

(٢) سيسالم: جزر البليار المنسية، ص ٣٣٢.

في كل عام مرتين إلى حين وفاته:" واستقل أبو إبراهيم بالملك استقلالاً حسناً، وحسنت حاله، وكثر الداخلون عليه بجزيرة ميورقة من فل لمتونة وبقاياهم، فكان يحسن ويصلهم حسب طاقته، وأقبل على الغزو وصرف عنايته إليه، فلم يمن له همٌ غيره، فكان له في كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم، يغنم ويسبى وينكي في العدو أشد نكاية إلا أن امتلأت أيدي أصحابه أموالاً، فقوي بذلك أمره، وتشبه بالملوك، ولم يزل حاله هذه إلى أن توفي في سنة ٥٧٩هـ، وفي أولها وفي آخر أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن" (١).

كما ذكر المؤرخ المراكشي جهاده في بلاد الروم وإرسال الأسرى إلى الخلفاء الموحدين بقصد مهادنتهم، والابتعاد عن التصادم معهم بقوله: "وكان يرسل الموحدين ويهاديهم ويهادنهم، ويختصهم من كل مايسبى ويغنم بنفسه وجيده، يشغلهم بذلك عنه، مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة، وقلة التفاتهم إليها" (٢). وهذه الرواية تتفق مع رواية ابن خلدون حول جهاد إسحق بن غانية في بلاد الروم، وإرسال الأسرى من الفرنج ورؤوسهم إلى الخليفة المنصور الموحدي، فيقول في ذلك ابن خلدون: "وكان يبعث بالأسرى والعلوج للخليفة أبي يعقوب إلى أن هلك قبيل مهلكه سنة ثمانين وخمس مئة" (٣) ولا يهم في هذا المقام ذكر الخلاف والصراع بين بني غانية والموحدين فقد تم الكلام عن ذلك في الفصل الثالث من هذا البحث، وكيف انتهى في نهاية الأمر لصالح الموحدين، وكل ما نرمي إليه هو العلاقات بين جزر البليار والموحدين مع الممالك المسيحية، وبالعودة إلى العلاقات البيزية الجنوبية فقد ذكر المؤرخ الميورقي ألباروكمبانير ALVARO Campaner بأن إسحق بن محمد بن غانية قام بعقد معاهدات مع جمهورية بيزة وجنوة عندما قال: "... قام أبو إبراهيم إسحق بن محمد بن غانية بعقد معاهدات سلام وصداقة مع جمهوريتي بيزة وجنوة، وفي هذه المعاهدات اتفق الجانبان المتعاقدان على ألا يتعرض أحدهما للآخر

(١) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٦٩.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٦٩.

(٣) هناك اختلاف بين المؤرخين حول سنة وفاة إسحق بن غانية، فابن عذاري جعل وفاته ٥٧٩هـ، بينما ابن خلدون ذكر وفاته سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م؛ والرأي الأكثر ترجيحاً هو رواية ابن خلدون؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦ ص ٣٢٦.

بسوء لا في البر ولا في البحر"، وهذه المعاهدات جاءت نتيجة للنشاط العسكري الواضح لجزر البليار على السواحل البيزية والجنوبية (١).

وفي الجانب الآخر لابد من ذكر النتيجة الإيجابية للأساطيل الموحدية التي ازدادت قوة وعدداً زمن الخلفاء الموحدين خاصة زمن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، وابنه المنصور مع أساطيل جزر البليار بقيادة بني غانية في صد الهجمات الصليبية عن السواحل، والجزر المغربية في الحوض الغربي للمتوسط، وكبح جماح الاعتداءات التي قامت بها الأساطيل المسيحية المتعددة، وخاصة الأسطول الصقلي النورماندي الذي كان يقدم دعماً كبيراً للصليبيين، لاسيما المتجهين إلى سواحل بلاد الشام ومصر، والدليل الواضح على ذلك هو قيام ملك صقلية غليام النورماندي طلب الصلح والمهادنة من الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن، عندما لاحظ الأخير بأن الأسطول الموحي يشكل قوةً وخطراً يتهدد صقلية، ويهدد عرشه أيضاً، وقد ذكر المؤرخ عبد الواحد المراكشي مهادنة صاحب صقلية عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م للخليفة أبي يعقوب، عندما توجه إلى إفريقية لإخماد تمرد حدث هناك بقوله: "وفي هذه السفرة صالحه ملك صقلية، وأرسل إليه بالأتاوة، بعد أن خافه خوفاً شديداً، فقبل منه ما وجهه به إليه، وهادنه على أن يحمل إليه في كل سنة مالاً اتفقاً عليه" (٢)، وهذا يفسر بكل وضوح سبب تخفيف الضغط الصليبي على سواحل بلاد الشام ومصر خاصة من قبل بيزة وجنوة التي أُجبرت أن تهادن ملوك بني غانية والموحدين في مغرب البحر المتوسط، مما مكن الزنكيين والأيوبيين تحقيق نجاحات لافتة ضد المؤسسة العسكرية الصليبية في مصر وبلاد الشام (٣).

وبالعودة إلى مرحلة الحكم الأخيرة من مراحل ملوك بني غانية لجزر البليار بنجاح عبد الله بن إسحق بن غانية، بعد وفاة والده إسحق في الدخول مرة أخرى إلى جزر البليار التي اضطربت أحوالها أثناء النزاع مع الموحدين،

(١) سيسالم: جزر البليار المنسية، ص ٣٣٨.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٢٥٢.

(٣) ذكر ابن الأثير الانتصارات التي حققها نور الدين زنكي ومن بعده صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في بلاد الشام ومصر؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ٣٤٨-٣٥٤-٣٦٢-٣٦٣.

وخضعت حقبة للسيادة الموحدية، ولكن عبد الله بن إسحق بن غانية تمكن من السيطرة عليها بمساندة الأسطول الصقلي من قبل الملك غليام الثاني، وهي المرحلة الأخيرة من مراحل حكم بني غانية على جزر البليار، وخلال هذه الحقبة المحدودة التي حكم فيها عبد الله بن غانية ٥٨١-٦٠٠هـ/١١٨٥-١٢٠٤م جزر البليار استمرت الصراعات المتفاوتة في الشدة بين الحين والآخر مع الموحدين، وعلى الرغم من تلك الصراعات كان نشاط عبد الله بن غانية لا يزال مستمراً مع الممالك المسيحية مثل جمهوريتي بيزة وجنوة، وصقلية حتى إن دخول عبد الله ابن إسحق بن غانية إلى جزر البليار كان بفضل دعم الأسطول الصقلي كما سلف، ولم يتمكن الموحدون من استعادة السيطرة على تلك الجزر رغم كل المحاولات الموحدية في استخلاصها من أيدي بني غانية، ويذكر المؤرخ ابن خلدون محاولات يعقوب المنصور الفاشلة للسيطرة على جزر البليار زمن الخليفة المنصور بقوله: "... وبعث المنصور أسطوله مراراً مع أبي العلاء بن جامع، ثم مع يحيى ابن الشيخ إبراهيم الهزرجي فامتنعوا عليهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وقوي أمره وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة" (١).

واستمر نشاط إسحق بن غانية في جزر البليار خاصة مع الجمهوريتين الإيطاليتين الأكثر تواجداً في الحوض الغربي للمتوسط بيزة وجنوة، وكان الهدوء والاستقرار والصداقة يميز تلك العلاقات القائمة مع بني غانية منذ أيام المرابطين، حيث قام عبد الله بن غانية بعقد معاهدة صلح مع جنوة مدتها عشرين عاماً سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م عن طريق السفير الجنوبي إلى ميورقة، وهو نيقولا لاكانوتري، وكانت هذه المعاهدة تجلب البضائع المهمة إلى بني غانية في ميورقة، مثل السفن والسلاح والذخائر (٢)، وهذا لم يمنع إسحق بن غانية في مواصلة العمليات العسكرية البحرية الخاطفة على جنوب فرنسا، وساحل مملكة قطلونية، حيث كان ذلك يزيد

(١) الصحيح أن الخليفة الموحد المنصور لم يتمكن من السيطرة على الجزيرة الرئيسية في جزر البليار وهي مقر حكم بني غانية والمقصود فيها جزيرة ميورقة، لكنه استطاع السيطرة على الجزيرتين الأخريين وهما منورقة واليابسة، ثم حاول عبد الله بن غانية إعادة السيطرة على جزيرة يابسة عام ٥٩٧هـ/١٢٠١م ولكنه فشل، ثم تمكن في العام المقبل من السيطرة على جزيرة منورقة عام ٥٩٨هـ/١٢٠٢م؛ ابن خلدون: العبر، ج٦ ص ٣٣٢.

(٢) عنان، محمد عبد الله: عصر المرابطين والموحدين، ق ٢، ص ٢٥٨.

من توطيد نفوذ إسحق بن غانية في ميورقة ^(١)، ويذكر المؤرخ عبد الواحد المراكشي في " المعجب " نشاطه السياسي بقوله "... واستقر عبد الله بميرقة، فضبط أمرها وجرى في الغزو وإخافة العدو على سنن أبيه، فلم يزل كذلك إلى أن دخلها عليه الموحدون في سنة ٥٩٩ هـ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله " ^(٢).

والمرحلة الأخيرة من مراحل النشاط الإسلامي لجزر البليار تمثلت في السيطرة الموحدية على جزر البليار زمن الخليفة الناصر الموحدي، وأنهت نفوذ بني غانية في جزر البليار عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ ^(٣)، وكان سقوط جزر البليار خاصة الجزيرة الكبرى ميورقة ضربة قاصمة لبني غانية ملوك جزر البليار، وضربة أخرى للممالك المسيحية المتحالفة معها خاصة جمهوريتي بيزة وجنوة ومملكة أراجون الواقعة إلى الشرق من الأندلس، وخير إشارة يسوقها الطالب هنا هو جزء يسير من الرسالة السادسة والثلاثون التي بعث بها الخليفة الناصر الموحدي : "... ولأخذ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة أشد من رشق النبل، وأهول من وقع السيف، وأوحش من القطع بحلول الممات، فإنها تحوجه إما إلى الصغار، وإما إلى الخسار، وتلجئه إلى أخذ الخطتين قسراً وقهراً بالرغم والاضطرار " ^(٤)، وهذا القول يشير بذاته إلى المنافع التي كانت تجنيها الممالك المسيحية من تواجد بني غانية في جزر البليار، ويفيد أيضاً في العداء المستقبلي الذي ستقوم به هذه الممالك ضد الوجود الموحدي بجزر البليار.

وبهذا الوضع الجديد أصبحت جزر البليار تخضع مباشرة للسيطرة الموحدية ٦٠٠-٦٢٧ هـ / ١٢٠٣-١٢٣٠ م، حيث عين الخليفة الناصر عدة ولاية لهذه الجزر، و تسلم ثلاثة من الولاة الموحدين ثم آلت شؤونها إلى الوالي الأكثر

(١) عنان، محمد عبد الله: عصر المرابطين والموحدين، ق ٢ ص ٢٥٨.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب في أخبار المغرب، ص ٢٧٦.

(٣) لقد ذكر صاحب الروض المعطار كيف سقطت جزر البليار بيد الموحدين والأسطول الضخم الذي أعده الخليفة الناصر والذي تجاوز عدده ثلاث مئة قطعة متنوعة، كما كان هناك عدد كبير من المقاتلين والرجال والرماة؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٨٩-٥٩٠.

(٤) وهذه الرسالة من إنشاء عبد الله بن عياش كتبها عن الخليفة الناصر الموحدي يبلغ الموحدين بالانتصار وفتح جزر البليار بما في ذلك العاصمة ميورقة؛ بروفنسال: مجموعة رسائل موحدية، ص ٢٥٩.

شهرة على ميورقة ^(١) وهو أبو يحيى التتملي الذي انتقل إلى ولاية الجزيرة منذ عام ٦٠٦هـ / ١٢١٠م، واستمرت ولايته للجزيرة أكثر من عشرين عاماً حتى سقوط البليار بأيدي صاحب برشلونة وهو الملك خايمي الأول بن بيدرو الثاني ملك أرغون وبرشلونة وقطلونية ^(٢) وقام الوالي أبو يحيى التتملي بنشاط حربي بارز جنوب فرنسا ومملكة قطلونية، ففي عام ٦٠٧هـ / ١٢١١م تحرك قائد الأسطول الموحيدي وهو أبو العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي بالإغارة على سواحل أرغون وسواحل قطلونية، رداً على محاولات ملك أرغون الاعتداء على جزر البليار، وسواحل الأندلس الشرقية، وقد كانت تلك الاعتداءات التي حاول فيها ملك أرغون وقطلونية بيدرو الثاني أن يسيطر على جزر البليار، وهذا مشروعه الذي كان يصبو إليه ولكنه لم يوفق في ذلك، ويذكر ابن عذاري المراكشي نشاط الأسطول الموحيدي في غرب المتوسط في حوادث سنة ٦٠٧هـ / ١٢١١م بقوله: " وفيها تحرك السيد أبو العلاء الكبير قائد أساطيل البرين إلى برشلونة بجميع أجفان العدو والأندلس على معاندة ومنافسة من أهل البلاد في الاحتفال، وتمكن من العدد الوافرة والأموال، فكانت أحسن حركة للمسلمين وأوحش فجيلة، وأعم وقبعة جرت على الغزاة البحرين، وأوقع حسرة كانت بقلوب الكافرين، وفي

(١) تسلم ميورقة ثلاثة من الولاة الموحيدين وهم أبو محمد عبد الله بن طاع الكومي، ثم تولاهما السيد أبو زيد بن أبي يعقوب يوسف عم الخليفة الناصر ثم تولاهما عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن بن علي، ثم كان واليها الرابع أبو يحيى التتملي وهو أكثر الولاة الذين اشتهروا من الموحيدين على أرض الجزيرة وقد استمرت ولايته أكثر من عشرين سنة واسم أبو يحيى الكامل محمد بن أبي الحسن علي بن أبي عمران موسى التتملي ؛ المخزومي، أبي المطرف أحمد بن عميرة: تاريخ ميورقة، تح: محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ٣٠.

(٢) بيدرو الثاني ملك أراجون وقطلونية وبرشلونة وهو ابن ألفونسو الثاني الذي توفي ٥٩٢هـ / ١١٩٦، وقد توفي الملك بيدرو الثاني في أحد القلاع جنوب فرنسا أثناء مواجهة مع أحد الكونتات، وكان فارساً شجاعاً ضخم القوام وخلفه ابنه خايمي الفاتح (جيمس الأول) وهو الذي استولى على جزر البليار من أيدي المسلمين عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٥؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحيدين، ص ٤٢٠-٤٢٥.

إثر تلك المفسدة كان استيلاء البرجلوني ^(١) على حصون بلنسية في هذه السنة المؤرخة " (٢).

ويستفاد من النص الذي ذكره ابن عذاري المراكشي في معرفة التوتر في العلاقات الموحدية مع ملك أراغون وقطلونية، حيث ذكر ابن عذاري المراكشي في نفس العام وصول وفد من أهل شرق الأندلس بما فيهم من جزر البليار باعتبار أن جزر البليار أصبحت تتبع شرق الأندلس فور السيادة الموحدية عليها، واستقبلهم الخليفة الناصر الذي أخذ يسعى في تلبية طلبهم في تخليصهم من اعتداءات ملك برشلونة بيدرو الثاني الذي تكررت اعتداءاته على شرق الأندلس بما في ذلك جزر البليار، فيقول ابن عذاري في هذا الخصوص: "وفي هذه السنة وصل إلى الناصر جماعة من وجوه بلاد شرق الأندلس معرضين بآثار العدو البرشلوني في بلادهم وانتهاكاته لطارفهم وتلاذهم، فقوي عزم الناصر على نصرهم والحركة إليهم " (٣)

والشي الآخر الذي يورده المؤرخ ابن عذاري المراكشي وهو وصول وفد آخر من جزيرة صقلية إلى تونس لإبلاغ الخليفة الناصر الموحي بنجاح المسلمين في صقلية في الإستئثار في الكثير من المعاقل المهمة في جزيرة صقلية، وأنهم أطلقوا الدعوة للموحدين دونما الخليفة العباسي ^(٤)، ولكن الخليفة الناصر لم يكن لديه نية في التحرك إلى صقلية، إذ أنه كان يجهز الحملة الكبرى إلى الأندلس

(١) أي البرشلوني والمقصود فيه هنا ملك أراغون وقطلونية بيدرو الثاني؛ الباحث.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٥٦.

(٣) والسنة التي ذكرها ابن عذاري هي عام ٦٠٧هـ / ١٢١١م؛ المراكشي، ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٥٧.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٥٦، كانت الأوضاع السياسية تمر بوضع محرج في صقلية عند وفاة الملك الصقلي غليام الثاني دون أي وريث للعرش له وهو من أسرة الهوتفيل النورماندية، وكان قد أوصى بالعرش من بعده للامبراطور هنري السادس الألماني من أسرة الهوهنشتاوفن وهو زوج للأميرة كونستانس ابنة الملك النورماندي روجر الثاني، ورفضت العامة في صقلية هذه الوصاية وطالبت بالوصاية إلى الأمير جويسكاردي بن تتكريد ملكاً عليهم، ودارت حرب بين الطرفين كان نتيجتها استيلاء هنري السابع ملكاً على الصقليين وهو والد الامبراطوريك فريديريك؛ سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص ٤٢٢.

لقتال القوات الإسبانية المتحالفة هناك، وكانت المعركة المشؤومة التي ذكرها الطالب سابقاً وهي معركة العقاب، ولو أن الخليفة الناصر أخذ برأي الوفد الصقلي ودعم المسلمين في صقلية مستفيداً من فرصة الانقسام السياسي داخل المملكة الصقلية، واستطاعت الأساطيل الموحدية تمكين قوتها في صقلية، وتغيرت مع ذلك موازين القوة في غرب المتوسط، وهذا أكبر دعم تستطيع من خلاله جزر البليار تقوية نفسها أمام الاعتداءات الصليبية، ولكن هذا لم يحدث ووقعت معركة العقاب المشؤومة وخاب كل أمل في ذلك، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وكانت نتيجة المعركة كارثية بالنسبة لجزر البليار، حيث فقدت العون الذي كانت تتلقاه من الأسطول الموحيدي، وأصبح الوالي أبي يحيى التتملي وجهاً لوجه أمام القوات الصليبية، يعتمد على الإمكانيات المحلية المتوفرة في أسطول البليار، والشيء الوحيد الذي أجل سقوط جزر البليار أمام ملك أراغون وبرشلونة، هو وقوع حرب أهلية بعد مقتل بيدور الثاني عام ٦١٠هـ/١٢١٣م من أجل وراثة العرش، واستمرت حتى عام ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، حيث استطاع ابنه خايمي الأول أو جاقا أو جاقمة كما تدعوه المصادر انتزاع عرشه من أعمامه أخوة بيدرو الثاني: فرناندو وسانشو، وتسلم خايمي عرش أراغون وبرشلونة وقطالونية^(١)، وكانت أولى الأعمال التي صمم خايمي على القيام فيها هو انتزاع جزر البليار من قبضة الموحدين، ويقدم لنا المؤرخ المقرئ التلمساني كيفية سقوط جزر البليار، وسلبية واليه أبو يحيى التتملي في التعامل مع الظروف الحرجة التي مرت فيها جزر البليار، في أواخر الحكم الإسلامي عليها، وبداية هذه التطورات كانت عندما أرسل أبو يحيى التتملي مركباً بحرياً يحرسه مركب حربي آخر إلى جزيرة يابسة، لطلب الأخشاب اللازمة لصناعة السفن، فعلم أحد التجار المسيحيين بحقيقة الأمر، وأبلغ والي طرطوشة بذلك، فقام الوالي على الفور بإرسال حملة بحرية استطاعت أسر الطريدة البحرية وحمولتها من الأخشاب، بينما تمكن المركب الحربي من الفرار، وأبلغ الوالي بما حدث، فاستشاط أبو يحيى التتملي غضباً، وقرر بسرعة مهاجمة سواحل أراغون وبرشلونة^(٢)، وجهاز حملة بحرية وهاجم

(١) المخزومي: تاريخ ميورقة، ص ٣٣-٣٤.

(٢) لم ترد تفاصيل هذه الغزوة التي قام فيها أبو يحيى التتملي عند المقرئ بشكل واضح، وإنما اكتفى المقرئ التلمساني بالإشارة إليها فقط، واعتمد البحث على رواية أبي المطرف

شواطئ قطلونية وأراجون، وكان نتيجة هذه الحملة الخاطفة أنه نجح في الاستيلاء على بعض مراكب سكانها، وأسر رجل ثري، كما أن الوالي أبو يحيى قد علم بوصول مركب (مسطحاً) من برشلونة إلى جزيرة يابسة، وانضم إليه مركب آخر من طرطوشة، فأرسل حملة بحرية إليهم بقيادة ابنه فوصل إلى جزيرة يابسة فلقى مركباً للجنوبيين فأخذه، وأشرف على مركب آخر تابع لبرشلونة فتمكن منه المسلمون وقتلوا أصحابه، ثم اتجهوا إلى مركب آخر تابع لطرطوشة فأخذوا جميع ما فيه، ونهبوا أصحابه وكان عددهم أربعة من أثرياء جنوة، ثم عاد أسطول ميورقة، وقد ظن الوالي بأنه قد قام بعظيم عمل متفخراً به مثل الملوك، ولكنه لم يكن يعلم أنه بهذا العمل قد ألّب عليه سخط ملك أراغون وقطلونية، ويذكر المقري المتل التاريخي في الخطأ الذي ارتكبه الوالي التتملي بقوله: " أشأم من عاقر الناقة" (١).

وكان التجار القطلونيون والأراغونيين قد استأؤوا كثيراً من هذه الاعتداءات، و أخذوا يحرضون الملك خايمي على إعداد الحملة الكبيرة على جزر البليار، طمعاً في خيراتها، وثرواتها التي لا تقدر بثمن، ولكن الملك خايمي أراد وقبل شيء أن يقيم حجة على والي ميورقة، فبعث أحد رجاله يطلب منه أن يعيد المال والمراكب، والأسارى ويعرض عليه الصلح والهدنة، ولكن الوالي أبو يحيى رفض ذلك بكل تكبر وتناول على مبعوث الملك البرشلوني، وأرسل له تهديداً ووعيداً، وكان نتيجة هذا الغلو في التكبر، وعدم معرفة الوالي التتملي الموازين الجديد للقوى السياسية في أراجون، وبرشلونة، وقطلونية لاسيما الوضع الذي ازداد تدهوراً للدولة الموحدية بعد نكسة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م هو ضياع جزر البليار ذات الموقع الاستراتيجي الرهيب في الحوض الغربي للمتوسط من قبضة الإسلام والمسلمين إلى الأبد، فقام الملك خايمي الأول بتجهيز حملة كبيرة تجمعت من سواحل أرغون وقطلونية عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، وانطلقت قاصدة جزر البليار، وكانت هذه التحركات غير خافية على والي ميورقة، ولكنه لم يحسن التصرف إذ

أحمد بن عميرة المخزومي صاحب كتاب " تاريخ ميورقة"؛ المخزومي: تاريخ ميورقة، ص ٣٤.

(١) أي الذي ذبح ناقة النبي صالح عليه السلام، واسمه قدار بن سالفه وكان سبباً في هلاك قومه، وهو يتشبه في هذا الفعل مثل الوالي أبي يحيى التتملي في قومه؛ المقري: نفح الطيب، ج٤ ص ٤٦٩-٤٧٠.

أنه لم ينسب لأحد من المدافعين عن الجزيرة، ولم يأخذ بمشورتهم، ولذلك كانت قلة تدبيره مع حسن إدارة خايمي للمعارك التي خاضها مع المسلمين أثناء حصاره لميورقة من أهم الأسباب في خسارة المسلمين مثل هذا المعقل العظيم (١) عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠م، وغابت شمس من شمس الإسلام على هذه البلد وطويت صفحة مشرقة من صفحات التاريخ الإسلامي لجزر البليار أعاده الله عليها مرة أخرى.

ويستثنى من جزر البليار جزيرة منورقة التي تأخر سقوطها مدة خمسين سنة ٦٢٧-٦٨٥هـ/١٢٢٩-١٢٨٧م بفضل حسن تدبير ولاتها من الأسرة الحكمية التي تنتسب إلى سعيد بن حكم بن عثمان القرشي الطيبري (٢)، حيث استطاع واليها من قبل أبي يحيى التتملي سعيد بن حكم عقد معاهدة مع الملك خايمي الأول، يدفع له جزية سنوية مقابل أن يترك الجزيرة وشأنها الداخلي، مع إعلان الخضوع والطاعة لمملكة قطلونية وأرغون، وقد كان سعيد بن حكم مسموع الكلمة عند خايمي ملك أراجون، ولكن ابنه حكم بن سعيد لم يكن مثل والده في الحنكة السياسية وحسن التدبير، ودخل النزاع بينه وبين مملكة قطلونية وكان سببه أن حكم بن سعيد أخبر الحفصيين في إفريقية بحملة يقوم فيها ملك أراجون ألفونسو الثالث ضدهم، لذلك صمم ألفونسو الثالث على أخذ الجزيرة ودخولها بسبب الخيانة التي قام فيها والي الجزيرة حكم بن سعيد في نظره، ولقيت منورقة مصيراً مشابهاً لسالفتها، حيث دخلتها قوات الملك ألفونسو الثالث عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، وذكر

(١) هناك تفاصيل كثيرة حول سقوط جزر البليار في يد ملك أرغون وقطونية، واعتمد البحث على الإيجاز في الروايات التي تناقلتها المصادر الإسلامية وغير الإسلامية، حول سقوط جزر البليار، للمزيد من التفاصيل ينظر إلى المخزومي: تاريخ ميورقة، ص ٤٣-٥١؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٩٠.

(٢) طبرية تقع جنوب غرب الأندلس، وتقع حالياً إلى الجنوب من البرتغال، وسعيد بن الحكم أحد علماء اللغة العربية والأدب، فصيح اللسان بارع الخط، تنقل في البلاد قبل توليه شؤون جزيرة منورقة من بجاية وتونس ثم منورقة، وكانت وفاته ٦٨٠هـ/١٢٨١م؛ الغبريني، أحمد ابن عبد الله ت ٧١٤هـ/١٣١٤م : عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، ط ٢، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٣٠٣-٣٠٦، ابن الأثير، ت ٦٥٨هـ: الحلة السيّراء، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٥م، ج ٢ ص ٣١٨-٣١٩.

لسان الدين بن الخطيب عندما ترجم لأبي عمر حكم بن سعيد، وأشار إلى سنة تسليم الجزيرة إلى صاحب برشلونة بقوله: "فانصرف أطماع البرشلوني المجاور لشغره إلى تملكه ن فتم له ذلك، ونفذ قدر الله في سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، واستولى على الجزيرة وأجلى عنها المسلمين " (١).

أما فيما يخص علاقات الموحدين بمرسيلية فقد كانت المدن الإيطالية تهيمن على العلاقات الموحدية المسيحية، وكان لها تواجداً كبيراً على أرض المغرب مثل جنوة وبيزة، لكن التواجد الفرنسي الممثل بمرسيلية على أراضي الدولة الموحدية لم يصبح بصفة رسمية إلا بعد القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حيث وقعت مرسيلية اتفاقية مع جنوة عام ٦٠٩هـ/١٢١٠م، وهذه الاتفاقية سمحت بموجبها جنوة للسفن المرسلية أن تصل إلى ميناء سبتة الموحدي حيث ارتادت السفن المرسلية ميناء سبتة ما بين عامي ٦٠٩-٦٤٨هـ/١٢١٢-١٢٥٠م، وحققت ثلاثين عملية تجارية، وهذا دليل على انتظام العلاقات ما بين ميناء سبتة ومرسيلية في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وهو دليل آخر على منع العمليات التجارية مع سواحل المغرب دونما الوساطة الإيطالية، ولذلك أصبحت مرسيلية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي تقوم بدور الوسيط ما بين السواحل المغربية، والسواحل الفرنسية الجنوبية، وكان ذلك حتى نهاية القرن السابع الهجري حيث تحولت مرسيلية إلى المتاجرة الموانئ الشرقية للدولة الموحدية مثل بجاية، وتونس، وهذا يشير إلى تراجع الاستقرار السياسي _ وهذا رأي الطالب في ذلك _ في المغرب الأقصى، حيث كانت الدولة الموحدية تمر بطور الاحتضار والانقسام والصراعات المستمرة على أراضيها خاصة من أجل وراثة العرش، بينما أصبحت موانئ المغرب الأوسط مثل تونس، وبجاية، أكثر استقراراً وأمناً بسبب وجود الأسرة الحفصية التي حافظت على سلامة المنطقة، واستقرارها السياسي بعيداً عن الصراعات التي مزقت شمل الموحدين في نهاية عهدهم، وكان نشاط القطلانيون والأراغونيون على موازاة مع نشاط التجار المرسلية في البوابة المغربية التي مثلها ميناء سبتة الإسلامي آنذاك، وأصبح هؤلاء يشكلون منافساً قوياً للمرسلية في المغرب الأقصى، وربما

(١) ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام، قسم الأندلس، ص ٢٧٦-٢٧٧، التلمساني، أحمد بن المقري: نفح الطيب، ج ٤ ص ٤٧١-٤٧٢.

يكون هذا سبباً آخرًا في تحول هؤلاء إلى شواطئ المغرب الأوسط، إذ كان القطلانيون على علاقة وثيقة مع الموانئ المغربية الإسلامية مثل سبتة على الرغم من وجود المنافسة الإيطالية في ذلك الميناء، خاصة في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، لذلك فقد كان لسبتة أهمية كبيرة بالنسبة لبرشلونة، فهناك وثيقة تدعى " وثيقة الملاحه " القطلانية من عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م^(١)، تؤكد أهمية هذا الميناء، ولا يذكر في هذه الوثيقة إلا ميناء مغربي واحد هو ميناء سبتة، وتبين العراقي التي كان يمر فيها تجار برشلونة وصولاً إلى سبتة بسبب قرصنة مسلمي البليار، ولم يقتصر نشاط قطلونية على الأعمال التجارية، بل تحول أحياناً إلى نشاط عسكري حربي فقد كان الجنوبيون ذو نشاط كثيف على الأسواق المغربية وخاصة سبتة، ولم يكن من السهولة إزاحتهم من الأسواق المغربية، فقام القطلونيون بأعمال عسكرية في ميناء سبتة عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م، وتدخلوا بكل قوة، وقاموا بإحراق السفن الجنوبية الراسية في ميناء سبتة، مستغلين الأوضاع السياسية المتردية للإمبراطورية الموحدية، واستمرت العلاقات المغربية القطلانية حتى أواخر عهد الدولة الموحدية، فقد قام ملك أراغون الذي يدعى " جاك الغازي " de Jacques Conquerant بتوقيع معاهدة مع حاكم سبتة وهو من أسرة العزفي الذين استقلوا بسبتة عن الدولة الموحدية، ويدعى أبو القاسم العزفي^(٢) عام ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، وكانت هذه المعاهدة " سلم وهدنة " تسمح للتجار من برشلونة

(١) هذه الوثيقة لم توضع في متناول البحث، وإنما كان الاعتماد على المرجع الذي ذكر هذه الوثيقة؛ الشريف، محمد: سبتة الإسلامية (عصر الموحدين والمرينيين)، تقديم: محمد بن عبود، سلسلة دراسات، ط٢، الرباط، ٢٠٠٦، ص ٩٤-٩٨.

(٢) أبو القاسم العزفي من أسرة آل العزفي، وهو ابن محمد بن أحمد بن أحمد بن محمد اللخمي من المناذرة اللخمييين من عرب اليمن، وقد وكان والده أبو العباس الذي اشتهر بابن أبي عزفة، قد اجتهد في طلب العلم، والفقه، خاصة في مذهب الإمام مالك، والقراءات السبع، وكان قد ألف كتاباً عن المولد النبوي الشريف اسماء " أعذب الموارد وأطيب الموالد " ولكنه توفي قبل إتمامه، وأكمل ابنه أبو القاسم محمد العزفي؛ ابن ناصر الدين الدمشقي، محمد : توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تح: محمد نعيم العرقسوسي، دار الرسالة العالمية، ط١، دمشق، ٢٠١٠م، ج٢، ص ٣٢٣؛ ابن نقطة، محمد: تكملة الإكمال، تح: عبد القيوم عبد رب النبي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ط١، ١٩٩١م، ج٤، ص ٢٦٩-٢٩٧.

وأراغون بحرية المتاجرة مع سبتة، واستمرت هذه المعاهدة مع القطلانيين حتى قدوم المرينيين الذين حافظوا على تلك العلاقات، لذلك كانت التجارة وأرباحها أهم الجسور التي تختفي معها الصراعات السياسية والاختلافات الدينية (١).

مما تقدم نستنتج مايلي:

١- كانت لمدن الجمهوريات الإيطالية دوراً كبيراً في دعم وتوجيه الحملات الصليبية في المشرق والمغرب الإسلامي، خاصة الدعم الذي قدمته للصليبيين في احتلال الموانئ الشامية.

٢- كانت المصلحة التجارية لمدن الجمهوريات الإيطالية (البندقية، جنوة، بيزة) تفوق كل مصلحة واعتبار سواءاً أكان ذلك على الصعيد السياسي أو الصعيد الديني، فكانت مدن الجمهوريات الإيطالية تعقد الاتفاقيات مع البلدان الإسلامية والصليبيين بأن واحد، على الرغم من القرارات البابوية التي تمنع المتاجرة مع بلاد المسلمين ولكن ذلك لم يكن سار المفعول في كل الأوقات.

٣- كانت مدن الجمهوريات الإيطالية ذات ازدواجية في التعامل مع الصليبيين والمسلمين بأن واحد، على الرغم من الرابط الديني الذي يربطهم بالصليبيين، فلم تر البندقية وجنوة وبيزة في الحملات الصليبية سوى ورقة رابحة تديرها كيفما شاءت فيما يخدم صالحها أولاً، وعندما تعاملت مع البلاد الإسلامية فلم تجد حرجاً في تقديم الأخشاب والمواد اللازمة لصناعة السفن والأسلحة وكان ذلك ممنوعاً بقرارات من البابوات أثناء الحملات الصليبية.

٤- كانت البندقية هي القوة البحرية الأكثر قوة وفاعلية في الحوض الشرقي للمتوسط، بينما كانت جنوة وبيزة بحكم موقعها الجغرافي أكثر تأثيراً في الحوض الغربي للمتوسط لا سيما منطقة السواحل المغربية والجزر الكبرى.

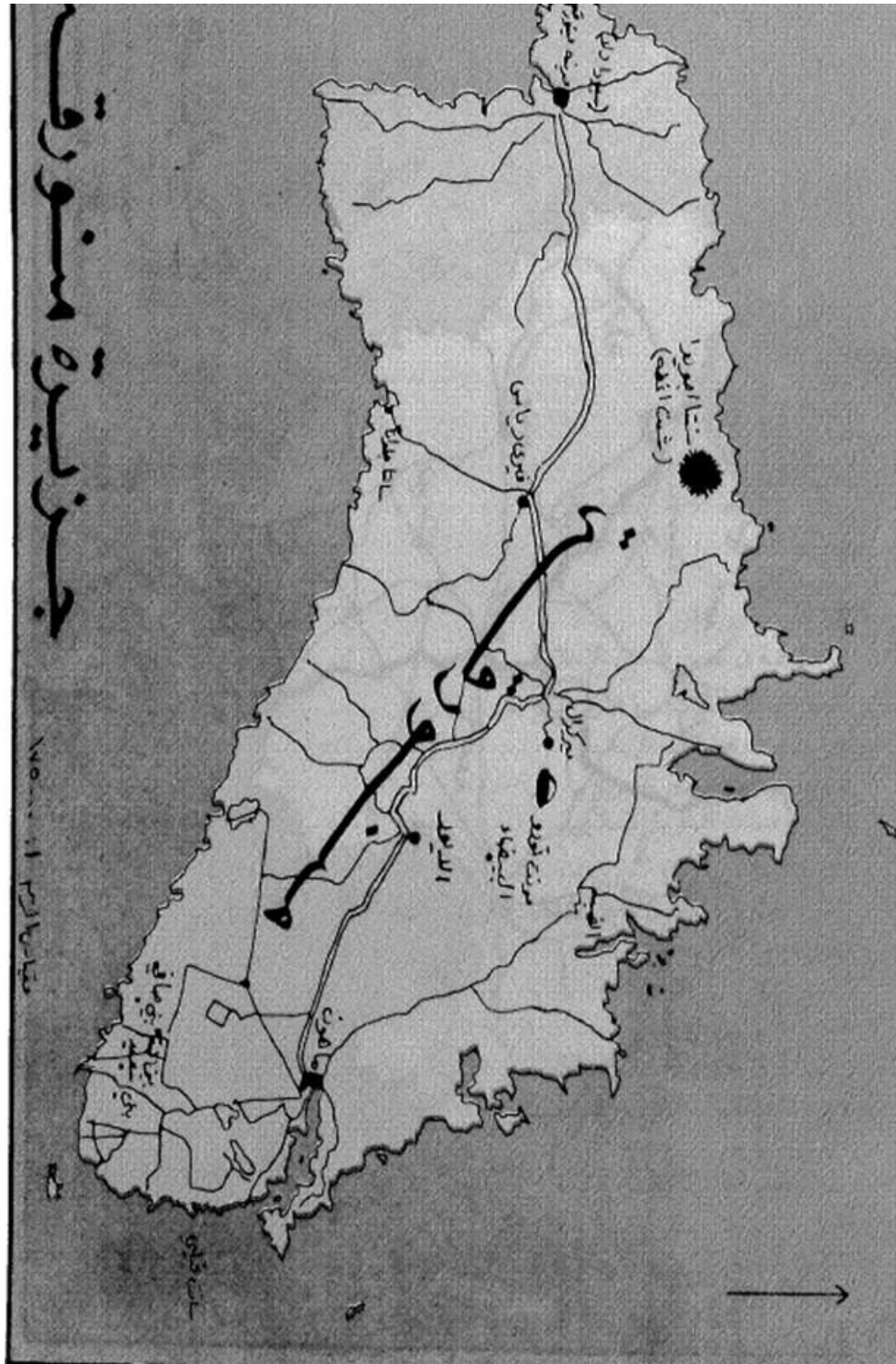
(١) الشريف، محمد: سبتة الإسلامية، ص ٩٥.

٥- كانت الدولة الموحدية تشكل القوة البحرية العظمى زمن الخلفاء الموحدين الأوائل حتى عصر الخليفة المنصور، وشكلت معركة العقاب المرحلة الفاصلة في تحول الإمبراطورية الموحدية إلى الضعف والانحدار.

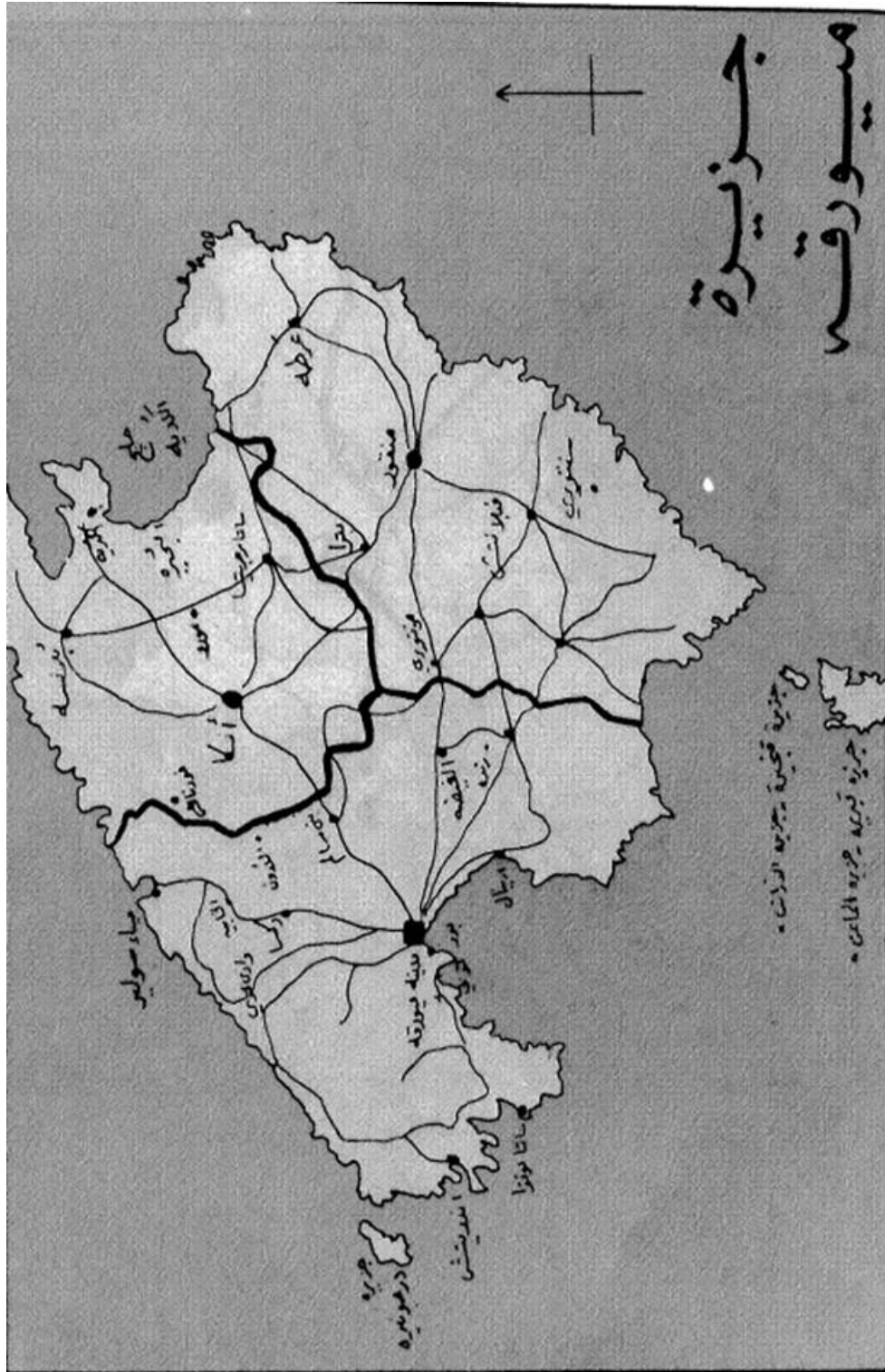
٦- شكلت السواحل المغربية خاصة سواحل المغرب الأوسط والأقصى مثل بجاية وتونس وسبتة مراكز تجارية كبرى في التبادل التجاري مع مدن الجمهوريات الإيطالية المذكورة ومرسيليا وقطلونية وصقلية.

٧- كانت جزر البليار إحدى مراكز الإشعاع الفكري الحضاري الإسلامي، وأحد أكبر المراكز الإستراتيجية والعلاقات التجارية مع دول وممالك الحوض الغربي للمتوسط مثل صقلية مرسلية وأراغون وقطلونية وجزر سردينيا وكورسيكة، والسواحل المغربية، ومدن الجمهوريات الإيطالية مثل جنوة وبيزة.

٨- كان العداء المزمّن الذي استنزف كثيراً من دماء المسلمين في الصراع الإسلامي الإسلامي بين الموحدين من جهة وبني غانية من جهة أخرى من أكبر الأخطاء التاريخية التي كررها المسلمون في الأندلس والشمال الإفريقي في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين _ وستكررها أيضاً الأجيال اللاحقة _ وهذا العداء أدى في البداية إلى سقوط جزر البليار بيد الموحدين ثم سقوط جزر البليار بيد المسيحيين، ثم سقوط دولة الموحدين في الأندلس وبلاد المغرب، وتهوي قواعد الأندلس العظيمة مثل إشبيلية وقرطبة أكبر معاقل الإسلام في غرب المتوسط، وهذا أمر يعكس افتقاد الساسة المسلمين كثيراً من تدابير السياسة والحزم ووحدة الصف بدلاً من التناحور والتفرقة في وقت كان فيه العالم العربي الإسلامي أحوج ما يكون إلى هؤلاء الساسة المسلمين الأشداء، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.



الشكل (١٠) الشريف: سببة الإسلامية، ص ٦٧٣.



الشكل ١١ الشريف: سبتة الإسلامية، ص ٦٧٤.



أبو يحيى التَّمَلِّي آخر عمال جزر البليار في عهدها الإسلامي كما تخيله الرسامون القطلان يوجه الحملات البحرية من قصر المدينة للأغارة على ثغور مملكة قطلونية وأرغون مما أدى إلى وقوع اشتباكات بحرية بين البلدين وإعداد حملة صليبية للاستيلاء على جزيرة ميورقة

الشريف: سبته الإسلامية، ص ٦٦٤.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما
 V.
 والحمد لله وحده

الحمد لله المتعالي عن الانداد والقرناء المتقدس عن الصواحب والاجنباء المحبط
 عليه سجنه ما يلج في الارض وما يعرج في السما والصلاة على محمد رسوله
 المصطفى ونبيه الاكرم المجتبي خاتم الرسل والانبياء المتبعث بالحنيفية السمحة
 المجلبة لغياهم القفر المتراكمة⁽¹⁾ الظلم الناصح برسالته الخاتمة وشريعته
 الدائمة كل ملة ونحلة الى يوم الدين والجزا الموعود وعد الخف بلوغ ملك
 امته ما روي⁽²⁾ له من المشارق والمغارب والاكناف والارضاء والرضا عن الامام

Nel nome di Dio clemente e misericordioso. Benedica Iddio a Maometto e alla
 sua schiatta, e loro dia piena pace.

Lode a Dio unico.

Lode a Dio altissimo, da non poterglisi contrapporre nè congiungere altro
 ente; santissimo, da non poterglisi accompagnar altri, nè mettere allato; a Lui,
 la cui sapienza abbraccia tutto quel che si sprofonda nelle (viscere della) terra e
 quel che salisce nell' (alto del) cielo: e benedizione a Maometto, il suo apostolo

نسخة الرسالة الأصلية التي مثلت المعاهدة البيزية الموحدية عام ٥٨٢هـ/

١١٨٦م وفيها كامل بنود المعاهدة، وبدايتها خطاب لحكام وقادة بيزة.

AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p17 -22.

بسم الله الرحمن الرحيم والمجد لله حق حمد
 II.

إلى أمير المؤمنين أيد الله أمره وأعز نصره معظمون مقامه وملتزمون
 إعطائه أبلكه أرك بشه sic وصاحب كرسقه وسردانه وقناسلتها وقامستها
 وشيوخها وأهل الحل والعقد فيها سلام كريم حنبل على الحضرة المعظمة
 ورحمت sic الله نعم وبركاته أما بعد فالحمد لله على العلم والإيمان له أنه الحكيم
 العلم الأول القديم الذي لا تدرك (١) الأبصار ولا تحيط به الأقدار ولا تقف
 على كنهه عطا... (٢) الأخطار الموجود بكل مكان الخارج عن كل زمان كان بلا
 ابتداء الدائم بلا فناء نحمده جل ونعنا ونسألوا (٣) بعزته وعظامة قدرته أن
 يديم العزة إلى أمير المؤمنين موفور المجلة متواصل النعمة منصور الريات

Nel nome di Dio Clemente e Misericordioso. Lode a Dio come gli si dee.
 Al Principe dei Credenti, il cui governo Iddio favorisca e l'esalti con la
 vittoria. Riverenti a sua dignità e pronti a' suoi servigii, Ubaldo Arcivescovo di
 Pisa e Primate (٤) di Corsica e Sardegna, e i Consoli, i Conti, gli Anziani (٥) e i
 ministri della pubblica autorità di essa città (٦) (fanno) tanti onorevoli saluti a Sua
 Maestà (٧) e (le augurano) la clemenza e le benedizioni di Dio.
 Dopo resa lode a Dio per la scienza e fede (ch'Egli ha dato agli uomini),

نص الرسالة الذي ورد من حكومة بيشة (بيزة) إلى الخليفة الموحي يعقوب
 المنصور حول طلب إطلاق المركب والأسرى البيزيين الذي دخلوا إلى طرابلس
 بسبب نفاد الماء

AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p7-9.

X.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وعلي آله
وسلم تسليمًا

العنصرة والاشباخ والاعيان الذين ببيعة وفقهم الله تعالى من مرير الخبر لهم
ناصر بن عبد الله سلام علمهم اما بعد حمد الله تعالى والصلاة على محمد رسوله
المصطفى وعلي آله وحببه الاكرمين اولى الشرف الاسفي والرضي عن الامام المعصوم
المهدي المعلوم المرتضي وعن خلفائه الراشدين ائمة الهدي والدعا لسيدنا
ومولانا الامام الخليفة امير المؤمنين بن الخلفاء المباركين الراشدين باتصال النص
الاعز الاوفي وتوالي الفتح الاسنا فكتبنا اليكم كتب الله توفيقكم من سبته
حرسها الله وظلال الامر الاعلى ادام الله ظليله وعوله^(١) وخبراته جزيلة جليلة
وبركات محبته^(٢) باتصال الآلاء وتوالي النجاء كغلبة ولجده لله تعالى وموجبه وفقكم

Nel nome di Dio clemente e misericordioso. Benedica Iddio a Maometto e sua schiatta, e dia loro piena pace.

Ai Consoli, Anziani e Notabili di Pisa, che Dio li favorisca in ogni buono intento, Nāsīh-ibn-Abd-Allah (manda) salute.

Dopo resa lode a Dio, ch'Ei sia esaltato, (dopo) pregatolo ch'Ei benedica a Maometto suo apostolo eletto ed alla sua schiatta e suoi onorandi e illustrissimi compagni; (dopo chiesto) a Dio ch'egli abbia accetto l'Imam illibato, il Mehedi

نص الرسالة الذي أرسل به الناصر الموحدي عن طريق متولي سبته إلى
حكومة بيزة، بعد أن غض النظر عن ممارسات بيزة اتجاه المسلمين في هجوم
المراكب البيزية على مراكب المسلمين في تونس.

AMARI, MICHEL: I DIPLOMI, p36-37.

IV.

1186, 15 novembre.

Traité de paix et de commerce conclu pour vingt-cinq ans entre Abou-Yousouf-Yakoub, fils d'Abou-Yakoub-Yousouf, calife almohade, et la république de Pise, pour le commerce des Pisans à Ceuta, Oran, Bougie et Tunis, et sur les côtes d'Andalousie, excepté à Almería.

Traduction de M. Amari sur l'original arabe, *Diplomi Arabi*, p. 17¹.

Nel nome di Dio clemente e misericordioso. Benedica Iddio a Maometto e alla sua schiatta, e loro dia piena pace.

Lode a Dio unico.

Lode a Dio altissimo, da non poterglisi contrapporre nè congiungere altro ente; santissimo, da non poterglisi accompagnar altri, nè mettere allato; a lui, la cui sapienza abbraccia tutto quel che si sprofonda nelle (viscere della) terra e quel che salisce nell' (alto del) cielo; e benedizione a Maometto, il suo apostolo puro, nobilissimo ed eletto profeta, ultimo tra gli apostoli e' profeti, inviato (a recar) la benefica religione hanifita, la quale rischiarà la caligine dell' infedeltà e spazza le tenebre; quegli la cui missione finale e legge durevole abolirà ogni altra religione e setta innanzi il giorno del giudizio e innanzi la ricompensa promessa, da chi il ver promette, (cioè) che l' impero del suo popolo arrivi ad avviluppare gli Orienti e gli Occidenti, e (tutti) i lati et le bande (della terra).

E che (egli) gradisca l' Imam illibato, il Mehdi notissimo, che vivificò le vestigia della religione, cancellate et dileguate, e la tornò alla pristina evidenza e splendore; colui che rischiarò gli insegnamenti della legge dissipata dall' ignoranza, con quella mano che seppellisce et nasconde.

(Gradisca) altresì il suo califo direttore e suo gradito apostolo, il nostro signore l' Imam, principe dei Credenti, banditore delle splendide scienze divine, quegli che condusse la eccelsa predicazione al massimo segno di pubblicità e d' altezza, e la sollevò, pei gradi del compimento e le scale della perfezione, fino alla sommità estrema.

Preghiamo, poi, che al signor nostro l' Imam e principe dei Credenti, figlio del signor nostro il califo, principe dei Credenti, seguente con ogni sforzo le sante vestigia d' entrambi (i predecessori), perfettamente docile alla loro guida e indirizzato al tutto sulla loro via, (conceda Iddio) numerose vittorie! gloria delle sue bandiere, possanza de' suoi fidi, confusione de' nemici, continui conquisti e successi felici, che precorrano alle speranze e proseguano non interrotti, finchè durino i tempi e si alternino le stagioni.

1. Ecco l' accordo che concede il principe dei Credenti, figlio del principe dei Credenti, i quali Iddio secondi con la vittoria e li rinforzi del suo aiuto! ai consoli, anziani

¹ On n'a plus l'instrument chrétien contemporain de ce traité. Nous avons cru devoir séparer en paragraphes distincts et numérotés toute la partie dispositive de l'acte.

صورة عن المعاهدة التي أبرمها الخليفة المنصور الموحي مع جمهورية
بيزة عام ١١٨٦ م.

De Mas latrie: traits, p28-30.

سادساً-الفصل الخامس:

أهل الذمة (اليهود) في ظل الحكم الموحد

- ١- أحوال المجتمعات اليهودية في المغرب الإسلامي.
- ٢- المصادر التاريخية ووثائق الجنيزا.
- ٣- وثائق الجنيزا:
 - أ- تعريف الجنيزا.
 - ب- أهمية وثائق الجنيزا.
 - ج- جهود الباحثين على دراسة جنيزا القاهرة.
- ٤- نشاط الجماعات اليهودية في ظل الحكم الإسلامي.
- ٥- اليهود في ظل الحكم الموحد.

١. المجتمعات اليهودية في المغرب الإسلامي:

عاش اليهود على أرض المغرب في حقبة باكرة سبقت قدوم الموحدين، كما تواجدوا في إسبانيا في حقبة سبقت قدوم الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس، وليس المرء بصدد الحديث عن السرد التاريخي للوجود اليهودي على أرض المغرب، والأندلس، منذ العصور الإسلامية البكرة للفتح الإسلامي، بل سيتم الإكتفاء هنا في ذكر أحوال اليهود في العصر الذي يتعلق بالدولة الموحدية، والمتداخل مع أواخر العصر المرابطي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين /الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

من المعلوم بأن الجماعات اليهودية قد تواجدت في بقاع جغرافية متعددة من أرض المغرب وبلاد الأندلس، وشأنهم شأن أي جماعة من البشر، لهم أعمالهم التي يقومون فيها مثل: أعمال الزراعة، والصناعة، والصرافة، والتجارة في البلاد، وهي من أكثر المهن التي امتهنوها في المناطق التي حلّوا فيها، وقد وصف المؤرخون المسلمون فئات معينة من التجار اليهود الذين اهتموا بالنشاط التجاري الخارجي، ومن جملة هؤلاء المؤرخ المسلم ابن خرداذبة المتوفى عام ٣٠٠هـ/٩١٣م الذي تكلم عن طائفة من التجار اليهود - وليس جميعهم - من الذين يجوبون المسافات الشاسعة للعمل في التجارة في كتابه الشهير " المسالك والممالك " بقوله: "...إنهم يسافرون بين الشرق والغرب، ويحملون من فرنجة الخدم والغلمان والجواري، ويخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى جدة والحجاز، ثم يمضون إلى الهند والسند

والصين، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني^(١) وغير ذلك، ويرجعون إلى القلزم، ثم يتحولون إلى الفرما، ويركبون البحر الغربي^(٢).

وإذا أراد المرء أن يقدم صورة عامة عن أحوال اليهود في العصور الوسطى، وخاصة اليهود الذين كانوا في ظل المجتمعات الإسلامية، وكذلك الذين عاشوا تحت الحكم المسيحي، يستذكر ما قاله الرحالة اليهودي الشهير بنيامين بن نونة التطيلي الأندلسي المتوفى عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م في رحلته الشهيرة: "... فمن الوجهة السياسية كانت القرون الوسطى شديدة الوطأة على يهود أوروبا بأكملها، إذا استثنينا إسبانيا الإسلامية، ذاقوا فيها من ضروب التعسف والاضطهاد، والتقتيل والتشريد، ما يعجز عن تبيان القلم، أما يهود المشرق فكانوا أسعد حظاً، وأكثر استقراراً، واطمئناناً على أرواحهم وموطنهم وأموالهم من إخوانهم في الغرب، فقد ترك لهم خلفاء المسلمين وسلطينهم حرية الإيمان والمعتقد وأمنوهم على أرواحهم، وما ملكت أيمانهم بدافع الشرع القويم والعرف، والتسامح، فلم يكن اليهودي وهو من أهل الذمة ملزماً بأكثر من جزية بسيطة يدفعها إلى بيت مال المسلمين لقاء حصوله منهم على حقوقه المشروعة " (٣).

ومن خلال كلام الرحالة اليهودي يستشف المرء دليلاً لا لبس فيه على التسامح الكبير الذي لقيه اليهود في المغرب، والمشرق في ظل الحكم الإسلامي في العصور الوسطى، ومن المعروف أن التوقيت الذي قام فيه التطيلي رحلته من

(١) وهي القرفة السيلانية، والدار صيني الحقيقي يسمى الدار صيني الصين، وهذه القرفة لها نوعان الدار صيني الدون والدار صيني الصين والأول لونه أقرب إلى الحمرة وعوده أرق وملتف على بعضه ومشقوق على طوله، وهو شبيه جداً بالنوع الثاني إلا أن الدار صيني الصين هو أشد حرارة وأقل حلاوة من سابقه، ينظر مادة الدار صيني؛ دوزي، رينهارت: تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨١م، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ويذكر ابن خرداذبة مستفيضاً في ذكر هؤلاء التجار ويذكر تسميتهم بالرهذانية أو الراذانية وهي تسمية منسوبة إلى نهر الرادانوس (الروس) والذي يسميه العرب ردونة، ويستطيع أن يتكلم هؤلاء التجار اللغة العربية والإفريقية والفارسية والرومية، ص ١٠٣-١٤٥.

(٣) التطيلي، بنيامين: رحلته، ص ١٣٣.

عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م إلى عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، أي أن ذلك يتزامن و العصر الذهبي للإمبراطورية الموحدية وهي في أوج قوتها، ولكن يجب أن لا يغيب عن الأذهان بأن ذلك كان يترافق أيضاً مع إصرار الممالك المسيحية الإسبانية مندفة بحروب الاسترداد للاستيلاء على حواضر الإسلام في الأندلس، واكتساحها شيئاً فشيئاً، وصحيح بأن الوجود المرابطي أولاً، والموحدي ثانياً، قد أسهم بشكل فعال على الأقل في إيقاف هذا الزحف الإسباني المتكالب على حواضر الإسلام في الأندلس، ولكن عندما بدأت بوادر الضعف تهيمن على الموحدين بعد معركة العقاب خصوصاً في الأندلس، بدأت تتهاوى حواضر الإسلام الكبرى في الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية بالسقوط في أيدي الإسبان، وينحسر الوجود الإسلامي كما هو معلوم إلى مملكة غرناطة النصرية، وهذا بالطبع كان له إفرازات جديدة كان لها إسهاماً في كيفية تعامل القوات الإسلامية مع الطوائف الأخرى، والمقصود فيهم أهل الذمة من اليهود، ويبقى التساؤل الذي لا بد من طرحه والإجابة عليه وهو: كيف كانت الأوضاع العامة لليهود في هذه الحقبة الزمنية في ظل الحكم الموحي في بلاد المغرب والأندلس، وهل قام اليهود بدور فعال في ظل الحكم الموحي أم كان دورهم هامشياً؟

٢. المصادر التاريخية ووثائق الجنيزا:

في الحقيقة كانت المصادر التاريخية الإسلامية التي تحدثت عن اليهود ونشاطهم في الغرب الإسلامي قليلة نوعاً ما، خاصة فيما تعلق بالعصر الموحي، حيث يجد المرء بأن المصادر الإسلامية التي تكلمت عن اليهود أو أهل الذمة بشكل عام في ظل حكم الخلفاء الموحدين شحيحة، ومازال هناك حاجة كبيرة للبحث عن مصادر جديدة لتوظيفها في خدمة البحث، كما تحدث قسم من المصادر خاصة الغير إسلامية عن القسوة، والإساءة التي تعرض لها اليهود من قبل الخلفاء الموحدين، لذلك سيعمل الطالب في هذا الفصل على إجراء مقارنات بين تلك المصادر، من أجل الوصول إلى نتيجة تكون أقرب إلى واقع الحقيقة بعون الله، مع الأخذ بالحسبان بأن هذه المحاكمة تبقى جهوداً فردية مبذولة، ويمكن لها أن تتسع وتتطور في أفق الأبحاث المستقبلية، من خلال وجود مصادر جديدة ودراسات حديثة يمكن أن تثبت أو تنفي هذه الحادثة أو تلك، وهذا هو المسار الطبيعي للحوادث التاريخية عبر الزمن، ومن بين هذه المصادر التاريخية

يذكر المرء وثائق الجنيزة أحد أشهر المصادر التي تحدثت عن العلاقات بين الجماعات اليهودية في مناطق حوض البحر المتوسط مثل المغرب، ومصر، واليمن، ويكون هذه الوثائق تضمنت رسائل متبادلة بين الجماعات اليهودية، وغطت مرحلة لا يستهان فيها من القرن الخامس والسادس الهجري/الحادي عشر والثاني عشر الميلادي فلا بد من التعريف بهذه الوثائق وأنواعها ومحتواها .

٣. وثائق الجنيزة:

أ- تعريف وثائق الجنيزة وأهميتها:

كانت وثائق الجنيزة التي اكتشفت مؤخراً من أشهر المصادر التاريخية التي تحدثت عن العلاقات المتبادلة بين الجماعات اليهودية في مختلف المناطق في المشرق والمغرب في العصور الوسطى، وتعرف الجنيزة بالمفهوم العام بأنها: كلمة عبرية تطلق على مجموعة الأوراق والوثائق التي يحرم إبادةها وفقاً للتعاليم والديانة اليهودية، وفي اللغة العبرية تعني الكنز، وهي الشيء المدفون، وكلمة جنيزة لها صلة بالكلمة العربية " جنازة " أي الدفن أو الدفينة، ومن خلال التعريف يدرك المرء أن هذه الوثائق قد أصّر اليهود على إبقائها، والحفاظ عليها وإلا كانوا تخلصوا منها في الماضي مثل الحرق، أو الإتلاف، أو ما شابه، وذلك تقديساً لهذه الوثائق حتى لا تفنى أو تبلى، فكانت الأمكنة التي دفنت فيها مثل المعابد، أو مغائر تحت الأرض، أو في أماكن مخصصة لدفن شخصيات ذات شأن كبير من اليهود

كما أنّ هذه الوثائق متعددة الأنواع، والاختصاصات، وكانت بشكل عام تتحدث عن مجمل حياة اليهود الذين عاشوا في مصر والبلاد العربية مثل المغرب، والأندلس، وغطت هذه الوثائق فترة زمنية كبيرة لا يستهان فيها امتدت بحدود عشرة قرون، وقد دونت هذه الوثائق باللغة العربية بحروف عبرية، وكان من هذه الوثائق ما هو مكتوب باللغة العربية مثل معاملات الزواج، والطلاق، والصناعات وغير ذلك فقد كتبت باللغة العربية.

وما زالت وثائق الجنيزة قيد الدراسات والأبحاث على الرغم من عمل الباحثين فيها مدة لا يستهان فيها، وما زال العمل فيها مستمراً حتى هذه الأيام، وأشهر وثائق

الجنيزا على الإطلاق هي وثائق جنيزة القاهرة^(١)، وقد عثر عليها في معبد بن عزرا اليهودي، وهذا المعبد يقع في منطقة مجمع الأديان بالفسطاط بمصر القديمة بالقرب من الكنيسة المعلقة، والمتحف القبطي، وجامع عمرو بن العاص، والحجرة التي وجدت فيها وثائق الجنيزة هي حجرة أشبه ماتكون صماء لا نوافذ فيها ولا أبواب باستثناء الفتحة الصغيرة في أعلاها تلقى المواد الخاصة بالجنيزة من خلالها إلى الداخل، وكانت الفترة التي تحدثت عنها وثائق الجنيزة كبيرة نسبياً حيث تزيد أعداد وثائق الجينيزا على مئتي ألف مخطوط، وغطت هذه الوثائق فترة كبيرة من الزمن يعود معظمها إلى العصر الفاطمي، ثم الأيوبي والمملوكي، والقليل يهتم بالعصور اللاحقة.

كان اكتشاف وثائق جينيزا القاهرة في معبد بن عزرا اليهودي أثناء عملية ترميم لجدار المعبد عام ١٨٩٠م، حيث انهار السقف الخاص بحجرة الجنيزة وكشف عن الوثائق المهمة التي بداخله، ومنذ هذا التاريخ بدأت وثائق الجنيزة تنتشر وتتسع شهرتها حتى استطاع العالم البريطاني اليهودي سولمون شختر " solmon schechte " أن يقف على محتوى وثائق الجنيزا وقيمتها العلمية، حيث كان شختر محاضراً لدراسات التلمود بجامعة كيمبردج البريطانية، وقام شختر لاحقاً بنقل محتويات الجنيزة إلى جامعة كيمبردج بإنجلترا، وحفظت هذه الوثائق تحت اسم " مجموعة تيلور شختر للجنيزا القاهرية " وأنشأت لها الجامعة مركزاً خاصاً بها نظراً لضخامتها.

ولذلك كان لهذه الوثائق أهمية كبيرة في حفظ السجلات والمراسلات لحقبة كبيرة من الزمن، وتجلت أهميتها من خلال مايلي:

(١) هناك أكثر من نوع من وثائق الجنيزة حسب المناطق التي اكتشفت فيها، ولكنها لا ترقى بالشهرة والأهمية إلى جنيزة القاهرة التي سيتم الكلام عنها، مثل وثائق الجنيزة المكتشفة في المقابر اليهودية في مناطق البساتين، وحلوان، والإسكندرية، وجينيزة معبد الأستاذ بحي الجمالية في حارة اليهود، وجينيزة معبد اليهود القرائيين بالعباسية، وأعداد الوثائق المكتشفة في هذه المناطق قليلة بالمقارنة مع جنيزة معبد بن عزرا بالقاهرة؛ العكس، إسماعيل: وثائق الجنيزا اليهودية في مصر، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٧م، ص ٤-٨.

١-تختلف وثائق الجنيزا عن غيرها من المصادر التاريخية كالكتب والرسائل والمخطوطات بأنها بعيدة كثيراً عن الجوانب البلاغية المستخدمة من قبل المؤلفين أو الإضافات التي التي توضع في سرد الأحداث من أجل رفع شأن أحد ما أو الانتفاص منه على غرار بعض الرسائل أو المصادر التاريخية، فقد كتب هذه الوثائق الفقراء والأغنياء بطريقة تلقائية تتميز بالعمق وبالصدق وتتضمن ما هو رسمي وغير رسمي، ويكون اللغة العربية أساساً فيها فهي أحد المصادر المهمة لمعرفة أشهر الكتابات المغربية والمصرية والشامية.

٢-تلقى وثائق الجنيزة نظرة عامة عن أوضاع العالم العربي الإسلامي الوسيط خاصة في المجال الاقتصادي والاجتماعي، كونها متبادلة بين الجماعات اليهودية الذين بالمغرب، والاندلس، ومصر، وبلاد الشام، بالإضافة إلى السلع التجارية التي كانت تذكر في الرسائل المتبادلة بين الجماعات اليهودية، وبالتالي تقدم دليلاً واضحاً على أماكن تجمع اليهود في العالم العربي الإسلامي في العصور الوسطى سواء أكان ذلك في مشرق أو مغرب.

٣-تتضمن بعض هذه الوثائق بعض الإلماحات حول الدول الإسلامية الحاكمة في البلاد التي عاش فيها اليهود والمحاكم الإسلامية، خصوصاً مايتعلق بحقبة القرن السادس والسابع الهجري / الثاني عشر والثالث عشر الميلادي.

٤-تعطي وثائق الجنيزا دليلاً واضحاً على حسن المعاملة التي تلقاها أهل الذمة في العصور الوسطى، وكان اليهود يتمتعون بحريتهم الكاملة في جميع نواحي حياتهم، مثل المحاكم، والأعياد، والطقوس الدينية، كما كانت التجارة والصرافة من أكثر المهن التي امتنوها، وتنقلوا بحرية كبيرة بين الشرق والغرب، ولذلك جمعوا ثروات كبيرة، وكانوا في بعض الأحقاب مقربين من الملوك والسلطين.

٥- تعد وثائق الجنيزة مادة غنية لدراسة التاريخ اليهودي بشكل عام، بحيث أنها بعضها يشتمل على كتب دينية مثل التوراة وكتب الاسفار والتلمود، وكتب التفاسير وكتب التفاسير والكتب الدينية المترجمة إلى لغات مختلفة مثل العربية والآرامية واليونانية، والمؤلفات الأدبية والعلمية مثل الطب والفلسفة والتنجيم والأشعار المختلفة لليهود من بلدان العالم العربي الإسلامي^(١).

(١) العكش: وثائق الجنيزا اليهودية في مصر، ص ١١-١٢.

ب- جهود الباحثين على دراسة وثائق جنيزة القاهرة:

منذ اكتشاف وثائق الجنيزا عكف الباحثون على دراستها وتحليلها، وكان في طليعة هؤلاء الباحثين الذين بذلوا جهوداً لا يستهان فيها من حيث دراستها وتحليل مادتها كان الباحث الألماني س. د. جويتين^(١) SHelomo Dove Goitein الذي عكف ولمدة ثلاثين عاماً على تقديم أبحاث ومقالات علمية حول وثائق الجنيزا، وتوج هذه الأعمال بإصدار أربعة مجلدات ضخمة عن دراسات هذه الوثائق بعنوان "مجتمع البحر المتوسط - الجماعات اليهودية في العالم العربي كما تصورها وثائق جنيزا القاهرة"^(٢)، وقد ذكر الدكتور أمين توفيق الطيبي^(٣) بأن بحوث جويتين تتميز بالعمق، والدقة، والتمحيص، ويؤكد جويتين بأن معظم رسائل الجنيزا كانت متبادلة في العالم العربي الإسلامي من المغرب الأقصى، والأندلس غرباً وصولاً إلى عدن شرقاً، وأن العالم العربي الإسلامي كان يشكل جماعة تجارية حرة أي لا تتدخل فيها الحكومات الإسلامية، ولم يكن هناك تفرقة بين التجار المحليين والأجانب، وكان على أهل الذمة مثل اليهود أن يؤديوا الجزية، وأن يمتلكوا شهادة تثبت بأدائهم لها، وتثبت هذه الوثائق بأن تجارة الجنيزا قد انحصرت نشاطها في العالم الإسلامي خصوصاً في مصر، وبلاد المغرب والأندلس، ويؤكد جويتين بأن اليهود في المجتمع الإسلامي قد تمتعوا بجانب كبير من حريتهم خاصة في علاقاتهم مع جيرانهم المسلمين حيث كان لهم أحياء خاصة بهم، وكانوا يعملون بالزراعة إضافة إلى أعمالهم التي اشتهروا فيها كالصياغة والصيرفة، وإن قيام نظام شراكة بين التجار المسلمين واليهود كان أمراً مألوفاً^(٤).

(١) حول معرفة تفاصيل أوفى عن س. د. جويتين يمكن الرجوع إلى الكتاب التالي :

S.D.Goitein: studies in Islamic History and Institutions,
Leiden,2010AH.P17-25

S.D.GOITEIN: A Meditrranean society,The Jewish communities^(٧)
of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo
Geniza,university of California press.

(٣) الطيبي، أمين توفيق: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ج٢ ص١٤٢.

(٤) : A Meditrranean society,vol1.p70-71 Goitein

كما أنه لا بدّ للمرء من دواعي الضرورة أن يذكر الجانب الذي يتعلق بمادة البحث من رسائل جنيزة القاهرة، أي الرسائل العائدة للنصف الثاني للقرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي والخاصة بالمغرب والأندلس على وجه التحديد، كون هذه الحقبة الزمنية تتماشى مع صعود دولة الموحدين وازدهارها، إلا أنّ أعداد هذه الرسائل قليلة، إذا ما قورنت بالرسائل العائدة إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ويقدم الدكتور الطيبي تعليلاً منطقياً ومقنعاً حول قلة أعداد الرسائل المرسلة من المغرب إلى الشرق بين التجار والجماعات اليهودية، بأنّه في القرن الخامس والسادس الهجري / الحادي عشر والثاني عشر الميلادي أخذ الكثير من تجار المغرب والأندلس اليهود ينزحون إلى مصر خاصة بعد الغزوات الهلالية لأرض المغرب، واحتلال النورمانديين لصقلية، وازدياد نفوذ المدن الإيطالية خاصة جنوة وبيزة في الحوض الغربي للمتوسط، الذي أخذ يتزايد يوماً عن يوم في المتوسط الغربي، وهذا الشيء الذي نوه إليه الطالب في الفصل الرابع كما مر سابقاً، وكان الاضطراب الذي رافق الصراع بين الموحدين والمرابطين قد دفع قسماً من تجار اليهود إلى مغادرة المغرب والأندلس إلى صقلية، وإيطاليا، وشمال إسبانيا، وجنوب فرنسا، بحيث شكل التجار اليهود طبقة ثرية في مدن الجمهوريات الإيطالية، ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر على سبيل المثال كان التجار اليهود الذين يتاجرون مع المغرب من أكثر التجار ثراءً في جنوة^(١).

ومن أشهر الرسائل التي ذكرها جويتين من بين الرسائل المكتوبة في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي رسالة مكتوبة من مدينة فاس، ومؤرخة عام ٥٣٥هـ/١١٤٢م، كانت مكتوبة من رجل يهودي من مدينة فاس إلى والده في مدينة المرية، وتزامن كتابة هذه الرسالة بعد سقوط إقليم السوس في جنوب المغرب الأقصى بيد الموحدين في زمن الخليفة عبد المؤمن بن علي، قبل أن تسقط فاس في أيدي الموحدين، وكان سقوط السوس قد أثر سلباً على الحياة الاقتصادية في فاس، والذي يسترعي الانتباه في هذه الرسالة هو وصف الخليفة عبد المؤمن بن

(١) و من هؤلاء التجار الصيارفة اليهود وهما الصيرفي ستابليس stabilis والصيرفي بلانكارديس Blankardeis ؛ الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ج ٢ ص

علي بالغاصب " الخارجي" وهو في نظر كاتب الرسالة اليهودي خارج عن سلطان المرابطين، لأن المرابطين كانوا يطلقون تسمية الخوارج على الموحدين، وكان هؤلاء يصفون المرابطين بالمجسمين^(١)، ويذكر الطالب مقتطفات من هذه الرسالة المذكورة:

" ... فإن قلبي يحترق لأنني جمعت ذهباً ولم أجد شخصاً أرسله معه، ولذلك اضطررت إلى إرساله مع دافيد، وهو أمر لا يسرني إطلاقاً، ... كما سوف أرسل معه نحاساً بقدر ما أجد، ولعلمك فإن اللاك^(٢) بقي على سعره الأصلي حقبة قصيرة، ومنذ أن احتل الخارجي [يعني عبد المؤمن بن علي] ^(٣) السوس، ساد الركود " ضرب بروحه الأرض" ^(٤)، وما زالت عندي خمسة أعدل، كما أن بروخ لم يتمكن من بيع الكميات التي سلمتها له، وهذا يزعجني أكثر من أي شيء آخر، إن كل اللاك معي في حجرتي، ولو أنني لم أكن قلقاً على البضائع الأخرى التي سلمتها له لما أعطيته شيئاً، لكي لا يقال إن بضائعي عنده" ^(٥)

ونص هذه الرسالة يشير بوضوح تام إلى حالة الاضطراب السياسي والاقتصادي التي كان يعانيها جنوب المغرب الأقصى في منطقة السوس وصولاً إلى مدينة فاس، وكذلك الشعور بالنقمة من قبل السكان المحليين بما فيهم اليهود على الفاتحيين الجدد للمغرب الأقصى والمعني بهم الموحدين.

(١) المكناسي، محمد بن أحمد: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط، ١٩٥٢م، ص ٦.

(٢) اللاك: وهو مادة صباغية تعطي لوناً أحمر، تفرزها بعض الأشجار، تستخدم لصباغة الجلود ونحوها؛ دوزي، رينهارت: تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية: جمال الخياط، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٩م، ج ٩ ص ١٨٩.

(٣) وهذا الإيضاح وضعه جويتين لمعرفة الشخص المقصود بالرسالة، وقد نقله الطيبي كما أورده جويتين؛ الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ج ٢ ص ١٦١.

(٤) والقصد من هذه العبارة تخيير الركود واتساع نطاقه في إقليم السوس وما يحيط به نتيجة سيطرة الموحدين عليه.

(٥) يذكر الدكتور الطيبي نقلاً عن جويتين بأن بروخ الذي ورد اسمه في الرسالة كان تاجراً محلياً، ولم يريد كاتب الرسالة أن تقع عليه الشبهات أنه يريد التملص من دفع المكوس بادعاء أن بضاعته تخص تاجراً محلياً؛ الطيبي: دراسات وبحوث، ص ١٦٠.

وهناك رسالة أخرى مؤرخة في الحقبة التي سقطت فيها المهديّة في أيدي النورمانديين ومؤرخة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م، ومحرر هذه الرسالة يدعى إبراهيم بن يجو في عدن إلى أخيه في المهديّة أو إفريقية، ويبدو عليه القلق الشديد على مصير أهله في إفريقية بعد هجوم النورمانديين على المهديّة عام ٥٤٢هـ/١١٤٨م وفرار أهله إلى صقلية، واستقرارهم في مدينة مازر بعد حالة من الهلع والتشرد، وكتب إليهم يطلب منهم القدوم إليه، ويقدم لهم كل احتياجاتهم، وكان إبراهيم هذا يعمل بالتجارة بين الهند، وعدن، ومصر، وهذه مقتطفات من نص الرسالة المذكورة: "... أعلمك يا أخي بأنني أبحرت من الهند ووصلت سالمًا إلى عدن - حرسها الله - مع أموال وأطفال، وأودّ الآن إعلامك أن لدي ما يكفي لسد حاجتنا جميعاً، ... قابلت سليمان بن جبّاي الذي أخبرني أن الحال قد وصلت بكم إلى درجة أصبحتم لا تحصلون فيها إلا على رقيق واحد من الخبز في اليوم، لذلك أطلب منك أن تجيء إليّ بدون تأخير مهما كانت الظروف، وأنا أنكف بإعالتكم، ... سمعت عمّا حل بساحل إفريقية، طرابلس الغرب، وجربة وقرقنة، وصفافس والمهديّة والسوس، إلّا أنه لم تصلني أية رسالة تمكنني من معرفة من مات، ومن بقي على قيد الحياة، أناشدك الله أن تكتب تفاصيل دقيقة، وأن تبعث برسائلك مع أناس يعتمد عليهم، كي يطمئن بالي ... " (١).

وهذا الرسالة تشير أيضاً إلى الأوضاع السياسية، والاقتصادية المضطربة أثناء سيطرة النورمانديين على المهديّة، والمدن المجاورة لها، وكيف وصلت الحالة المعيشية بالسكان المحليين إلى درجة قلت فيها الأقوات، والأرزاق، نتيجة الخراب الذي لحق بالبلاد التي احتلها النورمانديين وبقيت على حالها حتى قدوم عبد المؤمن بن علي، وتمكّنه من طردهم، وإعادة تلك البلاد إلى أملاك الدولة الموحدية.

وهاتين الرسائل كانتا من أشهر الرسائل التي اقترنت من الأوضاع السياسية للدولة الموحدية، ومازالت الحاجة كبيرة إلى مزيد من الجهود لأنه من غير المستبعد أن تكون هناك رسائل أكثر تفصيلاً يمكن للمرء الوصول إليها، وهذا يعتمد على المزيد من الأبحاث والدراسات المتعلقة بوثائق الجنيّز بشكل خاص

(١) الطيبي: دراسات وبحوث، ص ١٦٤.

حيث يستطيع المرء في ضوءها الوقوف على تفاصيل جديدة تدور في فلك الأوضاع العامة للجماعات اليهودية في ظل خلفاء دولة الموحدين، وقبل الحديث عن أوضاع اليهود في العصر الموحي يعرض الطالب باختصار بسيط صورة لنشاط الجماعات اليهودية تحت الحكم الإسلامي.

٤. نشاط الجماعات اليهودية في ظل الحكم الإسلامي:

مما لا شك فيه عاش اليهود متمتعين بكافة حقوقهم تحت راية الحكم الإسلامي في بلاد المغرب والأندلس، ضمن الأطر القانونية الشرعية الإسلامية تحت مسمى أهل الذمة، أي حرية العيش لغير المسلمين تحت راية الحكم الإسلامي كالمسيحيين واليهود، وكانت الدول الإسلامية تضمن لهم حقوقهم في العيش كرعايا لها، لهم كل ما يضمن سلامتهم، وحقوقهم في تصريف شؤونهم، وتزامن ذلك مع إحداث محاكم خاصة بهم يديرونها من خلال موظفين كبار منهم مثل القضاة، وأصحاب المناصب الدينية، وهذا التسامح الذي أظهره المسلمون شيء معروف عنهم منذ الفتوحات الإسلامية الباكسة في المشرق أو المغرب، حتى إن العديد من كبار الشخصيات من أهل الذمة كاليهود تبؤوا مناصب رفيعة في ظل الحكم الإسلامي خاصة في الأندلس كالمناصب السياسية، والإدارية، لاسيما زمن ملوك الطوائف، ويذكر الطالب هنا مثلاً حياً على ذلك مثل منصب الوزارة التي تقلدها آل نغريلة أو النغدة في غرناطة زمن الحكام الزيبيين في تونس، وهذا المنصب استغله آل النغريلة لخدمة مصالحهم على وجه الخصوص أيما استغلال، حيث قام هؤلاء بإبعاد الولاة المسلمين، وتعيين ولاة جدد من اليهود، وأدى ذلك إلى حدوث الفتنة في الأندلس^(١) محاوليين الإستئثار بالمناصب السياسية حكراً في أيديهم، كما كان سفير المعتمد بن عباد إلى ملوك إسبانيا يهودياً يدعى ابن مشعل، وقد عرف عنه إجادته في اللغة العربية، وعلى نطاق آخر انتشرت المدارس والمعاهد اليهودية في الأندلس والمغرب مثل مدرسة قرطبة، وغرناطة، وأليسانة والقيروان، ومعظم المناطق التي عاشت فيها الجماعات اليهودية في المغرب مثل فاس، وتلمسان، وسجلماسة، والركيزة الأساسية التي

(١) من أجل التفاصيل الأوفى يمكن الرجوع إلى لسان الدين: الإحاطة، ٢٠٠٩، ق ١، ص ٨٦٢-٨٦٥.

اعتمدت عليها الجماعات اليهودية في كافة المناطق التي عاشوا فيها في الأقاليم الشرقية، والغربية من حواضر العالم العربي الإسلامي هي الاتصال الوثيق فيما بينهم، وتتبع أخبار بعضهم بعضاً، وتقدم وثائق الجنيزة دليلاً قاطعاً على الصلات الوثيقة بين اليهود المتواجدين في آسيا وأوروبا وإفريقية، حيث كانت الأعمال التجارية والمصالح المادية تنصدر جل هذه الروابط، و التجارة هي المهنة الأكثر شيوعاً بين الأوساط اليهودية، ويعبر واكيم برنز وهو أحد حاخامات نيويورك سابقاً، عن هذا النشاط التجاري العالمي للجماعات اليهودية في كتابه " بابوات من الحي اليهودي " حيث يشير الحاخام واكيم وهو الذي فهم النشاط التجاري العالمي اليهودي فهماً عميقاً يدل على مكانته وعلمه بقوله: "... ولكن لا ينكر أن شهرتهم ونجاحهم كتجار دوليين سببها أن اليهود عاشوا في جميع أقطار العالم، وأن التفاهم ساد مجتمعاتهم خلال جميع الأقطار، من إسبانيا غرباً حتى الهند والصين شرقاً " (١)، ومن هنا كانت تلك الروابط من أهم ما تميزت به المجتمعات اليهودية في العصور الوسطى.

٥. اليهود في ظل الحكم الموحد:

بعد انقضاء عصر المرابطين ووصول الموحدين إلى كرسي السلطة، ظهرت هناك متحولات جديدة، وإفرازات جديدة تراكمت مع قدوم الموحدين خاصة فيما يتعلق بشؤون أهل الذمة والمعني فيهم هنا اليهود، ولذلك تتبع من هنا أهمية تقديم رؤية واضحة المعالم حول هذه المتغيرات، وكيف عاش اليهود في ظل الحكم الموحد؟

عندما تسلم الموحدون زمام السلطة في بلاد المغرب و الأندلس بعد القضاء على دولة المرابطين، ودخول عاصمة مُلكهم مراكش، كانت المبادئ الأساسية للحركة الدينية الجديدة تقوم على التوحيد، والتمسك بالدين والعقيدة، وتطبيق تعاليمه بحزم، وتحولت هذه الحركة التي دعى إليها مؤسس دولة الموحدين محمد بن تومرت فيما بعد إلى نظام دولة مستقلة الكيان في عهد خلفائه من بني عبد المؤمن بن علي، ولا يخفى على أحد الأسلوب الذي اتبعه الموحدون في

(١) يواكم برنز: بابوات من الحي اليهودي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، قدم له: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٨٨م، ص٤٣.

قمع كل من رفض تعاليمهم من المسلمين بالعداء والتكيل، ولذلك وصف محمد بن تومرت المرابطين بالمجسمين، وأُتهم جماعة مخالفين لتعاليم الشريعة الإسلامية مستبيحاً بذلك ديارهم، ودمائهم، وكانت نهاية دولة المرابطين المعروفة على أيديهم، حيث تمكن الموحدون من بسط السيطرة على بلاد المغرب أولاً ثم الأندلس ثانياً، وفي بداية الحكم الموحد لبلاد الأندلس كانت منطقة شرقي الأندلس أولى المناطق التي وقفت في وجه الموحد، وقد تمثل ذلك في تمرد ابن همشك وصهره ابن مردنيش كما مر ذلك سابقاً، وقد ساعد هذا الأخير جماعات من اليهود القاطنين بشرقي الأندلس ضد الموحدين، و ذكر المؤرخ الموحد ابن صاحب الصلاة ذلك عندما دخل ابن همشك غرناطة بمساعدة اليهودي الذي ينعتة ابن صاحب الصلاة بالفاسق " ابن دهري" مع جماعة من اليهود الإسلاميين (١) الذين كانوا بغرناطة، وتمكنوا من فتح أحد أبواب غرناطة، واستطاع ابن همشك دخول غرناطة والسيطرة عليها، وتكمن الموحدون لاحقاً من القضاء على هذا التمرد كما مر ذلك سابقاً، وفي موقف آخر يذكر المؤرخ الضبي (٢) المتوفي عام ٥٥٩هـ/١٢٠٣م، في كتابه " بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس"، بأن جماعات كبيرة من اليهود كانت تقف مع الجيوش المسيحية لمقاتلة المسلمين مثل التجار اليهود الذين كانوا ضمن الجيش القشتالي المحارب بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وكان هؤلاء قد تجهزوا لاقتناء أسرى المسلمين وذلك في معركة

(١) هذه العبارة التي ذكرها المؤرخ ابن صاحب الصلاة تشير أنه كان يتواجد جماعات من اليهود في الأندلس تظاهروا بالإسلام ولم يكونوا من المسلمين، وقد علق الدكتور عبد الهادي التازي الذي حقق كتاب المن بالإمامة على ترجمة المستشرق الهولندي المشهور دوزي الذي قام بترجمة قطعة المخطوط من الصفحة ٥٠ إلى الصفحة ٦٢ ويعبر عن انزعاجه من أسلوب ابن صاحب الصلاة في ذكر اليهود الإسلاميين حيث أن هؤلاء أكرهوا على الدخول بالإسلام نتيجة الضغوط التي تعرضوا لها من الإسبان، ويصف دوزي ابن صاحب الصلاة بأنه مسرفاً مغالياً في التعصب، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٢٣-١٢٥.

(٢) أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، من مواليد مرسية من أعمال تدمير، زار بلاداً كثيرة، وانتقل إلى سبتة وسمع من شيوخها، ثم إلى مراكش وسمع أيضاً من أشهر أعلامها، ثم جاز إلى بجاية ثم إلى الإسكندرية، ثم توجه حاجاً إلى مكة، ثم عاد بعد ذلك إلى بلده مرسية وتوفي فيها عام ٥٩٩هـ/١٢٠٣م؛ مقدمة المؤلف؛ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، ط ١، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٧-١٨.

الأرك، إلا أنه لم يكن بالحسبان مثلما توقع هؤلاء إذ نصر الله المسلمين، وانهزم الملك القشتالي بالقلعة القليلة التي نجت من الموت معه، وعندما تبعهم المسلمون إلى طليطلة شارك اليهود في الدفاع عن المدينة مع حاميتها، وارتد المسلمون عن طليطلة^(١)، ولذلك كان الموحدون يشكون في ولائهم وإخلاصهم إليهم، ولكن هل يعني هذا أن الموحدون قاموا بحركات معادية ضد اليهود، أو أجبروهم على اعتناق الدين الإسلامي؟ أو قاموا بتهجيرهم من بلاد الأندلس والمغرب؟ وكيف كانت معاملة الخلفاء الموحدين للجماعات اليهودية في ظل دولتهم؟

في الحقيقة إنّ الإجابة على هذه التساؤلات مجتمعة تتطلب مجهوداً كبيراً وشاقاً، نظراً لوجود اختلاف واضح في رؤية المصادر والمراجع الإسلامية، والغير الإسلامية خاصة المعرب منها حول سياسة الخلفاء الموحدين اتجاه أهل الذمة، وأحياناً لا يجد المرء قواسم مشتركة بين تلك المصادر تمكنه للوصول إلى صياغة عامة يمكن أن تشكل إجابة شاملة عن تلك التساؤلات، وهنا سيلجئ الطالب إلى تقديم الأمثلة، والاستعانة بأقوال المؤرخين لكي تعطيه الرؤية العلمية المناسبة في تحديد نتائجه إن شاء الله.

فعندما ابتدأ ابن تومرت دعوته الجديدة، وقام بالتأسيس العقائدي لدولة الموحدين، كان يعد ابن تومرت بأن كلّ من يخالف مذهبه إما كافراً، أو مرتدّاً، أو في إسلامه نقص يجب تقويمه، ولكن من جانب آخر لم يذكر ابن تومرت في مذهبه الجديد أية تهديدات، أو مخاوف اتجاه ضد أهل الذمة من اليهود والمسيحيين، وعندما قام ابن تومرت بالانتفاضات ضد دولة المرابطين، وقام بدخول المناطق التابعة لملكهم وجد فيها من يقطنها من المسيحيين واليهود على حد السواء، وعاملهم وفق تعاليم الشرعية الإسلامية متسامحاً معهم، شأنه شأن القوى الإسلامية التي سبقته، وخير دليل على ذلك يورد الطالب مثلاً من رواية البيدق، وهو مؤرخ الدولة الموحدية الناشئة، وأحد أصحاب المهدي بن تومرت، وأحد أعلامها أيضاً، فيقول البيدق عند وصول المهدي بن تومرت إلى تونس، ومشاهدته جنازة يهودي، لاحظ امتناع العامة من أهل تونس من الصلاة عليه، فيتحدث في ذلك: "... فنظر الإمام إلى جنازة من وراء الناس، فقال لهم: لم لا

(١) الضبّي: بغية الملتمس، ص ٤٥-٤٦.

تصلون على هذه الجنازة ؟ قالو له: هو يهودي وكان يصلي، فقال لهم رضي الله عنه: أفياكم من يشهد له بالصلاة؟ فقال الناس نعم من كل جانب ومكان، فقال لهم: قد شهدتم له بالإيمان، ثم أمر من يقيم الصفوف، وصلى عليه ونحن من ورائه، فلما صلى دعى بالفقهاء ووبخهم، وعرفهم بالسُّنة، وبين لهم الكتاب العزيز... " (١).

ولذلك كان ابن تومرت أول الموحدين الذين تعاملوا بالتسامح والإحسان مع غيرهم من أهل الذمة، لاسيما أن المدن المغربية مثل سجلماسة، وفاس، كانت تعجُّ بالجماعات اليهودية، وعندما تسلم عبد المؤمن بن علي زعامة الموحدين، وفتح المدن المغربية كان يقطنها العديد من الجماعات اليهودية، والمسيحية، وكان عبد المؤمن كما هو معروف الشخصية العسكرية التي نقلت الموحدين إلى طور الدولة والقانون، ووحدت بلاد المغرب والأندلس تحت راية واحدة، وكان في أرض المغرب والأندلس بالطبع رعايا من أهل الذمة من اليهود والمسيحيين، إلا أن المصادر والمراجع التاريخية قد اختلفت في رؤيتها حول معاملة عبد المؤمن بن علي لأهل الذمة من اليهود والمسيحيين ممن كانوا يقطنون المدن الإسلامية أثناء فتحها مثل السُّوس، وسجلماسة، وفاس وغيرها من المدن، فالمؤرخ ابن الأثير يذكر عند فتح عبد المؤمن بن علي مدينة تونس، وتسليمها من المسؤولين عنها عرض الإسلام على أهلها بقوله: "... وأقام عليها ثلاثة أيام، وعرض الإسلام على من بها من اليهود والمسيحيين، فمن أسلم سلم، ومن امتنع قُتِل " (٢)، وكان السبب في عرض عبد المؤمن بن علي هو استعصاء أهل تونس على طاعة الموحدين، وامتناعهم من الخضوع لسلطانهم وقتالهم الموحدين بكل طاقاتهم، وعندما يئسوا من الدفاع عن مدينتهم، وخاب كل أمل في وصول الإمدادات عرضوا على عبد المؤمن التسليم والأمان في الأنفس، والأموال، وهذا ما ذكره ابن الأثير في تكملة حديثه عن عبد المؤمن بن علي (٣)، وهناك رواية أخرى ذكرها المؤرخ القفطي المتوفى عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م في ترجمة الشخصية اليهودية الشهيرة موسى بن ميمون الإسرائيلي الأندلسي من مواليد سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م

(١) البيدق: أخبار المهدي، ص ١١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩ ص ٤٢٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩ ص ٤٢٩.

وهو من أهل الأندلس يهودي النحلة، قرأ علم الأوائل بالأندلس وأحكم الرياضيات، وأخذ شيئاً من المنطقيات، وقرأ الطب فأجاده، وامتهن الطب وبرع فيه، وجاب موسى بن ميمون المكنى أبا عمران البلاد وارتحل من الأندلس، وكان موسى بن ميمون قد اعتنق الإسلام، وتعلم العلوم الشرعية، وقراءة القرآن، والصلاة، وعندما ترك الأندلس، ونزل إلى مصر، واستقر بالفسطاط بين اليهود من ملته أظهر دينه، وسكن حياً من أحياء الفسطاط، وكان من جملة الأطباء الذين عاينوا الملوك والأمراء من الافرنج والمسلمين، وكانت وفاته عام ٦٠١هـ / ١٢٠٤م، وموسى بن ميمون هو أحد الأمتلة على اليهود الإسلاميين الذين اعتنقوا الإسلام في الأندلس ثم عاد وأعلن ديانته حالما أصبح في مصر بين اليهود، وهذه الرواية للقبطي توضح بأن قسماً من أهل الأندلس قد أعلنوا إسلامهم حفاظاً على ممتلكاتهم وأموالهم، وهذا النص الذي أورده القبطي في سبيل ذلك: "... ولما نادى عبد المؤمن بن علي الكومي البربري المستولي على المغرب في البلاد التي ملكها بإخراج اليهود والمسيحيين منها، وقدر لهم مدة، وشرط لمن أسلم منهم بموضعه على أسباب ارتزاقه ما للمسلمين وعليه ماعليهم، ومن بقي على رأي أهل ملته فإما أن يخرج قبل الأجل الذي أجله، وإما أن يكون بعد الأجل في حكم السلطان مستهلك النفس والمال، ولما استقر هذا الأمر خرج المُخفُون، وبقي من ثقل ظهره، وشح بأهله وماله، فأظهر الإسلام وأسر الكفر" (١)، وهناك رواية أخرى تتحدث عن معاملة عبد المؤمن بن علي لليهود من أهل الذمة، عندما استولى على مراكش عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م عاصمة ملك المرابطين، فيقول ابن تغري بردي في ذلك: " وفيها استولى عبد المؤمن بن علي على مدينة مراكش من المغرب بالسيف، وقتل من بها من المقاتلة، ولم يتعرض للرعية، وأحضر اليهود والمسيحيين وقال : إن الإمام المهدي أمرني ألا أُقِرَّ الناس إلا على ملة واحدة وهي الإسلام، وأنتم تزعمون أن بعد الخمسمئة عام يظهر من يعضد شريعتكم، وقد انقضت المدة، وأنا مخيركم بين ثلاث: إما أن تسلموا، وإما أن تلتحقوا بدار الحرب، وإما أن أضرب رقابكم، فأسلم منهم طائفة، ولحق بدار الحرب أخرى، وأخرب عبد المؤمن الكنائس والبيع وردھا مساجد، وأبطل الجزية وفعل ذلك في جميع ولاياته" (٢)،

(١) القبطي، علي بن يوسف: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) ابن تغري بردي، يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥ ص ٢٧٦-٢٧٧.

ويرى المرء أنَّ رواية ابن تغري بردي عن أعمال عبد المؤمن بن علي فيها كثيرٌ من المفارقات ينقصها التمهيد والتدقيق، إذ كان ابن تغري بردي ناقلاً عن غيره من المصادر باعتباره متأخراً عن العصر الموحي، ولم يكن ما ذكره يتسم بالدقة أو الموضوعية في خبره عن عبد المؤمن بن علي، لاسيما أنَّ عاصمة المرابطين مراكش لم يكن مسموحاً فيها لليهود بالإقامة والسكن فيها، وهذا بناءً على الأمر الذي صدر عن يوسف بن تاشفين، وظل معمولاً به حتى نهاية الحكم المرابطي، وكان مسموحاً لليهود فقط بالدخول إلى مراكش، وممارسة أعمالهم ثم الخروج منها كما ذكرنا ذلك سابقاً، وسُمح لاحقاً بعد انقضاء عصر المرابطين لليهود بالعمل والإقامة في مراكش، وأصبح لهم حيٌّ خاصاً بهم في مراكش، لذلك لم يكن هؤلاء متواجدين عند دخول الموحدين مدينة مراكش، وأما أعمال عبد المؤمن اتجاه أهل الذمة فلم تذكر المصادر الإسلامية أو حتى غير الإسلامية بأنَّ عبد المؤمن قد هدم البيع، والكنائس، وحولها إلى مساجد، وحتى المدن التي فتحها عبد المؤمن بن علي مثل فاس، وسجلماسة، وأغمات، وسبتة، وتلمسان وغيرها من المدن وهي مشهورة بالجماعات اليهودية الكبيرة التي أقامت فيها خاصة فاس، لم يتعرض فيها لإيذاء أهل الذمة من اليهود، إذ أن هذه المدن قد ظلت مكاناً آمناً لأهل الذمة من اليهود حتى بعد انقضاء دولة الموحدين، وقامت هناك علاقات متبادلة بين اليهود والمسلمين، وكانوا جزءاً من السكان المحليين، لهم حقوقهم وعليهم ما على بقية الناس، وقد شاع الغنى بين أوساط اليهود خاصة الطبقة التي عملت بالتجارة، حيث حققت هذه الطبقة أرباحاً كبيرة، وثروة لا يستهان فيها خاصة في مدينة فاس التي شاع الثراء بين أوساط يهودها، حتى قيل عن فاس: "فاس بلدٌ بلا ناس" أي لم يكن ثروة فيها تقارن بالثروة التي بين أوساط المجتمع اليهودي فيها زمن الموحدين^(١)، وفي سجلماسة أيضاً تواجدت فيها طائفة يهودية كبرى، ولهذه المدينة تجارة كبيرة مع النيجر، ووسط إفريقيا، ومصر، والهند، والتجار اليهود بسجلماسة لهم النصيب الأكبر في المبادلات التجارية، ولهم علاقاتهم الوثيقة مع اليهود في القيروان وبغداد، كما أن قسماً لا يستهان به من طلاب سجلماسة كانوا يدرسون في بغداد حاضرة العباسيين، ومثل ذلك في وادي درعه التي ضمت

(١) المغراوي، محمد: الموحدون وأزمات المجتمع، جذور للنشر، ط ١، ٢٠٠٦، ص ١١٢-

سلسلة كبيرة من القرى سكنتها مجموعات يهودية، ومعظم تجار درعه من اليهود (١)، وكانت مدينة تلمسان بلد كبير يعج باليهود في العهد الموحيدي، ويذكر ابن سعيد الأندلسي (٢) المتوفى عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م بأن الخليفة الناصر الموحيدي ت ٦١٠هـ/١٢١٣م نزل عند أحد اليهود المقيمين بتلمسان، وقد أكرمه اليهودي غاية الإكرام بقوله: "... ومما شتّع عليه أعداؤه أنه نزل بتلمسان في دار يهودي فاحتفل في إكرامه، وأحضر له جميع ما قدر عليه، فخلا به وذاكره في دينه، ثم داعبه حتى أحضر له من طاهوراتهم، فيقال إنه قال: يا إسرائيلي دياركم نظيفة، وطعامكم طيب، وشرابكم رائق، وما أظنكم إلا على الحق" (٣)، وكثيرة هي الأمثلة التي تدل على النشاط الكبير للجماعات اليهودية في ظل الحكم الموحيدي، ومن خلال هذه الأمثلة يمكن للمرء أن يقول: ربما تعرضت تلك الجماعات في بعض أوقاتها لحقبة من التوتر والاضطراب، وهذا أمر طبيعي يترافق مع النشاط العسكري لأي قوة جديدة ناشئة تريد أن تقوي سلطانه، وتثبت أركانها، والتي تمثلت بدولة الموحدين آنذاك، لأن الجماعات اليهودية في بلاد المغرب خاصة في فاس وسجلماسة بقيت على حالها من الثراء والازدهار دون أدنى الشكوك، وأما الكتابات الغربية سواء أكانت مصادراً أو مراجعاً، فهي تجتمع على ذكر الاضطهاد الذي تعرض له اليهود زمن الموحدين، فقد تحدث س. د جويتين وهو الشخصية المعروفة بخبرتها عن العالم العربي الإسلامي وعاداته وتقاليده، وكذلك هو الخبير الذي انفرد بمعرفته العميقة لوثائق الجنيزا على أن الموحدين قد امتازوا بالتعصب، وكان ذلك عندما تحدث عن غزو المهديّة من النورمانديين الصقليين، واسترجاعها من أيديهم بعد اثنتي عشر عاماً على يد عبد المؤمن بن علي فيذكر ذلك بقوله: "... على أن وثائق الجنيزة ألفت الأضواء على ما وقع في المنطقة بعد اثنتي عشرة عاماً، وهو غزو البلاد على يد جماعة المسلمين المتعصبين جماعة

(١) الزعفراني، حاييم: يهود الأندلس والمغرب، ترجمة: أحمد شحلان، مرسوم الرباط مطبعة النجاح الجديدة، د.م، ٢٠٠٠م، ص ٣٢٢-٣٢٥.

(٢) وهو المؤرخ ابن سعيد المغربي المشهور صاحب كتاب الجغرافية الذي تم التعريف به في بداية البحث في الفصل الأول.

(٣) ابن موسى الأندلسي، علي: الغصون اليانعة في محاسن المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٩م، ص ٣٣.

الموحدين، الذين قاموا بقتل المسيحيين واليهود، كما قاموا بقتل المسلمين الذين لم يتقبلوا معتقداتهم"، ولكن جويتين لم يتوسع في حديثه، واكتفى بما ذكرته الجنيزة، وربما لا يوجد في هذه الوثائق ما يشير إلى غير ذلك، لأنه قال: "ولم تعطنا تقارير الجنيزة تغطية كاملة لأخبار هذه الكارثة الأخيرة، ووضع جدار من الصمت على أخبار تونس في هذه الحقبة، لكن هناك تقرير مفصل عن الموحدين في مراكش والجزائر، فقد كان يشار إليهما دائماً في سجلات الجنيزة" ^(١)، كما ذكر جويتين في موضع آخر بأن الموحدين قاموا ابتداءً من عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م بالهجوم على التجمعات اليهودية والمسيحية في بلاد الغرب الإسلامي، واضطهدوهم لأكثر من جيلين، وهذا الكلام الذي ذكره جويتين لا يمكن أن يأخذ المرء فيه بكليته، ويُسلّم المرء فيه تسليماً مطلقاً، فالحادثة التي ذكرها جويتين والتي تتعلق بقتل المسيحيين واليهود في المهديّة عندما دخلها عبد المؤمن بن علي لم تكن بمثل هذه الصورة، حيث كان القتال دائراً بين الفرنج والموحدين أثناء حصار الموحدين للمهديّة، وكانت الضحايا تسقط من كلا الجانبين وهذا شأن الحرب وسننها، وعندما طلب الفرنج الأمان لتسليم المدينة أعطاهم عبد المؤمن الأمان، وعرض عليهم الإسلام، وعندما لم يقبلوا وأصروا على الأمان أمّنهم، و أرسلهم على متن السفن إلى بلادهم، وهذا يسوقه ابن الأثير في أحداث سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م كما روى: "... ويؤس أهل المهديّة حينئذٍ من النجدة، وصبروا على الحصار ستة أشهر إلى آخر شهر ذي الحجة من السنة، فنزل حينئذٍ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة، وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم، وأموالهم، ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم، وكان قوتهم قد فني حتى أكلوا الخيل، فعرض عليهم الإسلام، ودعاهم إليه فلم يجيبوا، ولم يزلوا يترددون إليه أياماً بالكلام اللين فأجابهم إلى ذلك، وأمّنهم، وأعطاهم سفناً فركبوا فيها، وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم، ولم يصل منهم إلى صقلية إلا نفر اليسير" ^(٢)، أما المصادر المغربية الإسلامية مثل البيدق، وعبد الواحد المراكشي، وابن خلدون، فقد اتفقت على أن المهديّة فتحت صلحاً، وأُعطى أهلها الأمان، في حين يذكر أحد المؤرخين الغربيين ويدعى كولفان في كتابه المُعرَّب " الموحدون وأزمات المجتمع" بترجمة الدكتور

(١) جويتين: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ٢٢٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩ ص ٤٣٠.

محمد المغراوي بأن أعمال الموحدين العنيفة ضد اليهود كان سببها وقوف اليهود إلى جانب المرابطين في صراعهم ضد الموحدون، فيقول في ذلك: "إنّ الموحدين انتقموا من اليهود بسبب ولائهم للمرابطين، وخيروهم بين الإسلام أو الموت، وهكذا قضي على جماعات يهودية بتلمسان، ومكناسة، وفاس، وسبتة، ومراكش، وسجلماسة، ولم تعد موجودة، وكثيراً من اليهود اعتنقوا الإسلام كرهاً" (١)، وذكر المؤرخ الآخر روجر لي تورنو ROGER LE TOURNEAU أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة إكس-إن - بروفانس (AIX-EN-PROVENCE) الفرنسية في كتابه " حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر " الذي عرّبه الدكتور أمين توفيق الطيبي بأنّ " اليهود الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام رسمياً، ثم اشتبه أنهم يمارسون ديانتهم سراً، أُجبروا على ارتداء أزياء خاصة تبعث نوعاً ما على الاستهزاء لكي يسهل على المسلمين تمييزهم" (٢)، وهذه الكتابات فيها كثيراً من مظاهر المبالغة والتهويل، وتحتاج إلى التدقيق والتحريص لا سيما الحقبة التي تسلم فيها عبد المؤمن بن علي زعامة الموحدين، إذ أن ابن عذاري المراكشي وهو عمادة التاريخ الموحي قد أشار إلى أن اليهود قد كانوا يتشابهون بزيمهم في اللباس مع المسلمين وليس هناك ما يميزهم، فيقول إن اليهود في العصر الموحي " كانوا قد علوا على زي المسلمين، وتشبهوا في ملابسهم بعليتهم، وشاركوا الناس في الظاهر من أحوالهم، فلا يُمَيِّزُونَ من عباد الله المؤمنين" (٣) .

على أن حادثة التمييز في اللباس لم تقع إلا في زمن الخليفة المنصور الموحي، وأراد المنصور أن يجعل لليهود ما يميزون فيه عن المسلمين، والمصادر الرئيسية التي تحدثت عن تمييز اليهود عن غيرهم باللباس هما عبد الواحد المراكشي وابن عذاري المراكشي، وعبد الواحد كان صاحب الرواية الأكثر تفصيلاً، وأخذت بقية المصادر هذه الحادثة عن عبد الواحد المراكشي الذي ذكرها في أواخر أيام المنصور بقوله: " وفي آخر أيام أبي يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك ثياب كحلية، وأكمام مفردة السعة

(١) المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، ص ١١٨.

(٢) تورنو، روجر لي: حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٢م، ص ٨٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٢٢٨.

تصل إلى قريب من أقدامهم، وبدلاً من العمام كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع ^(١) تبلغ إلى تحت آذانهم، فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب ^(٢)، وقد حمل المنصور على إقدامه لمثل هذا العمل هو من أجل تمييزهم عن غيرهم من الناس، وهذا دليل إضافي على أن اليهود لم يتعرضوا للتمييز باللباس حتى أواخر أيام المنصور، حيث أقدم المنصور على تمييز اليهود من أجل معرفتهم من بين المسلمين، والشيء الآخر هو تشكيك الزعماء الموحدون في ولاء اليهود الذين أعلنوا إسلامهم، ومارسوا الشعائر الإسلامية كالصلاة وغيرها، خاصة أن معركة الأرك التي انتصر فيها كان قسماً من المرتزقة اليهود إلى جانب القوات المسيحية، بالإضافة إلى التجار اليهود الذين قدموا مع ألفونسو لشراء أسرى المسلمين كما مر ذلك سابقاً، وقال فيهم المنصور قوله المشهور: "... ولو صح عندي إسلامهم لتركتم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم، وسبيت ذراريهم، وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين، ولكنني متردد في أمرهم" ^(٣).

إلا أن هذا الزي الذي لبسه اليهود لم يستمر طويلاً فقط أشهراً معدودة بسبب وفاة الخليفة المنصور، وقيام اليهود في بداية حكم ابنه الناصر بالتشفع عنده، والتوسل إليه مراراً وتكراراً حتى غير الخليفة الناصر زيهم، فأصبح لباسهم العمام الصفرة والثياب الصفرة، وظلوا يعرفون بهذا الزي طيلة عصر الموحدين.

وإذا أراد المرء أن يطرح تساؤلاً أخيراً من خلال عرض جميع الكتابات السابقة التي بينت بعض الجوانب الإيجابية، وأخرى السلبية حول الوضع العام لليهود في إطار دولة الموحدين وهو: ألم يكن هناك أي دور لليهود في دولة الموحدين؟ أم كانوا مجرد جماعة تخضع للحكم العسكري الموحي وليس لها حول ولا قوة؟

(١) البراديع جمع بردعة، والبردعة هي البساط أو السرج أو الحلس الذي يوضع على ظهر الحمار أو البغل ليركب عليه، وهي كالسرج للفرس؛ البستاني، بطرس: قاموس محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٣٤.

(٢) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣٠٤.

(٣) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ص ٣٠٥.

إذا عدنا للوراء قليلاً عندما ذكر الطالب أبرز المدن الموحدية التي عاش فيها جماعات كبيرة لا يستهان فيها من اليهود مثل فاس، وسجلماسة، وتلمسان، وبعض المدن الأندلسية مثل ألمرية وغرناطة، فإنَّ المرء يجد أنَّ هؤلاء قد برعوا بحرفة التجارة التي حققوا من خلالها أرباحاً طائلة، وقد تحدثت المصادر الإسلامية عن الثروات التي امتلكها التجار اليهود خاصة تجار سجلماسة، وفاس، ومارسوا درواً كبيراً في النشاط التجاري داخل المدن المغربية وخارجها مع البلدان المشرقية مثل الشام، ومصر، وعدن، والهند، وهذا ماذكرته وثائق الجنيزة، وقد كان للتجار اليهود اليد الطولى في المعاملات التجارية الموحدية، وعمل التجار اليهود كوسطاء، وكان لهم سيطرة واضحة على طرق التجارة عبر الصحراء مثل تجارة الصحراء في سجلماسة، والقوافل التجارية القادمة من الشرق إلى البلدان الأوروبية وغيرها من المناطق النائية، كما كان للتجار اليهود دوراً كبيراً في تجارة سبته الإسلامية مع مرسيليا، بكون التجار اليهود تربطهم علاقات وطيدة مع أبناء ديانتهم في مناطق واسعة الامتداد من حوض المتوسط، لذلك كان التجار اليهود ضامنين لتجارة مرسيليا أسواقاً داخلية ضخمة داخل البلاد، وكان هؤلاء التجار أيضاً يقومون بسفريات من سبته إلى خارجها لصالح تجار كبار محليين^(١)، ووصل هؤلاء إلى مناصب رفيعة في الدولة الموحدية خاصة في عهد الخلفاء الموحدين المتأخرين، ففي عهد الخليفة الموحدي السعيد (٦٤٠-٦٤٦هـ / ١٢٤٢-١٢٤٨م)^(٢) مثلاً كان خازن المال عنده يهودي يدعى ابن شلوخا، وسمح في عهد الخليفة السعيد لليهود بالانتقال من سجلماسة إلى المدن الداخلة تحت حكم الملك الأراغوني خايمي الثاني الذي بعث إليهم برسالة منه عام ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م يسمح لهم بالاستقرار في المدن الواقعة تحت سلطته مثل ميورقة، وبلنسية، وبرشلونة، محاولاً في ذلك استقطابهم إليه، وكسب تحويل خط تجارة سجلماسة

(١) الشريف، محمد: سبته الإسلامية، ص ٩٦.

(٢) وهو علي بن إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي، ولقبه السعيد وكنيته أبا الحسن، بويح بالخلافة بعد وفاة أخيه الرشيد بحضرة مراكش يوم الجمعة عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٣م، وفي عصره ملك بنو مرين جميع البوادي الغربية من أرض المغرب، وكانت الحرب سجلاً معهم؛ ابن أبي زرع: الأئیس المطرب، ص ٢٥٦.

إليه ^(١)، كما كان أكبر التجار الذين قدموا على المغرب في العهد الموحي من اليهود وهما المصرفيان ستابليس STABLIS، والآخر بلانتاريديس BLANTARIDS وهما من يهود جنوة ^(٢)، بالإضافة إلى التجارة مارست جماعات يهودية أخرى حرفاً لا تقل في أهميتها عن التجارة مثل مهنة الصياغة والصرافة، وهي مهنة مكملة للتجارة وتدر أرباحاً عظيمة، وقد برع اليهود فيها، بالإضافة إلى صناعة المنسوجات الحريرية، ونسجها وإعادة غزلها، وتصنيع الأواني الزجاجية الفاخرة وزخرفة المعادن والصباغة ودباغة الجلود ^(٣) وتجارة شمع العسل الذي كان حكرًا على التجار اليهود في المغرب ^(٤)، كما امتلك اليهود الأراضي الزراعية وأصبحوا مزارعين من الطراز الأول، وزرعوا الكروم والحناء والقطن، وقاموا بتصديره إلى بلدان العالم، ولذلك كان لهم مساعدة كبيرة في تطوير الاقتصاد العام المحلي ضمن أراضي الدولة الموحدية، وكانت صناعة الأدوية من أكثر المهن التي اشتغل بها اليهود، ونبغوا في الطب حتى كاد أن يكون حكرًا عليهم، وحضروا الأعشاب والعقاقير الطبية ^(٥)، ولذلك يمكن أن يقول المرء إنَّ قسماً من الجماعات اليهودية قد عاش برخاء وبحبوة من رغد العيش، في ظل الأمان الذي كان ينعم فيه هؤلاء باعتبارهم رعايا تحت حكم الدولة الإسلامية.

ومما سبق نستنتج مايلي:

- ١- عاش اليهود في ظل دولة الموحدين كـرعايا مثلهم مثل باقي المجتمعات التي تكون منها النسيج الاجتماعي في بلاد المغرب والأندلس.
- ٢- كان امتداد الجماعات اليهودية واسعاً ضمن أراضي الإمبراطورية الموحدية في بلاد المغرب والأندلس بشكل خاص، بالإضافة إلى انتشارهم الكبير في مناطق كثيرة في الحوض الشرقي والغربي للبحر المتوسط.

(١) المغراوي، محمد: الموحدون وأزمات المجتمع، ص ١٣٦.

(٢) الطيبي: دراسات وبحوث، ج ٢ ص ١٤٨.

(٣) بشير، عبد الرحمن: اليهود في المغرب العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط ١، ٢٠٠١م، ص ٩٠-٩٦.

(٤) الزعفراني: يهود الأندلس والمغرب، ج ٢ ص ٣٩١-٣٩٣؛

(٥) بشير، عبد الرحمن: اليهود في المغرب العربي، ص ٩٨.

٣- كانت العلاقات وثيقة بين الجماعات اليهودية في الجانب الشرقي أو الغربي للبحر المتوسط مثل يهود بغداد وفاس والقيروان واليمن والهند، وقد أثبتت وثائق الجنيزة متانة هذه العلاقات.

٤- تمتع اليهود بحقوق الرعايا مثلهم مثل المسيحيين من أهل الذمة الذين تواجدوا في بلاد المغرب والأندلس، إلاَّ أنَّ الظروف السياسية والعسكرية التي مرت فيها أطوار الدولة الموحدية كانت تقضي في بعض الأوقات حالات من التوتر والقلق وانتشار الفوضى والاضطراب، وهذا لم يكن بوتيرة مستمرة طيلة العصر الموحيدي، وكان الخلفاء الموحدين ملتزمين بمعاملة أهل الذمة وفق تعاليم الدين الإسلامي، إلاَّ أنَّهم اختلفوا في أساليبهم، فالبعض منهم كان حازماً اتجاه أهل الذمة من اليهود مثل عبد المؤمن بن علي والمنصور، ومنهم كان متسامحاً مثل يوسف بن عبد المؤمن وجميع خلفاء الموحدين المتأخرين منذ عهد الخليفة الناصر حتى انهيار دولة الموحدين.

٥- لم تكن المصادر التي ذكرت معاملة الخلفاء الموحدين لأهل الذمة على القدر الكافي أو حتى القريب من الإنصاف، ويعود ذلك إما للنظرة الأحادية الجانب للمصادر الغربية التي وصفت الخلفاء الموحدين بالمضطهدين والمنكِّلين للجماعات اليهودية في جميع الأراضي الموحدية، أو للنظرة العابرة التي افتقرت إلى التحليل والتعليل مع تقديم البراهين والحجج بالنسبة للمصادر الإسلامية كما هو الحال عند ابن تغري بردي مثلاً، ويقود هذا إلى الاستنتاج اللاحق.

٦- إنَّ المصادر المغربية مثل ابن صاحب الصلاة وابن عذاري المراكشي بحكم القرب الزماني والمكاني من دولة الموحدين كانت أقرب إلى إعطاء التقديرات التي يجدها الطالب موائمة للسياسات التي انتهجها الخلفاء الموحدون اتجاه العناصر الغير إسلامية في دولتهم، مع الأخذ بالحسبان بأن هذه المصادر قد ذكرت حالات من التوتر والاستياء التي شهدتها الجماعات اليهودية في حقبات زمنية لم تستمر طويلاً، كما هو الحال عند ابن عذاري المراكشي في سياسة عبد المؤمن والمنصور مع أهل الذمة من اليهود.

٧- لم يكن المجتمع اليهودي في الإمبراطورية الموحدية مجتمعاً معزولاً ومنغلقاً على نفسه اتجاه المجتمعات الإسلامية الأخرى، بل على العكس من ذلك، فقد كان هناك كم كبير من الأنشطة، والعلاقات التجارية والاجتماعية، بين الطوائف المختلفة التي شكلت نسيج المجتمع الموحد، وكان اليهود من كبار التجار والملاكين في الحواضر الموحدية الكبرى مثل فاس، وسجلماسة، وتلمسان، وغيرها، أضف إلى ذلك بزوغ بعض الجماعات اليهودية بالأنشطة الاقتصادية والزراعية والصناعية وكذلك الطبية واحتكار أصنافاً من الصناعات في أيديهم مثل صناعة العقاقير الطبية ودباغة الجلود كما مر سابقاً، وعلى رأس هذه الأعمال الصياغة والصرافة وهي من أكثر المهن التي أتقنتها الجماعات اليهودية على بقية المجتمعات الأخرى.

سابعاً - الخاتمة

لقد كان الحوض الغربي للبحر المتوسط من أشهر المناطق الاستراتيجية ذات الامتداد الجغرافي المتميز لجميع البلدان المطلة عليه، كما كان النشاط السياسي والتجاري المتبادل بين بلدانه من أبرز سمات القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين في الحوض الغربي للمتوسط، ولذلك كان هذا البحث والمعنون بـ "مغرب البحر المتوسط في العصر الموحدى" يمتلك طابعاً خاصاً به قد ميزه عن غيره من الأبحاث الأخرى، وكانت أبرز النقاط التي خلص إليها البحث وهي:

١- كان الموقع الجغرافي للحوض الغربي للبحر المتوسط من أهم العوامل التي ساعدت شعوب مجتمعاته على أن تكون السبّاقة والرائدة في الإبحار في مياهه والاستفادة منه في عالم البحار بشكل عام، وتجلّى ذلك في صناعة السفن بشتى أنواعها والأنشطة البحرية كالنقل التجاري وتجهيز الأساطيل العسكرية وتأمين كافة مستلزماتها، وكانت مدن الجمهوريات الإيطالية مثل جنوة وبيزة والبندقية من أكثر الشعوب التي استفادت كثيراً بحكم موقعها الجغرافي في تطوير نشاطها البحري في مغرب المتوسط ومشرقه.

٢- كانت القرصنة البحرية أحد جوانب النشاط البحري الذي تميز بصورة واضحة في الحوض الغربي للمتوسط مقارنة على الحوض الشرقي له، حيث كانت القرصنة البحرية متعددة الوجوه بالنسبة لضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية، فكانت القرصنة تمثل أحد جوانب الجهاد البحري عندما يتعلق الموضوع بالاعتداء على الممتلكات والأشخاص، وكانت من جانب آخر تشكل أحد مصادر الدخل الاقتصادي لبعض البلدان عندما يكون جلب الأسرى والمنهوبات والأموال هو المحرك الرئيسي لها، وظلت القرصنة متواجدة في العصور الوسطى على الرغم من الاتفاقيات والمعاهدات بين ملوك وحكام الدول الإسلامية والمسيحية على حد سواء في مكافحة القرصنة ونجحوا في أفضل الأحيان في الحد منها وليس القضاء عليها بصورة تامة.

٣- استطاع الموحدون تأسيس دولة قوية تمكنت من توحيد بلاد المغرب والاندلس في جبهة واحدة بعد القضاء على دولة المرابطين، وقد أسهمت القوة

الجديدة للموحدين في النجاح إلى حد كبير في إيقاف الزحف والضغط الأوروبي على بلاد الأندلس تحت شعار حروب الاسترداد.

٤- أسهم الخلفاء الموحدون الأوائل أمثال عبد المؤمن وأبناءه إسهاماً فعالاً في تحسين القوة البحرية العربية الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس، وبنوا دوراً كبيرة لصناعة السفن في بعض المدن والموانئ المغربية والأندلسية الساحلية، مما أكسبهم جانباً مرهوباً لدى الممالك المسيحية الإسبانية وغيرها مثل قشتالة والبرتغال وأراغون، لاسيما الانتصارات التي حققها الموحدون في البر والبحر التي دفعت ببعض ملوكهم إلى طلب ود الخلفاء الموحدين وإقامة السلام والاتفاقيات معهم.

٥- لم تكن استراتيجية الخلفاء الموحدين تصبُ دائماً في الاتجاه الإيجابي لصالح الفتوحات العسكرية خاصة في الأندلس، بل كانت أحياناً لها أثراً سلبية مثل معركة العقاب التي كان أحد أهم أسباب إخفاق المسلمين هو سوء تدبير القادة الموحدين، وكان وقعها شديداً على المسلمين في المغرب والأندلس، والصحيح أن دولة الموحدين لم تسقط مباشرة بعد معركة العقاب واستمرت بعد ذلك زمناً لا يستهان بطوله، لكنها لم تقم بأية أنشطة سياسية تذكر، وأصبحت التفرقة والصراعات هي الشغل الشاغل للقادة والخلفاء الموحدين من أجل العرش، مرتكبين بذلك أكبر الأخطاء التي جرت الولايات خاصة على بلاد الأندلس، حيث سقطت أكبر معاقل الإسلام في الأندلس مثل إشبيلية وقرطبة، وكادت أن تسقط الأندلس برمتها في قبضة الإسبان، واقتصرت الوجود العربي الإسلامي في الأندلس على غرناطة وماحولها تحت حكم بني الأحمر كما هو معروف.

٦- والنقطة المكملة لسابقتها هي أن الموحدين قد قاموا بالاستنزاف الكبير للقوة العربية الإسلامية في المغرب أولاً والأندلس ثانياً بسبب الصراع المرير مع القوى العربية الإسلامية آنذاك، والمقصود فيهم المرابطين في البداية، وملوك بني غانية لاحقاً، وأفضى النزاع إلى الانقسام والتفرقة بدلاً من توحيد الصفوف في مواجهة الزحف الأوروبي المتكالب على ديار الإسلام، والنقطة الأخرى وهي لا تقل عن سابقتها تأثيراً وهي الصراع الطويل والمرير مع بني غانية حكام جزر البليار، الذي استنفذ كثيراً من الموارد والطاقات وأزهق الأرواح، ولم يتمكن الموحدون من القضاء نهائياً على بني غانية إلا زمن الخليفة الناصر، وأدخل فتح جزر البليار

وانتزاعها من بني غانية متاعب كثيرة كانت سبباً في سقوطها سريعاً في يد مملكة أراغون، ثم كانت سبباً من أسباب نكسة معركة العقاب لاحقاً.

٧- كانت دولة الموحدين دولة ديوانية بامتياز تعتمد اعتماداً كبيراً على فنون السياسية والمراسلات السياسية كالمعاهدات، والرسائل، من أجل تحقيق مصالحها وغاياتها، وعلى الرغم من معارضة الكنيسة مدن الجهوريات الإيطالية للاتجار مع بلاد المسلمين، لم تأخذ تلك الجمهوريات قرار المنع هذا على محمل الجد، ورأت بأن مصالحها تفوق كل اعتبار، وكانت الوفود متبادلة بين دولة الموحدين وملوك الدول والممالك المسيحية، لذلك يمكن اعتبار الرسائل الموحدية أحد أهم الميزات التي امتازت فيها دولة الموحدين عن غيرها.

٨- كما أنه لا بد أن يكون المرء منصفاً اتجاه دولة الموحدين في إبراز الجانب الذي جسدوا فيه حملة لواء الإسلام، وحماته المدافعين عن بلاده وأراضيه، خاصة مع الجبهة المتقدمة مع ممالك إسبانيا المسيحية مثل قشتالة، وليون، والبرتغال وغيرها، وقد أثبت الجيش الموحي بتنظيماته قدرة ومهارة كبيرة كانت واضحة في ساحة المعارك خاصة زمن الخلفاء الموحدين الأوائل، ونتيجة لتلك الجهود وضع الموحدون حداً للهجمات الإسبانية المدفوعة بشعار حروب الاسترداد، مما أدى إلى انتعاش الحركة الاقتصادية والتجارية والعمرانية، وكانت الناحية العمرانية من أشهر المعالم الواضحة التي تميزت فيها الدولة الموحدية عن غيرها من دول المغرب ما تزال آثارها قائمة حتى الوقت الحاضر.

٩- كما كان للقوة البحرية (الأسطول الموحي) دوراً كبيراً في إتمام الفتوحات العسكرية وحماية المدن الساحلية من الاعتداءات الخارجية عليها، وخير دليل على ذلك نجاح الأسطول الموحي في فرض الحصار على المهديّة عندما احتلها النورمانديون، إذ استطاع الأسطول الموحي قطع خط الإمداد الخاص بالمهديّة القادم عبر البحر من صقلية، وكانت النتيجة نجاحهم في استرجاع المدينة من قبضة النورمانديين عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، كما كان للأسطول الموحي دوراً لا يستهان فيه أمام دول الحوض الغربي للبحر المتوسط لاسيما مدن الجمهوريات الإيطالية وتجلّى هذا الدور في الحد من النشاط الحربي لهذه المدن خاصة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وكما هو معلوم فقد كانت الحروب والحملات الصليبية على أرض الشام لا تتوقف، وكان عهد الدولة الموحدية يتزامن مع قوة

الأيوبيين في مصر والشام، وكانت أخبار قوة الأسطول الموحي منتشرة في بلاد المشرق الإسلامي، مما دفع بالسلطان صلاح الدين إلى إرسال أكثر من سفارة إلى الخليفة الموحي المنصور من أجل تزويده بأجزاء من قطع الأسطول للوقوف في وجه الحملات والإمدادات الصليبية إلى سواحل الشام.

١٠- كانت الجماعات اليهودية في ظل الحكم الموحي تشكل قوة اقتصادية لا يستهان في شأنها داخل المجتمع الموحي، على الرغم من أن المصادر التاريخية قد ذكرت بأن اليهود قد تعرضوا للضغوطات والتمييز في لباسهم عن بقية عناصر المجتمع، ولم تخل المدن الموحية الكبرى من وجودهم وكانت الطبقة الثرية في بعض المدن الموحية الكبرى تتضمن التجار اليهود، وكانت المجتمعات اليهودية تمارس مختلف الأنشطة الزراعية والصناعية والتجارية والمهن المختلفة كالصرافة مثلاً إذ كان معظم الصيارفة وكبارهم من اليهود، وهذا بدوره يقود إلى أن المجتمعات اليهودية عاشت بكامل حقوقها وأمنها في ظل الحكم الإسلامي في العصر الموحي شأنها شأن الطوائف الأخرى التي تكونت منها فئات المجتمع في ذلك الزمان.

وفي ختام الموضوع لا بد من الإشارة بأنه لا بد أن يتوفر في المستقبل أبحاثاً جديدة وجهوداً جديدة حول المنطقة الغربية من حوض المتوسط، سواء أكانت هذه الأبحاث على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الحضاري، ودراسة النشاط الصليبي لدول البحر المتوسط في ضوء العلاقات العربية الإسلامية لدول المغرب والأندلس مع الإمارات والممالك المسيحية، كما يجدر بالمرء أن يتوجه إلى العلاقات المغربية الإيطالية وهي مادة خصبة، مازال هناك الكثير من الأبحاث يمكن أن تنير أفق المستقبل، وتعطي صورة أوضح للمعالم من كلا الجانبين عن ذلك العصر، ومن هنا تتبع أهمية تلك الأبحاث والدراسات حول الحوض الغربي للمتوسط بكل فاعلياته في العصور الوسطى، وسيكون ذلك إن شاء الله منطلقاً للأعمال المستقبلية التي سيتابع المرء حديثه عنها، والله خير المستعان وهو أرحم الراحمين.

ثامناً-الملاحق

١. رسالة حول هزيمة الموحدين لابن مردنيش

الرسالة الثانية عشرة :

رسالة عن السيد أبي حفص وأبي سعيد حول هزيمة ابن مردنيش في موقعة الجلاب وانحصاره داخل مرسية

تقديم :

عندما بدأت السيادة الموحدية تتسرب الى الاندلس كانت بلاد الشرق منها تحت سلطة محمد بن سعد ابن مردنيش وقد فشل عبد المومن في استمالة الى طاعته سنة 548⁽¹⁾، بل استغل ابن مردنيش وصهره حليفه ابن همشك انشغال عبد المومن بفتح افريقية فاشتدت منهما الضغوط على قرطبة واشبيلية⁽²⁾، ومنذ نهاية فتح افريقية أخذت الامدادات تقوى الى الاندلس من الموحدين والعرب، فأخذت وضعية ابن مردنيش تسوء تدريجياً وخاصة منذ اصطدامه مع الجيوش الموحدية في ذي الحجة 560 بفحص «الجلاب» بين مرسية ولورقة وتراجعته الى مرسية حيث ابتدأ الموحدون حصاره بها، وعندئذ وجه المشرفان على هذه الحملة السيدان ابو حفص وابو سعيد ولدا الخليفة عبد المومن رسالة من ظاهر مرسية حول هذا الانتصار الى اشبيلية (والى الخليفة يوسف بمراكش) هذا نصها كما وردت في المن بالامامة (276 — 282 ط بيروت) وهي من انشاء ابي الحسن ابن عياش⁽³⁾.

نص الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله وسلم، من عمر وعثمان ابني امير المؤمنين الى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة باشبيلية أدام الله كرامتهم بتقواه، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد، فالحمد لله القاهر الغالب، ناصر جنده ومنجز وعده في المشارق والمغارب، والصلاة على محمد المبتعث وسيطا في ذؤابة⁽⁴⁾ لؤي بن غالب، وعلى آله وأصحابه الماشين على سنته وسنته على أوضح المسلك الواجب، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، الناهض بأمر الله تعالى 12 قياماً بالواجب للحادّ المحادّ والمجانِب، والدعاة⁽⁵⁾ لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين حامل لوائه/ والملة

عزاوي، أحمد: رسائل موحدية جديدة، ج ١ ص ٨٩.

٢. رسالتان من السلطان صلاح الدين للخليفة المنصور

الرسالتان 38 و 39 :

رسالتان من صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة المنصور مستجدا ضد النصارى

تقديم :

تكاثرت الضغوط الأيوبي على النصارى الصليبيين منذ هزيمتهم في معركة حطين وخاصة بعد إجلائهم عن بيت المقدس سنة 583، وتوقع هؤلاء في بعض المدن الساحلية حيث كانت الامدادات تصلهم من اوربا وخاصة من البحر، ونظرا لضعف البحرية الأيوبية على عكس البحرية الموحدية استنجد صلاح الدين الأيوبي^(١) سلطان مصر والشام بالموحدين من أجل توجيه قطع من أسطولهم إلى سواحل الشام أو عرقلة تحرك أسطول صقلية الذي كان يلعب دورا مهما في الحرب الصليبية كما جاء في الرسالة التي أوردها القلقشندي في صبح الأعشى 6/ (527 — 530) من انشاء القاضي الفاضل^(٢)، وجعل تاريخها سنة 585.

ولعل صلاح الدين كرر طلبه^(٣) من أجل المساعدة بأي وسيلة من الوسائل، وذلك برسالة مؤرخة بشعبان سنة 586 حملها الأمير ابن منقذ، فاتصل بالمنصور في أواخر ذي الحجة وهو منشغل آنذاك بالغزو في الأندلس، وردت هذه الرسالة الأخيرة في كتاب الروضتين لابن شامة الدمشقي^(٤) ج 2 (171 — 173) طبعة القاهرة 1287 هـ، وهذان نصا الرسالتين :

نُتْرِكَ، وقد علم أنه يُدْرَك، وزادت هذه الحشود المتوافية، وتجاافت عنها المهم المتجافية، وكثرت إلى أن خرجت من سجن حَصْرُهَا، ومستقر كَفْرُهَا، وبقية ثَغْرُهَا — وهو صور —، فنازلت ثَغْرَ عَكَا في اسطول مَلِك بَحْرِهِ، وجمع سَلَكُ بَرْهِ⁽⁹⁾؛ فنهضنا إليه، ونزلنا عليهم وعليه، فضرب معنا مصاف قَتَلَتْ فيها فرسانه، وجدَلَتْ شجعانه، ونَحَذَلَتْ صلبانه، وساوى الضربُ بين حاسِرِ القوم ودراعيهم، وبرز الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم؛ فهناك لاذوا بالخناذق يحفرونها، وإلى الستائر ينصبونها، وأخلدوا إلى الأرض متناقلين، وحملوا أنفسهم على الموت متحاملين، وظاهروا بين الخناذق، وراحوا بين المجانق، وكلما يُجَنُّ القتل من عددهم مائة أَوْصَلَهَا البحر ممن يصل وراءه بألف، وكلما قَلَوْا في عيننا في زحف قد كَثُرُوا فيما يليه من الزحف؛ ولو أن دُرْبَةَ عساكرنا في البحر كدُرْبَتها في البر لعَجَّلَ اللهُ منهم الانتصاف⁽¹⁰⁾، واستقل واحدنا بالعشرة ومائتنا بالألف.

وقد اشتهر خروج ملوك الكفار⁽¹¹⁾ في الجمع الجَمِّ والعدد الدهم، «كأنهم إلى نصب يوفضون»⁽¹²⁾، وعلى نار يُعْرَضُونَ؛ ووصلهم على جهة القسطنطينية — يسر الله فتحها — على عزم الائتام إلى الشام في متسلخ الشتاء ومستهل الصيف، والعساكر الإسلامية لهم تستقبل، وإلى حربهم تنتقل، فلا يؤمن على ثغور المسلمين أن يتطرق العدو إليهم واليها، ويُفَرِّغَ لها ويتسلط عليها، «والله من ورائهم محيط»⁽¹³⁾، وإذا قسمت القوة على تلقي القادم وتوقي المقيم، فربما أضر بالاسلام انقسامها، وتَلَمَّه والعياذ بالله انثلامها.

ولما مَخَضَ النظر زبده، وأعطى الرأي حقيقة ما عنده، لم نر لمكاثرة البحر إلا بحرا من أساطيله المنصورة، فإن عددها وإف وشطرها كاف، ويمكنه — ادام الله تمكينه — أن يمد الشام منه بعد كثيف، وحَدَّ رهيف، ويعهد إلى واليه أن يقيم إلى أن يرتع ويصيف، ويمكنه أن يكف شطرا لأسطول طاغية صَقْلِيَّة ليحصن جناح قلوعه أن تطير، ويعقل عباب بحره أن يغير، ويعتقله في جزيرته، ويجري إليه قبل جريته⁽¹⁴⁾ فيذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا تُرَدُّ به المحامد على عقبها، ويقيم على الكفر

ماجر من دم الحمر وما ص يظهرها البحر المحيط، فهناك علب الترت والعنب صاعرا، واستجاس كافر من أهله كافرا، واستغضب أنفاره النافرة، واستصرخ نصرانيته المتناصرة؛ وتظاهروا علينا وأن الله مولانا، وطاروا إلينا زرافات ووحدانا؛ فلم يبق طاغية من طواغيبهم، ولا أئفية من أئافيتهم؛ إلا أجم وأسرج، وأجلب وأرهج، وأخرج وأخرج، وجاد بنفسه أو بولده، وبعده وبعده، وبذات صدره وبذات يده، وبكتائبه برا، وبمراكبه بحرا، وبالأقوات للخيال والرجال، والأسلحة والجُنَّ لليمين والشمال، وبالنقدين على اختلاف صنفيهما في الجمع، والائلاف وصنفيهما في النفع، وأنهن أبطال الباطل، من فارس وراجل، ورايح ونابل، وحاف وناعل، ومواقف ومقاتل، كل خرج متطوعا، وأهطع مسرعا، وأتى متبرعا، ودعا نفسه قبل أن يُسْتَدْعَى، وسعى إلى حتفها قبل أن يُسْتَسْعَى، حتى ظننا أن في البحر طريقا ييسا، وحتى تيقنا أن ما وراء البحر قد خلا وعسا⁽⁸⁾، وقلنا كيف

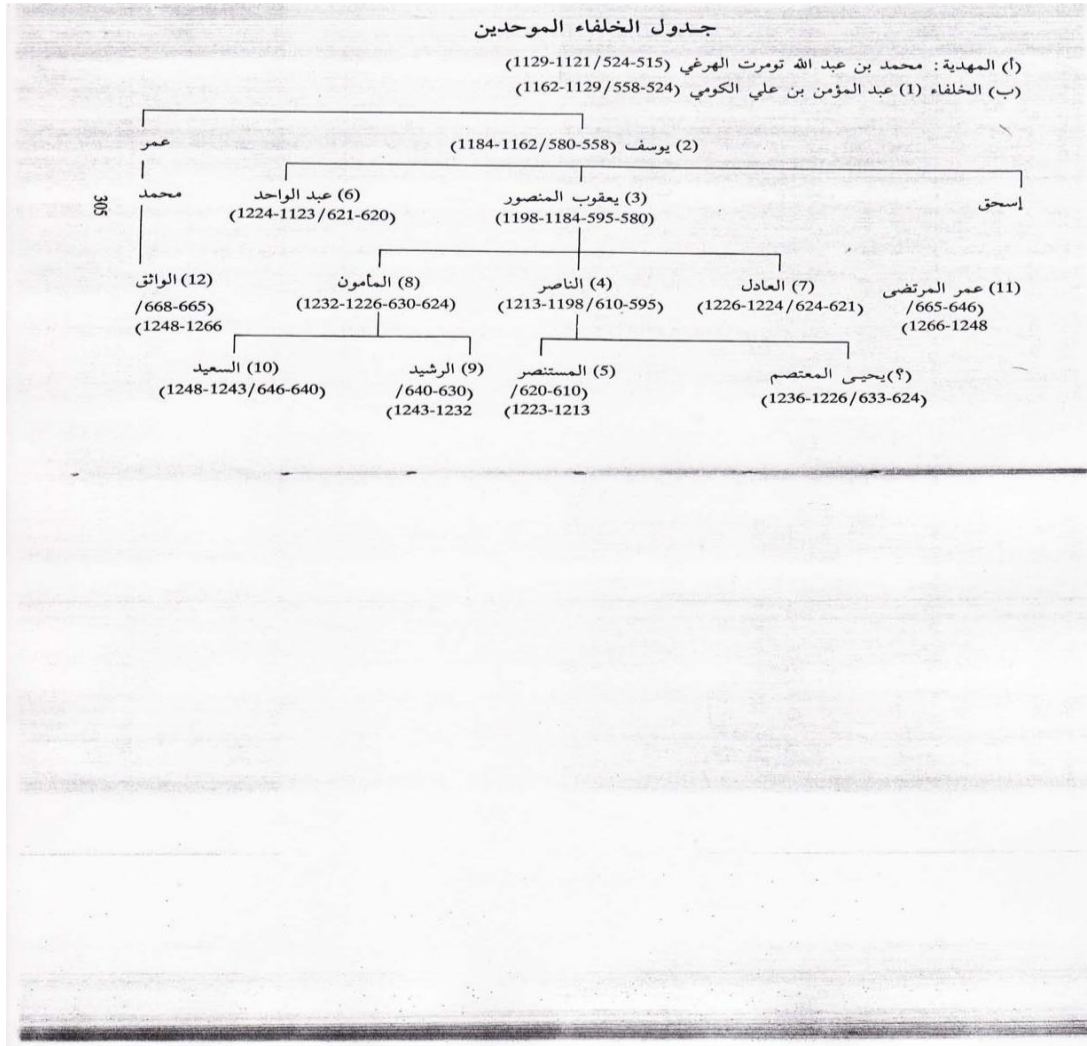
قيامه يُطلع بها شمس النصر من مغربها ؛ فاذا نفذ طريقه وعلم الناس بموفده، اورثوا واصدروا في مورده، وشخص المسلم والكافر : هذا ينتظر بشرى البدار، وهذا يستطلع لمن تكون عقبى الدار، وخاف وطأة من يصل من رجال الماء من وصل من رجال النار ؛ ولو يزقت عليه بازقة غريبة لأغرقهم طوفانها، ولو طلعت عليهم جارية بحرية لنعقت فيهم بالشتات غربانها⁽¹⁵⁾.

وما رأينا اهلا لهذه العزمة الا حضرة سيدنا ادام الله صدق محبة الخير فيه، اذ كان منحه عادة في الرضى به وقدرة على الاجابة، ورغبة في الانابة، ولاية لأمر المسلمين⁽¹⁶⁾، ورئاسة للدنيا والدين، وقياما لسلطان التوحيد القائم بالموحدين، وغضبا لله ولدينه، وبذلا لمذخوره في الذب عنه دون ما عوده ؛ والآن فقد خلا الاسلام بملائكته لما خلا الكفر بشياطينه، وما أُجِلَّت السوابق الا لإطلاقها، ولا أثَلَّت الذخائر الا لإنفاقها ؛ وقد استشرف المسلمون طلوعها من جهته المحروسة جارا من الاساطيل تغشى البحار، وليالي من المراكب تركب من البحر النهار ؛ واذا خفقت قلوبها خفقت للقلع قلوب، واذا تجافت جنوبها عن الموج تجافت من الملاعين جنوب، فهي بين ثغر كفر تعتقله وتحصره، وبين ثغر اسلام تفرج عنه وتنصره، يكون بها مصائب عند المسلمين⁽¹⁷⁾! وتظل قلائد المشركين لغربان بحره طرائد⁽¹⁸⁾، ويمضي سيف الله الذي لا يعدم في كل زمان فيعلم معه ان سيف الله خالد ؛ أعز الله الاسلام بما يزيد حضرة سيدنا من عزها، فيما مدّ عليها من ظلها، وبما يسكنه من حرزها فيما ييسط على الاعداء بها من بأسها، وينزل بهم من رجزها، وبما يجرده من سيوفها التي تقطع في الكفر قبل سلها وهزها

وقد أوفدناه على باب حضرة سيدنا، وهو الداعي المسميع، والمبلغ المقنع، والمجيع المستجيع، علمناه أمرا يسرا، وبأنه الصدر فكان وجهاً، وأودعناه السر فكان صدراً...

عزاوي، أحمد: مجموعة رسائل موحدية جديدة، ج ١ ص ١٨٢-١٨٥.

٣. رسم توضيحي يبين شجرة أسماء الخلفاء الموحدين



موسى، عز الدين عمر: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص ٣٠٥.

٤. خريطة توضح نشاط العرب المسلمين في الحوض الغربي للمتوسط



الشكل (١٢) خريطة توضح نشاط المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط من منتصف القرن الرابع وحتى القرن السابع الهجري/العاشر وحتى الثالث عشر الميلادي.

مؤنسن، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٢٨٣.

٥. جدول لتعريف الرموز والاختصارات والدلالات الزمنية والقياسية:

جدول يوضح الرموز المختصرة

الرمز المستخدم	تعريف الرمز
تح	تحقيق
تص	تصحيح
تر	ترجمة

جدول يبين الدلالات الزمنية

الحُقبة	ثمانون سنة أو أكثر
المدة	هي فترة زمنية محددة
الفترة	المدة التي تقع بين زمنين
العصر	هو فترة من الزمن خاصة بدولة أو أمة
العهد	

جدول يبين دلالات المسافة والأطوال

الفرسخ	مايعادل عشرة آلاف ذراع أو أكثر
الميل	ألف وستمائة متر
مرحلة	وتساوي مسيرة يوم واحد

تاسعاً _ قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- المصادر
- ابن الأثير، محمد بن عبد الله ت. ٦٥٨هـ/١٢٦٠م:
 - ١-التكملة لكتاب الصلة، تح: عبد السلام الهرّاس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م.
 - ٢-الحلة السيرة، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ابن الأثير، علي ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٣م:
 - ١-الكامل في التاريخ، تصحيح: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.
- الإدريسي، محمد بن محمد ت. ٥٦٠هـ/١١٦٥م:
 - ٢-نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
 - ٣-المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تح: محمد حاج صادق.
- ابن بشكوال، أبي القاسم ت. ٥٧٨هـ/١١٨٢م:
 - ٤-الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم وأدبائهم، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، تونس، ٢٠١٠م.
- البكري، عبد الله ت. ٤٨٧هـ/١٠٩٤م:
 - ٥-المسالك والممالك، تح: ادريان فان ليوفن، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م.
- البيهقي، أبي بكر الصنهاجي ت. ٥٥٩هـ/١١٦٤م:
 - ٦-أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧١م.

٧-المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تح: عبد الوهاب منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م.

• التطليلي، بنيامين ت. ١١٧٣هـ/١٩٥٦م:

٨- رحلته، ترجمة: عزرا حداد، تقديم: عبد الرحمن عبد الشيخ، المجمع الثقافي، ط١، أبو ظبي، ٢٠٠٢م.

• ابن تغري بردي، يوسف ت. ٨٧٤هـ/١٤٦٩م:

٩- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تح: محمد أمين وآخرون، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.

١٠- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٢م.

• ابن جبير، محمد ت. ٦١٣هـ/١٢١٧م:

١١- رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت.

• الحموي، ياقوت ت. ٦٢٦هـ/١٢٩٩م:

١٢- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت.

• ابن حوقل، أبي القاسم محمد ت. ٣٧٦هـ/٩٨٧م:

١٣- صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م.

• الحميري، محمد بن عبد المنعم ت. ٩٠٠هـ/١٤٩٤م:

١٤- الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط٢، بيروت، ١٩٨٤م.

• الحنبلي، عبد الحي بن أحمد ت. ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م:

١٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط وآخرون، ط١، بيروت، ١٩٨٦م.

• ابن خاقان، الفتح بن محمد ت. ٥٢٩هـ/١١٣٥م:

١٦- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط١، الأردن، ١٩٨٩م.

• ابن الخطيب، لسان الدين ت. ٦٨٣هـ/١٣٤٧م:

١٩- أعمال الأعلام فيمن بويح قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ت.

٢٠- الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.

• ابن خلدون، عبد الرحمن ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٥م:

٢١- العبر وديوان المبتدأ والخبر، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠١م.

• ابن خلّكان، أحمد ت. ٦٨١هـ/١٢٨٢م:

٢٢- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

• الذهبي، محمد بن أحمد ت. ٧٤٨هـ/١٣٤٧م:

٢٣-الإعلام بوفيات الأعلام، تح: مصطفى بن علي وآخرون، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

٢٤-سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٩٦م.

٢٥-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م.

• ابن أبي زرع، أحمد بن عمر ت. ٧٤١هـ/١٣٤٠م:

٢٦- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.

• السبتي، أبو القاسم محمد ت. ٧٦٠هـ/١٣٥٩م:

٢٧- رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، تح: محمد الحجوي،
وزارة الأوقاف في المملكة المغربية، ١٩٩٧م.

• سبط، ابن الجوزي ت. ١٢٥٤هـ/١٢٥٦م:

٢٨- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: عمار ريحاوي وآخرون، دار
الرسالة العالية، ط١، دمشق، ٢٠١٣م.

• ابن سعيد المغربي، علي ت. ٦٨٣هـ/١٢٨٤م:

٢٩- كتاب الجغرافية، تح: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة
والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٧٠م.

٣٠- المَغْرَب في حلَى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط٤،
القاهرة، د.ت.

• ابن سهل، أحمد ت. ق ٤هـ/١٠م:

٣١- أخبار فخ، تح: عبد المطهر حجر، مركز أهل البيت للدراسات
الإسلامية، ط١، صعدة، ٢٠٠٠م.

• أبو شامة، عبد الرحمن ت. ٦٦٥هـ/١٢٦٩٩م:

٣٢- ذيل الروضتين، تقديم: محمد زاهد، دار الجيل، ط٢، بيروت، ١٩٧٤م.

• ابن الشماخ، محمد ت. ٨٧٣هـ/١٤٦٨م:

٣٣- الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: محمد بن الطاهر
المعموري، الدار العربية للكتاب، د.م، ١٩٨٤م.

• ابن صاحب الصلاة، عبد الملك ت. ٥٩٤هـ/١١٩٧م:

٣٤- المن بالإمامة على المستضعفين، تح: عبد الهادي التازي، دار
الغرب الإسلامي، ط٣، بيروت، ١٩٨٣م.

• الصفدي، خليل بن أبيك ت. ٧٦٤هـ/١٣٦٣م:

٣٥- الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتز، دار فرانز شتايز، ط٣،
بيروت، ١٩٩١م.

- الضبّي، أحمد بن يحيى ت. ٥٩٩هـ/١٢٠٣م:
- ٣٦- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، ط١، بيروت، ١٩٨٩م.
- ابن عذاري، المراكشي ت. ٦٩٥هـ/١٢٩٦م:
- ٣٧- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تح: محمد إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٨٥م.
- عزاوي، أحمد:
- ٣٨- مجموعة رسائل موحدية جديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، القنيطرة، ٢٠٠١م.
- العسقلاني، ابن حجر ت. ٨٥٢هـ/١٤٤٨م:
- ٣٩- لسان الميزان، اعتناء: سلمان عبد الفتاح وآخرون، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م.
- العكش، إسماعيل:
- ٤٠- وثائق الجنيزا اليهودية في مصر، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٧م.
- الغبريني، أحمد بن أحمد ت. ٧١٤هـ/١٣١٤م:
- ٤١- عنوان الدّرية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت، ١٩٧٩م.
- الغرناطي أبو حامد، عبد الرحيم ت. ٥٦٥هـ/١١٧٠م:
- ٤٢- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: إسماعيل العربي، دار الآفاق الجديدة، ط١، المغرب، ١٩٩٣م.
- الغرناطي، محمد بن السمّاك ت. ٧٥٠هـ/١٣٤٩م:
- ٤٣- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار وآخرون، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م.

- أبو الفداء، إسماعيل بن محمد ت. ٧٣٢هـ/١٣٣٢م:
 - ٤٤- تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم ت. ٦٦٢هـ/١٢٦٤م:
 - ٤٥- تاريخ الدول والملوك تح: قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٦م.
- ابن فرحون ت. ٧٩٩هـ/١٣٩٧م:
 - ٤٦- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدى، دار التراث للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- ابن القطان، حسن بن عبد الملك ت. ٦٢٨هـ/١٢٣١م:
 - ٤٧- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط٢، تطوان، ١٩٨٥م.
- ابن فندق، علي ت. ٥٦٥هـ/١١٧٠م:
 - ٤٨- لباب الأنساب والألقاب والأعقاب، تح: مهدي الرجائي وآخرون، الخزانة العامة للمخطوطات الإسلامية، ط٢، د.م، ٢٠٠٠م.
- القفطي، علي بن يوسف ت. ٦٤٦هـ/١٢٨٤م:
 - ٤٩- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، علّق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٥م.
- القلقشندي، أحمد ت. ٨٢١هـ/١٤١٨م:
 - ٥٠- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٥م.
- ابن القنفذ، أحمد ت. ٨١٠هـ/١٤٠٧م:
 - ٥١- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: عبد المجيد التركي وآخرون، الدار التونسية للنشر، د.م، ١٩٦٨م.
- ٥٢- كتاب الوفيات، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، ط٤، بيروت، ١٩٨٣م.

- مجهول، ت. ق ١٢/هـ ١٢م:
- ٥٣- الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- مجهول، ت. ق ٨/هـ ١٤م:
- ٥٤- مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي رقرق، ط ١، الرباط، ٢٠٠٥م.
- المخزومي، أبي المطرف أحمد بن عميرة ت. ٦٥٨/هـ ١٢٦٠م:
- ٥٥- تاريخ ميورقة، تح: محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ٢٠٠٧م.
- مخلوف، محمد بن محمد ت. ١٣٦٠/هـ ١٩٤٠م:
- ٥٦- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣م
- المراكشي، عبد الواحد ت. ٦٤٧/هـ ١٢٥٠م:
- ٥٧- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تص: محمد سعيد العريان وآخرون، مطبعة الاستقامة، ط ١، القاهرة، ١٩٤٩م.
- المسعودي، علي بن الحسين ت. ٣٤٤/هـ ٩٥٦م:
- ٥٨- مروج الذهب، اعتناء حسن مرعي، المكتبة العصرية، ط ١، بيروت، ٢٠٠٥م.
- المقرئزي، أحمد بن علي ت. ٨٤٥/هـ ١٤٤٢م:
- ٥٩- اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٩٩٦م.
- المكناسي، محمد بن أحمد ت. ٦٨٥/هـ ١٢٨٦م:
- ٦٠- الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط، ١٩٥٢م.

- ابن موسى الأندلسي، علي ت. ٦٨٥هـ/١٢٨٦م:
- ٦١- الغصون الياصرة في محاسن المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٩م.
- الناصري، أحمد ت. ١٣١٥هـ/١٨٩٧م:
- ٦٢- الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، تحقيق: محمد الناصري وآخرون، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.
- ابن ناصر الدين الدمشقي، محمد ت. ٨٤٢هـ/١٤٣٨م:
- ٦٣- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تح: محمد نعيم العرقسوسي، دار الرسالة العالمية، ط١، دمشق، ٢٠١٠م.
- النديم ت. ٣٨٠هـ/٩٩٠م:
- ٦٤- فهرست، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- ابن نقطة، محمد ت. ٦٢٩هـ/١٢٣٢م:
- ٦٥- تكملة الإكمال، تح: عبد القيوم عبد رب النبي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ط١، د.م، ١٩٩١م.
- النويري، شهاب الدين أحمد ت. ٧٣٣هـ/١٣٣٣م:
- ٦٦- نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

■ المراجع:

- أحمد موسى، عز الدين:
- ١- النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، ط١، بيروت، ١٩٨٣م.
- ابن الأحمر، إسماعيل:
- ٢- روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، ١٩٦٨م.
- أرسلان، شكيب:
- ٣- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- ٤- الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- بروفنسال، ليفي:
- ٥ - مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، ١٩٤١م.
- البستاني، بطرس:
- ٦- قاموس محيط المحيط، مكتبة لبنان، ٢٠٠٨م.
- بشير، عبد الرحمن:
- ٧- اليهود في المغرب العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط١، د.م، ٢٠٠١م.
- ابن منصور، عبد الوهاب:
- ٨- قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨م.
- التازي، عبد الهادي:
- ٩- الوسيط في التاريخ الوسيط، دار نشر المعرفة، ط١، الرباط، ٢٠٠١م.

- التنسي، محمد بن عبد الله:
- ١٠- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تح: محمود آغا بوعباد، موفم للنشر، الجزائر، ٢٠١١م.
- دهمان، محمد أحمد:
- ١١- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، ط١، دمشق، ١٩٩٠م.
- رفعت بك، محمد:
- ١٢- التيارات السياسية في حوض البحر المتوسط، لجنة البيان العربي للطباعة والنشر، مصر، ١٩٤٩م.
- الزركلي، خير الدين:
- ١٣-الأعلام، دار العلم للملايين، ط٧، بيروت، ١٩٨٦م.
- زكار، سهيل:
- ١٤- الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تصنيف واعتناء: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، ١٩٩٨م.
- زيتون، عادل:
- ١٥- العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، دار دمشق للطباعة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٨٠م.
- سيد صبرة، عفاف:
- ١٦- العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- سيسالم، عصام سالم:
- ١٧- جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار)، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨٤م.

- شبانة، محمد كمال:
- ١٨ - الدويلات الإسلامية في المغرب، دار العالم العربي، ط١، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- الشريف، محمد:
- ١٩ - سبته الإسلامية، عصر الموحدين والمرينيين، منشورات جمعية تطاون، ط٢، الرباط، ٢٠٠٦م.
- الصُّلابي، محمد علي:
- ٢٠ - تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، دار المعرفة، ط٣، بيروت، ٢٠٠٩م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- ٢١ - الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٩، القاهرة، د.ت.
- العبادي، أحمد مختار:
- ٢٢ - في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة، بيروت، د.ت.
- عبد النبي، نجلاء:
- ٢٣ - القرصنة اللاتينية في شرق حوض البحر المتوسط في عصر السلاطين المماليك، د.م، د.ت.
- عمران، محمود سعيد:
- ٢٤ - تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، ط٤، السويس، ٢٠٠٠م.
- عنان، محمد بن عبد الله:
- ٢٥ - دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، ط٢، القاهرة، ١٩٩٠م.
- عويس، عبد الحليم:

٢٦- دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة، ١٩٩١م.

• الكتاني، علي بن المنتصر:

٢٧- المسلمون في أوروبا وأمريكية، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٩٩.

• مؤنس، حسين:

٢٨- الفتح الإسلامي للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، دم، د.ت.

٢٩- أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط١، القاهرة، ١٩٨٧م.

• المدني، أحمد توفيق:

٣٠- المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، نشر مكتبة الاستقامة، تونس، د.ت.

• محمد عبد الحليم، رجب:

٣١- العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا المسيحية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري، القاهرة، د.ت.

• المطوي، محمد العروسي:

٣٢- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط٢، تونس، ١٩٨٢م.

• المغراوي، محمد:

٣٣- الموحدون وأزمات المجتمع، جذور للنشر، ط١، دم، ٢٠٠٦م.

• نسيم يوسف، يوسف:

٣٤- العصور الأوروبية وحضارتها، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط٢، دم، ١٩٨٧م.

• نويهض، عادل:

٣٥- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.

المراجع المُعَرَّبة:

• أشباخ، يوسف:

١ - تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، تر: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط٢، القاهرة، ١٩٩٦م.

• برونشفيك، روبار:

٢ - تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية : حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٨٨م.

• برويبة، رشيد:

٣ - الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، ١٩٧٧م.

• بوزورث، كليفورد إدمونت:

٤- السلالات الإسلامية الحاكمة، تر: عمرو الملاح، دار الكتب الوطنية، ط١، الإمارات المتحدة، ٢٠١٣م.

• بيرين، هنري:

٥- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.

• تورنو، روجر لي:

٦- حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٢م.

• جوليان، شارل أندريه:

٧- تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد فرالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٨م.

• دوزي، رينهارت:

٨- تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨١م.

• ديورانت، ول وايريل:

٩- قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، بيروت، د.ت.

• الزعفراني، حاييم:

١٠- يهود الأندلس والمغرب، ترجمة: أحمد شحلان، مرسوم الرباط مطبعة النجاح الجديدة، د.م، ٢٠٠٠م.

• زمباور:

١١- معجم الأنساب، إخراج: زكي محمد حسن بك وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠م.

• س. د. جويتين:

١٢- دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، ط١، الكويت، ١٩٨٠م.

• سيمالي، بيريل:

١٣- المؤرخون في العصور الوسطى، تر: قاسم عبده، دار المعارف، ط٢، د.م، د.ت.

• الطيبي، أمين توفيق:

١٤- دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٧م.

• فاليريون، دومينيك:

١٥- بجاية ميناء مغربي، ترجمة: علاوة عمارة، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، د.ت.

• لأروس:

١٦- موسوعة أطلس بلاد العالم، تعريب: أنطوان الهاشم، عوידات للنشر والطباعة، بيروت، د.ت.

• لويس، أرشيبالد:

١٧- القوى البحرية والتجارية في المتوسط، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

• المغلوث، سامي عبد الله:

١٨- أطلس تاريخ العصر المملوكي، مكتبة العبيكان للنشر، ط١، الرياض، ٢٠١٣م.

• و.ف. هايد:

١٩- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تقديم: عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

• يواكم، برنز:

١٧- بابوات من الحي اليهودي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، قدم له: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٨٨م.

المراجع الأجنبية:

- 1-A.Bell: les Benuos Ghanya patis,1903 AH.
- 2-Brown, Horatio.F: Studies IN THE History OF Venice, London vol.1, 1907AH.
- 3-De Mas Latrie: triates de paix et de commerces cocernant les relations des chretiens aves les arabes de l, AFrique septentrional eau moyen age, Paris, vol2, 1981AH.
- 4- Gino, Luzzato: An Economic History Of ITALY, Translated PHILIP JONES, London.
- 5-j. de. vitry: The History of the Jerulsalem, in p.p t.s, London, 1896AH.
- 6-S. P.Scott: History Of the Moorish Empire in Europe, published marsh. Philadelphia and London, vol2,1904AH.
- 7-S.D.Goitein: Studeis IN Islamic History and linstitustions, Leiden, 2010AH.
- 8- S.D.Goitein: A Meditranean society, The Jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo Geniza, university of California press.
- 9-MICHEL, AMARI: I Diplomi ARABI Dell Archivio FIORENTIO, tseto Original, Toscani.
- 10-Martin Hall &Jonathan Phillips: Caffaro, Genoa and the Twelfth-century crusades, University of London, UK.

رسائل ماجستير ودكتوراه:

• رسالة ماجستير:

١- رشيد باقة: نشاط جنوة الصليبي والتجاري في سواحل بلاد المغرب من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي، غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد القادر الجزائري للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ٢٠٠٨م.

٢- واعظ نويوة، أثر ثورة بني غانية على الدولة الموحدية، إشراف: مبارك بوطارن، جامعة بوزريعة، الجزائر، ٢٠٠٨م.

• أطروحة دكتوراه:

١- مصطفى نشاط: جنوة وبلاد المغرب من سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م إلى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٨م، إسهاماً في دراسة العلاقات الإيطالية المغربية في أواخر العصر الوسيط.

• المصادر الإلكترونية:

١- <https://ar.wikipedia.org/wiki>

الفهرس

ملخص.....	٥
أولاً: المقدمة.....	١٣
١. التعريف بأهم مصادر ومراجع البحث.....	٢٠
أ- الوثائق:.....	٢٠
ب- الرسائل.....	٢٢
ج- المصادر التاريخية.....	٢٣
د- المراجع.....	٣٤
هـ- خطة البحث.....	٣٧
ثانياً-الفصل الأول: أشهر دول الحوض الغربي للبحر المتوسط عشية قيام دولة الموحدين القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.....	٣٩
١. تعريف مغرب البحر المتوسط مع الامتداد الجغرافي.....	٤٠
٢. توزع القوى السياسية في الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي في نهاية عصر المرابطين وعشية قيام دولة الموحدين:.....	٤١
أ- المغرب العربي الإسلامي:.....	٤٢
ب- بلاد الأندلس (شبه الجزيرة الإيبيرية):.....	٤٤
ج- دولة المرابطين ٤٤٧-٥٤١هـ/ ١٠٥٦-١١٤٧م.....	٤٧
د- مدن الجمهوريات الإيطالية.....	٥٠
هـ- لمحة جغرافية عن مدن الجمهوريات الإيطالية والجزر الكبيرة في الحوض الغربي:.....	٥٠
و- النشاط السياسي والتجاري:.....	٥٥
ز- القوة المسيحية النورماندية في إيطاليا وصقلية.....	٦٠
ح- لمحة جغرافية عن صقلية وبلاد قلورية وجنوب فرنسا:.....	٦١

ط- النورمانديين في إيطاليا: ٧٠

ي- بنو غانية حلفاء المرابطين وحكام الجزائر الشرقية وجزر
البلغار ٥٢٠-٥٩٩هـ/١١٢٦-١٢٠٣م: ٧٩

ك- بنو حمّاد حكام المغرب الأوسط ٣٩٨-٥٤٧هـ/١٠٠٧ -
١١٥٢م ٨٠

ل- الممالك المسيحية في شمال الأندلس في نهاية عصر المرابطين
وقيام دولة الموحدين: ٨٤

ثالثاً-الفصل الثاني: مرحلة تأسيس دولة الموحدين وجهود الخلفاء الأوائل

في تثبيت أركان الدولة..... ٩٦

١. المهدي محمد بن تومرت وجهوده في تأسيس دولة الموحدين. ٩٨

أ- لمحة عن حياته وشخصيته ٥١٥-٥٢٤هـ/١١٢١-١١٢٩م: ٩٨

ب- جهود ابن تومرت وأعماله في تأسيس دولة الموحدين: ٩٩

٢. عبد المؤمن بن علي وإقامة دولة الموحدين ١٠٥

أ- اسمه ونسبه: ١٠٥

ب- شخصية عبد المؤمن بن علي وتكوينه الثقافي: ١٠٧

١. أعمال الخليفة عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين: ١٠٩

أ- أحوال البلاد السائدة عشية وصول عبد المؤمن ابن علي إلى
السلطة ١٠٩

ب- ضم بلاد المغرب الأقصى ومدن الريف الأطلسي: ١١٢

ج- القضاء على دولة المرابطين بعد دخول مراكش والقضاء على
آخر ملوك المرابطين: ١١٥

د- حملات عبد المؤمن إلى شمال إفريقيا (المغرب الأدنى
والأوسط): ١١٧

هـ- ضم بلاد الأندلس: ١٢٠

و- التمردات والثورات المناوئة للموحدين: ١٢٤

ز- مرض عبد المؤمن ووفاته: ١٤١

النتائج..... ١٤٢

رابعاً-الفصل الثالث: خلفاء بني عبد المؤمن بن علي حتى معركة الأرك

وعصر الانهيار ٥٥٨-٦١٠هـ/١١٦٣-١٢١٣م ١٤٤

١. يوسف بن عبد المؤمن أبي يعقوب ٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٣-١١٨٤م:

..... ١٤٦

أ- أعمال الخليفة يوسف بن عبد المؤمن: ١٤٧

ب- القضاء على التمردات والثورات ضد الموحدين في المغرب:

..... ١٤٨

ج- القضاء على التمردات والثورات ضد الموحدين في بلاد الأندلس:

١٥١

د- جهود الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على جبهة الأندلس: ١٥٧

هـ- الحرب مع الممالك المسيحية بعد عودة الخليفة أبو يعقوب إلى

مراكش: ١٦٥

و- إنجازات يوسف بن عبد المؤمن الحضارية: ١٧٣

النتائج ١٧٨

٢. أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠-٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٩م. ١٨٠

أ- أعمال يعقوب المنصور على الصعيد العسكري: ١٨١

ب- معركة الأرك الأسباب والوقائع والنتائج: ٥٩١هـ/١١٩٥م: ١٩٢

ج- الأرك استنتاجات وانتصارات: ١٩٩

د- جهود الخليفة المنصور بعد الأرك حتى وفاته: ٢٠٠

هـ- وفاة الخليفة المنصور وبعض سجايه ٥٩٥هـ / ١١٩٩م: .. ٢٠٥

٣. الخليفة محمد بن يعقوب المنصور الملقب بالناصر لدين الله ٥٩٥-

٦١٠هـ/١١٩٩-١٢١٣م: ٢٠٩

أ- المتغيرات الجديدة التي ظهرت خلال بداية حكم الناصر: .. ٢٠٩

ب- أعمال الخليفة الناصر: ٢١٣

ج- وفاة الخليفة الناصر: ٢٣١

خامساً-الفصل الرابع: مدن الجمهوريات الإيطالية البحرية في الحوض الغربي

للبحر المتوسط خلال العصر الموحدى ٢٣٨

تعريف:..... ٢٣٩

١. الصعود السياسي والتجاري لمدن الجمهوريات الإيطالية في القرنين السادس والسابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي:..... ٢٤١

٢. عوامل ازدهار التجارة في مدن الجمهوريات الإيطالية ٢٤٤

٣.....نشاط مدن الجمهوريات الإيطالية التجاري والحربي في البحر المتوسط في القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي (الحوض الشرقي):..... ٢٤٨

٤. الدور السياسي للجمهوريات الإيطالية في حوض شرقي المتوسط (القسطنطينية وبلاد الشام ومصر):..... ٢٥٣

٥.....نشاط مدن الجمهوريات الإيطالية في مغرب البحر المتوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي: ٢٦١

٦. العلاقات الموحدية مع مدن الجمهوريات الإيطالية -البندقية، جنوة، بيزة: ٢٦٨

أ- علاقة الدولة الموحدية مع جنوة:..... ٢٦٩

ب- علاقة الموحدين مع جمهورية بيزة: ٢٧٦

ج- علاقات البندقية مع الدولة الموحدية: ٢٨٣

د- علاقة جنوب فرنسا وقطلونىة بالدولة الموحدية: ٢٨٤

سادساً-الفصل الخامس: أهل الذمة (اليهود) في ظل الحكم الموحدى .. ٣٠٩

١. المجتمعات اليهودية في المغرب الإسلامي:..... ٣١٠

٢. المصادر التاريخية ووثائق الجنيزا:..... ٣١٢

٣. وثائق الجنيزا:..... ٣١٣

أ-	تعريف وثائق الجنيزا وأهميتها:	٣١٣
ب-	جهود الباحثين على دراسة وثائق جنيزة القاهرة:	٣١٦
٤.	نشاط الجماعات اليهودية في ظل الحكم الإسلامي:	٣٢٠
٥.	اليهود في ظل الحكم الموحد:	٣٢١
سابعاً -	الخاتمة:	٣٣٥
ثامناً -	الملاحق:	٣٣٩
١.	رسالة حول هزيمة الموحدين لابن مردنيش:	٣٣٩
٢.	رسالتان من السلطان صلاح الدين للخليفة المنصور:	٣٤٠
٣.	رسم توضيحي يبين شجرة أسماء الخلفاء الموحدين:	٣٤٣
٤.	خريطة توضح نشاط العرب المسلمين في الحوض الغربي للمتوسط:	٣٤٤
٥.	جدول لتعريف الرموز والاختصارات والدلالات الزمنية والقياسية:	٣٤٥
تاسعاً -	قائمة المصادر والمراجع:	٣٤٦